

تأملات

فى المشهد الاجتماعى

الشَّيخ الدُّكْتُور

جَاسِمِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ المُهَلْهَلِ الْيَاسِينِ



تأملات في
المشهد الاجتماعي

(نقوش تربوية - إيمانية ودعوية)

الطبعة
الأولى
١٤٣٣ هـ
٢٠١٢م

الموضوع: سلسلة من وحي التجربة.
اسم الكتاب: تأملات في المشهد الاجتماعي.
المؤلـــف: الشيخ د. جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
عدد الصفحـات: ٤٣٨ عدد الملازم: ٢٧,٥ ملزمة
قياس الصفحـة: ١٧×٢٤
رقم الإيداع: ٢٣١٢٨ / ٢٠١٠

شركة السماحة
للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت

تأمـــــلات في المشهد الاجتماعي

(نقوش تربوية . إيمانية . دعوية)

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

الطبعة الأولى

١٤٣٣ هـ ـ ٢٠١٢ م

تطلب منشوراتنا

فى الكويت من : شركة السماحة ــ الكويت.

الرمز البريدي: ٤٣٧٥٦ ص. ب: ٦٦٥٢٠ بيان.

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١

فى مصر من : مؤسسة شروق للنشر والتوزيع

المنصورة ـ شارع جيهان ـ أمام مستشفى الطوارئ ـ ت : ٠٥٠/٢٢٥٢٨٦٠

سلسلة من وحى التجربة

رقم السلسلة (٢٠) الرقم الفني (١)

الإهـــداءُ نـــثراً

إلى وَالِدَتِي مُنِيرَةَ الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أَنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبِّي، وسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ.

إلى وَالِدَتِي الَّتِي أرْضَعَتْنِي مَعَانِي الْخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إِلَى الآخَرِينَ وإِنْ أَسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِي الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي الْمُجَلَّدَاتِ وكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَى الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدِهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَى الآخَرِينَ.

إلى وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَى فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنَّ مَعَ كَثْرَةِ أمْرَاضِهَا.

إلى وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِهَا - رَحِمَهَا اللهُ - بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أَحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أُمِّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وإِنِّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمِّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إِحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ - فِيمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ - خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي - رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَى. وَأَسْأَلُ اللهَ - سُبْحَانَهُ - أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّى بِالإِيذَاءِ، فَكَانَتْ لَا تُؤْذِي أَحَداً وَلَا شَيْئاً حَتَّى الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحِّي بِصِحَّتِهَا وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إلى وَالِدَتِي الَّتِي أَعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلَا يَسَعُنِي ذِكْرُهُ فِي هَذَا الإِهْدَاءِ،

وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إنْ شَاءَ اللهُ.

إلى وَالِدَتِي أُهْدِي ثَوَابَ هَـٰذِهِ الرَّسَائِل ، لَعَلِّي أُؤَدِّي زَفْرَةً مِنْ زَفرَاتِهَا فِي وِلَادَتِي.

وَأهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ وَالِدِي ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَأهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ رَفِيقَةَ الدَّرْبِ أُمِّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْناً فِي صَبْرِهَا عَلَىٰ سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأَهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ أوْلادِي جَمِيعاً، ذُكُوراً وَإِنَاثاً.

وَأهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ كُلِّ مَنْ أسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَي النَّاسِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إِذْ أَكْتُبُ هَـٰذَا الإِهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَـٰذَا الْكِتَابُ أَلَّا يَنْسُونَا جَمِيعاً مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

الشَّيْخُ الدُّكتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهِل الْيَاسِين



الإهــداءُ شـعــرًا

أُمَّـــاهُ كُنْت مُـنِيـرَةً وَمَنَـارَةً ... عُلْيَـا وَصَـرْحًـا ثَابِتَ الأَرْكَـانِ
قَـدْ كُنْت مَـدْرَسَةً تُعِدُّ نُفُـوسَنَا ... لِصَنَائِعِ الـمَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ
قَـــدْ كُنْت لِلأَيْتَـامِ أُمًّـا بَــرَّةً ... وَالجَارِ وَالْـمِسْكِينِ أَرْأَفَ حَـانِ
أَرْضَعْتِنَا الأَخْلاقَ شَهْدًا سَلْسَلاً ... تَدْنُو ثِمَارُ قُطُـوفِـهَا لِلْجَـانِي
عَلَّمْتِنَا الصَّبْرَ الجَمِيلَ خَلِيقَةً ... وَالقَـوْلَ لِلحُـسْنَىٰ وَكَفَّ لِسَانِ

أَبَتَـاهُ قَـدْ رَبَّيْـتَنِي وَأَحَطْتَنِي ... بِرِعَايَةٍ فِي غِـبْطَـةٍ وَأَمَانِ
وَفَّـرْتَ أَسْبَابَ السَّعَادَةِ وَالهَنَا ... فَـجَعَلْتَنِي أَسْمُـو عَلَىٰ الأَقْرَانِ
فَـجَزَاكَ رَبُّ العَرْشِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... وَأُسْكِنْتَ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَانِ

نَوَّرْتَ يَا بَدْرَ الدُّجَا سُبُلَ العُـلا ... بِالفَـضْـلِ لا فَـظٍّ وَلا مَنَّـانِ
كَمْ ذَا تُقَـابِلُ بِالسُّـرورِ تَدَلُّلِي ... بِمَـحَـبَّـةٍ وَبِرَأْفَـةٍ وَحَنَـانِ
أَحْـبَبْـتَنِـي قَـرَّبْتَنِي رَبَّيْـتَنِي ... بِالعِـزِّ فِي ثِقَـةٍ وَفِي اطْمِـئْنَانِ

أَرَفِـيـقَـتِـي كُنْت الشُّعَاعَ إِذَا دَجَا ... لَيْلُ الحَـيَـاةِ بِـمُظْـلِمِ الحِدْثَانِ
قَـدْ كُنْت خَيْرَ شَرِيكَـةٍ وَمُعِـينَةٍ ... فِي البِـرِّ عِنْدَ تَقَـاعُسِ الأَعْـوَانِ
الصَّبْرُ فِـيكِ مَعَ الوَفَـاءِ سَجِيَّـةٌ ... بِتَـعَـاقُبِ الأَفْـرَاحِ وَالأَحْزَانِ

يَا حَـبَّـذَا **أَفْـلاذُ أَكْـبَادٍ** بِهَا ... كَـمُلَ الـمُـرَادُ وَقَرَّتِ العَـيْنَانِ
فَاحْفَظْ **مُعَـاذًا** وَاحْفَظَنَّ **مُهَلْهِلاً** ... أَمَدَ الزَّمَانِ **وَعَـابِدَ الرَّحْمَنِ**
لاَ زَالَ **عَـبْدُ اللهِ** فِي حِـفْظٍ وَلاَ ... زَالُـوا جَـمِيعًـا غُـرَّةَ الفِتْيَانِ

وَلْـتَـحْظَ عَـائِشَـةٌ وَفَـاطِمَـةٌ بِمَا قَــدْ شَـاءَتَا مِنْ بُغْـيَـةٍ وَأَمَـانِ
وَاحْـفَظْ هَيَـا وَمُنِيـرَةً يَا رَبَّنَا مِنْ مُـبْطِـنِ البَـغْـضَـاءِ وَالشَّنَـآنِ

يَا رَبِّ لاَ زَالَ الجَـمِـيعُ بِنِعْـمَـةٍ وَقِـهِمْ شُـرُورَ الحَـاسِـدِ المِعْـيَـانِ
صَلَّىٰ الإِلٰهُ عَلَىٰ النَبِيِّ مُـحَـمَّـدٍ وَالآلِ وَالأَصْـحَـابِ كُلَّ أَوَانِ

الشَّيْخُ الدُّكتُور
جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهِل الْيَاسِين



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه وتابعيه إلى يوم الدين .

وبعـــــد :

فقد أخبرنا رسول الله ﷺ بأن: «**الكلمة الطيبة صدقة**»[(١)] والكلمة الطيبة هنا هي كلمة الحق : نصح في الله، وأمر بالمعروف، أو نهي عن المنكر، أو إرشاد إلى أقوم السبل، أو مشورة صادقة، أو رأي سديد، أو غير ذلك من مسالك غير معوجة تجري فيها كلمة الحق بالخير والبر .

هذه الكلمة الطيبة لا تتملق عواطف الناس، ولا تجاريهم في أهوائهم، ولا تسير خلف رغباتهم، بل إنها قد تصطدم بمشاعر الناس، وقد تخالف أفكارهم أحيانا، وقد يعارضونها أو يقبلونها، وليس هذا هو المهم، وإنما الأولى بالرعاية والاعتبار أن تكون الكلمة صادقة، نابعة عن إحساس قوي، خالية من الانفعال والتكلف، لا تحمل أذى لأحد، ولا سخطا على أحد، ولا تثير بين الناس زوابع من سوء الفهم والبعد عن القصد.

وقد حاولت جهدي أن تكون كلمتي كذلك، صادقة في بواعثها، صادقة في غايتها وتوجهاتها، حتى لو آلمت بعض الناس ـ أحياناً ـ وماذا يملك من يتحدث مع الناس أو يكتب إليهم في المشاكل اليومية، والهموم المستجدة في النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؟ إنه في تشخيصه وعلاجه والتزامه الصدق لا يملك أن يرضي كل الناس؛ إذ ليس كل الناس ترضيه كلمة حق ترشده إلى هدى أو تصده عن ردى. وقديما قالوا : لو أنصف الناس استراح القاضي، ولا يملك غيور على وطنه وأبناء بلده أن يقف صامتا أمام مشكلات قليلها يأتي رغما عنا، وكثيرها من صنع أيدينا . ولو أحسنا وأخلصنا واجتهدنا ونصحنا لتخلصنا من كثير من المشاكل والعوائق بدون

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) عن أبي هريرة #.

تكاليف تذكر في الأنفس أو في الأموال .

ولذا حـرصت أن أبادر إلى إظهـار الـرأي وتسـجـيله في الصـحف اليـومـيـة والأسبوعية ونشره بين الناس ليكون هـذا الرأي ـ مع غيره من آراء المخلصين ـ شمعة تبـدد ظلام المشكلات، وقد تسـاعد الآخـرين على تجنب العثـرات ومنذ الصغـر كنا نحفظ: «إن أوقدت شمعة فهي خير لك من أن تلعن الظلام» .

والمشكلات يعرفها كل أحد، لأنه يعيـشها وقد يكتوي بنارها، ولكن الحلول هي التي يمكن أن تغيب عن الأذهان، وقد حاولنا أن نقـدم بعض الحلول، لعل فيها راحة للمتعبين، وتبصيراً للسالكين .

إخوتي الكرام:

إن ما تعيشه الأمة الإسلامية اليـوم من تحديات وآلام وتفرقة وانقسام يقتضي من حملة الفكر والقلم أن يـبينوا للناس معالم الهـدى ويوضحوا لهم سـبل الارتقاء من خلال تحـديد نقاط الضعف ومـواطن الخلل وعوامل الهدم والبناء والنصـر ومؤهلات العز لا سيما في هذا العصر الذي بدأ يشهد امـتداداً للصحوة الإسلامية إيذاناً باقتراب النصر وتحقيق الوعد مـصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[1] وهذا التطوير والامتداد للصحوة الإسـلامية يقتضي من أهل الرأي والفكر مواكبة الأحداث ومسـايرة التطورات ووضع الخطط والاستراتيجيات من أجل تصحيح مسار الصحوة وترشيد خطاها حتى تصل سفينة الأمة إلى شاطئ النصر والأمان.

ومسـاهمة في هذا المجال يـأتي هذا الكتاب: «**تأملات في المشـهد الاجتـماعي**» ليعالـج أسس التربية ومقـوماتها ومنهج الدعوة وسـبل النهوض بها وعناصر التـنمية الاجتمـاعية ومكوناتها وتعزيز الروابط بين أفـرادها ولعل هذه القضايا الكبرى تعـتبر ركائز أساسية في مشروع نهضة الأمة واستعادة دور مجدها.

وهذا ما حاولنا أن نقتـرب منه في هذه المعالجة المستمدة من وحي التـجربة وفقه

---

(١) الأنبياء: ١٠٥ .

الواقع واستشراف المستقـبل، انطلاقا من سنن التدافع البشري ومداولة الأيام بين الأمم سائلين الله ـ عز وجل ـ أن يوفق الجميع لما فيه خير للإسلام والمسلمين.

وهنا أقول: إنه ولا غضاضة في أن أذكـر القارئ الكريم بأن هذه الورقات كانت مقالات متفرقة نشرت في الصحف في أزمان مختلفة.

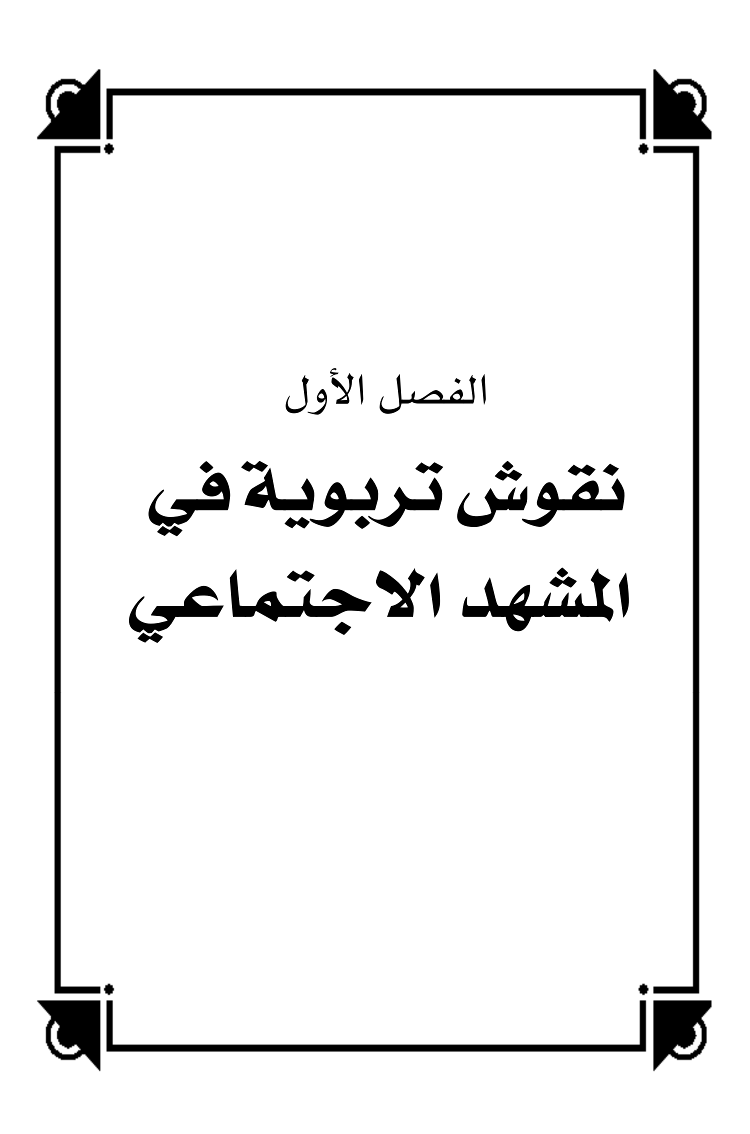
وأخيرًا: فإن كنت وفقت فذلك فضل الله، وإن كـانت الأخرى فالحمد لله على كل حال .

وسلام على الصادقين .

الشَّيْخُ الدُّكتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهِل الْيَاسِين





الفصل الأول

نقوش تربوية في المشهد الاجتماعي

مدخــل

أولا: حقيقة الدنيا:

لقد بين القرآن الكريم حقيقة الدنيا وحذر من الاغترار بها والسير وراء شهواتها، ولقد أدرك الصالحون هذه الحقيقة فعبروا الدنيا وأبصارهم إلى ما في القرار الأخير من النعيم المقيم والخلود الأبدي والعطاء الرباني الذي لا تحده حدود، وللأسف فإن الكثيرين من الناس يجعلون الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم، يأسون إن فاتهم شيء من خيرها، ويفرحون إن تيسر لهم شأنها، وسلس عليهم قيادها فيظنون أنهم أوتوا كل شيء وحصلوا على كل مطلب.

والقليلون من الناس يسعون في الدنيا، وعيونهم على الآخرة، وقلوبهم معلقة بنعيم الجنة، فلا تأخذ الدنيا منهم أكثر مما تستحق، ولا تنال في نفوسهم رتبة غير رتبتها، ولا منزلة غير منزلتها، ويصدق على الجميع قول الله: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا**﴾(١).

وليس الأخذ من متاع الدنيا بمحرم ولا هو بمكروه، وإنما هو مباح مستحب مندوب إليه، وقد يصبح واجبا على بعض الأفراد في بعض الأحيان لتستمر الحياة، وينتشر العمران، وتتم الخلافة في الأرض، وإنما المكروه الذي يتعاظم حتى يصل إلى درجة الحرمة أحيانا هو التكالب على الدنيا، واعتبار الكسب المادي فيها مقياسا وحيدا للنجاح والرقي، وهذا ما يفعله الكثيرون فلا يذكرون فلانا إلا مقرونا اسمه بأنه يملك كذا وكذا وعنده كذا وكذا. . ولا يذكرون فلانا إلا مقرونا اسمه بأنه لا يملك قوت يومه ولا قيمة له عند غيره.

وقد حرص الرسول ﷺ على تصحيح هذا المفهوم حيث مر به رجل فقال لأصحابه: «**ما تقولون في هذا؟**» قالوا: حَرِيٌّ إن خطب أن يُنكح وإن شَفَعَ أن يُشَفَّع،

---

(١) الإسراء: ١٨، ١٩.

وإن قال أن يستمع، قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: «**ما تقولون في هذا؟**» قالوا: حَرِيّ إن خَطَب ألا يُنْكح، وإن شَفَع ألا يُشَفَّع، وإن قال ألا يُسْتمع فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**»(١).

وما دامت ماديات الحياة ومتاعها لا تعطي قيمة لصاحبها إلا إذا جعلها في خدمة الناس فلم الأثرة؟ ولم الحرص البالغ على متاع الحياة القليل مع أن العاقلين يجعلون هذا المتاع طوع أيديهم غير مخبوء في قلوبهم، لا يفرحون لقدومه ولا يأسون لذهابه، فإن جاء أنفقوه في مرضاة الله، وإن غاب لم يجزعوا لما أصابهم، هكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ زهدوا في متاع الحياة فأتتهم الدنيا وهي راغمة، أعرضوا عن زينتها فتبعتهم، ولم تتغير قلوبهم وراء زخرفها وزينتها فلانت لهم وانقادت لأغراضهم، ولم يغب عنهم مفهومها حتى في عصور التمزق والتخلف، هذا بهاء الدين علي بن السكري وكان من خاصة نور الدين محمود يقول: «كنت معه «نور الدين» يوما في الميدان بالرها، والشمس في ظهورنا، فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا، فأجرى نور الدين فرسه وهو يلتفت وراءه، وقال لي: أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا تهرب ممن يطلبها وتطلب من يهرب منها»(٢).

وهذا ما جعل الأمير بهاء الدين ينشد:

مِثْلُ الرزقِ الَّذِي تَطْلُبُهُ ... مِثْلُ الظلِ الذي يَمْشِي مَعَكْ
أنتَ لا تُدْرِكُهُ مُتبِعًا ... فَإِذَا وَلَّيْتَ عَنْهُ تَبِعَكْ(٣)

والمقصود: ألا نجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، فإن جاءت بعد ديننا خاضعة لتعاليمه، غير فاقدة لشروطه فبها ونعمت، وإلا فنحن لا نقبلها، بل نرفضها.

والعاملون في الصحوة الإسلامية والدعاة إلى الله هم أولى الناس بإحياء هذا المفهوم والتمسك به، وإظهاره سلوكا أمام الناس حتى تخف معاناتهم، وتذوب

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩١) وابن ماجه (٤١٢٠) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.
(٢) مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق د. محمد بن حسن بن عقيل موسى.
(٣) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (١/ ٣٦، ٣٧) تحقيق إبراهيم الزيبق، ط الرسالة.

آلامهم، حين يرون بعض الناس يـؤثر ما عند الله على ما عند الناس، ويقـدمون في أعمالهم آخـرتهم على دنياهم، إنهم إن فعلوا ذلك دانت لهم الحـياة ولانت، وخفت حدة زحامهم حولها بعد أن تكون قد استكانت.

ثانياً: التنافس الإيجابي:

لقد تواترت الآيات القـرآنية والأحاديث النبوية في التـأكيد على أهميـة المسارعة إلى الخيرات والمسابقـة إلى الأعمال الصالحات من خلال التنافس الإيـجابي والتسابق الودي الذي تسوده المحبـة والوئام والود والإخاء بعيداً عن التحاسـد والتباغض ولكن كيف نحقق ذلك؟

إن التنافس في الخـير محـمود، والحسـد بين الناس مذموم مـرذول؛ لأنه دخان أسود يلف الكون حول الحاسدين، فلا يرون للمحـسود خيرا، ولا يعرفون له فضلا، وكل همهم أن تزول نعمته، وتحجب عن الذكر فضيلته، ولكن هيهات.. فالحاسدون ينشرون بألسنتهم فضل المحسود، وإن لم يشعروا بذلك ولم يقصدوا إليه، وصدق أبو تمام في قوله:

لَوْلاَ اشْتِعالُ النارِ فِيمَا جَـــاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عرْفِ الْعُـــودِ

وَإِذا أَرَادَ اللَّـهُ نَشْــرَ فَـضِيــــلةٍ ... طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَـــانَ حَسُـــودِ

فنار الحـاسدين تجعل فـضل المحسـود وسط هالة من الضوء تبـرزه، وتعلي من قدره، فلا يزداد الحـاسدون إلا ألما وشنآنا وبغضـا، ولربما كان المحسود غيـر عالم بما يدبر له من كيد وما يحيط به من مكر، فينام قرير العين، رضي الفؤاد، على حين أن حاسديه لا يهنئون بمنام ولا يطيب لهم معه وئام أو سلام.

وروح التنافس مطلوب بثـها بين العاملين في كل مـجال، لينمو العـمل ويخرج للناس متقنا كاملا فيه نبض الإحـسان ودفق الوجدان، وإبداع العقل والفكر، ومجال الدعوة عـمل من الأعمـال لا ينبغي أن تغـيب عنه في أي لحظة مـبتكرات العـصر، وتجديدات العقل، ودفق العاطفة المتجـددة، فالعاطفة روح هذا العمل الدعوي، وناره التي لا تخبو،ومن بردت عاطفته الدعوية أو همدت وخمدت فلا أمل يرجى من وراء دعوته، ولا نتيجـة تجنى من وراء حركته، ومبتكرات العصر المبـاحة وتجديدات العقل

المتاحة قوة دافعة للدعوة تحقق لها الاستمرار والانتشار في كثير من البقاع.

والدعاة أمام هذه الوسائل متفاوتون في مدى أخذهم بها كلها أو بعضها، ومدى انتفاعهم بآثارها وتفاعلاتها وفي هذا ـ إلى جانب ما آتاهم الله من فضل العلم ـ يتنافسون، ولا يتحاسدون لأن قول الله: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا**﴾[١] أمامهم، فكيف يقعون فيما نهى الله عنه وحذر من شره، وأمر الناس أن يستعيذوا به سبحانه من شر كل حاسد؟ ومع هذا الوضوح في هذا التنفير والتحذير فإن بعض ذوي الرئاسة من أهل المناصب، وبعض ذوي الهيئات من العلماء يقع في هذه الموبقة من حيث لا يدري بدافع من الدوافع:

حَسَدُوا الفتى إِذْ لَمْ يَنالُوا سَعْيَهُ فَالقَوْمُ أَعْداءٌ لَهُ وَخُصُومُ

(وهذا مما تقتضيه الطباع البشرية والجبلة الآدمية، فقد أجرى الله ـ سبحانه ـ العادة بذلك إلا من عصم الله، ومن أنصف عذر، ومن عرف صبر)[٢].

ولو عقل الذين يحسدون لعلموا أن من سنن الله في خلقه أن يتفاوت الناس في أقدارهم وقدراتهم وأرزاقهم، ومواهبهم، وأن الله يرزق من يشاء بغير حساب، وأن التوفيق لهذا أو لذلك هو ـ بعد الأخذ بالأسباب والتسديد والمقاربة ـ من قسم الأرزاق التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وهو إذن لا يستدعي حسدا ولا كيدا، وإن حقق في بعض النفوس غبطة فلا ضرر من ذلك لأننا بهذه الغبطة نعود للتنافس المحمود في الخير، المأجور عليه صاحبه ـ إن شاء الله ـ طالما أخلص قلبه لله، واتبع هدي رسول الله ﷺ.

التنافس في بيان أوامر الشرع وتثبيتها في العقول والقلوب والتصدي لكل زيغ أو انحراف بالحجة والبيان، والوصول بالدعوة إلى قلوب قد تجهلها أو تجهل بعضها، أو تخلط بها غيرها، أو تتخلى عن حظ منها.. التنافس في إيصال الخير للآخرين، ومعاونة المحتاجين، ونصرة المظلومين ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، التنافس في إحقاق الحق، والأخذ بالعدل، وتجنب المآثم والمغارم وهذا هو المطلوب، التنافس المطلوب الذي يبعدنا عن التحاسد المذموم، فما جاء التنافس في الخير إلا بمزيد من الخير، وما

(١) النساء: ٥٤.

(٢) مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ص ١٣٨.

جاء التحاسد في أي أمر إلا بمزيد من الأضغان والأحقاد . . فأين الأضغان من الإحسان؟! وأين التحاسد من التنافس الذى يقول فيه المولى ـ سبحانه وتعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾(١) ويدعونا إلى الزيادة فيه بقوله: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾(٢).

ثالثا: الدعوة وأصناف الناس فيها:

إن الدعوة إلى الله عز وجل من أشرف المراتب وأسمى المطالب، ومن أجلها أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وقامت السموات والأرض وبعثت مواكب الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وعلى هذا الدرب سارا الصالحون وتنافس المتنافسون، وهذا الطريق يقتضي العلم والمعرفة ولقد كانت أول آيات نزلت على رسول الله ﷺ تدعو إلى العلم والتعلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٣)، فرجع بها رسول الله ﷺ إلى بيته، يرجف فؤاده، ودخل على خديجة قائلا:

«**زملوني .. زملوني**» ثم قال ﷺ لخديجة رضي الله عنها بعد أن ذهب عنه الروع: «**لقد خشيت على نفسي**».

قالت: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لَتَصِلُ الرحمَ وتَحْمِلُ الكَلّ وَتُكْسِبُ المعدومَ، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق»(٤) إنها الشمائل المحمدية، التي تجعل الزوجة الوفية تنطق بهذه الأمارات التي لا يخزي الله صاحبها، ولا يخذل من اتصف بها، بل يوفقه ويرعاه ويعينه ويحيطه بحفظه؛ لأنه أعان الناس: «**والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه**»(٥) إن محمداً ﷺ كان معينا للناس، يعطي المحروم، ويكسب المعدوم، ويمنع الظلم، وينقذ المظلوم، ويصل الأرحام، فكيف

---

(١) البقرة: ١٤٨. (٢) المطففين: ٢٦. (٣) العلق: ١ ـ ٥.

(٤) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) عن عائشة رضي الله عنها. قولها: «تحمل الكل»، تقوم بشأن من لا يستقل بأمره، وقولها: «تكسب المعدوم»، الفقير العاجز، والكسب هو الاستفادة فكأنها قالت: إذا رغب غيرك أن يستفيد مالاً موجوداً رغبت أنت أن تستفيد رجلاً عاجزاً فتعاونه.

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٣٦٤٣)، والترمذي (٢٦٤٦)، وابن ماجه (٢٢٥)، وأحمد (٢/٢٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يخزيه الله؟ وكيف لا يجزيه أحسن الجزاء على هذا العمل، وذاك الفضل؟

تلْكَ ٱلْفَضَائلُ لاَ قَعْبَــان منْ لَبَــنٍ   شِيبا بمِــاء فَعَــادَا بَــعْــدُ أَبْـوَالا

وتنطلق خديجة به إلى ورقة بن نوفل، والذي يبشر بالخير ويحث على الصبر بعد أن يعلم الخبر ويقول للرسول ﷺ: هذا ـ والله ـ الناموس الذي نزل على موسى، يا ليتني أكون جذعاً ـ شاباً قوياً ـ إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجي هم؟**» قال: «**نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً**»(١).

إنها سنن الدعوات لا تحيد، وبلاء الدعاة الذي يتجدد مع كل دعوة . . ودعوة الحق يناصرها الأقلون ويعاديها الأكثرون، الأخسرون أعمالا ﴿**الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾(٢) العداوة للدعاة والدعوات قائمة «لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي» وتزيد العداوة أو تضعف بحسب صلابة الدعاة وقوتهم في الحق وتمسكهم بالمنهج، وقد تصل إلى التجويع والتخويف، ومصادرة الأموال والتضييق على الأهل والأولاد، ثم التصفية الجسدية في نهاية المطاف إن لزم الأمر، وحار أهل الباطل: ماذا يفعلون حتى يوقفوا الدعوة عن سيرها، ويضعوا العوائق في طريقها؟

والناس أمام الدعوة صنفان: صنف يعلن استعداده للتمسك بالحق قبل ظهوره وبروزه، فإن ظهر هذا الحق حاد عنه، واجتنب طريقه، ومن هؤلاء أمية بن أبي الصلت الذي عد من الحنفاء في الجاهلية، فلما جاء الإسلام كفر به، وابتعد عن هداه، فكان ممن أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، وصنف آخر ما يكاد يسمع بهذا الحق حتى ينضم إلى كتيبته، ويعمل على إظهاره ونشره بكل سبيل، ومن هؤلاء أبو بكر الصديق الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «**ما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له نظرة غير أبي بكر، فإنه لم يتلعثم**»(٣) ، فكان أبو بكر بذلك السبق وعدم التردد في الإيمان مفضلا على غيره من المسلمين الأولين، الذين ظلوا يعملون بجد وإخلاص لنشر هذا الدين حتى أتاهم

(١) سبق تخريجه، وهو تكملة حديث عائشة رضي الله عنها السابق.   (٢) الكهف: ١٠٤.

(٣) الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ص ١٨٩، والديلمي في مسند الفردوس بمأثور الخطاب (٦٢٨٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنها.

اليـقين، فهل يعي الدعـاة ـ اليوم ـ هذه الدروس؟ وهل يدركـون أنهم يسيـرون على خطى السـابقين يصيـبهم مـا أصابهم: لينالوا بعض مـا أثبتـه الله لأولئك في كتـابه **﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾**(١) فهل دعاة الـيوم يتبعون ـ بإحـسان ـ خطوات السابقين؟ وهل يعرفـون سنة الله في العاملين الذين يعلمون أن الناس قد جـمعوا لهم العداوة من أطرافـها، والأذية من شعـابها فلا يأسـون على ما أصـابهم بل يقولون: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»(٢).

وهل يغـيب عنا ونحن نتأمل في مـهد الدعـوة موقف المرأة منهـا؟ ألم تكن أم المؤمنين خديجة أول من آمنت بالدعوة على الإطلاق؟ ثم ألم تسـخر أموالها وتجارتها وكل ما تملك لخدمـة الدعوة والداعية مـحمد ﷺ؟ ألم تكن سميـة أول شهيدة في الإسلام بعد أن طعنها عـدو الله أبو جهل بحربة أماتتها، فلقـيت ربها طاهرة مطهرة؟ إن لكـل من أسلم في مكة ـ حـرا كان أم عبـدا، ذكرا كان أم أنثى ـ دورا في رفـعة شأن الإسلام والمسلمين.

فهل مسلمو اليوم جـميعهم يستشعرون مسـؤوليتهم ـ بحسب قدرتهم ـ عن هذا الدين؟

رابعاً: الأخلاق مفتاح الدعوة والتبليغ:

لا شك أن الأخلاق هي عمـاد الأمم وأساس رقيها وتقدمهـا،ولقد بين الإسلام عظمة الأخلاق ومـكانتها، وكان من أهداف بعـثة الرسول ﷺ إتمام مكارم الأخلاق فهو ﷺ الأسوة الحسنة والقـدوة المثلى في هذا المجال ولعل هذا ما عبـرت به عائشة رضي الله عنهـا يوم سُـئلت عن أخـلاق رسـول الله ﷺ فـقـالت: «**كـان خلقـه القرآن**»(٣).

---

(١) التوبة: ١٠٠.

(٢) كما في حديث ابن عـباس: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليـه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخـشوهم فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل». أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٩١)، وله شاهد عند مسلم (٧٤٦)، وصححه الألباني فى صحيح الجامع (٤٨١١).

ولا تخفى قيمة الأخلاق الفاضلة على أحد من الأسوياء الذين ينشدون بين الناس الفضيلة، ويكرهون الرذيلة، والذين سمت نفوسهم، وطمحت إلى المعالي قلوبهم، فتعلقت أيديهم بأسبابها، واستطاعت أن تقتعد ذروتها قلة من البشر، في مقدمتهم الأنبياء والمرسلون، الذين حملوا منهج الحق إلى الخلق، لينذروا من كان حيا ويحق القول على الكافرين، هؤلاء هم أشد الناس بلاء، فلا عجب أن يكونوا أعلاهم خُلقا، وأكثرهم فضلا، وأوفرهم نبلا، وأعظمهم وفاء، وأجملهم صبرا، لأنهم كُلِّفوا أعظم الرسالات، وحُمِّلوا أقوى الأمانات، وهل يقوم بهذا إلا الكُمّل من بني الإنسان، الذين هم في الذروة بين الأنام؟ ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾[١] ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [٢].

وقد كان رسول الله ﷺ له في مقام الأخلاق مكان فسيح، وكفى أن الله ـ سبحانه ـ وتعالى أثنى عليه في كتابه بقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[٣]، (ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود، وهي شهادة من الله في ميزان الله لعبد الله، يقول له فيها: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾، ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله، مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين. . . ، إن حقيقة هذه النفس من حقيقة هذه الرسالة ـ وإن عظمة هذه النفس من عظمة هذه الرسالة، وإن الحقيقة المحمدية كالحقيقة الإسلامية لأبعد من مدى أي مجهر يملكه راصد لعظمة هذه الحقيقة المزدوجة أن يراها ولا يحدد مداها)[٤].

وكان ممن رأى هذه الحقيقة دون أن يحدد مداها زيد بن حارثة، الذي أفرده الله بأشرف الشرف، كما يقول محمد الصادق عرجون[٥]، فذكره في القرآن باسمه، ممتنا عليه بإنعامه عليه بنعمة التوفيق إلى الإيمان في طليعة أسبق السابقين، وممتنا عليه بإنعام رسوله ﷺ بالحرية والولاية ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ**﴾[٦]، ولقد رأى زيد شيئا من رسول الله ﷺ قبل أن يُبعث فأبى أن يفارقه ولو كان الفراق

---

(١) الحج: ٧٥، ٧٦.
(٢) الأنعام: ١٢٤.
(٣) القلم: ٤.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٥٦ ـ دار الشروق.
(٥) محمد رسول الله ١/ ٥٠٩.
(٦) الأحزاب: ٣٧.

ليعود إلى أبيه وقبيلته، بين أناس لا يقدمون على الأعراف شيئا واحدا، ولكن زيدا قدَّم صحبة محمد ﷺ قبل بعثته على الأعراف المرعية، والتقاليد المتبوعة، وحين علم أبوه وعمه بمكانه وحضرا لافتدائه وأخذه، وخيَّره رسول الله ﷺ بين الذهاب معهم بغير فداء وبين البقاء فاختار أن يبقى، وقال لأبيه وعمه: «إني قد رأيت من هذا الرجل شيئا، ما أنا بالذي أختار عليه أحدا»، فخرج به رسول الله ﷺ إلى الحِجر، وقال: «**اشهدوا أن زيدا ابني، يرثني وأرثه**»، وظل يُدعى زيد بن محمد حتى أنزل الله: ﴿**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ**﴾ (١) فدُعي زيد بن حارثة(٢).

فما الشيء الذي رآه زيد بن حارثة من رسول الله ﷺ؟ إنه: «عظيم خلقه وطيب معشره».

والدعاة إلى الله على بصيرة هم أولى الناس بالسير على خطى رسول الله ﷺ، والتخلق بأخلاقه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا؛ ليكونوا من الذين يألفون ويُؤلفون، الذين يعرفون الصفح فيصفحون، والعفو فيتسامحون، والرفق فيرحمون، ممن يصدق فيهم قول الله: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾(٣).

إن أخلاق الإسلام خير عون للدعاة عند الأذى، وخير رفيق عند الضيق، والذي يتحلى بها يصبح عند الناس قدوة به يقتدون، وإلى ما يدعو إليه يفدون ويستمسكون، والذين عاشوا مع رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها أحبوه حبا ما عليه من مزيد، حتى إنهم كانوا يفتدونه في المهالك بأنفسهم وأموالهم وأهليهم وما يملكون.

والناس هم الناس في كل عصر، والنفوس هي النفوس، تحب من أحسن إليها وتكره من أساء إليها، فهل هذه الأخلاق في أذهان الدعاة؟ وهل هم على هذا المستوى السامق الذي يجعلهم من بين الهداة؟ أسأل الله أن يوفقنا في أعمالنا .

---

(١) الأحزاب: ٥.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٤٢) عن هشام بن محمد السائب الكلبي عن أبيه، وعن جميل بن مرثد وغيرهما، وهذا إسناد ضعيف جداً من أجل هشام بن محمد وأبيه فإنهما متروكان، انظر: التاريخ الكبير للبخاري (١/ ١٠)، ولسان الميزان (٦/ ١٩٦).

(٣) آل عمران: ١٣٤.

خامساً: منهج النجاح المجتمعي التربوي:

منهج مترابط وسلسلة ذهبية للنجاحات التربوية نسطرها في اثنى عشر سبيكة مترابطة تجعل لك سياجاً آمناً وأنت تسير في مجتمعك الإسلامي، في معالم على الطريق وإشارات على الدرب، ترفع الهمم وتوصل إلى القمم:

❖ السبيكة الأولى: القرار الصحيح طريق النجاح:

إن العمل المنظم الدائم هو ركيزة النجاح في الحياة، والبيئة المحيطة بالإنسان تؤثر في عمله وحركته لكنها لا تشكل الرافد الأكبر الدافع للعمل؛ لأن هذا العمل لا يتحقق بالصورة اللائقة إلا إذا قرر المرء ذلك وسعى نحوه، فقراراتنا ـ وليست ظروف حياتنا ـ هي التي تدفعنا نحو العمل، وتحرك فينا كامن الهمة، وتجعل المرء يتغلب على العوائق التي تلقاه في الطريق، يصبر أمامها فلا يتراجع، ويعمل على تخطيها بجهد وجد ومثابرة، ويحاول أن يؤثر في الحياة وفي المحيطين به بإيجابية وفعالية.

ولا يمكن الوصول إلى قرار صحيح إلا بعد معرفة الغاية منه، وسبيل الوصول إلى تحقيقه، والدافع الذي يستحث الإنسان، بحيث لا يقعد عنه أو يتوانى.

وإذا حدد المرء غايته وعرف وسيلته واتخذ قراره فإن عليه أن يحسن نوعية استثماره للحياة باستغلال الوقت فلا يؤجل ما حقه التعجيل، لأن المرء له حياة واحدة في دنياه فهي رأس ماله، أو كما يقول ابن المقفع: إنه لا مال «للنفس إلا أيامها المعدودة التي ما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة، وما جعل منها في الباطل لم يرجع إلى الحق»[(١)]، وعليه يستغل وقته في كل نافع مفيد فإن عليه أن يكتسب ـ في كل يوم ـ مهارات جديدة يضيفها إلى رصيده بعد أن يكون قد ازداد خبرة بالحياة، وتجربة بالآخرين، تجعل الصلة بينه وبينهم تقوم على الاحترام والتقدير والتعاطف؛ لأن التوافه من الأمور لا مكان لها في عقله، ولأن انتقاص الناس أو غمطهم حقهم لا مكان له في قلبه، فهو لا يغضب إلا لحق،وهو يعفو ويصفح عن كثير من الإساءات، فكثيرا ما يعود على نفسه باللائمة، لأنها لم تصبر حين الحاجة للصبر،ولم تعف حين تحققت القدرة، فيتخذ من تصحيح ذلك معلما يسير عليه في

(١) الأدب الصغير، ص: ١٦.

حياته . .دون مفاخرة لغيره بذلك؛ لأن النجاح الحقيقي لا يتم بغير الإيجابية التي تدفع المرء لأخذ المبادرة، والإصرار والمثابرة على ما ينفع من الأعمال، مع سرعة اتخاذ القرار الصحيح المؤدي إلى تحقيق المطلوب من أقصر طريق،(فالذين ينجحون في حياتهم يميلون إلى اتخاذ قراراتهم بسرعة، وفي الوقت نفسه من الصعب جدا أن يتخلوا عن تنفيذ فكرة مدروسة، وإن الذين يفشلون في حياتهم يميلون إلى اتخاذ قراراتهم ببطء، بينما يغيرون آراءهم بصفة دائمة)(١).

وما دام الأمر كذلك فلا تتوان في اتخاذ قرار نافع لك في دنياك ودينك، واستعد لتحقيقه وقد أخذت لذلك العدة اللازمة والقوة النفسية الدافعة، والمهارة التي لا يمكن الاستغناء عنها لضمان النجاح وقد كفاك ابن المقفع مؤونة التفكير في هذه الأشياء فأبانها بقوله: (من حاول الأمور احتاج فيها إلى ست: العلم، والتوفيق، والفرصة، والأعوان، والأدب، والاجتهاد.

وهن أزواج: فالرأي والأدب زوج، ولا يكمل الرأي بغير الأدب، ولا يكمل الأدب إلا بالرأي.

والأعوان والفرصة زوج، لا ينفع الأعوان إلا عند الفرصة، ولا تتم الفرصة إلا بحضور الأعوان.

والتوفيق والاجتهاد زوج، فالاجتهاد سبب التوفيق، وبالتوفيق ينجح الاجتهاد).

ولا تنس وأنت تتخذ القرار الصحيح لتصحيح مسار حياتك أن هناك أولويات لها الأسبقية على غيرها، ومن سوء الرأي أن يشغل الإنسان نفسه بشيء لم يحن وقته، ويترك شيئا حاضرا بين يديه؛ إذ لو فعل ذلك لانقلبت الأمور وتغيرت الأحوال إلى ما لا تحمد عقباه، ولا تنس أن الفضائل يبقى أثرها وسرورها، وأن الرذائل كذلك يبقى ألمها وتنغيصها، فاختر لنفسك أقوم وأنفع الطريقين.

❖ السبيكة الثانية: الإصرار على الاستمرار.. منهج الواثقين:

إن المثل الأعلى من المبادئ والقيم ينبغي أن يكون نصب عينيك، تتطلع إليها وتسعى نحوه، لتجعلها محور حياتك؛ إذ هي تعصمك من السقوط والتردي في

(١) ٣٦٥ خطوة للنجاح ، ص: ٢٠.

مهاوي القبح والذل والشعور بالدونية، ولا يجعلك تعبأ بما يصيبك من أذى في سبيل ما آمنت به من مـثل خطها لأنفسهم ولغـيرهم صفوة البـشرية، وأرسوا دعائمـها بين الناس، وجعلوها واقـعا ملموسا في الحيـاة، لم ينههم عنها وعيـد ولم يحولهم عن التمسك بهـا ترغيب، وكان أتباعـهم يؤتى بالواحد منهم فيوضع المنشـار على مفرق رأسه ويشق نصـفين ويمشط ما بين لحمه وعظمـه بأمشاط الحديد ما يـصرفه ذلك عن دينه ﴿**فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا**﴾(١) .

وكان المبدأ فـي نفوسهم أرسخ من أن تزعزعـه آلام جسدية أو معـوقات مادية، وعلى مـدار التاريخ الإسـلامي لم تخل حـقـبة منه من أناس يقـاومـون السقـوط، ويرفضـون المساومـة على المبادئ مهـما كـان الثمن وقدوتهم في ذلـك إمام المرسلين وخاتم النبيين مـحمد ﷺ حين قال: «**والله لو وضعوا الشـمس في يميني والقمر في يسـاري على أن أترك هذا الأمر مـا تركتـه حتى يظهـره الله..**» ويعلن استـعداده التام للتضحية بنفسه في سبيل ذلك فيضيف: «**أو أهلك دونه**»(٢).

ويبدو أن رفض الظلم والقبح والهوان والحنين إلى الفضائل والكمال شيء مركوز في فطرة الإنسان، إذ ليس قـاصرا على المؤمنين وحدهم بل يتعـداهم إلى غيرهم ممن وهبوا فطرة سليمـة، ففي عام ١٩٥٥م رفضت (روزا باركس) أن تتخلى عن مـقعدها في (الحافلة) مـتحدية بذلك قانونا غيـر عادل أدى إلى التفرقـة العنصرية، وأبت وهي سوداء اللون أن تنفذ قـانونا جائرا، وكان وراء رفضـها تنفيذ هذا القـانون وعلمها بما يتبع ذلك من إجراءات ـ قـد تكون قاسية ـ تعلقـها بمعايير أفضل للحـياة، وكان هذا بداية الطريق لتحـقيق هذه المعـايير وجعلهـا موضع التنفيـذ بإلغاء القوانين التي تجـيز التفرقـة العنصرية، فجاء عملها هـذا موافقا لقول ابن المقفع حين تحـدث عن صفات العاقلين التي منها: «تنفيذ البصر بالعزم بعد المعرفة بفضل الذي هو أدوم، وبعد التثبت في مواضع الرجاء والخوف، فإن طالب الفضل بغير بصر تائه حيران، ومبصر الفضل

---

(١) آل عمران: ١٤٦.

(٢) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبـوية لابن هشام (١٠١/٢) عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس مفصـلاً وقال الألباني في الضعـيفة (٩٠٩): «وهذا إسناد ضعـيف معضل... وقد وجدت للحـديث طريقاً أخرى بسند حسن لكن بلفظ: : «ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك، على أن تستشعلوا لي منها شعلة ـ يعني الشمس» وقد خرجته في الصحيحة (٩٢).

بغير عزم ذو زمانة (صاحب عاهة) محروم»[١].

وإذا استصعبت الوصول إلى الغاية جملة واحدة، فلا بأس من البدء بخطوات صغيرة على الطريق فإن الاستمرارية والجدية كلتاهما كفيلتان بتحقيق غايتك، فرحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة، فلا تتقاعس عن اتخاذها الآن بغير اندفاع، لأن الحماسة والاندفاع شعلتان تتوهجان في النفس في لحظات معينة، ثم يخفت ضوؤهما حتى يتلاشى تحت رياح الخمول والفتور والكسل، فاحذر من الاندفاع؛ واحذر كذلك من القعود والتكاسل، فخير الأمور أوسطها، فالتثبت والتوازن والاستمرار لا غنى عنهم في رحلة الحياة الطويلة التي تريد أن تحقق فيها الكثير لنفسك ولقومك وللناس ـ أجمعين ـ إن استطعت إلى ذلك سبيلا.

ولا شك عندي في أنك إن اتخذت هذه الحياة الجادة ثارت عليك غرائزك، وأهاجت شياطين الإنس والجن عليك شهواتك لتضلك عن الطريق وتصدك عن السير؛ لأنهم قاعدون بكل صراط يصدون عن الجادة ويبغونها عوجا، ومن فضل الله أنه لم يحرم الطيبات بل أباحها وأجاز للناس أن يأخذوا منها بغير إسراف، فالزواج والطعام الحلال والشراب وأنواع الملبس والزينة، كلها حلال مباحة ـ إن أخذها الإنسان بحقها ـ ولم يتجاوز شرع الله فيها، وفي الحلال من هذه الشهوات والملذات متسع يغني عن الحرام، ويعين على وعورة الطريق، ويخفف من مشاق الحياة، ويجدد الطاقة للسير نحو الهدف في ثبات وتوازن واستمرار، ومن ليس قادرا على الزواج فالصوم له وجاء ووقاية وحفظ وصيانة، فإذا ما اقتنعت بما تريد فيجب أن تطبق ما يقوله صاحب كتاب: ٣٦٥ خطوة للنجاح حيث يقول: «إن العبقرية الحقيقية هي المقدرة على توظيف أحسن الموارد والقدرات التي نملكها، وذلك ببساطة عن طريق الاقتناع المطلق بما نريده»[٢] ولا تجعل الأمل يفارقك في أي لحظة من لحظات هذه الحياة ثم بعد هذا أنت واجد طلبك ومحقق أملك.

❖ السبيكة الثالثة: التعلم من الأخطاء:

الإنسان كثير الوقوع في الخطأ نتيجة إرهاق أو إهمال أو جهل أو نسيان، أو

(١) الأدب الصغير: ص ١٦.
(٢) ٣٦٥ خطوة للنجاح، ص ٩١.

ضعف في القـدرة، أو في الخبرة، وإذا علم المرء أنه أخطأ هدفـه، وضل طريقه، ثم لم يغير وسيلته ليتجه نـحو الصواب والسداد، فماذا تنتظر منه وماذا تنتظر له؟ إن هذا الإخفاق قد يكون من الأسباب الرئيسية لبعث الخوف من المستقبل في النفس، بحيث يحجم الإنسـان عن كل مشـروع جديد، أو عن كل تجربة مـفيدة؛ لأن الـنتائج التي يرغب فيـها غيـر مضمـونة التحـقيق، وليس هذا دأب الناجحين الذيـن يخطئون ثم يصححون، ويتـعثرون ثم يقفون، وتوضع العراقيل في طريقهم فـلا يتوقفون؛ لأنهم دائمو الـتصحـيح لحركـتهم والتـجديد لقـدرتهم وهذا يمدهم بمدد جديد من الـنشاط والحيوية يجعلهم يرون الأهداف البعيدة قريبة، والصعاب الكثيرة قليلة.

إنه الأمل الذي يجعل أصحابه يعـتبرون الفشل في الحياة مجرد خـبرة تعليمية أو مجـرد تحديات لتعديل منـهجهم في الحيـاة، فليس الفشل مرتبطا بذات الأشـخاص الفاشلين، ولكنه مرتبط بطريقـتهم في حياتهم، فإذا أثبتت الطريقة فـشلها، وحققت الإخفـاق لأصحـابها فـما الذي يمنع من تغـييـرها، أو تصحـيح عوجهـا الفكري أو السلوكي؟ إن سبب الفشل قد يكون كامنا في التصرفات الشخصية (كالخمول والكسل وضعف الهمة وفتور العزيمة،واستكثار الواجبات والركون إلى الدعة،وفقد المهارات. . إلخ»،وتلك كلها أمور مكتسبة وعادات يمكن التـخلص منها بالعسر أو باليسر بحسب حال الـشخص، وتمكن هذه الأدواء منه، لكن مـا نريد إثباته أن مـثل هذه المعـوقات ليست أصيلة في النفس البـشرية، بمعنى أنه لا يمكن اقتلاعها واجـتثاث جذورها، بل إن التغـلب عليها وغـرس خلال الصـلاح والنجاح مـحلها أمـر في طاقة أصـحاب الإرادات القوية، والنفوس الأبية.

وقد يكون الفشل في ظروف البيئة التي يعيش فيها الإنسان، وحينئذ فإن عليه أن يستفيد من هذه الظروف بحـيث لا يصطدم بها في طريق الوصول إلى الهدف، إن لم يستطع أن يجعلها مساعـدة له في تحقيق هذا الهدف، ولكي يتمكن من ذلك لابد من معرفة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١ـ ما الشيء الكبير في هذه المشكلة؟

٢ـ ما الشيء الناقص فيها؟

٣ـ ماذا يمكن أن أفعل حتى أحول المشكلة إلى الصورة التي أريدها؟

٤ـ ما الذي يجب التوقف عنه لتحويل المشكلة إلى الصورة التي أريدها؟

٥ـ كيف أجعل المشكلة التي أحاول حلها لا تؤثر على معنوياتي أثناء الحل؟[١].

وينبغي ونحن نحدد أبعاد هذه المشكلة من خلال إجابة الأسئلة السابقة أن نبتعد عن التفاصيل والجزئيات، وأن نركز على الأمور الجوهرية الكلية، التي لا يمكن الاستغناء عنها، حتى لا تتشعب بنا السبل، فتتبعثر الجهود، ويطول الأمد، ونصل إلى النجاح والتغلب على الأخطاء بعد مضي الأوان.

إن التفاصيل غير المفيدة ينبغي طرحها جانبا والتركيز على الجوانب ذات الأهمية، ولإخراج المشكلة من حيز الواقع الذي يكتنفها ووضعها في الإطار الذي يمكننا من تصفيتها أو تجاوزها والتخلص من آثارها.

وسواء أكانت المشكلة نابعة من التصرفات الشخصية أم من الظروف البيئية، فإن الخطوة الأولى في طريقة التغلب عليها، تبدأ حين نمتنع عن العادات الضارة، التي تغذي الجانب السلبي من الحياة، وتجعله يتضخم على حساب الجانب الإيجابي، ومع إيماننا بأن للعادة إلفا يصعب إلغاؤه والقضاء عليه في وقت يسير، إلا أن ذلك غير مستحيل بالمحاولة الجادة، والاستعانة بالصبر والصلاة والتقوى، والاستعانة بالقوة الإيمانية القلبية التي تكفل للإنسان أن يتجاوز حدود المألوفات الضارة، وهو راض غير ساخط ولا متأفف، وهذا مبني على الوعي بخطورة هذه العادات، واتخاذ القرار البصير بشأن تجاوزها والابتعاد عنها، والأمل في تحقيق ما هو أفضل وإنزاله من القلب بمكان قبل أن ينزل إلى الواقع الفعلي في الحياة.

وقبل أن تطوى هذه الصفحة أدعك تقرأ ما كتبه صاحب ٣٦٥ خطوة إلى النجاح[٢] إذ قال: (تذكر أن روجر بانستر عندما تفوق في قطع الميل الواحد جريا في أربع دقائق كان ذلك يرجع إلى حد كبير إلى تحقيقه ذلك مسبقا في تخيله وفي عقله الباطن، حيث كان تخيله الدائم لتحقيق هذا التفوق مصدر قوة يمده بالتجربة، وبالتالي الاقتناع والتأكد الذي دفعه للتفوق حتى على قدراته الجسمانية)، ولتسأل نفسك:

---

(١) ٣٦٥ خطوة للنجاح ص ١٢٠ بتصرف.

(٢) ٣٦٥ خطوة للنجاح ص ٣١١.

ما العوائق التي تستطيع تحطيمها إذا استخدمت مقدرتك على تخيل إنجاز ما تريده مهما كان صعبا مع المحاولة المستمرة وبذل الجهد اللازم؟

فلتكن لك ـ يا أخي ـ وقفة مع النفس تمنع فيها تسلسل الأخطاء، وتوقف تيار الانحدار، وتبدأ الصعود من جديد.

❖ السبيكة الرابعة: الإقدام وترك التردد:

يعتبر التأجيل من أكثر الطرق استخداما لتجنب المعاناة، ولكن عادة عندما تؤجل ما يجب أن تفعله الآن فإن ذلك يكلفك المزيد من المعاناة فيما بعد.

ذلك قول حكيم من الحكماء، يضع يدك على أكثر أسباب الندم أو الحسرة الشائعة بين الناس في عصرنا هذا، إنه داء التسويف المهلك للأعمار وللأعمال، فكم من إنسان تمر به سنوات بعد سنوات، وهو لم يتقدم خطوة واحدة للأمام في أي مجال فكري أو سلوكي، وكان ابن مسعود يقول: «ما من يوم حزنت على فقده أكثر من يوم زاد فيه عمري ولم يزدد فيه عملي»، فليست العبرة في اليوم ذاته، ولكن فيما أنجز فيه من الخيرات، وفعل فيه من الطاعات، وانتفع به الناس في الدنيا، وأثابهم **الله** عليه في الآخرة.

فإن خلا اليوم من شيء من ذلك فهو محسوب عليك، وليس محسوبا لك، والنفس بطبعها تميل إلى الدعة واللهو،وهي لكي تعمل ما يفيد وتستمر فيه تحتاج إلى معونة وإلى دافع ينطوي على الترهيب أو الترغيب.

والقرآن دافع عظيم للمؤمنين به لعمل الخيرات وتجنب الموبقات، ولذا جاء فيه الأمر ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾[١] ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا**﴾[٢] وجاء فيه: ﴿**سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾[٣]، وفعل الخير يشمل كل مجالات الحياة إذ لا يوجد سبيل قاصر على الشر وحده غير قابل للخير إلا عند الشيطان وحده.

وحديثنا عن فعل الخير لدى البشر، فإن ضاق سبيل عليك وسد طريق في

(١) آل عمران: ١٣٣.
(٢) المائدة: ٤٨.
(٣) الحديد: ٢١.

وجهك فلا يصدنك ذلك عن سلوك طريق آخـر، إذ لا يجب أن تقتصر نظرتك على الحائط الذي وضعـه الآخرون في طريقك ولكن انظر إلى كثرة الطرق وسعـتها، ولا تنظر إلى العـوائق التي يمكن أن تصد الناس عن سـبيل الله، ولكن انظر إلـى الفرص التي هيأهـا لك القدر لتعـمل على نصرة الله، من خـلال فعل ما يـرضاه في الوقت المحدد المعلوم، فإن لكل شيء وقـته فإن مضى الوقت فقد الشيء قيـمته، وربما قوبل بالرفض، فما قـيمة تقديم الطعام لرجل استـشرى به الداء؟ وما قيمة محـاضرة دينية عظيمـة بين الجائعين؟ وما قـيمة الحـديث عن الحرية وأثرها بين الأسرى والمعـتقلين؟ وينبغي وأنت تعمل الحق الذي أمر الله به في مـكانه المناسب ووقته المعلوم،ألا تخاف مما يوضع أمامك من عقبات ومشكلات، فإنـك إذا فرطت في التركيز على ما تخاف منه فسوف ينتهي بك الأمر إلى الوقوع فيه.

ورغم أن كبار القادة لم يكونوا واقعيين في تصوراتهم للمستقبل، وكانوا يذكرون بعض الإخفاقـات التي وقعوا فيـها، إلا أنهم لم يكونوا أسرى الخوف منهـا (فغاندي مثلا آمن بأنه يمكن الحصول على استقلال الهند بـالمقاومة السلمية البعيدة عن العنف، وهو في ذلك لم يكن واقعيا،ولكنه أثبت بلا شك أنه كان دقـيقا في تقديره) فاستطاع أن يحقق ما يريد.، ولا يقـتصر هذا التصور للمـستقبل ومحـاولة الوصول إليه على القادة وحـدهم، بل إنه يمتد إلى الإنسـان، حيث وجد هذا الإنسـان، وتمسك بالأمل القـوي الذي يولد عنده شـعورا مـعنويا يدفـعـه إلى الإصرار على تعـلم مهـارة من المهارات، ولاشك عندي في أن الإنسـان النافع يجيد مجـموعة من المهارات البـانية، الغارسة للخير في تربة الأرض لينتفع به الناس، وأما غيرها من المهارات فإن وجودها وعدمها سواء،بل إن عدمها يجنب الناس كثيرا من الشرور والآلام .

فلا تجعل المهارات غير المقبـولة رفيقك في الحياة، بل عليك أن تتخلص من كل ما يجـعلك غير نافـع للآخرين بنفس المقدار الذي تحب أن يكـونوا نافعين لك، وأن تدرك أن التطور سنة سائرة في الحياة، ومن لم يتابع هذه السنة فإنه يتجمد في مكانه، ولا ينتظره ركب الحـيـاة السـائر أبدا، إن التطور الذي نعنيـه هو في الوسـائل لا في الغايات،وفي إمداد الحياة بطاقات جديدة، وإبداعـات مبتكرة، وليكن بغيتك الوصول إلى كل جديد نافع مفيد في عالم اليوم، فالأشخاص المتشوقون للمعرفة وتعلم الجديد

لا يشعـرون بالسأم أو الملل على الإطلاق، لأن الحيـاة بالنسبة لهم مـا هي إلا دراسة ممتعة لا نهـاية لها، وأجدر من هؤلاء وأحق بالبعد عن السـأم والملل والرتابة والجمود أولئك العاملون على تقديم الخير للآخرين، وبذل جهودهم للناس أجمعين[١].

❖ السبيكة الخامسة: تحديد الهدف من أسباب النجاح:

الكثيرون تسوقـهم الحياة في طريقها برتابة غريبة، فنجـدهم اليوم يسيرون بنفس النمط ونفس الأسلوب الذي كانوا يسـيرون عليه في الحيـاة قبل عشر سنـوات مثلا، بغير دفقة من الطموح، أو قفزة تشد الانتباه، أو نقلة متدرجة تعلى بناءهم الفكري أو المادي؛ لأنهم لم يحـددوا أهدافهم بوضوح أمـام عقولهم كي تحـشد القـوى الذهنية حشدها لجـمع كل المعلومات التي تتصل بهـذه الأهداف، وتساعد في الوصول إلـيها وتحقيقها، إن شئت أن تقول: إن هذا تخطيط للمستقبل فقل، وإن شئت أن تقول غير ذلك فلا ضير عليك، فـالأسماء لا تعنينا كثيرا بقدر مـا تعنينا الرؤية النافذة للغايات البـعيـدة والطرق المؤدية إلى تلك الغـايات «وعلى أية حـال، فـإنك بمجرد أن تحـدد أهدافك تكون قد نبهـت نظام التنشيط الشبكي، حيث يصـبح هذا الجزء من المخ مثل المغناطيس، يعمل على اجتذاب أية معلومة، أو ينتهز أية فرصة يمكن أن تساعدك على تحقيق أهدافك بسرعة أكبر»[٢].

وعلى كل إنسان أن يسأل نفسه: مـاذا أريد لحياتي في هذه المرحلة؟ وما أريد لها في المرحلة القادمة؟ وماذا أنجزت من أهداف في المـرحلة السابقة؟ وهل أنا أقترب من الأهداف التي أريدها؟ وهل أسير نحوها في خط مستقيم بدون انحناءات أو التواءات؟ إلى غيـر ذلك من الأسئلة التي تكون إجابتـها الحقيـقية (كالبـوصلة) تحدد لك مكان الاتجـاه، ولا بأس أن تخصـص دقائق مـعـدودة في كل يوم تفكر في الاحـتمـالات المختلفة التي تقربك أو تبعدك عن الهدف.

وعند هذه النقطة نسأل: هل استطاع أصحاب المشروع الإسلامي تحقيق أهدافهم؟ وإذا لم تكن الإجـابة مرضـية فهل هم قـريبون من تحـقيق الأهداف؟ وهـل راجعت الحركة سيـرها في دراسة متأنية متـخصصة لتدرك سبب الإخفـاقات التي حالت دون الوصـول إلى الأهداف؟ ما الأهداف القـريبـة المتاحـة؟ وما وسـائلها؟ ومـا الأهداف

(١) ٣٦٥ خطوة للنجاح ص ٢٢٩ بتصرف.

(٢) ٣٦٥ خطوة للنجاح ص ٢٤.

البعيدة؟ ومتى يمكن الوصول إليها؟ وعلى أي أساس؟

إن المؤسسات كـالأفراد يلحقها التطور والـصعود أو التبلد والجمـود، فأين موقع أصحاب المشـروع الإسلامي مما نقول؟ ولا بدع إن فعلت الحـركة ذلك؛ لأن هذا من سنة الحياة، التي كان رسول الله ﷺ يدركها ويعمل بمقتـضاها منذ فجر الدعوة حين قال للبـاكين الشاكين من الأذى: «**والله ليـتمن الله هذا الأمـر حـتى يسيـر الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[1].

وحين أشار على أصحـابه بالهجرة إلى الحبشـة، وحين خرج إلى الطائف وحين بايعه الأنـصار في العقـبة، وحين وجـه الجيوش في الغـزوات، وحين أرسل الرسل والكتب إلى ملوك الأرض إلـى غيـر ذلك من أحـداث تدل على وضـوح الهـدف، وسلامة الطريق رغم وعورته في مـعظم الأحوال، وتبين أن الإسلام كان في كل يوم يكسب أرضا جـديدة، وقلوبًا عديدة مـستعـدة لتحمل الـتبعـات في كل الأحوال.. المؤسسـات والأفراد في حـاجة إلى وقفـة تأمل لتصـحيح ما قـد يكون من أخطاء أو سقطات، ثم السير في الطريق بجد واهتمام نحو هدف واضح.

ولو أن فردا أو جماعة حدد لنفسه هدفا معلوما، عليه أن يحققه خلال سنة مثلا، ثم استطاع أن يفعل فإن مردود هذا النجاح عـظيم في إشباع النفس، وإسباغ الرضا، والتقدم ـ بقوة ـ نحـو أهداف أخرى أكبر وأعظم، ننشئ بها لأنفسنا مستـقبلا جديدا واضح المعالم بين القسمات؛ لأن هذا هو ما يشـدنا إلى الحياة النافعة، ويدفع بنا إلى المعالي التي ننشدها وليست الطريق مفروشة بالورود والرياحين نحو تحقيق ما نريد.

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمرءُ يُدْرِكُــهُ تَأْتِي الرياحُ بِمَا لا تَشْتَهِي السَّفُنُ

ولكن حسبنا أننا نواصل السـير نحو نقطة معلومة على طريق مـعروفة خطواته، محددة سماته، وقد يكون مأمون العثـرات في بعض الأحيان، وغير مأمون في أحيان أخرى، وعلينا أن نتحمل العـسر، كما استرحنا في حال اليسـر، وفي الحالتين (اليسر والعسـر) لا بديل لنا عن السير وعدم التـوقف، نحو الهدف المعلوم سلفـا، ولو كان السير نحوه يـتم بخطا بطيئة فإنها ـ على كل حال ـ خـير من التوقف الذي لا يجني

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢) عن خباب بن الأرت.

صاحبه في نهاية الأمر غير الندم والخسران.

ولماذا نحمل أنفسنا فوق ما نطيق من جراء إهمالنا، وعدم وضعنا للأمور في نصابها الصحيح؟

فلتحدد هدفك، ولتعرف مراحله، وواجباتك في كل مرحلة، وتحاسب نفسك على ما فعلت وعلى ما ستفعل، فإن ذلك يعينك ويرشدك ويدفعك نحو غايتك التي ترضاها ـ إن شاء الله.

❖ السبيكة السادسة: للعمل النافع نتائج عديدة:

قد يظن بعض الجادين المجيدين أن الغاية من أعمالهم الإصلاحية قاصرة على ماحددوه وبينوه من أهداف، يرونها أمام أعينهم، أو يتصورونها ببصائرهم، وهذا غير صحيح تماما حتى في الحالات الخاصة التي يؤثر فيها الإنسان نفسه، فإنه ـ من حيث لا يدري ـ يقدم للآخرين نفعا، وقد لمس الشاعر من قديم هذا المغزى الاجتماعي في الأعمال فقال:

النَّاسُ للنَّاسِ مِنْ بَدْوٍ وَحَاضِرَةٍ بَعْضٌ لِبَعْضٍ ـ وَإِن لَمْ يشْعُرُوا ـ خَدَمُ

والأعمال العامة يتسع نفعها، ويتشعب مردودها الحسن مع تحقيق الهدف الأصلي منها لفاعلها.

فتربية مجموعة من الشباب مثلا تؤدي في المقام الأول إلى إيجاد رجال نافعين، تعتمد عليهم الأمة في نهضتها، وهذا الهدف الأصلي يحقق إلى جانبه أهدافا أخرى تابعة له، قد لا يلتفت لها المربي أثناء عمله، منها صلاح المجتمع ومنها إنجاز الأعمال في أوقاتها، ومنها إشاعة الأمانة ومراقبة الله، ومنها إيجاد القدوة الحسنة بين الشباب، ومنها مقاومة الشر، وهو خاطرة في النفوس قبل أن يصير وحشا مفترسا يمشي بين الناس على الأرض .. ومنها .. ومنها.. إلخ.

تعدد جوانب الخير من حيث ندري ولا ندري من سمات العمل النافع المفيد، قصد صاحبه ذلك أو لم يقصد.

وفي الكون من حولنا شواهد عديدة تؤيد ما نقول، فالنحلة حين تمتص رحيق الأزهار لا تقصد غير ذلك ولا تنتبه له، لكنها وهي تفعل هذا العمل تجمع بأرجلها ـ من حيث لا تدري ـ حبوب اللقاح، لتنقلها إلى زهرة أخرى، وتتابع هذه العملية

فتظهر نتائجها في الحقول الخضراء المليئة بالزهور الرائعة.

(وبالطريقة نفسها، فإن سعيك لتحقيق أهداف مفيدة ونافعة، قد يؤدي بدوره ثمارا غير متوقعة للآخرين)[١] فالخير يعم نفعه وإن لم يقصد صاحبه، والشر يعود ضرره على فاعليه غالبا، وصدق الله: ﴿**ولا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ**﴾ [٢] هل يعي ذلك الواقعون في الشر، المعرضون عن الخير؟ وهل يفرح بذلك أهل الخير فيزداد عملهم، ويكثر مجهودهم، من أجل أن يعم النفع، ويمتد إلى شعاب لم تكن في حسبانهم، وأماكن لم تكن في تقديرهم، ولعل في هذا الذي نقول ما يدخل في إطار الآية الكريمة: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ**﴾[٣] فالإنفاق في إعداد القوة بكل جوانبها يرهب به عدو الله وعدو المسلمين، وهذا ما نراه ونعمل من أجله، ولكن الله سبحانه يخبرنا أن هذه الرهبة تتعدى إلى آخرين لا نعرفهم، ونحن ـ بالطبع ـ لم نقصد إعداد العدة لإرهاب هؤلاء الآخرين، لأننا لا نعرفهم أصلا، فالعمل النافع هنا تعدى نفعه الهدف المباشر المقصود منه إلى هدف أكبر وأوسع وأعظم نفعا للمؤمنين، ولعل هذا يدفعنا لكل عمل مفيد ولو لم تظهر لنا ثمرته المباشرة، مع عدم الإخلال بالأولويات، ويتيح لنا هذا العمل الاستمتاع بالسعادة غير مرة، حين تظهر لنا آثار الأعمال النافعة في تتابع لم يكن في تقديرنا حين قمنا بها وحققناها. . . ، ولن يقوم بالأعمال النافعة إلا أناس تتجدد آمالهم، وتتعالى طموحاتهم، فلا يعبأون بالصغائر، بل هدفهم عظائم الأعمال، وكبار الغايات، فهذا عمر بن عبد العزيز كان يتطلع إلى أن يتزوج فاطمة بنت عبد الملك الخليفة الأموي، فلما تزوجها تطلعت نفسه إلى الإمارة، فلما حصلها تطلعت نفسه إلى الخلافة، فلما صار خليفة تطلعت نفسه إلى الجنة، وهو في كل هذه التطلعات أفاد كثيرا من المسلمين بتحقيق الخير والصلاح الذي يعم الناس أجمعين.

وهو ـ بالطبع ـ وغيره ممن يحاول أن يسير على دربه، ويعمل بعمله لم يحقق مقصوده إلا بالطاعة والتقوى فهما عماد كل خير في النفس وفي المجتمع، ونحن في

---

(١) ٣٦٥ خطوة للنجاح ص ١٥٩.
(٢) فاطر: ٤٣.
(٣) الأنفال: ٦٠.

حاجة دائمة إلى النمو الروحي فهو الغذاء الذي تحيا به أرواحنا وتزدهر، وتتجه إلى الخير والسداد وتقديم العون المادي والمعنوي للآخرين كي يحيوا الحياة الطيبة التي أرادها الله للمؤمنين.

❖ السبيكة السابعة: كسر طوق اليأس:

التقدم الجسور نحو الهدف المحدد ينبئ بالثقة والثبات والاستعداد للتضحيات، ولا شيء يشين المرء أكثر من حرصه الشديد على ما في يده من مكتسبات،بحيث تجعله يفرط في بعض الواجبات خوفا من خسارة مظنونة، في الوقت الذي يظهر استعداده للتخلي عن العمل الجاد، الذي قد يكسب منه في المستقبل أضعاف ما خسر في الماضي، ولا مانع بطبيعة الحال أن يحافظ الإنسان على ما عنده، وأن يضيف إليه رصيدا جديدا من الأعمال والمكتسبات كل يوم، وهذا هو حال الأسوياء من الناس حين تهيأ لهم الظروف، ولا توضع في طريقهم العقبات . . ، أما حين لا يكون هناك مفر من اختيار بعض ما تحت يدك، أو فقده واكتساب جديد في مستقبل الأيام، وبعبارة أخرى: قد يضيع ما تحت يدك لسبب أو لآخر، فهل يحل اليأس والقنوط بك فتقعد عاجزا عن الحركة، متحسرا على ما فات، غير قادر على النهوض من هذه الكبوة، التي لا يخلو من الوقوع فيها جواد.

إن هذا ليس من صفات المؤمنين الذين يتعلقون دائما بالأمل في الله أن يفرج كروبهم وهذا ما قاله يعقوب لبنيه: ﴿**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾[١] وكثيرون من أبناء الحركة الإسلامية ـ في عصرنا ـ الذين أصابهم البلاء والأذى،وغيبتهم المعتقلات في بطونها سنين عددا قد تزيد على العقدين أحيانا، هؤلاء ما أصابهم اليأس يوما ولا حتى ساعة من نهار،فلم يغب عن بالهم أن مستقبل الإسلام قادم،وإن كره الكارهون،ولذا خرجوا ـ بعدما أصابتهم الجراح ـ عاملين جادين، مخلصين داعين، محتسبين ما أصابهم عند الله، الذي لا يضيع عنده أجر العاملين، فدبت الحياة في الحركة الإسلامية، وانطلقت في كثير من بقاع العالم في الشرق والغرب، وهذا بفضل الله

(١) يوسف: ٨٧.

أولا وأخيرا، فله الحمد.

اليأس قتال للهمم، يجعل النفوس تتراخى، وقد تذهل عما يراد بها من شر، ويدبر لها بليل، ولا أدل على ذلك من موقف بعض المسلمين في غزوة أحد حين أشيع أن رسول الله ﷺ قد قتل، فجلسوا يبكون تركوا سلاحهم وعدوهم وذهلوا حتى عن أنفسهم في هذا الموقف، بعد أن غرس اليأس في قلوبهم إشاعة موت الرسول ﷺ، فخارت قواهم وضعفوا واستسلموا للبكاء الذي لا يغني فتيلا في موضع تسال فيه الدماء حتى مر بهم أنس بن النضر فسألهم عما بهم، فقالوا: مات رسول الله ﷺ، قال: فما بقاؤكم بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه[1]، فأزاح عن كواهلهم كوابيس اليأس فتحركوا من جديد.

وإذا كان هذا حال اليائسين في موقف الكر والفر، فما بالك بحال اليائسين في ميادين الحياة الأخرى، الذاهلين عن واجباتهم من غير أن يجدوا من ينبههم من غفلتهم، ويزيل عنهم قيود اليأس المثبطة؟

ومشكلة البعض منا أنه يرى أن المستقبل نظير الماضي، أو جزء متمم له، مع أن هذا غير صحيح فما رأيته بالأمس قد لا تراه اليوم، وما كان في هذا اليوم قد لا يكون في يوم آخر قادم، فالأيام دول، والذين مستهم الضراء في الماضي قد تصيبهم السراء في المستقبل، والمهزومون بالأمس لن يظلوا أبدا هكذا، والمنتصرون لن يظلوا هم كذلك محافظين على النصر في مستقبل الأيام، والشواهد من حياة الأفراد والتجمعات والأمم من حولنا أكثر من أن تحصى، وهل كان أحد أكثر عرضة لليأس من أهل الكويت حين استيقظوا من نومهم، ليجدوا أن بلدهم قد ضاع تحت وطأة كابوس صدام؟ ولكن الكثيرين منهم كانوا على ثقة من أن الزمن لن يتوقف عند هذا الأمر، وعاشوا بالأمل مدة من الزمن، فحقق الله الآمال، وأزاح عن الكويت زبانية صدام، وهل كان أحد يأمل بعد أن احتل الصليبيون الشرق أن ينهض من يقاومهم ويتغلب عليهم وينتزع القدس من أيديهم؟ وهل أكثر الناس اليوم تفاؤلا يستطيع أن ينبئك أن القدس ستعود إلى المسلمين عما قريب؟

إن الضباب الذي يملأ المنطقة، والغبار المثار في كل مكان، يجعل التفاؤل بعودة

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما فى السيرة النبوية لابن هشام (٤/٣١، ٣٢)، وابن جرير الطبرى فى تفسيره (٤/١١٢، ١١٣) عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخو بنى عدى بن النجار.

هذه المدينة المقدسة ضربا من الأحلام، ولكن الذين يعرفون الأمل، يدركون أن بقاء الحال من المحال، وأن الشمس ستطلع مع الصباح لتبدد الظلام، وأن مع العسر يسرا.

❖ السبيكة الثامنة: نجاح الإنسان بين الممكن والمستحيل:

الممكن أو المستحيل، أيهما أقرب إلى نفسك وأحب إلى قلبك؟ لاشك أن الممكن أحب إليك من المستحيل، وإن كلفك بعض المشقة أحيانا؛ إذ المستحيل ـ حقيقة ـ لا يكلفك مشقة، فأنت منصرف عنه بقلبك وفكرك قبل الانشغال به، وأما الممكن فإنه يحتاج إلى نشاط وحركة، ودراسة وتطبيق وعمل، وقد يحتاج إلى قول في بعض الأحيان. على أن النفس الخداعة التي تميل بطبعها إلى الدعة والراحة قد تصور بعض ما فيه صعوبات على أنه مستحيل، وما ذلك إلا محاولة لتجنبه والابتعاد عنه حتى توفر مشقة البحث والكدح من أجل تحقيقه.

ومن هنا يأتي التفاوت في إحسان الأعمال بين أصحاب المهنة الواحدة أو أصحاب التوجه الواحد، حيث تجد أعمالهم قد تفاوتت في رتبتها ودرجتها بناء على تفاوت أصحابها في تحمل أعباء العمل، ومحاولتهم النهوض به على أحسن الوجوه.

والبداية الحقيقية تأتي من داخل النفس أولا، فإن استقر فيها أن عملا ما ممكن صار ممكنا، رغم صعوبة تحقيقه، وإن استقر فيها أن عملا ما مستحيل، صار مستحيلا رغم إمكان حدوثه وسهولة الوصول إليه.

وهذا بعض ما يفهم من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾(١) فالمشاعر السلبية قيد ثقيل على الحركة قد تجعل الممكن مستحيلا، والمشاعر الإيجابية مؤثر قوي في الحركة قد تجعل ما يراه البعض مستحيلا يقع في حيز الممكنات. فهل مشاعرك عون لك أو هي قيد عليك؟ إن الإيمان بالقدرة على إنجاز عمل ما، هو بداية التوجه نحو هذا العمل، ثم يكون الإصرار والاستمرار عاملين هامين لإنجاز ما تريد.

ولو نظر الدعاة الحقيقيون من أتباع الأنبياء والمرسلين إلى العقبات التي تكتنف طريقهم والمشقات التي كان عليهم أن يخوضوها؛ ليثبتوا دعوتهم في قلوب الناس،

---

(١) الرعد: ١١.

لأحجم كثير منهم عن الإقدام، ولكنهم كانوا في قرارة نفوسهم مؤمنين بغايتهم وبهدفهم، فلم يعبأوا بالصعوبات، ولم يخافوا من كثرة المشقات والمضايقات. وتخيل معي موقف الإسلام لو أن أبا بكر رضي الله عنهم رأى أن محاربة المرتدين الذين يحيطون بالمدينة ومكة والطائف (البلاد الوحيدة التي لم ترتد بعد موت الرسول ﷺ) لو رأى أبو بكر أن حربهم مستحيلة أين كنت تجد الإسلام الآن؟ ولو أن صلاح الدين رأى أن الصليبيين منتشرون في بلاد الشام وأن من بين الحكام المسلمين من يحالفهم، وأن النصر عليهم مستحيل أكان يمكن أن يقوم بما قام به؟

ولو رأى أصحاب المشروع الإسلامي الأسلاك الشائكة التي توضع في طريقهم، والتهم التي يمكن أن توجه إلى أشخاصهم وأتباعهم، والعداوات التي تلقاهم هنا أو هناك أكان يمكن أن يوجهوا الشباب إلى تعاليم الإسلام الحنيف، فيكف نفسه عن اللهو المتاح في كل مكان، ويفكر في بناء ذاته وفيما ينفع أمته؟

ولو أن كل صاحب إنجاز رياضي أو كشف علمي، أو فتح حربي فكر في استحالة تحقيق غرضه لضاعت على الإنسانية مبتكرات عظيمة، ونعود فنقول: إن القناعة النفسية بشيء ما تجعله ممكن التحقيق بسهولة أو بصعوبة، وإن فقدان هذه القناعة يجعل السهل صعبا، واليسير عسيرا، فالقناعة الذاتية والإصرار والمثابرة والجهد المستمر سمات تميز كل بطل حقيقي في أي مجال من مجالات الحياة النافعة. . . ، وإن تحقيق بعض النجاح في بعض الأوقات، ثم الركون إلى الدعة والكسل. . ثم العودة إلى النشاط، وتبادل الأحوال بين النشاط الحي وبين الخمول المميت لا يصل إلى غاية يعم نفعها وتعظم فائدتها. . كيف إذن نتغلب على عاداتنا ونخلق الاستمرار في حياتنا وتحركاتنا؟. . إن معرفة ما يجب فعله غير كافية لتحقيق ما نريد، ما لم نتبعها بفعل ما نعرفه، فالباعث النفسي والنشاط الحركي والاستمرار في هذا النشاط، والتغلب على كل المعوقات علامات بارزة على طريق النجاح للفرد وللجماعة وللدولة والأمة على السواء.

❖ السبيكة التاسعة: ملاحقة الجديد ودوام التجديد:

إِذَا مَرَّ بِي يَوْمٌ وَلَمْ أَصْطَنِعْ يَدًا وَلَمْ أَكْتَسِبْ عِلْمًا فَمَا ذَاكَ مِنْ عُمْرِي

الأيام تتشابه في مرورها على الإنسان من حيث الزمان، لكنها تختلف أعظم الاختلاف من حيث الأعمال، لا يمارى عاقل في ذلك؛ لأنه يرى أن الإنسان في

مرحلة التمييز غيره في مرحلة الطفولة الباكرة، وغيره في مرحلة الشباب، وغيره في مرحلة الكهولة ثم الشيخوخة؛ إذ تتميز كل مرحلة في حياته بسمات وخصائص تميزها عن المرحلة السابقة والمرحلة اللاحقة، وينبغي أن تتميز أعماله وخبراته ومهاراته تبعا لاختلاف مراحله العمرية؛ لأنه يجب أن يكتسب في كل يوم جديدا نافعا، يضيفه إلى رصيده فتزداد خبرته وتعظم مقدرته فيفيد غيره وينفع مجتمعه. . . ؛ فهل أنت اليوم في معلوماتك ومهاراتك مثلما كنت قبل عشر سنوات أو أكثر أو أقل؟ إن كنت كما أنت فقد تجمدت، وإن كنت أقل فقد تدهورت، وإن كنت أكثر فهل تساوي كثرة ما عندك هذه الزيادة العددية في حساب السنين والأيام؟

والجماعات ـ في ذلك ـ كالأفراد تحتاج إلى التجديد اليومي لتثبت كيانها، وتقوي بنيانها، وتتقدم في طريق الحياة.

والدعوات هي أيضا كذلك، ما لم تكتسب كل يوم قلوبا جديدة، وتنتشر فوق أرض مديدة، تجمدت ثم تدهورت ثم اضمحلت وتلاشت، وهكذا قل في الدول والأمم والحضارات.

التجديد اليومي سمة الكائن الحي، ترى ذلك من حولك في النبات والحيوان وبعض بني الإنسان، فهل النبتة اليوم مثلها بالأمس؟ وهل ذلك الطائر المحلق مثلما كان من قبل؟ وهل. . وهل. . ؟ إنها الحياة من لم يتحرك فيها توقف ثم تجمد ثم تلاشى.

وخير ما يساعد الإنسان على الرقي من جميع جوانبه هو الباقيات الصالحات، بالتعبير القرآني أو هو بناء الفرد بالعلم، وبناء المجتمع بتقديم المعروف وصنع الخير، وهو ما عبر عنه الشاعر باصطناع اليد.

ومن العبث ألا يصنع الإنسان نفسه، وألا يقدم الخير لغيره.

ومن العبث أن تقف جماعة عند حدود محيطها، وأن تضرب سورا من العزلة حول أبنائها، وأن تجعلهم ينظرون إلى الآخرين وكأنهم مخلوقات غريبة عجيبة، لا ينبغي الاتصال بهم أو الجلوس معهم ومخاطبتهم.

ومن العبث أن تقف دعوة عامة، يجب أن تعرض على الناس جميعهم ليقتصر عرضها على أفراد مختارين، تدعوهم إلى ما يعرفون، ولا تنبههم إلى ما لا

يعـرفون، وهب أننا دعـونا ـ فقط ـ الذين يـصلون إلى الصلاة. ودعـا غيـرنا الذين يزكون إلى الزكـاة، ودعا آخـرون الذين يصومون إلـى الصيام فـمن يدعو إلى بقـية الأركان والواجبـات؟ ومن يدعو الفاسقين والعصاة؟ ومن يدعـو المشركين والكافرين؟ ومن ينبـه الغافلين؟ ومـن يأخذ بأيدي الحـائرين، ويحـاول أن يهديهم إلى الصـراط المستقيم؟ وأي جديد تضيفـه إلى الناس حين تطلب منهم أن يفعلوا ما يبادرون إلى فعله من غير طلب.

فإذا أدى الجراح عـمله اليوم بنفس الطريقة التي كان يؤديه بهـا منذ عشر سنوات مثلا، فهل تقدم أو تأخر أو تجمد؟ وهل المسافر ـ اليوم ـ يركب الناقة أو الطائرة؟

إن التـجديد في الأعـمـال والأقوال والوسـائل أمـر لا مفـر منه للوصـول إلى الغايات، وكل تأخير أو إبطاء ينتج عن إهمال أو كسل أو خمول، أو ضيق في الرؤية ونقص في المعرفة يؤدي إلى عواقب وخيمـة قد لا نستطيع تداركها، وقد نندم ـ ذات يوم ـ على أننا أضعنا فرصة أو فرصا عديدة، لم نكسب فيها جديدا، ولم نصطنع يدا عند الآخرين؛ ، لأننا قصـرنا نظرتنا على ذاتنا وفضلنا أن يبقى الخـير كله لنا وحدنا، وتجمدنا عند نقطة بعينها، ولم نخرج عن إطارها، وكأن التجديد المقبول شرعا وعرفا بيننا وبينه عداوة، فلماذا يحدث هذا؟ ولمصلحة من يبقى هذا الواقع المرذول؟ إن الفرد والجماعة والدعوة والأمة يلزمهم جميعا التجديد النافع المستمر، حتى يظل لهم اتصال دائم بالحياة وبالناس يرشدونهم ويوجهونهم، ويبعدون الزيف عن طريقهم، والضلال والغي عن قلوبهم وعقولهم، لأنهم يأخذون بكل جديد مـفيد ولو ظهر في آخر بقاع الأرض، ويستفيدون من كل علم ولو أجراه الله على يد الكافرين أو الفاسقين.

❖ السبيكة العاشرة: الإنسان بين المرونة والصلابة:

«**لا تكن لينا فتعصر، ولا صلبا فتكسر**» قول حفظناه من قديم يشير إلى أن على الإنسان ألا يتـخلى عن المرونة في تعـامله مع نفســه ومع الآخرين. وليس المقـصود بالمرونة الرضا بما دون الحق، فليس ذلك من المرونة ولا من الشـهامة والرجولة، التي يبنيها الدين في الإنسان وإنما المقصود ألا يقتصر الإنسان في فهمه وتعامله على جانب واحد من جـوانب الحق، لا يتعداه إلى غيـره من الجوانب، فإذا تعـددت آراء العلماء الموثقين حول نقـطة معينة، فلنا أن نأخـذ برأي من هذه الآراء دون أن نحاول فـرضه

على الآخرين، ودون أن يمنعنا ذلك من اعتبار أن الآخرين قد يكونون على الحق ولو أخذوا رأيا آخر، من غير أن تقوم بيننا مجادلات، أو تنشأ خلافات وخصومات.

إنها مرونة في الفهم وحسن الإدراك، وحسن التعامل لا تخرج عن إطار الشرع ولا تخالف تعاليمه.. وهل كانت الفتن الكثيرة التي مرت بالمسلمين إلا لأن المرونة مفقودة، والصلابة موجودة، والتعصب قائم على أشده؟ فما أساس الفتنة التي كادت تعصف بالأمة ومعتقدها وبعلم من أعلام الإسلام هو الإمام أحمد؟ إنه تعصب المعتزلة واستخدامهم عصا السلطان في فرض معتقدهم ونهجهم منهج الطغيان، وعلام استند دعاة الفتنة التي عصفت بالإمام ابن حزم حتى مات كمدا وغيظا؟ ولم يسلم من الفتنة كذلك ابن رشد (الحفيد) فنفي من وطنه وأحرقت بعض كتبه، وقبل هذين العلمين نال ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) ما ناله من أذى حتى ليقال: إنه لما توفى دفن بداره ليلا سرا؛ لأن العامة اجتمعت ومنعت دفنه نهارا.

وقد مرت بالعالم الإسلامي فترة (عد فيها من ينتقل من مذهب «فقهي» إلى مذهب مرتكبا لجريمة ومن يرى رأيا غير رأي إمامه خارجا عن المألوف، حتى طلب أخيرا مرة من العلماء أن يتخيروا مذهبا من المذاهب المختلفة للقضاء بمقتضاه فرفضوا، فكانت النتيجة اللجوء إلى القانون الفرنسي)[1].

وهذا أمر طبيعي حين يشيع الجمود والتعصب في الفكر أو في الحركة أو في الدعوة، لا بد أن يصل الأمر إلى الانحراف والوقوع في شرك الآخرين.

ونحب أن نؤكد ـ ونحن نتناول هذا الموضوع الشائك ـ أنه لا مرونة بين الحق وبين الباطل، وإلا أصبح ذلك مداهنة في الدين، يأباها الله ورسوله والمؤمنون، وإنما المرونة هنا هي في استخدام درجات الحق، أو في تعدد جوانبه، الحق يسع كثيرا من الناس، بل يسع الناس جميعا، لأن الحق هو السمة المميزة في هذا الكون، فلم تقم السموات والأرض إلا بالحق، أفيضيق الحق بتعدد الآراء فيه، أم أنه يتسع بحيث يأخذ كل منه دون أن يحجبه عن الآخرين. أيجف النهر لأن الناس يأخذون منه كثيرا أو قليلا؟ فلا معنى إذا لمحاولة فرض مذهب بعينه، ورأي بذاته على الناس، وإنما الحجة الثابتة، والنصوص المؤيدة من الكتاب والسنة هي التي تعرض على الناس بالحكمة

(١) ظهر الإسلام.

والموعظة الحسنة، وهي كفيلة بأن تجعل القلوب تلين، والعقول تسلم، والجوارح والمشاعر عابدة لله عاملة منتجة في خير المسلمين.

المرونة في التعامل مع الآخرين أساس لسماع آرائهم وعرض أفكارهم، واستجلاء ما في نفوسهم، فإن كان من الحق قبلناه ـ وإن لم نكن في صحبتهم ومعيتهم ـ وإن كان من غير الحق رفضناه وأعلنا رفضنا له، وأقمنا الحجة على رفضه من النصوص القرآنية والأحاديث الصحيحة.

وهذا في إطار التعامل مع الناس، فإن انتقلنا إلى تعامل الإنسان وتصرفه أمام المواقف المختلفة، وجدنا أن المرونة في تقبل بعض المواقف التي قد تفرض عليه وهو لها كاره تكون عونا له، تجعل النجاح منه قريبا، والفشل عنه بعيدا؛ لأنه يكون واثقا من نفسه مرتكنا إلى دعامة قوية من الإيمان بالله، هذا الإيمان الذي يجعل أصعب المواقف وأعقدها ترضى بها النفس وتحاول معالجتها، وهذا يمنح المرء الرؤية الثاقبة للحلول الصحيحة، ويساعد على الاحتفاظ بالتوازن المطلوب أمام أعتى المشكلات، والصمود أمامها حتى تلين عريكتها، وتخفض جناحها، أترانا قد ابتعدنا فيما نقوله عن قول رسول الله ﷺ: «**ما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه**»[(١)]؟

❖ السبيكة الحادية عشرة: الممارسة والمتابعة:

إن الرياضي الذي لا يمارس التدريب يفقد كثيرا من نشاطه وحيويته، والمحارب الذي ترك ميدان القتال وعاش بين الناس في وئام وسلام، ينسى بعد حين أسس التدريب القتالي، ويفقد التكتيك العقلي والحركي للبراعة في القتال، والمثقف الذي لا يتابع جديد الفكر وثمار العقل تجده ـ بعد حين ـ بعيدا عن هذا النبع، لا يملك أن يدلي فيه بدلو بين الدلاء. ومن قديم تداولت الألسنة: فاقد الشيء لا يعطيه.

إن أي موهبة لدى الإنسان لا يعمل على تنميتها وتنشيطها بصفة مستمرة، تتوقف ثم تضمر إلى أن تصبح كأنها لم تكن، فيتساوى صاحبها مع عامة الناس، فالشيء الذي لا تستعمله تفقده، وهي حقيقة تصدق على الماديات والمعنويات،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤)، وأبو داود (٢٤٧٨)، عن عائشة رضي الله عنها.

فحافظ القرآن ما لم يواظب على قراءته دائما تفلت منه تفلت الإبل من عقلها، والمؤمن الذي لا يمارس الشعائر التعبدية ويحافظ على القيم الأخلاقية يخف وزن الإيمان في قلبه (فالشجاعة غير المستخدمة تتلاشى، وعدم ممارسة الانضباط والالتزام يؤدي إلى ضعفهما، والتعاطف مع الآخرين الذي لا تظهره على الإطلاق يضعف ويختفي تماما)(١).

الممارسة والمتابعة لأي أمر من الأمور هما مصدر قوته وضمان بقائه واستمراريته، فالإقلاع عن العادات السيئة عند الإنسان، لابد أن يسبقه تجنب الاستغراق فيها؛ لأن العصب غير المستخدم تبعا لنظرية الارتباط العصبي سوف يضمر في النهاية، مما يؤدي إلى التخلص التام من هذه العادات السيئة.

فالعمل هو أساس التنمية المادية والمعنوية في الفرد أو الأمة، وهو أساس صنع الخير وإبرازه، أو هو أساس ظهور الشر وانتشاره، وفطرة الإنسان مهيأة لهذا وذاك **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾**(٢) **﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾**(٣)، وكل ما هو سيئ يمكن التخلص منه بترك فعله، والابتعاد عن مؤثراته، وكل ما هو حسن يمكن تحقيقه عن طريق الأخذ بمقدماته، وقد أشار الإسلام إلى ذلك حين أمر بغض البصر، ومنع الخضوع بالقول؛ لأن ذلك من المؤثرات التي تعين على ارتكاب الفاحشة، ومنع صغير الجرائم لأنه يؤدي إلى كبائرها «لعن الله السارق، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده»(٤) فممارسة شيء صغير من المنكرات والقبائح يؤدي إلى الوقوع في كبائرها، وكذلك ممارسة شيء من الفضائل يؤدي إلى الازدياد منها والتوسع فيها، والإنسان قادر على فعل الخير وترك الشر بشيء من الإرادة التي يستطيع اكتسابها بالمرونة والدربة، ومن هنا كان فضل الله وعدله، حيث يحاسب الناس لا على علمه بهم ولكن على أعمالهم حتى تكون حجة عليهم: **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾**(٥).

وقد يظل الإنسان يمارس عمل الخير حتى يصبح هذا العمل بالنسبة له شبيها

---

(١) ٣٦٥ خطوة للنجاح ص ١٥٩. (٢) الشمس: ٧، ٨.

(٣) البلد: ١٠.

(٤) أخرجه البخاري (٦٧٨٣، ٦٧٩٩) ومسلم (١٦٨٧) عن أبي هريرة.

(٥) الزلزلة: ٧، ٨.

بالهواء الذي يتنفسه، والماء الذي يشربه، بحيث لا يمكنه أن يستغني عنه بحال من الأحوال. والدعاة إلى الله، إن أخلصوا في عملهم وتجردوا من شهوات الحياة الدنيا، وارتفعوا إلى مستوى الدعوة التي بينها وأرسى دعائمها محمد بن عبد الله ﷺ، إن فعلوا ذلك صارت الدعوة حياتهم، لا يستطيعون أن يخرجوا عنها أو أن يتوقفوا عن الجهر بها، لأنهم يدركون أن في ذلك موتهم المعنوي قبل أن تموت أجسامهم وتبلى عظامهم.

إن ممارسة فن الدعوة إلى الله بهذه الصفة المتقدمة كفيل بتحقيق أعظم النتائج للفرد وللجماعة بحيث يصبح البعد عن هذا المجال صعبا عسيرا على النفس لا يطاق **«والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أموت دونه»**(١).

وإذا كان هذا الأمر في مجال الدعوة فإن غيرها من المجالات لا يختلف عنها، بل قد يكون أقل منها جهدا وعناء، والأمر لا يحتاج بعد الممارسة الطويلة إلا لشيء من الجد والوعي والاهتمام.

والمثال الآتي يوضح قيمة الممارسة في الماديات التي يمكن أن تنطبق على كثير من المعنويات، لقد حاول لاعب كرة السلة الأمريكي (لاري بيرد) ـ حين تعاقد على تصوير إعلان تجاري عن أحد المشروبات الغازية ـ وتطلب السيناريو أن يقذف الكرة في السلة ويخطئ إصابة الهدف، لقد كان صعبا عليه للغاية أن يخطئ الإصابة حتى إنه تدرب كثيرا جدا على ذلك قبل أن يتمكن من أن يخطئ الإصابة فعلا لأغراض التصوير، فهو قد تكيف تماما وتعود على وضع الكرة في السلة دائما، لدرجة أنه احتاج إلى تدريب طويل وتركيز شديد حتى يخطئ الإصابة مرة واحدة، ولا شك أن جزءا من عقل لاري بيرد قد تشكل وتكيف تماما على تتابع الحركات التي تؤدي لإصابة الهدف، حتى أصبح ذلك عادة راسخة متمكنة من جهازه العصبي تمنعه من الخروج عنها.

ومن هنا يجب أن تعلم أنه يمكن لنا تكييف أنفسنا لنغرز أي سلوك نريده إذا فعلنا ذلك بتكرار كاف وبحماس عاطفي مكثف(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ٣٦٥ خطوة للنجاح ص ١٦٣.

❖ **السبيكة الثانية عشرة: المنهج الأمين لتقييم أعمال الآخرين:**

من عوامل النجاح في أي عمــل فردي: المحاسبة المستمــرة، لرصد الإيجابيات أو السلبيات، حتى نتخلص مما يسوء، ونــزيد ما يسر، ومن عوامل النجاح في أي عمل جماعي الخضوع للتقييم الرشيد، وقبول ما يجود به الآخرون من تسديد أو تصويب، ولن نتناول في حديثنا هذا المحاسبة، فكثيرا ما تعرض لها المربون، وقتلوها بحثا.

وإنما حديثنا اليــوم عن تقييم الأعمال ومــا يلزم لهذا التقييم حــتى تكون له ثمرة إيجابية، سليمة من العطب والفساد.

وليس تقيــيم أعمال الآخرين أمرا مــيسورا لكل من أحب؛ لأنه يحــتاج ـ أول ما يحتــاج ـ إلى المعرفة التــامة المحــيطة بهؤلاء الناس، وإلى معــرفة توجهــاتهم الفكرية والاجتماعية والسياسيــة، ومدى تمسكهم بمبادئ الدين أو تخليهم عنها، ومدى تأثيرهم فيمن يحيطون بهم، ومدى تأثرهم بالتيارات الحــديثة، والرياح الغربية أو الشرقية التي تهب في كل موسم، وتحمل من الخير أو الشر الكثير.

ويحتاج التقــييم إلى نوع من التجرد يجعل صاحبــه بمنأى عن الهوى، غير واقع تحت تأثير الترغيب أو الترهيب، بل يجعل الحق دليله، والعدل ميزانه، والقول الهادئ أداة التوصيل، بغية الوصول إلى الهدف من غير الدخول في جدل لا يفيد وقد يضر، فهل يملك كل واحد هذه المقومات اللازمة للحكم على أعمال الآخرين.

وإذا ما توافرت هذه المقــومات فإن الكلمات المختارة، والمصطلحــات الخالية من الرنين المبالغ فــيه، لا غنى عنها إن أردنا أن نصل إلى الحق، ونقنع به غــيرنا دون أن تشتبك الأقلام، أو تشــتجر الآراء، أو تضطرب الأمزجة، وتتعكر النفــوس، غير غافلين عن الخلفيــة التي أثرت في صاحب رأي، أو صــاحب فكر؛ ليتــخذ فكرا مــعينا، أو منهجــا في الحيــاة خاصا، ثم يأتــي التحليل الصحــيح للأمور في ضــوء ملابســاتها ومقتضياتهــا لتحصل من ذلك على المعرفة اللازمة التي نقيم عليها الحــجة في التقييم والحكم على أعمال الآخرين.

وكثيــر من أصحاب الآراء ـ إلا من رحم ربي ـ يصعب عليــه أن يتلقى نقدا من

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٢/٤)، ومسلم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤) عن تميم الداري.

أحد، أو تقييـما من الآخرين، ولو أنصف لاعتبر ذلك عونا، سـاقه الله إليه؛ ليقف على جلية أمره، ويراجع نفـسه إن كان هناك تقصير ويزداد خبـرة وبصيرة إن كان من المحسنين، وقد نبهنا الرسول ﷺ إلى ذلك حين قال: «**الدين النصيحة**»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[(١)] .

وكان عمر رضي الله عنهم يعتبر كل من دله على عيب أو نقص، أو اختيار غير موفـق لأمر من الأمور، كـان يعتـبر ذلك هدية تـستحـق منه أن يدعو لصـاحبـها، فيـقول: «رحم الله امرأ أهدى إليّ عـيوبي»[(١)] على أن كل تقـييم لأعمـال الناس لا يستدعي بالضرورة أن تكون في أعمالهم عيوب تذكر، أو نقص يكمل، فإننا لو ركزنا على أمثال هذه الأشياء وحدها لجرى علينا قول الشاعر:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... وَلكنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيا

ولأصبح حكمنا قائمـا على الهوى، غير ملتزم بالحق والإنصـاف، وهيهات لمثل هذا الحكم أن يُقبل.

ولكي يكون التقييم مقبـولا لابد من أن تُذكر المحاسن قبل المساوئ، والمنافع قبل المضار، وأن يراعى فيه حـسن القصد، وجمال العرض، وأن يأخذ شـيئا من الحكمة والموعظة الحسنة، وأن يعتبر صاحبه عملية التشهير والتشنيع منطقة محظورة، لا يضع فيها قدمه، ولا يغمس في مدادها قلمه، حتى يخلو تقييمه من كل عيب.

إننا حين نقـيم رأيا أو فكرا لا ينبـغي أن نخرج عن نطـاق الفكر إلى الطعن في ذات صاحبه، فلا يعنينا إن كان أسود أو أبيض، جـميلا أم دميما، فذلك لا شأن لنا به، ولا دخل لصاحـبه فيـه، إننا نقيِّم ما يمكن للإنسـان إصلاحه، فـإصلاح الفكر، وإصلاح الرأي، وإحـسان العـمل، كلها أمـور يمكن اكتـسابها، ويمكن التـخلي عن مضـاداتها لـكل إنسان يؤمن أن كل بني آدم خطاء، وأن الرجـوع إلى الحق خيـر من التمـادي في الباطل، وأن الله يـحب إذا عمل أحدكم عـملا أن يتـقنه، على أننا إن استطعنا عند التـقييم أن نرد الفروع إلى أصلها، والأسـباب إلى مسببـاتها، نكون قد قطعنا شوطا كبيرا نحو الوصول إلى الهـدف، ووفرنا على أنفسنا وعلى الآخرين وقتا وجهدا، وقاربنا أن نلتقي على الحق، وأن نرتضيه، ونسير على هديه.

يستطيع كل واحد أن يقيِّم أعمال الآخرين وفق هذا المنهج؟

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٦٧٥)،وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٨٢).

المبحث الأول

وقفات في المشهد الاجتماعي

أولا: المشهد المجتمعي بين التدافع والتنازع:

التدافع: إن التدافع نوع من التنافس والاستثارة للعمل على إحقاق الحق، ورفض الظلم ورد البغي ومنع التعدي على حدود الله بالوسائل المشروعة في رد المنكرات، فغاية التدافع إصلاح النفوس أو الجماعات أو الدول والأمم، ومطاردة وملاحقة الفساد بجميع صوره، وإزالة أسبابه؛ ليسلم الناس من العذاب والبلاء، وقد أخبر الله سبحانه بأن الفساد يظهر في الأرض نتيجة الانحراف، وإن الناس يتجرعون غصص العذاب ليذوقوا بعض ما صنعته أيديهم لعلهم يرجعون عن البغي والضلال، فقال: **﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**(١) ولا يتم القضاء على الفساد وتحقيق الصلاح والإصلاح بغير التدافع الذي أراده الله، وجعله سنة من سننه في كونه فقال: **﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**(٢).

فالتدافع فضل من الله ومنة منه على العالمين، لتظل في الأرض بقية من صلاح تمنع انتشار الفساد الذي يهلك العباد ويصيبهم بالعنت والمشقة والعسر، وتخلو أماكن العبادة من روادها، وتصير الأرض مرتعا للشياطين والمفسدين من الجن والإنس، وهذا ما يستشف من قوله سبحانه: **﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾**(٣).

(لقد كانت الحياة تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض.. لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبدا يقظة عاملة، مستنبطة لذخائر الأرض، مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة.. وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء)(٤).

---

(١) الروم: ٤١.
(٢) البقرة: ٢٥١.
(٣) الحج: ٢٠.
(٤) في ظلال القرآن.

وفي الحياة أنواع ومستويات من التدافع: تدافع على مستوى الفرد النفسي بين التقوى والفجور وبين النزعات الروحية والشهوات المادية، وتدافع على مستوى الأمة أو المجتمع بين العدل والظلم وبين أهل الحق والبغي وبين الانحلال والفساد، وتدافع على مستوى الدنيا كلها بين الإيمان والإلحاد(١).

وفرق بين التدافع بوسائله وغاياته الذي نلمح فيه التأييد والعون والنصرة من الله ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**﴾(٢) وبين التنازع الذي يرتبط به الفشل وقد جاء في كتاب الله ﴿**حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ**﴾(٣).

فالتنازع خلاف وفرقة وذهاب للشوكة، وقد بين الله ذلك في قوله: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾(٤) فالفشل والوهن والفرقة ملازمات للتنازع الذي يخلو فيه أي فريق من هوى يميل إليه، فليس التنازع قائما على الحق والعدل، ولكنه في الأغلب الأعم قائم على الميل والرغبة التي لا يمكن أن يكون عليها توحد أو التقاء، ولذا فإن القرآن الكريم يرد المؤمنين ـ حين تنازعهم ـ إلى الأمر الجامع الذي لا خلاف حوله ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾(٥).

وقد يصل التدافع في بعض مراحله إلى حد الصراع الذي لا يكون إلا بين الحق والباطل ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾ (٦) (فلا صراع بين الطبقات ولا صراع بين العمال والملاك، ولابين الرجال والنساء، ولا بين الفرد والمجتمع، ولا بين الإنسان والطبيعة، بل تكامل واستثمار لمختلف القوى... وكيف يكون الصراع ولا غنى للمالك عن العامل، ولا للفقير عن الغني، ولا للغني عن الفقير، ولا للرجل عن المرأة، ولا للمرأة عن الرجل، وقد اقتضت سنة الله تركيب الحياة على هذا المنهج.. ولا يمكن أن تستمر الحياة بدون هذه الثنائيات فالصيف والشتاء والليل والنهار والرجل والمرأة كلها متقابلة متعاونة وليست متقاتلة متصارعة لأنه لا يستغني أي منها عن الآخر، أما ما تراه الماركسية من صراع مع الطبيعة فهو تسخير لا صراع:

---

(١) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها ص ٥٠.

(٢) الحج: ٤٠.

(٣) آل عمران: ١٥٢.

(٤) الأنفال: ٤٦.

(٥) النساء: ٥٩.

(٦) الأنبياء: ١٨.

لأنها مـخلوقة من أجل الإنسان، وإن جـمالها وأهمـيتها وعـطاءها لن يتجلى إلا إذا سخرت للإنسان، وأعمل فيها عقله ويده)[١] .

والفكر الماركسي الذي قام على نظرية الصـراع أثبت فشله، وحفـر قبـره بيديه وماتت تجربتـه بالسكتة القلبية علـى غير توقع من كثيـرين؛ لأنه حاول أن يبني واقع الناس على التنازع والصراع لا على التدافع والتنافس في الإبداع .

وبناء المجتمعـات وتقدمها لا يخلو من اختلاف في الآراء والتـوجهات ولا يخلو من حاجة لإقامـة الحجة والبرهان، ولا يخلو من تنافس واستثارة للنفـوس؛ لتقدم ما عندها من الخير، وتطلب العدل وتقاوم الجور، وتحاول الإصلاح، وتدرأ الفساد، ومن أجل ذلك يحدث الـتدافع بين أبناء المجتـمع الواحد للحـفاظ على هذا المجـتمع من العبث الذي يؤدي إلى الخراب والهلاك .

والمجتمـعات الحية ـ مـؤمنة أو كافرة ـ ترى حركـة التدافع فيها قـوية نشيطة لا تتوقف؛ لأنها مـستمرة في بناء النفوس، وبناء الحيـاة بتنمية وسائلها، وتقويـة دعائمها وإبراز مظاهرها النافعة، والوقوف في وجه السلـبيات المصطنعة من قبل الذين ينظرون فقط لمصلحتـهم ولأشخاصهم، ولتحقـيق منافعهم، ولو كانت على حسـاب المجتمع، والرسول ﷺ بين لنا كيف نتصرف مع أمـثال هؤلاء، وحثنا على الأخذ على أيديهم حتى يسلم المجتمع مـن الشرور والمهلكات، فقال ﷺ: «**مثل القـائم على حدود الله والمدهن فيـها كمـثل قوم استهـموا على سفـينة في البحر، فـأصاب بعضـهم أعلاها، وأصاب بعـضهم أسـفلها، فكان الذين في أسـفلها إذا اسـتقوا من الماء مـروا على من فوقهم، فقـال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذونا، فـقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خـرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فان يتـركوهم وما أرادوا هلكوا جميـعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا**»[٢].

وهذا الحديث يمثل جزءا من منهج الإسلام في دفع المنكرات والتصدي للمفسدين المخـربين الذين لا ينـظرون إلا لذواتهم، ويجب على كـل قـادر أن يمنع الانحـراف

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٩٣)، والترمذي (٢١٧٣)، وأحمد (٤/٢٦٨، ٢٧٠)، عن النعمان بن بشير رضي الله عنها.

والشر، حتى ولو كان بعيدا عنه؛ لأن الأضرار تعود على المجتمع الذي يشترك في العيش فيه الجميع. . . ، من هنا كانت سنة التدافع ذات أهمية كبرى في حياة المجتمعات وعمرانها وبناء نهضتها ورقيها، ودفع الأذى الذي قد يأتي إليها من بعض أبنائها أو من أعدائها، على أن الفصل الحازم بين التنازع والتدافع قد يوجد في بعض الحالات، وقد يتحول التنازع، أحيانا إلى تدافع، وقد يصل التدافع في بعض حالاته إلى صراع مع الفساد لا يهدأ إلا باجتثاثه واقتلاعه، وقد يكون الموضوع الواحد قابلا من جهة إلى التنازع، ومن جهة أخرى إلى التدافع بحسب الأحوال، وطرق العلاج وخبرة المعالجين المصلحين.

وفي ضوء ما قدمنا نتساءل :

وهل ما يحدث بين الحركات الإسلامية على أرض المسلمين تنازع أم تدافع؟

وهل ما يحدث بين الحكومة ومجلس الأمة تنازع أم تدافع؟

وهل ما يحدث الآن بين حماس والسلطة الفلسطينية تنازع أم تدافع؟

ومن خلال الإجابة تتحدد الغاية والوسيلة، ويستبين الطريق أمام البناة المصلحين، أو ينكشف الستار عن العتاة المفسدين.

ثانياً: السفر والسياحة والبناء المجتمعي:

لقد اهتم الإسلام بالسفر وأمر بالسير في مناكب الأرض بغية التدبر في آيات الله الكونية، والاعتبار بالأمم الماضية، ولأهمية السفر فإن الإسلام قد وضح له أحكاماً وضوابط تجعله سفر طاعة وعبادة، وسفر قيم وأخلاق، كل ذلك من أجل المحافظة على الإنسان.

أ- قيم الإسلام تصون الإنسان:

مع بداية الصيف وانتهاء الطلاب من امتحاناتهم، تستعد أسر كثيرة للسفر خارج البلاد، حيث يذهبون إلى بلاد قريبة منا دينا ولغة، أو إلى بلاد بعيدة تدين بغير ديننا، وتتكلم بغير لساننا، وتشيع فيها أعراف وعادات وتقاليد تخالف ما نشأنا عليه ودرجنا، مما صار يشكل جزءا من حياتنا، لا نستطيع أن نتخلى عنه، أو أن نستبدل به غيره إلا إذا فعلنا كما فعل الغراب في القصة الرمزية المعروفة، حيث أراد الغراب أن

يقلد الطاووس فما استطـاع، فأراد أن يعود إلى طبيعته الأولى فـما استطاع، فلا هو صار طاووسا ولا بقي محتفظا بأصله وطبيعته.

ولسنا والحمد لله نرضى بهذا السلوك المشين الذي نقلد فـيه غيرنا، ونتخلى عن طباعنا الأصـيلة؛ لأن هذا ـ حتى لو أردناه ـ غير مـستطاع، فديننا وتربيـتنا وأخلاقنا وبيئتنا.. كل ذلك يأبى علينـا أن نكون شيئا آخر غيـر ما نحن عليه. فحيثـما وجدنا وجدت معنا هذه العـوامل، التي تشكل الوجدان، وتصون الإنسـان، فلا ينجرف في تيار العـصيان، ولا ينـساق وراء الانحرافـات العديدة والموبقات الشـديدة، التي تعج وتمتلئ بها البلاد غير الإسلامية، وتيسرها لطالبيها، بل وتغريهم بها وتشدهم إليها.

ب ـ أنت تمثل دينك وقومك:

وقد كان من فضل الله على المسلمين أن صانهم بهذا الدين، الذي أوجب عليهم العفة، وحدد لهم مسالك الاستـمتاع بالنساء عن طريق الزواج الصحيح وحده، دون أن يكون هناك طريق آخر، صانهم الله بهذا التشريع من أن تشيع فيهم أمراض العصر الفاتكة، التي ما يكاد يذكـر اسمها حتى يستعيـذ الناس من شرها، ويطلبون من الله الوقاية منها...، أسمعت عن الإيدز الذي لا علاج له؟ أيسرك أن تجعله هديتك لأهلك وولدك عندما تعود من سـفرك المنكود؟ أنا لا أعتقـد فيك ذلك، وأربأ بك أن تعرض نفسك لمثل هذا الشر أو حـتى لما هو أخف منه، بل إني أعتقد أنك تستـشعر دَيْناً في عنقك نحو دينك، ودَيْناً في عنقك نحـو بلدك؛ ولذا فإنك أثناء سفرك سفيـر متجول بين الناس لبلدك؛ وداعياً بسلوكك وتصـرفك وحسن أخلاقك لدينك الذي تحمله في قلبك، وتمارس شـعائره في سفـرك وفي إقامـتك، والناس في غيـر بلاد المسلمين لا يودون أن يعرفوا شيئا عن الإسلام؛ لأن كثـيرا من المنتسبين إليه لا يمثلونه خير تمثيل، بل إن بعضـهم ليشوّه صـورته أعظم تشويه أمام الآخـرين، فينفـرهم منه، ويصدهم عنه، ويضيف بذلك آثاما إلى آثامه، وأوزارا يحملها فوق ظهره حين يلقى ربه.

جـ ـ غرس أثمر:

وما كان المسلمون الرحالون إلى البلاد الأخـرى في العصور السابقة إلا دعاة إلى الله بسلوكهم وأعمالهم لا بألسنتـهم وأقوالهم...، والمسلمون اليوم في جنوب شرق

آسيا الذين يعـدون بمئات الملايين هم غرس أولئك التجار المـسلمين الذين خرجوا من الجزيرة والخليج إلى تلك البلاد، فكـانوا بهدى دينهم الذي استصحبـوه في أسفارهم ولم يتخلوا عنه، كانوا خير دعـاة يحملون نور الله الذي يبدد ظلام الوثنية. . وأنت ـ أيها المســافر اليوم ـ تسـير في بلاد عديدة لا تـعرف من الدين إلا اسمـه، فهل تكون بسلوكك كما كان أجدادك السابقون أم تذوب هناك وسط الجموع، فتفعل ما يفعلون، وتضل كما يضلون؟ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[1].

د ـ أنت حيث تضع نفسك:

إنه لمن العار أن تترك صورة المسلم المضيئة داخل حدود بلدك لتخرج أنت معربدا بين الناس، غير عابئ بخلـق ولا بدين، وغير عابئ بمسبة تلحقـها ببلدك، واقرأ معي ما قاله الأستاذ طارق ذياب في مجلة المجتـمع العدد (١٣٠٢) تحت عنوان السفر غير البريء: (خـلال عطلة الهجـرة النبوية سافـرت إلى إحدى الدول العربيـة المطلة على البحـر المتوسط لإنجـاز بعض الأعمال، وعند عـودتي تأخرت الطائرة عن مـوعدها، فانتظرنا لمدة ساعتين في صالة الانتظار التي امتلأت بالمسافرين العائدين إلى الكويت، ولقد هالني الأمر، فقد كانت أغلبيـتهم من الشباب الكويتي الذين تراوحت أعمارهم بين ١٥ و٢٥ سنة، إلا أن عـددا مـنهم كـانوا في حـالة من السـكر الواضح، وقـد احمـرت أعينهم وهم يتضـاحكون بصوت عال خـال من الحياء والأدب، ويتـبادلون النكات السمجة، ويتحدثون عن أخبار مغـامراتهم مع بائعات الهوى الرخيصات جدا في تلك الدولة.

هذا الأمر يدفع للتساؤل: هل هذا هو الشـباب الذي ستعتمد عليـه دولتنا الفتية في بناء مستقبلها؟ وهل هذا هو الشباب الذي سـتناط به مسؤولية حماية البلاد ورفعة شأنها؟

ثم أين الرقابة الأسـرية على هؤلاء الفتـية؟ وهل يعلم ذووهم غرض سـفرهم؟ وهل يأبهون لاحتمال وقوعهم في الزنى والمحرمات؟).

وإذا ـ أيها المسافر ـ مـثلت دينك بحق كسبت احترام الآخريـن وإن خالفتهم في

---

(١) محمد ١٢.

عاداتهم وتقاليدهم، وحينئذ يسهل عليك أن تكون سفيرا متجولا لبلدك «الكويت» العزيزة عليك.

وأن تكسب رأيا عاما شعبيا يكون لها في الملمات سندا وعونا؛ لأنهم رأوا من شبابها الجد في التصرفات، وحسن الخلق في الأسفار والإقامات، رغم ثرائهم ووفرة المال في أيديهم. فكيف لا يؤيدون قضية الكويت العادلة، وهم يرون اتزان الشباب وحكمة الكبار، وحسن التصرف في كل الأحوال؟

هـ. مما يعين المسلم في أسفاره:

١ـ اختيار الصحبة الصالحة، التي تعينه إن ذكر، وتذكره إن نسي، وتجعل من كل واحد فيها رقيبا على الآخرين، يحافظ عليهم من نزغات الشياطين، لأنه يتحرك معهم، ولا يسير إلا في معيتهم وصحبتهم، وهم يعلمون أن أمامهم مهمة يقومون بها، وسواء كانت هذه المهمة علما يطلب، أو علاجا يستكمل، أو سياحة في الأرض للنظر والتأمل، أو للتجارة أو غير ذلك من الأغراض البريئة، فإن الصحبة الصالحة خير رفيق في الأسفار، تحمي الفرد وتصونه من الأخطار.

٢ـ استشعار عزة المسلم، الذي يأبى له دينه أن يتدنس بالأرجاس أو يتلطخ بالقاذورات، التي تحط من كرامته، وتسيء إلى دينه وبلده، وتجعل الناس يحقدون عليه لسفهه، وسوء فعله، ويتمنون أن يقع في الكوارث والمشكلات التي تشغله عن لهوه ولعبه، خاصة حين يرون أنه يمثل خير تمثيل قول الشاعر القديم:

إِنَّ الشَّبَابَ والفَرَاغَ وَالْجِدَهْ[1] مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَهْ

فإذا ما تغلب الشباب على الفراغ، وأحسنوا إنفاق المال سلموا في أعين الناس من الفساد والإفساد.

٣ـ وضع برنامج عملي لاستغلال فرصة السفر في التأمل في خلق الله، ودراسة ما يحيط بالإنسان في البلد الذي أنت ذاهب إليه، ومعرفة عوامل الرقي أو الانحطاط التي تراها أمامك وإرجاعها لأسبابها القريبة أو البعيدة، وهل لها مثيل في البلاد الإسلامية أو لا؟ ولماذا؟ وكيف نحقق عوامل الرقي، ونبتعد عن عوامل الانحطاط؟

---

(١) الجدة: المال.

وما دورك أنت في ذلك حين عودتك إلى بلدك؟ ولماذا يتقدمون هناك ماديا وينحطون أخلاقيا؟وكيف يحترمون حقوق الآخرين المالية ومن ثمَّ لا يراعون حقوق الآخرين في الأخلاق والحياء والمحافظة على الأعراض؟

إن المسافر ما لم يستفد من كل ما يراه، وما لم يحكم عليه بميزان دينه وخلقه قد يغتر بما عند الآخرين وقد يختلط عليه الخير والشر، فلا يدري بأيهما يأخذ، ولا أيا منهما يختار. فهل نأخذ حذرنا في سفرنا؟

و- الفرص عديدة داخل الكويت:

ولقد أصبح من العادات المتبعة في الكويت أن يسافر معظم الناس في فصل الصيف إلى الخارج، وقد يستدين البعض من هنا أو من هناك حتى يقوم برحلة الصيف الميمونة، ثم يظل طول العام مكبلا بالأقساط، يضيق نفسا مع أول كل شهر حين يقتطع قسطا مما أخذه وأنفقه في غير ما يفيد أو ينفع، ثم لا يتعظ بهذه التجربة، بل يظل يكررها كل عام، وكأنما أصبح السفر فريضة لازمة يلزم الإنسان بها نفسه، وإن تحمل في سبيلها المشاق.. والإنسان بذلك يثبت أن الله أرحم بخلقه من الإنسان بنفسه، لأن الله حين أوجب الحج أوجبه على القادرين وحدهم، ولم يطلب من خلقه أن يستدينوا ليؤدوا فريضة أوجبها عليهم، قال سبحانه: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾ [(١)] فغير المستطيع لا يجب عليه الحج، فلماذا يوجب على نفسه السفر كل صيف؟

إن الذين لا يتمكنون من السفر لسبب من الأسباب أمامهم فرص كثيرة ليستمتعوا بوقتهم داخل الكويت في قراءة نافعة، أو الاشتراك في الأندية الصيفية التي تقيمها جمعيات النفع العام للكبار والصغار، وللرجال والنساء، أو الاشتراك في تعلم بعض المهارات النافعة، أو غير ذلك مما يزيد رصيد الإنسان الثقافي والفكري والعملي من غير أن يشعر بعبء الديون، أو يضيق عند سدادها.

إن على المسافرين واجبات كثيرة جسيمة نحو أنفسهم، ونحو بلدهم، ونحو دينهم فهل تؤدى هذه الواجبات؟

---

(١) آل عمران: ٩٧.

وإن أمام غير المسافرين فرصة للتزود الإيماني والثقافي، والمشاركة في العمل الاجتماعي فهل يحققون ذلك؟

ثالثا: الشباب والعفة:

إن الشباب هو جيل الغد وأمل المستقبل وطاقة الأمة الحقيقية وعماد نهضتها المرجوة، قال ـ تعالى ـ عن أهل الكهف: ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ**﴾(١)، كما أنه من السبعة الذين يظلهم الله ـ عز وجل ـ في ظله يوم لا ظل إلا ظله «**شاب نشأ في طاعة الله**»(٢).

أ ـ سمات الشباب:

إذا وردت كلمة «الشباب» في الذهن حملت معها معاني القوة والجرأة، التي قد تصل إلى التهور، والاعتزاز بالنفس الذي قد لا يقبل صاحبه نصائح الآخرين، والثقة التي لا تحدها حدود، مما يجعلها تختلط مع الخيال أحيانا، وكل تلك الصفات هي سمات مرحلة الشباب التي يحن الكبار لذكراها، ويأمل الصغار ويتعجلون في الوصول إليها، وإذا تحلى الكبار بالحكمة ورزانة العقل، وحسن التصرف في الأمور بخبرتهم التي اكتسبوها على مر الزمان، فأغناهم ذلك عن شيء كثير مما إليه يحنون، فإن الصغار الذين هم دون مرحلة الشباب لا يملكون شيئا من ذلك؛ ولذا يتعجلون، ويقلدون غيرهم ممن هم أكبر سناً (الشباب).

ومن هنا فإن الواقع يقرر أن الشباب يطبعون الجيل الذي يخلفهم بطابعهم، ويؤثرون فيه بأعمالهم وأقوالهم تأثيراً بليغاً، قد تخفف من حدته أحيانا ـ وفي بعض الحالات ـ تجارب الكبار وتوجيهاتهم التي يلاحقون بها صغارهم، فإن كان الشباب صالحا ـ في معظمه ـ سهل على الجيل الذي يليه أن يسير في نفس الطريق، وأن يشب حافظاً لقوته من أن تتسرب في مخادع الشهوات أو مجالس المسكرات والمخدرات، وإن كان الشباب غير ذلك فإن البلاء الذي يحيق بالجيل الذي يليه يكون أعظم وأخطر وأعم؛ لأن الفساد يتستر في أغلفة لا يبحث خلفها المصلحون، وقد لا يعرفها المرشدون فتظل كامنة مستترة تنحر في الأخلاق، ثم إن الشاب أو الفتاة يباهي أمام الأقران، وربما أمام من هم أصغر منه سناً بما فعل وما ارتكب، إظهاراً منه

---

(١) الكهف: ١٣.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

للبطولة، وتعجلا لمظاهر الرجولة.

ولكنه ـ أبداً ـ لا يفعل ذلك أمام الكبار ولا يتحدث به أمامهم؛ لإدراكه أن هذا لا يرضيهم ولا يقرونه عليه، وأن أبسط ما يناله منهم هو اللوم والتقريع، من هنا تتسرب انحرافات الشباب القولية وحتى الفعلية في سراديب السرية، فلا يشعر بها الكبار، وإن شعر بها بعض الصغار.

ب ـ شيوع الإثارة الجنسية:

وهذا يضاعف مسؤولية التربويين الذين ينبغي عليهم أن يبذلوا نشاطاً كبيراً مع الشباب، وأن يحسنوا توجيهه، وأن يباعدوا بينه وبين الانحرافات التي يتعمد الآخرون أن يضعوها له، وأن يزينوها أمامه (عن طريق وسائل الإعلام، ودور النشر، والمسرح، والسينما، والبرامج الإذاعية والتلفزيونية، وعن طريق كل عميل خائن وكاتب مأجور)[1].

وقد عمل الأعداء على إغراق الشباب في الفساد، حتى (لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات وإن تبوأ المراكز ففي سبيل الشهوات. .) هكذا يقول القس زويمر كبير المبشرين عن ثمرة جهود إخوانه المبشرين في البلاد الإسلامية، حتى صارت جهود كثيرة تسعى في كل دولة إسلامية لإثارة الشهوات أمام الشباب.

وقد عبر عن ذلك واحد من الشباب فقال: «إذا ذهبت في السيارة نظرت يميناً فإذا أنا بامرأة متبرجة متزينة. . . ، وأدخل البيت وأجلس مع أهلي وإذا بفيلم فاضح يعرض صوراً عارية على شاشة التلفزيون. . . ، أجلس في داري وأقرأ الجرائد، وإذا ببصري يقع على ما يثير النفوس ويهيج الشهوات. . . ، أقرأ المجلات وإذا بالقصص والأخبار المثيرة تثير كوامن النفس الأمارة. .»[2] وكذلك عبرت إحداهن عن ذلك فقالت: «إني أفكر في الانتحار في كل دقيقة، بل في كل ثانية لأنه لا تمضي ساعة واحدة دون أن أشعر بالعاطفة الجنسية الجامحة تخترق أحشائي كما يخترق الرصاص

(١) دور الشباب في حمل رسالة الإسلام ص ٢١.
(٢) العفة ومنهج الاستعفاف ص ١١.

جسم الإنسـان ويقتله، وكلما شـاهدت فيلماً عاطفـياً، أو قرأت قـصة غرامـية تثور عاطفتي وغرائزي»[١].

جـ. نموذج واقعي:

أليست هذه الإثارة المتعمدة والمستمرة للشـهوات، ثم ما يتبعها من إحباطات عند الشاب أو الفتاة، مع غياب التربية الصحيـحة والرقابة الأسرية، وإعطاء الشباب كثيرا من الحرية والسهر وربما التغيب عن البـيت من غير أن يسأل أحد عن الغائب لم غاب وأين غـاب؟ ولا عن المتأخـر خـارج البـيت أين كان ومع من؟ أليـس هذا القصـور التربوي والأسري وراء ما تطالعه في الصحف كل يوم من جرائم أخلاقية تتصل بهتك الأعراض، وإدمان المخدرات؟

أليس سيل الجرائم الذي لا يتوقف وراءه هذه المثيرات الدافعة للانحراف؟

وإلا ما الذي يجعل فتاة في سن الرابعة عـشرة تقبل أن تنحرف وتمارس الفاحشة راضية مختارة؟

وهذا مـا كتـبتـه إحدى الصـحف الكويتيـة في٣١/ ٥/ ١٩٩٨م كتـبت: «تلقت عمليات الفروانيـة بلاغاً بالعثور على فتاة كـويتية الجنسية (١٤سنة) سجل لهـا قضية بسجل المتغيبين حيث أفادت أن أحد الأشـخاص أخذها إلى منزل أحد أصدقائه،وقام بمعاشرتها مـعاشرة الأزواج،كما قامت في اليـوم التالي بالذهاب مع اثنين آخرين إلى شقتهما وقاما بهتك عرضها ومعاشرتها ثم تركاها في الواجهة البحرية حتى عثر عليها من قبل رجال مخفر السالمية.

وإدارة العلاقـات العامة تهـيب بالأسر ضرورة فـرض رقابة صـارمة على الأبناء وخاصة الفتيات القصر وعدم تركهن يخرجن بمفردهن من المنزل لضمان عدم تعرضهن لمثل هذه المشاكل».

وإدارة العـلاقات العامـة بوزارة الداخليـة تستـحق الشكر على مناشدتهـا الآباء والأمهات أن يراقبوا أبناءهم وبناتهم، وليتهـا عممت هذه المناشدة؛ لتصل إلى أجهزة الإعلام التي تثيـر في الشباب كوامن الغـريزة، التي تجمح بهم فتخـرجهم عن حدود

---

(١) المصدر السابق ص ٥٣.

الدين والأخلاق والقيم، وهذا يحقق ما هدف إليه اليهود في بروتوكولاتهم إذ قالوا: «يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا، إن فرويد منا سيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكيلا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه)[١] وهذا ما يحدث في كثير من الأفلام والمسلسلات وأفلام الفيديو، وبعض العروض المسرحية، وعروض الأزياء، ومسابقات الجمال التي صارت تقام في بعض البلاد الإسلامية، إلى جانب شيوع السفور والتبرج والخضوع في القول والتكسر في المشية، والتخنث في الحركة، وكل هذا معروض أمام الشباب الذي تلهبه الشهوات بسياطها وتجذبه النزوات نحوها، ولا يحول بينه وبينها وازع من ضمير أو رقابة من أسرة، فغاب جانب التوجيه والإرشاد، وحضرت إلى جانبه وزينت الشر له صحبة الأشرار.. فماذا تنتظر منه؟ وماذا تنتظر له؟

لقد آلمني كثيرا أن أرى بعد صلاة فجر أحد الأيام عند أحد فروع بعض الجمعيات التي تقدم خدماتها أربعا وعشرين ساعة ستة شبان وفتاتين فوق أربع دراجات نارية، لا تكاد تفرق بين الفتى والفتاة في ملبس ولا مظهر إلا أن الفتاة ينسدل شعرها قليلا خلف ظهرها، ثم نزلوا لشراء بعض العصائر، وركبوا دراجاتهم وانطلقوا حتى غيبهم الشارع عن أعين الناظرين، وتساءلت من أين جاءوا وإلى أين يذهبون؟ وأين آباؤهم وأمهاتهم؟ وأي رقابة على هؤلاء؟

وإذا كان هذا يحدث في الكويت رغم العرف والعادة والتقاليد التي ترفض هذه التصرفات المخالفة لدين الله وهدي رسوله ﷺ، فما بالك بما يحدث في خارجها على يد المسافرين، وقد نقلنا من قبل كلمة الأستاذ طارق ذياب في حديثنا عن السياحة والسفر، ولا بأس أن نعيدها هنا في حديثنا عن الشباب والعفة لعل فيها عبرة لمعتبر وعظة لمتعظ.

(خلال عطلة الهجرة النبوية سافرت إلى إحدى الدول العربية المطلة على البحر المتوسط لإنجاز بعض الأعمال، وعند عودتي تأخرت الطائرة عن موعدها، فانتظرنا لمدة ساعتين في صالة الانتظار التي امتلأت بالمسافرين العائدين إلى الكويت، ولقد

---

(١) منهج العفة نقلا عن: تربية الأولاد فى الإسلام.

هالني الأمر، فقد كانت أغلبيتهم من الشباب الكويتي الذين تراوحت أعمارهم بين ١٥و٢٥ سنة، إلا أن عددا منهم كانوا في حالة من السكر الواضح، وقد احمرت أعينهم وهم يتضاحكون بصوت عال خال من الحياء والأدب، ويتبادلون النكات السمجة، ويتحدثون عن أخبار مغامراتهم مع بائعات الهوى الرخيصات جدا في تلك الدولة.

هذا الأمر يدفع للتساؤل: هل هذا هو الشباب الذي ستعتمد عليه دولتنا الفتية في بناء مستقبلها؟ وهل هذا هو الشباب الذي ستناط به مسؤولية حماية البلاد ورفعة شأنها؟

ثم أين الرقابة الأسرية على هؤلاء الفتية؟ وهل يعلم ذووهم ما غرض سفرهم؟ وهل يأبهون لاحتمال وقوعهم في الزنا والمحرمات؟).

د ـ طريق الدمار:

وانهماك الشباب في الشهوات والمخدرات يجعله صيداً سهلاً لقناصة الفساد في الأرض الذين يقطعون خط الرجعة على هؤلاء الشباب فلا يتوبون إلى ربهم ولا يرجعون عن غيهم، وما أخبار طائفة عبدة الشيطان التي ظهر لها فرع في مصر في فبراير سنة ١٩٩٧م عنا ببعيد؛ فهم يقيمون الحفلات الجنسية الصاخبة ويتم توزيع المخدرات لهم مجاناً، وذلك لاستقطاب المراهقين، وخلال هذه الحفلات يتم تصوير الأعضاء الجدد تصويراً سينمائيا وفي أوضاع جنسية شاذة، بعد ذلك يطلب من كل عضو الدخول في غرفة خاصة؛ لتوقيع عقد مع الشيطان فإذا رفض استخدمت تلك الصور كأداة تهديد ضده، وقد اجتاح الغضب والسخط المصريين بعد أن كشفت أجهزة الأمن المصرية النقاب عن جماعة كافرة أطلقت على نفسها اسم (عبدة الشيطان)، وتم القبض على ٧٨ رجلاً من أنصار هذه الجماعة، في شهر فبراير من عام ٩٧، وقد أوردت أجهزة الأمن عنهم إنكار وجود الله والدعوة إلى عبادة الشيطان، والترويج لتدنيس المقدسات الإسلامية، وتمزيق المصاحف وإلى الشذوذ الجنسي فيما بينهم وتعاطي المخدرات، وتلطيخ أجسامهم العارية بدماء الضحايا من الأبرياء الذين يذبحون على أيديهم ليشربوا دماءهم، وانتهاك حرمات المقابر واستخراج

الجثث والتمـثيل بها، ومن أبشع ما ذكر بـشأنهم قيام شخص بخطف أمـه والاعتداء عليها، وتقديمها قربـاناً للشيطان بعد أن اغتصبها باقي أفراد جمـاعته (عبدة الشيطان) بالتناوب.

هـ ـ الوقاية والحصانة:

ومثل هذه الـتصرفـات والسلوكيـات التي تجرف الشـباب في تيارهـا، وتضعف مقاومته أمام الأعداء، وتجعله مشلول الإرادة، مسلوب العزيمة، لا يصبر في بأساء، ولا يثبت عـند اللقاء، إن مثل هـذه الأحداث تفرض على المجـتمع بأسـره التصـدي لها بالتربية الإسلامية الصحيحة، والرقابة الأسرية القويمة، والتوجيه السديد والاقتراب من الشباب في غيـر عنف ومناقشة مشاكله من غير عـتب ولا لوم ولا ذم ولا تسفيه ولا تحقير، ولقـد فعل ذلك رسول الله ﷺ، فقد روى الإمام أحـمد بسند جيد عن أبي أمامة رضي الله عنهم: أن غلاماً شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله أتأذن لي في الزنى؟ فصاح الناس بـه، فقال النبي ﷺ: «**قرّبوه، ادْنُ**» فدنا حتى جلس بين يديه، فقـال عليـه السلام: «**أتحبـه لأمك؟**» قـال: لا، جعلني الله فـداك، قـال: «**كذلك الناس لا يحـبـونه لأمهـاتهم، أتحـبـه لابنتك؟**» قال: لا، جـعلني الله فـداك، قال: «**فكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتحبه لأختك؟**» قال: لا، جعلني الله فداك، قال: «**فكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم**».

وزاد الراوي ابن عوف حتى ذكر العمـة والخالة، وهو يقول في كل واحدة: لا، جعلني الله فداك، والنبي ﷺ يقول: «**كذلك الناس لا يحبونه..**».

ثم وضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: «**اللهم طهر قلبه، واغـفر ذنبه، وحصن فرجه**»، فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنى[1]!!

وقد سد الدين كل ثغرة يمكن أن ينفذ منهـا شيطان الشهوة، فمنع الخلوة إلا بين المحارم، وأمر بغض البصـر، ونادى في الشباب: «**من استطاع منكم البـاءة فليتزوج،**

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٥٦)، والطبراني في الـكبير (٨/١٦٢، ١٨٣)، (٧٦٧٩، ٧٧٥٩) عن أبي أمامة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٢٩): «رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحح»، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٠).

ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[(١)] وحث الشباب على مراقبة الله فقال ﷺ: «**إن الله ليعجب من الشاب الذي ليست له صبوة**»[(٢)] وجعل الطاعة لله ورسوله درعاً واقية من سهام الشهوات، فقال في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله: وشاب نشأ في عبادة الله.

ومعالم المنهج التربوي الإسلامي الحافظ للشباب كثيرة تشمل الجانب الروحي والجانب الأخلاقي والجانب الفكري الثقافي وكلها تعتمد على ما في القلب من عميق الإيمان الذي يمنع المؤمن من السقوط في الرذيلة فيفعل كما فعل يوسف الصديق حين قال: ﴿**رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**﴾[(٣)] ويفعل كما فعل مرثد بن أبي مرثد الغنوي حين امتنع عن الحرام، مدركا أنه يعرض نفسه لخطر القتل.

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد الغنوي وكان رجلاً يحمل الأساري من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها: عناق وكانت صديقة له في الجاهلية، وأنه واعد رجلا من أساري مكة يحمله. قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة. قال: فجاءت عناق فأبصرت سواد ظلي تحت الحائط. فلما انتهت إلي، عرفتني فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحبا وأهلا هلم فبت عندنا الليلة. قال: فقلت: يا عناق حرم الله الزنا، فقالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم. قال: فتبعني ثمانية ودخلت الحديقة فانتهيت إلى غار، أو كهف، فدخلت فيه، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالوا فظل بولهم على رأسي فأعماهم الله عني، ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فحملته وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيت إلى الإذخر، ففككت عنه أحبله، فجعلت أحمله ويعينني حتى أتيت به المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقا؟ أنكح عناقا ـ مرتين ـ فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد علي

---

(١) أخرجه (١٩٠٥، ٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥١)، وأبو يعلى (١٧٤٩)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٠٩) (٨٥٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٠): «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وإسناده حسن»، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٦٥٨).

(٣) يوسف: ٣٣.

شيئـا، حتى نزلت: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً..﴾[١] فقـال رسول الله ﷺ: «**يا مرثد، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها**»[٢].

ويعلق الأستـاذ يحيى العقـيلي في كتابه «العفـة ومنهج الاستعـفاف» على ذلك بقوله: «فهو على الرغم من الشـدة والمحنة التي لحقت به....، وعلى الرغم من حبه لتلك المرأة بدليل أنه استـأذن رسول الله ﷺ بنكاحهـا.. وعلى الرغم من أنها هي التي دعتـه وكان بإمكانه أن ينجو بنفـسه ويستـتر عن القوم عندها إلا أنه قـالها بكل صراحة: «**يا عناق حرم الله الزنى**» ولم يرض حتى باللجوء لبيـتها، بل قطع دابر الفتنة والشبهة وقالها لها قولة المؤمن العفيف.

هذه بعض جوانب تربوية إسلامية لم نقصد إلى إحصائها لأنها كثيرة، وإنما أردنا أن نقول: إن جـوانب التربيـة الإسلامـية مع وجـود الرقابة الأسـرية الفعـالة، وسد الثغرات التي تأتي منها المفاسد، ودرء هذه المفاسد عن الناس قبل وقوعها وانتشارها، إن هذا كفيل أن يوجد نوعا من الحصانة ضد الانحرافات والشهوات التي تقصم كاهل الشبـاب الذين هم نصف المجتمع في حـاضره وهم كل مسـتقبله.. فـإلى متى يكون التراخي في إهمال الثروة البشرية التي لا تعوض؟

رابعاً: كبار السن:

أ ـ الإسلام كرَّم كبار السن:

﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً..**﴾[٣] تبين الآية أن الإنسان الذي طال عمره يمر بمـرحلتي ضعف في حياته، يكتنفان ويحيطان بمرحلة قوة، ولعل ذلك ـ والـله أعلم ـ ليعلم أقويـاء اليوم، الذين كانوا بالأمس ضعافا، أنهم صائرون مرة أخرى إلى الضعف ـ إن مدّ الله في عمرهم ـ فلا تغرهم مرحلة القوة التي تمر بهم عن الاهتمام بآبائهم وأمهاتهم، ولا عن أجدادهم وجداتـهم؛ لأنهم بذلك الاهتمـام وتلك الرعاية يمهـدون لأنفسـهم، ويغرسـون في

---

(١) النور: ٣.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٥١)، والترمذي (٣١٧٧)، وقال: «حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، والنسائي (٣٢٢٨)، وحسنه الألباني.

(٣) الروم: ٥٤.

أبنائهم نموذجا عمليا يبين أن هذا هو ما ينبغي أن يفعلوا مع آبائهم كما يفعل آباؤهم مع أجدادهم.

وإذا كان الاهتمام بالأبناء ورعايتهم والسهر على راحتهم فطرة في الإنسان، تدفعه إلى الاستدانة ـ أحيانا ـ من أجل معالجة المريض، أو الإنفاق على طلاب العلم، أو مساعدة هذا أو هذه على الزواج، فإن الاهتمام بكبار السن (آباء كانوا أو أمهات، أو أجدادا أو جدات) قيمة إسلامية عظيمة أوصى الله بها عباده في عدد من الآيات منها قوله تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾[1].

وقوله: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾[2].

ومنها: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**..﴾[3] وجاءت طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ تبين هذا الأمر وتحث عليه، ومنها قوله ﷺ: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا**»[4]، وجاءت أحاديث أخرى تحذر من الوقوع في إثم عقوق الوالدين؛ لأنه من الكبائر الواجب اجتنابها، والابتعاد عنها، ومن ذلك قوله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وقول الزور**»[5]، فلماذا عكس الناس بتصرفاتهم أمر التشريع؟ وبأي شرع أو عقل أو منطق يتصرف العاقّون؟

ب ـ الواقع السلوكي عند البعض:

إذا كانت هذه مبادئ الدين الذي نعتنقه ونعمل به وسنحاسب عليه أمام الله ـ سبحانه ـ فأين الواقع الفعلي من هذه المبادئ؟ إن شريحة من الأبناء تقوم بهذه الواجبات الدينية خير قيام، بحرصها على الوالدين، واحترام الكبير، أخا كان أو قريبا

(١) الأنعام: ١٥١. (٢) الإسراء: ٢٣، ٢٤.
(٣) لقمان: ١٤.
(٤) أخرجه الترمذي (١٩٢٠) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنها، وصححه الألباني.
(٥) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

أو شخـصا لا تربطهم به قرابة في الرحم والنسب، ولكن شـريحة أخرى غـير قليلة أهملت العمل بهذه الواجبات الدينية، أو لم تعرفها أصلا، فعقت أبويها، وحاولت ـ جهدها ـ التخلص من شرف خدمتهما، وحملت أنفسها جرماً شنيعاً تلقى به ربها يوم القيامة.

وما يكتب في الصحف اليومية أو يتداول في الأحاديث الشخصية يحكي قصصا يندى لها جبين المروءة ويرتفع نصيب أصحابها من الخسة؛ لأن الإساءة لا تلحق مجرد طاعن في السن، ولو كـانت هذه وحدها لكانت قـاصمـة الظهر، ولكنهـا تلحق أباً طاعنا في السن أو أماً عـجوزاً كشـفت غضونهـا عن تحملها الصـابر لآثار السنين في تربية الأبناء.

فهل يكون جزاؤهما العقوق والإساءة والتنكـر للجميل؟ كيف هذا والله سبحانه يقول: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾[1] فانظـر إلى هذا (الإحسان) الـذي قام به بعض الأبناء:

أخذ أحدهم أمه ذات مسـاء إلى شاطئ الخليج، وجـلس معهـا قليلا، ثم تركها ـ بعد أن أعطاها ورقة مكتوبة ـ على أن يعود إليها بعد حين. وطالت غيبته وطال انتظار الأم في مكانها دون جدوى، حتى مـر بها أحد الأشخاص، فاستغـرب وجود عجوز في هذا الوقت المتـأخر من الليل على شـاطئ الخليج من غير أن يكـون معهـا أحد، واقترب الرجل مـنها، وسألها إن كانت تريد شـيئا، فحكت له قـصتها وأخـبرته أنها تنتظر ولدها وقرأ الرجل الورقـة التي معها فـإذا فيها رجاء لمن يقـرؤها أن يأخذ المرأة لأقرب مكان لرعاية المسنّات.

وحكى لي من أثق بصحـة كلامه، وصدق حديثـه أن عددا من الأبناء أخذوا أباهم إلى إحدى المستشفيات لإجراء بعض الفحوصات، ومكث الرجل أياما في المستشفى، ثم لم تكن حـالته تستـدعي البقاء هـناك؛ لأنه ـ وإن تقدمت به السن ـ ليس مـريضا مرضا عضويا مما يدخل في دائـرة عمل المستشفيات، فاتصل المختـصون في المستشفى بأولاده الذكور واحدا وراء آخـر، وكلهم يعتذر عن أخذ الرجل لـسبب أو لآخر، ثم

---

(١) الرحمن: ٦٠.

كان موقف بناته منه نفس موقف أبنائه مما جعل المستشفى يتصل بمخفر الشرطة، وكان المسؤول فيه رجلا شهما، لا يقبل العوج، أو الهروب من الواجبات فاستدعى جميع أبنائه وهددهم وتوعدهم، وأخذ عليهم التعهدات بأن يحافظوا على أبيهم وأن يراعوه ويكرموه.

جـ. وقفة تربوية إصلاحية:

وليست هاتان الحادثتان وحيدتين في هذا الباب، فهناك حوادث أخرى تؤلم النفس، وتدمي القلب مما يستدعي وقفة تربوية إصلاحية تشعر كبار السن بأن مكانهم في القلوب، وأن منزلتهم فوق الرؤوس، وأنهم بركة وخير في هذه الأرض.

وهذه الوقفة التربوية واجبة على عاتق كل إنسان له اتصال بالشباب في أي مكان؛ إذ ينبغي أن يشيع بين الجميع ما لكبار السن من حقوق ـ ينبغي أن تؤدى ـ على أبنائهم، وهي حقوق دائمة لا تسقط عند سن معينة أو في زمن بعينه، وهي كذلك حقوق توافق الأعراف والعادات والتقاليد العربية، وتستمد رسوخها وثباتها واستمرارها من الدين الذي لا يتغير ولا يتبدل، وإن تبدلت الأعراف أو العادات.

والحمد لله فالمتصلون بالشباب كثيرون، فأساتذة الجامعة، ومدرسو وزارة التربية والتعليم، وأئمة المساجد، وأجهزة الإعلام المختلفة، كل هؤلاء لهم صلة وثيقة بالشباب، وقادرون على أن يعالجوا مثل هذا الخلل بين بعض الشباب وأن يردوه إلى ما ارتضاه المجتمع من الإحسان للكبار، وهو ما يسير عليه سمو أمير البلاد ـ حفظه الله ـ حيث يحرص على مقابلة بعض كبار السن من رجال البحر والصيد والغوص، توثيقا لمكانتهم في المجتمع، وحرصا على إظهار الاهتمام بهم أمام الأجيال؛ ليتخذوا من عمله القدوة والمثل لأنفسهم.

وأما الوقفة الإصلاحية فتتمثل في: إنشاء جهاز أو هيئة أو جمعية رعاية المسنين تضم في عضويتها كل كبار السن، وتوفر لهم الرعاية اللازمة، وهم في أماكنهم وبين ذويهم معززين مكرمين، تقدم إليهم الخدمات من غير أن يطلبوها، وتكون لهم الأولوية في تقديم الاحتياجات.

ويمكن لأهل الذكر في المجال الاجتماعي والتربوي أن يضعوا تصوراتهم في هذا

المجال، بحيث تكون مشـروعا متكاملا يخدم هذه الشريحـة من آباء المجتمع، ويقوم بحقهم وواجـبهم خير قـيام، وما نقوله هنا لا يخرج عن أن يكـون فكرة للمشروع، يساهم في بلورتها وإظهارها والعمل على تحقـيقها كل قادر، حتى لا نجمع على هؤلاء علتي الضعف البدني، والقهر النفسي، وحتى نكتسب رضاءهم، وننال بركة دعواتهم.

خامساً: وقفات ثلاث:

أ. تطبيق الشريعة:

أن يتكلم إنسـان في المهد فـتلك مـعجـزة حدثت لأفـراد معـدودين، وأن يولد الإنسان كبيرا عاقلا مدركا رشيدا فذلك مستحيل لا يقبله عقل، ولا يؤيده واقع، وأما أن تولد دولة كبيرة بنفوس أصحابها وأبنائها، رشيدة بسلوكهم وتصرفاتهم، فذلك قد حدث حين خرجت الكويت من شـرنقة الغزو الآثم إلى حياة محـررة كريمة، يقودها نفر من أبنائهـا، ويعملون على أن تستعـيد مكانتهـا بين بلاد العرب والمسلمين، وفي المحافل الدولية والعالمية.

تلك المكانة التي كانت لها من قبل أن يأتي طوفان الغزو الغاشم، فيصيب الناس في نفوسـهم قبل أن يصيبـهم في ديارهم وأموالهم، كانت فـجيعة الناس لنبـأ الغزو أليمـة؛ إذ امتدت إليـهم اليد التي أحسنوا إلـيها بالإساءة، بـل قل بالسحق والمحق، ولكن الله لا يتخلى عن عـباده المؤمنين فألهم أهلنا الكويتيين الصـبر، وسدد الخطى، ووفق الناس إلى الالتفاف حول قادتهم، والتمسك بوحدتهم، والعض بنواجذهم على دينهم فتحقق التعاون والتكافل والتناصر والتـواد والتراحم بين أهل الكويت جميعها، وتسانـد الجميع، وسـاد بين الناس قـول رسول الله ﷺ: «**وأحب لأخيـك ما تحب لنفسك تكن مؤمنا**»[1] ، واتجه الناس إلى أعمال لم يكونوا في يوم من الأيام يفكرون أن يطرقوا بابها، أو يعـملوا فيها، ورغم الخطر كـانوا آمنين، ورغم الضيق لم يكونوا خائفين كانـت وجهتهم إلى ربهم فأعـانهم ونصرهم، وعادت الديار إلى أصـحابها، وعاد الناس إلى بلدهم، وولـدت دولة الكويت كبيـرة بنفوس أبنائها، قـوية بعزتهم، وتأييد مناصري الحق لهم، ووقوفهم إلى جانبهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٧)، عن أبي هريرة #، وفي الزوائد: «إسناده حسن»، وصححه الألباني.

وصار أبناء الكويت يعيدون إليـها بهجتها، ويظهرون معـدنها، فلم يقصروا في حق غيرهم بما حباهـم الله من نعمة، كانت قوافل الخير قبل الغـزو تتجه نحو المشرق والمغرب، ولم تتوقف بعده، رغم انشغال الدولة بالتعمير كانت مصلحة الكويت العليا هي الموجه وما زالت، كان الأفـراد يتمتعون بالحرية وما يزالون يمارسـونها دون حجر على أحد أو منع لأحد، أمن الناس على أنفسهم وأمـوالهم وبيوتهم بعد أن فقدوها، واقتعدوا وافتقدوا مقاعد الكرامة بعد أن جردهم العدوان منها.

ولكي نحافظ على هذه النعم كلها وفي مقدمتها نعـمة استمتاع الناس بالاستقرار في بلدهم وأمنهم في ديارهم لا مفر من أن نعمل على استـدامة الأخلاق الإسلامية؛ من تعاون، وتراحم، وتواد، وتواصل، وتآلف، وإقبال على العمل، وعزم على تحمل أعباء الخدمة العـامة في سبيل تحقيق الخير للجمـيع، وبعث الهمة في نفوس الأفراد، ليقوموا بدورهم فيؤثروا فى غيرهم ويتـخلون عن الأثرة والأنانية البغيضة ولن يتحقق شيء من ذلك بغير دافع يدفع إليـه، ويحث عليه وهو شريعة الله، التي في تطبيـقها والحرص على سيـادتها في مجتـمع المسلمين سيادة لهم وعزة لوجـودهم، ومنعة لهم من المآثم والمغارم، والوقوع في المهالك.

إن تطبيق الشريعة الإسلامية في دولة الكويت يعـتبر أمراً ضرورياً وفيه شكر الله على نعمة التحرير التي هيـأها الله لنا، والله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾[1].

إننا نحمي أنفسنا وبلدنا من عذاب الله وسخطه حين نطبق شريعته، ونتبع منهجه ونتأسى برسوله ﷺ، إننا في حاجـة إلى تطبيق هذه الشريعـة بما تمثله من قيم الحق والعدل والخير، التي هي أسس إقامة أي مجتمع آمن مستقر، إن الله ـ سبحانه ـ غني عن العالمين، لا يضره أن يـحيد الناس عن منهجه ولا ينفـعه أن يتمسكوا بشـريعته: «**إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغـوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخـركم وإنسكم وجنكم كـانوا على أتـقى قلب رجل واحـد منكم مـا زاد ذلك في ملكي شـيـئا، ولو أن أولكم وآخـركم وإنسكم وجنـكم كانوا على أفـجـر قلب رجل**

---

(١) ابراهيم: ٧.

واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر..»[1] إننا ـ إن طبقنا شرع الله ـ سنعيش حياة آمنة مطمئنة نتحلى فيها بالقيم.

فتكون فرحتنا بذكـرى التحرير عاملا دافعا نحو شكر الله بتطبـيق شريعته، وإن هذه الفـرحة لا ينقصـها ويقلل مـنها إلا أن يكون أسـرانا في الأغلال والقـيود، في سجون العراق، بعيدين عن أهلهم وذويهم وأبنائهم وزوجاتهم، فما ذنب ذلك الأسير الذي اختطف من بيته؟ وما ذنب تلك الزوجة التي غاب زوجها؟ وما ذنب ذلك الابن الذي أسر أبوه، فصـار يتيما أو كاليتـيم؟ إن حزن الكويت على هؤلاء الأسرى عظيم شامل، ولا أدل على ذلك من أن سـمو أميـر البلاد رفض أن يسـتقبل المهنئين بعـيد الفطر مشاركـة منه لذوي الأسرى وأهليهم، فهل يمن الله علينا بإطلاق أسـرانا، كما منّ علينا بتحرير بلدنا؟

إننا لنتوجه إلى الله بالدعاء أن يرحم شهـداءنا وأن يفك قيد أسرانا، وأن يجعلنا عاملين بشـريعته مـتبعين لمنهجـه، مقتـدين برسوله ﷺ وأن ينعم على بلدنا بالأمن والأمان دائما وأبدا.

ب ـ الأمـــن:

لم يعد من المستـطاع لدولة من الدول أن تغلق حدودها على نفسهـا، وتتقي شر أعدائهـا، وتنعزل عن الآخـرين، وإذا كانت هذه العـزلة ممكنة لدولة ما في عـصور خلت، فهي مستحـيلة اليوم في عالمنا الذي أصبح كقرية صغيـرة، لا يخفى فيها شيء أمام عيون مبصرة، ومزودة بكل وسائل الرؤية العصرية، المرئية والخفية.

والكويت واحدة من الدول ذات الأهميـة: إذ إنها مع بدء عام ٢٠١٠م ستكون من أوائل الدول المصدرة للنفـط، وما أدراك ما النفط، الذي لا يسـتغنى عنه الآن في كثير من وسائل الحياة المعاصرة؟ وسياسة الدول الكبرى تراعي هذه الحقيقة، ولذا فهي إن لم يكن لبعضها وجود في المنطقة فإنها غير بعيـدة عن مراقبة السياسة الخليجية عموما والكويتية خـصوصا، مما يجعل السـاسة الكويتيين يتوخـون الحذر ويوازنون بدقة بين المصلحة الكويتية، والمصالح الإقليمـية، والمصالح الدولية، وهذا يجعل مشكلة الأمن

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رضي الله عنه.

في الكويت هاجس كل فرد، ومستقبل كل شخص، ويجعل التفكير في المستجدات المحيطة بنا أمرا ضروريا وحيويا؛ ليظل لنا الأمن والأمان، بين جيراننا الأكثر منا عددا وقوة، والكويت محاطة بدول ليست كلها على وفاق دائم، بل هي في معظم الأحوال في حالات من الخلاف أو متحفزة لما يطرأ من خلاف، والحرب العراقية الإيرانية ليست بعيدة عن الأذهان، والرؤية السياسية ليست متفقة بين هذه الأركان.

وينال الكويت ما ينالها من أذى أمني جراء اختلاف جيرانها، وما الاجتياح العراقي للكويت في أغسطس ١٩٩٠م بغائب عن أذهاننا، ولا آثاره بعيدة عن أبصارنا ولا أحزانه وآلامه فارقت قلوبنا.. وهذا يؤكد تأثر الأمن الداخلي والخارجي بالتحركات الإقليمية من حولنا وبالتحركات العالمية كذلك، ويفرض علينا مزيدا من الدقة في اتخاذ القرارات وكثيرا من الحذر في إقامة العلاقات، ويستلزم من كل فرد القبول والحفاظ على بقاء الاتفاقات الأمنية وتلافي سلبياتها لحين توفر البديل المناسب مع تعديل وسائل الحماية، التي من أهمها السعي بجدية نحو امتداد خليجي أمني في شكل فيدرالية أو كونفيدرالية وخاصة مع المملكة العربية السعودية، وتنشيط العلاقات الخليجية من أجل استقرارها ودعمها وتثبيتها حتى تقوى وتمتد؛ لتتكامل خلال سنوات قليلة من أجل تحقيق أهداف مشتركة في الداخل أو في الخارج، مع وضع تصور كامل للعلاقات مع الدول المحيطة بنا يراعي ما يمكن أن يحدث من مستجدات خلال السنوات القادمة.

وهذا كله يؤدي إلى شحذ طاقات التحمل والبناء لدى الأفراد، ويقوي إرادة التحمل فيهم، ويجعلهم عناصر فعالة تسعى نحو تحقيق الأمن بكل ما تملك، وتحافظ عليه بكل ما تستطيع حتى بأنفسها وأموالها وأولادها.

جـ. تحديات.. ومهام:

أعتقد أنه لم يعد يكفي البكاء على الماضي دون تقويمه وأخذ العبرة منه، وأتصور أن هناك ثلاث مهام أساسية يجب أن يقوم بها الجميع من فعاليات وقوى أساسية في الأمة:

المهمة الأولى: هي تقويم الماضي تقويما موضوعيا مجردا من العواطف الزائدة؛

لأنه لا يمكن بناء المستقبل إلا على أساس الماضي.

المهمة الثانية: هي الفهم الصحيح الواعي لما يجري في الحاضر على المستويات المحلية والإقليمية والدولية، وإدراك «الواقع الجديد» الذي بدأ يتشكل مع النظام العالمي الجديد.

المهمة الثالثة: اعتماد الحوار كأسلوب حضاري متقدم بين جميع القوى السياسية والثقافية والفكرية، وجعل هذا الحوار ينتمي إلى المستقبل ويتجاوز معارك الماضي المتوهمة التي استنفذت القوى والطاقات.

سادساً: القرار الناجح:

(يتطلب حل المشكلات العرق والجهد والعقل، ولا يصلح مواجهة المشكلات بأسلوب الثور الذي يتخبط في مخزن مملوء بالأواني الزجاجية، إنك تحتاج إلى كل خبراتك ومجهوداتك لحسم المشاكل الشائكة التي تثير القلق، وأهم عنصر للحل الذي تنشده هو التوقيت المناسب، إنك في حاجة دائما إلى البدء فورا بمجرد سماعك لدقات ساعة العمل)[١].

القرار الصحيح في التوقيت المناسب هو أقصر الطرق للوصول إلى حل المشكلة (أي مشكلة كانت) والتغلب عليها، أو التقليل من حدة آثارها والتخفيف من أضرارها على الأقل.

وبدون وضع هذين الأمرين في الحسبان تصبح مواجهة المشكلة ضربا من التهويمات والظنون قد تصيب وقد تخطئ. . . ، وقد تؤخر حل المشكلة في الوقت المطلوب، فيأتي حلها بعد فوات الأوان، فلا تكون له قيمة تذكر، وقد تضيع جهود كثيرة في سبيل التغلب عليها، ثم لا تثمر الثمرة المطلوبة، ولا تحدث النتيجة المرغوبة.

والقرار الصحيح يحتاج إلى عقول مفكرة، وإلى بحث ومشاورة، وإلى النظر في الموضوع المطروح من زوايا مختلفة، وجهات متعددة، فلو كانت المشكلة المراد اتخاذ قرار بشأنها مشكلة اجتماعية مثلا فينبغي النظر إليها في ضوء الإجابة عن الأسئلة الآتية: هل هذه المشكلة عامة أم خاصة؟ وإذا كانت خاصة فهل تخص فئة معينة، أم

---

(١) مهارات إدارة الأزمات ص ٤٦.

طائفة من الناس، أم أصحاب مذهب سياسي أو ديني؟ وما أثر هذا على الشرائح الأخرى في المجتمع؟ وما أثره على المذاهب المخالفة؟ وهل لهذه المشكلة آثار اقتصادية أو انعكاسات سياسية؟ أو غير ذلك مما يحتاج إلى إجابات تحيط بالمشكلة وتحصى آثارها، وتبين طريقة النفوذ إليها، والبت فيها بالقرار الصحيح. وهكذا كل مشكلة في أي جانب من الجوانب تقتضي الإلمام بملابساتها، ومعرفة كل ما يحيط بها ويؤثر فيها أو تؤثر هي فيه، حتى يأتي القرار ملبيا للرغبات، بعيدا عن التعسف، يصل إلى المقصود بأقل قدر من الخسائر.

ومما يعين على ذلك ويساعد عليه المشاورة والمحاورة، التي تكشف لصاحب القرار عن جوانب قد تكون خافية عليه، وقد تساعده ـ حين تتضح أمامه ـ على الوصول إلى الغاية، وليست المشاورة هنا مفتوحة لكل أحد؛ لأن ذلك غير مستطاع وإنما تكون المشاورة لأهل الذكر، الذين أمر الله بسؤالهم عمَّا يخفى عنا بقوله: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾[1] وبعض الناس يعتقد أن أهل الذكر هم المجذوبون (الدراويش) وليس هذا هو المقصود؛ لأن أهل الذكر هم أهل المعرفة والخبرة التامة في أي جانب من جوانب الحياة، هؤلاء يسألون، لتكون إجابتهم المبنية على العلم، وعلى الخبرة العملية هي الضوء الذي على هديه يتخذ صاحب القرار قراره.

ثم بعد بحث جوانب المشكلة ومشاورة أهل الذكر فيها لابد من أن يكون صاحب القرار ذا عقل مفكر يوازن بين الآراء ويختار أرجحها وأقربها للمنفعة، وأسرعها للفائدة، فلا يقدم ما حقه التأخير، ولا يؤخر ما حقه التقديم. وبدون هذا العقل الواعي المدرك المتبصر تكون كل الخطوات السابقة عبثا لا جدوى منها، ولا قيمة ترجى منها.

إن مثل هذه الخطوات في سبيل الوصول إلى القرار الصحيح لا تتم إلا إذا احتكمنا إلى ميزان الشرع الإسلامي؛ لنجعله الضابط الأخير فيما سوف نصدره من قرارات، فلا قيمة لقرار يخالف أصلا دينيا؛ لأنه يسيء إلى مشاعر الناس ويؤذي نفوسهم، ولسنا نتحدث هنا عن قرارات دولية تصدرها الأمم المتحدة بناء على رغبات الآخرين، الذين لا يأتمرون بأمر الدين، ولا ينتهون بنهيه، وإنما نتحدث عن قرارات

---

(١) النمل: ٤٣.

تصدر في بلاد المسلمين ومن مسؤولين عن مؤسسات (رسمية أو شعبية) فيها؛ إذ يجب أن تستظل هذه القرارات التي قد تأخذ صورة قوانين ـ أحيانا ـ بظل الشريعة الإسلامية فلا تحرم ما أحل الله، ولا تحل ما حرم الله، وإلا أساءت إلى جمهور الناس وآذتهم، كاتخاذ قرارات جائرة لنصرة فئة العمال على فئة الملاك مثلا، أو لإقرار ظلم الملاك للعاملين أحيانا، وغير ذلك من القرارات التي تخرج عن إطار الشرع فهي كلها تؤذي نفوس عامة المسلمين، وتعلمهم كيف يتخلصون ـ بالتدريج ـ من الرقابة الدينية ويغلقون قلوبهم دونها، وكيف يتهاونون ويبتعدون عن الحق، ثم هم لا يرجعون ﴿**وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾[1].

إن القرارات التي تتخذ في أي مجال إنما تهدف لصالح الإنسان، ولذا فإن من الضروري أن يراعي صاحب القرار وقع هذا القرار على الناس وأثره في نفوسهم، وفي تحقيق راحتهم وتيسير حياتهم، وليس يغيب عن الأذهان أن أي قرار بشري لن يرضي كل الناس في كل وقت، وإنما المقصود ألا يصطدم القرار بمشاعر عامة الناس، فيدفعهم إلى أن يحدثوا في بعض البلاد ما لا تحمد عقباه. إن القرار الصحيح في التوقيت المناسب يكون ناجحا بقدر ما يحقق للناس من مصالح، ويرد عنهم من مفاسد.

وبهذا يكون القرار مقبولا، فيحقق الكفاءة المطلوبة؛ إذ (تتوقف كفاءة القرارات على ما يمكن أن تحققه من الفاعلية والقبول. والفاعلية في القرار هي مدى ملاءمته للجوانب الفنية «أي الجانب الموضوعي» أما القبول فهو يختص بالعنصر البشري، ومدى تجاوبه مع القرار ومدى مراعاة القرار للمشاعر الإنسانية، وتختلف درجة الجودة في اتخاذ القرار على توفر هذين العنصرين دون إهمال أحدهما على حساب الآخر)[2].

فهل تراعى كل هذه الجوانب عند أصحاب القرار في أي موقع من المواقع؟

وهل يراعى ذلك في القرارات التي تتخذها بعض الجماعات الإسلامية حين تصادم الأنظمة القائمة؟ أو حين تتضارب مع الأحزاب الموجودة؟ أو حين تتحالف مع بعض التكتلات في الساحة الإسلامية؟

---

(١) ص : ٢٦.

(٢) مهارات إدارة الأزمات ص ١٣٣.

المبحث الثاني

ألم وأمل في المشهد الاجتماعي

أولا: ألم وأمل يعتصر القلب؟

أ- الديمقراطية والتربية:

النظرية الديمقـراطية في التعـامل نظرية لها تقديـرها واعتبـارها، إن وضعت في محلهـا الصحـيح، واستـخدمت في زمانهـا المناسب، وبين الذين يحسـنون المشورة لخبرتهم العملية، وحنكتهم السياسية، وسلامة قراراتهم الإدارية. . . ، هؤلاء وأمثالهم تنمو بينهم الديمقراطية وتـزهر، وتترك آثارا إيجابية نافعة في مجالات الحـياة المختلفة وقضاياها المتعـددة. . . ، أما إن استخدمت الديمقراطية في غـير مكانها وبين الذين لا يحسنون ـ لصغر سنهم وقلة إدراكهم ـ ما يترتب على عواتقهم من مسؤولياتها فإنها ـ حينئذ ـ تضر ولا تنفع، وتسيء ولا تحسن، ويكون شرها أعظم من خيرها.

وليس حـديثنا اليوم عن القـضايا السـياسـية، التي تلقى اهتـمام مـعظم الناس ومشاركتهم بالرأي، ولا عن القضايا الاقتصادية، التي يخوض كل الناس في حديثهم عنها، وخاصة إن اتصلت بما يمس حـياتهم اليومية، فمثل هـذه القضايا يلتفت الناس إليها، ويبحـثون عن حلٍ لها ويتداولون الرأي حولها، ويقـدم المختصون أبرز الحلول وأقربها للتخلص من آثارها، وإبعاد كثير من خسائرها عن الناس.

أما في مجال القـضايا الاجتماعية فإنهـا لا تلقى من الناس نفس الاهتمام، وإن كانت تثير في النفوس كثيرا من الآلام والأحزان، وخـاصة عندما يستخدم الناس فيها الديمقراطية، فيضعونها في غير موضعها ويستعملونها مع غير رجالها.

لقد أعطت النظرية الديمقراطية الناس حقوقـهم في التعبير عن آرائهم، وأعطتهم الحـرية في اختـيار الألفـاظ التي تحمل الآراء والأفكار لـلآخرين، ولكنهـا لم تعطهم الكياسة في اختـيار الألفاظ ولا الفطنة في استخدام مـا يقال وتجنب ما لا يقال؛ لأن مرد الكياسة والفطنة إلى التربيـة العميقة، والممارسة التوجيهيـة الصحيحة، التي تقوم

بها المؤسسات التربوية ابتداء من الأسرة حتى الجامعة، وبناء على هذا فليس كل من ملك حق التعبير أحسن العبارة، ولا كل من كان له رأي أحسن إظهاره، فقد يأتي التعبير مجافيا للمقصود، وحتى لا يحدث ذلك قال البلغاء قديما: لكل مقام مقال ولكل دولة رجال.

ب ـ لماذا انقطع الاحترام؟

وإذا استشرنا من ليس أهلا للمشورة، وأفرطنا في الاستماع لكل الآراء والاعتراضات من غير أن يكون هناك حد لوضع الأمور في نصابها، وحسم الأشياء التي يدور التنازع حولها.. فإن ذلك يولد ـ لا أقول جرأة في إبراز الآراء ـ بل أقول: تهورا في الكلام، وقد يصحبه لمز أو غمز في بعض الأحيان، مما يعني جرأة على المسؤول تفقده الهيبة التي يجب أن يستصحبها دائما معه حيثما حل.

ولا تنس ـ أخي القارئ ـ أننا نتحدث عن الجوانب الاجتماعية التي تقوم بها المؤسسات المختلفة وفي مقدمتها الأسرة، التي تخلى فيها الأب عن دوره التربوي الأصيل الذي لا يمكن الاستغناء عنه أو تعويضه، تحت وطأة ذيوع وانتشار ما سمي بـ«النظرية التربوية الحديثة» التي تترك للأولاد في بيتهم الحبل على الغارب، يتصرفون كيف يشاؤون، ويقولون ما يريدون، دون مراعاة لمن يتحدثون، ولا أمام من يتصرفون، بحجة تربيتهم تربية ديمقراطية (صحيحة) مما أوجد نوعا من التسيب، سقطت معه هيبة الوالدين في بيتهما، فما عاد لوجودهما اعتبار، ولا لقولهما ـ في كثير من الأحيان ـ تقدير، بسبب هذه النظرية التربوية الجديدة على حياتنا والمخالفة للمأثور من عاداتنا وتقاليدنا، فقد كان من مأثور القول عندنا: «لاعب ولدك سبعا، وأدبه سبعا، وصاحبه سبعا»، ثم اترك له الحبل على الغارب، أي بعد أن يصير رجلا مكتمل الرجولة قد تعلم وتربى وعرك الحياة وعركته في ظل توجيه سديد من والدين يعرفان واجبهما، ويقومان بحق أبنائهما عليهما. يضعان الحب والحنان في موضعه، ويضعان الشدة ـ كذلك ـ حين يقتضي الأمر في موضعها من غير إفراط ولا تفريط في أي جانب من الجوانب، فتستقيم حياة الأبناء، وتظل مهابة الوالدين باقية تحتفظ بها القلوب وتظهر في السلوك.

وكان المأثور من تقاليدنا أن الأبناء يقبلون رؤوس الآباء وأيديهم صباح مساء في

بر ظاهر وحب غامر واحترام وافر، كانوا يفعلون ذلك دون شعور بالدونية، فلم يكونوا معقدين ولا انطوائيين . . . ، ولم يعقهم ذلك ويمنعهم من التفوق في حياتهم وأعمالهم، فقد خرج من هذا الجيل، الذي حرص على بر الوالدين واحترام الكبار من حمل أمانة المسؤولية في كثير من المواقع، فأحدثوا فيها أعمالا جليلة وآثارا عظيمة، وكان من هذا الجيل كل الذين تولوا مراكز مرموقة، في مراكز البحث العلمي في الدول المتقدمة، التي تحرص على أن تنتفع بخدمة هؤلاء الذين تربوا على احترام وبر الوالدين، بل احترام كل كبير والرحمة بكل صغير؛ لأنهم تربوا تربية أصيلة فيها الاعتبار كل الاعتبار للقيم التي تجعل المرء جادا في حياته، بارا بوالديه، وفيّاً لوطنه، حريصا على إتقان عمله، مراقبا ربه في تعامله مع الآخرين.

ولسنا ـ بطبيعة الحال ـ نريد ذلك الأب الذي يتحرك في بيته وكأنه قائد عسكري في أرض معركة، يستنفر كل من في البيت بحيث يسكت المتحدث، ويقف الجالس ويصمت الجميع انتظارا لأمره العظيم، لسنا مع هذه النوعية من الآباء، فربما كان ضررها أكثر من نفعها، وكان غيابها أرجى لدى الأبناء من حضورها، ولكننا لا نود للأب أن يدخل بيته فلا يعيره أحد التفاتا ولا اهتماما، ويتحدث فلا يعيرون حديثه انتباها ولا إنصاتا، ثم يسكت على ذلك الإهمال بحكم التربية الحديثة؛ لأن ضرر هذه الحالة أعظم من كل ضرر، وهذه (التربية) لا تنتج غير التسيب والإهمال الشديدين في حق الوالدين وحق الأسرة وحق العمل وحق الوطن، بحيث يغلب على الأبناء عدم المبالاة بكل ما يدور حولهم، فلا يعتمدون على أحد منهم، وتضيع المسئولية من بينهم، ولا يبقى إلا أن ينظر كل فرد منهم لما يريده هو ـ وحده ـ وإن كان من بعده الطوفان.

التربية الصحيحة التي تنتج الاحترام للوالدين وتشعر الجميع بمسؤولياتهم نحو أسرهم وأوطانهم هي التربية المطلوبة. . . ، والأمر يحتاج إلى وقفة جادة من جميع المؤسسات المعنية لإقرار هذه التربية السلوكية، بحيث تختفي مظاهر الازدواج من حياتنا وتتلاشى بين الأجيال. . . ، وإني ليحزنني أن أرى أبا يسير مع ابنه،أو يجلس معه وفي يد الابن سيجارة يدخنها، وينفث دخانها ربما في وجه أبيه. وإني ليحزنني أن أرى أما محجبة تسير مع ابنتها المتبرجة، وقد أخذت زينتها وازينت بكل أنواع

الزينة، لا تبالـي وهي في طريقها مع أمـها بنظرات المتطفلين ولا بكلـمات الماجنين. وإني ليحزنني أن أرى مجموعة من الأبناء الـقادرين قد سعوا بأبيهم أو بأمهم إلى دار العجزة في عقوق ظاهر من أجل أسباب تافهة.

وما يحزنني في المجالات الاجتماعية أكبر من أن يحصى ويحصر، وما نتج هذا إلا من فقدان الاحـترام، وغياب هذه القـيمة من حيـاة الجيل الناشئ، الذي لن يقف تفريطه ـ إن أهملنا علاج هذه الحالة- عند هذه القيمـة وحدها؛ لأن القيم كلها عقد تنتثر حبـاته إن انقطع نظامه. أما إن نحن أمسكنا نظامه وعقـدنا خيطه تماسكت حباته وبقيت. وهكذا القيم، فهل نحفظها ونحافظ عليها قبل أن تقضي ـ بغيابها وفقدانها ـ على الأخضر واليابس؟

جـ. القيم عندنا وعندهم:

لقد سقطت القيم الأخـلاقية في مجال العفة والاستعـفاف عند غير المسلمين من زمن بعيد، وطغت على حـياتهم الفواحش ما ظهر منها وما بـطن، وارتضاها الجميع بحيث لم تعـد إثما يشين صاحـبه إلا إذا صحـبها كـذب في الكلام، أو حدثت في مكان لا يليق أن ترتكب فيـه الفواحش والآثام كالبيت الأبـيض مثلا، حينئـذ قد تجد بعض المنتقدين الرافضين لما صحب الفاحشـة وأحاط بها، وليس رفضهم للفاحشة في ذاتها، ولا غرابة بعد كل ما قيل، أو نشر في فـضيحة «مونيكا» أن تزداد لدى الشعب الأمريكي شـعبـية كلينتـون، حيث تسقط القـيم الأخلاقـية وتحيـا وتعيش الأعـمال الإباحية. لكن الغـرب في عمومه ظل يحافظ ـ ولو بقدر ـ على قـيم العدل وحقوق الإنسـان وكرامـته، والاهتـمام بالعـمل، والصـدق في التعـامل، والبعـد عن الغش والتزوير، وغير ذلك من القيم العملية السلوكية على الأقل في بلادهم، أما عندنا في بلاد الشرق فإننا نحافظ كثيرا على قيم العفـة والاستعفاف، ولا نبالي بكثير من القيم الأخرى، فقد تضـيع قيمة العدل، أو تسقط حقوق الإنسـان، أو غير ذلك من القيم التي نفقد بغيابها الكثير.

إن الغرب وهو يحـافظ على بعض هذه القيم إنما يحـافظ عليها؛لأنهـا تحقق له موازين الحياة السليمة، فهو يرى فيها مصلحته، أما نحن فإننا نرى أن هذه القيم تحقق لنا ـ أيضا ـ موازين الحيـاة السليمة، إلى جانب أن فيها ثواب الله؛ لأنها مـستمدة من

الدين ومن هدي الرسول الأمين ﷺ. . . ، ولقد أضعنا كثيرا من هذه الفضائل، وكان مما ضاع من قيمنا المستمدة من ديننا احترام الكبير وبر الوالدين، ـ عند البعض ـ وفقدان الحياء، وعدم الالتزام بالسلوك العام، أو العرف المتداول بين الناس، حتى إنك ترى في الشارع الواحد كثيرا من مظاهر الحياة المنتشرة في الشرق أو الغرب مما ينذر بغزو اجتماعي تسقط أمامه بعض التقاليد الأصيلة في المجتمع، وتأخذ في طريقها بعض القيم التي تربت عليها أجيال وأجيال.

فهل نحاول أن نقف في وجه هذا الغزو الاجتماعي الوافد علينا من الشرق ومن الغرب قبل أن يهدم ما تبقى لدينا من قيم تحفظ علينا حياتنا، ونقيم في ضوئها موازين سلوكنا، أم أننا سنترك الأمر فوضى، لا ضابط لها ولا التزام نحوها، بحيث نصل إلى التسيب في مظاهر الحياة المختلفة؟

د ـ لماذا التسيب؟

التسيب في حياتنا أوضح من أن يُشار إليه أو يُدلَّ عليه، فمظاهره عديدة في شوارعنا ومدارسنا ومستشفياتنا وفي كثير من مؤسسات الدولة، وفي التعامل مع المال العام (ممتلكات الدولة)، وفي غير ذلك من المواقع والأماكن، وهو ألصق بنفوس بعض الناس من كثير من الرغبات، ولذا فهم ينشرونه أينما وجدوا، دون أن يبالوا بأنهم ـ بعملهم هذا ـ ينشرون الفوضى، ويشيعون الخراب في أرجاء الديار، فلا صلاح ولا عمران بغير انضباط ونظام، فإذا فقد الانضباط وضاع النظام فماذا تنتظر لأناس هذا حالهم؟

ولعل من أسباب ذلك ضعف التربية الدينية والوطنية، أما ضعف التربية الدينية فهو لا يخفى على أحد في الشرق أو في الغرب، ولا يشك صاحب عقل ولب في سلامة التربية الدينية من حيث وسائلها وأهدافها. وهي تربية يوشك الجميع أن يبتعدوا عنها. وهذا سبب كثير من البلاء في كثير من البلاد. ولن أتحدث في هذا الجانب الآن.

هـ ـ ضعف الإحساس بالمواطنة:

وأما ضعف التربية الوطنية فلا يخفى كذلك على أحد؛ لأنه سبب كثير من

الدمار الذي يلحق مرافق وطنية عديدة، في سلامتها قوة للوطن، وفي اعتلالها واختلالها وبال على الوطن، وضعف هذه التربية الوطنية أدى إلى فقدان الإحساس بالانتماء الوطني، سواء أكان انتماء معنويا أخلاقيا لبلده، أم انتماء ماديا.

إن الشخص الذي فقد الانتماء الوطني الحقيقي لا ينتمي إلا لمصلحته فقط، ولذا فهو يحافظ على ممتلكاته الخاصة؛ لأن بينه وبينها رابطة مادية ومعنوية، فهو حريص على سيارته ـ مثلا ـ ولا حرص عنده على سيارات الآخرين، لأنه لا يرى صلة تربطه بممتلكاتهم، ولذا فإنه غير حريص على ممتلكات الدولة؛ لأنه لا تربطه بها رابطة مادية ولا رابطة معنوية، فالوطن ـ في رأيه ـ لا يزيد على مكان من الأمكنة غير مميز بميزة خاصة.

إن تاريخ هذا الوطن مجهول لديه، إن إحساسه بأن ازدهار هذا الوطن عائد عليه مفقود عنده...، إن القيم التي يحرص عليها هذا الوطن لا تجد عنده قبولا، ولذا لا يأنف أن يلبس قميصا عليه علم دولة أخرى، ولا يستنكف أن تحمل ملابسه الخارجية صورة ساقط من الغرب أو ساقطة، إنه بهذا يعلن الانتماء لأرض غير أرضه، ويعلن الإيمان بقيم غير القيم التي آمن بها الوطن ومن فيه. إنه يقول: أنا نبت غير نبتكم، وإن نشأت في أرضكم. أينتظر أن يدافع أمثال هؤلاء عن أرض أو عرض؟

إن الوطن لديه سفينة تعبر به من شاطئ لآخر، وتستوي عنده مع هذه السفينة أي سفينة أخرى تؤدي هذه المهمة، فلماذا يتعب نفسه بمشاكل الوطن؟ ولماذا يحرص على تقدمه؟ ولماذا يحافظ على ممتلكات الآخرين؟

إنه لم يسمع أو يقرأ في يوم من الأيام قول ابن الرومي:

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرجَال إلَيْهِمُ ... مَآرِبُ قَضَّاهَا الشَّبَابُ هُنَالكَا
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَّرَتْهُمُ ... عُهُودُ الصِّبَا فِيهَا فَحَنُّوا لذَلكَا

ولم يسمع بقول رسول الله ﷺ يوم أخرج من مكة: «**والله إنك لأحب أرض الله إلى الله، وأحب أرض الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت**»[1] ، إنه لم

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٥)، والترمذي (٣٩٢٥)، وقال: «حسن غريب صحيح»، وابن ماجه (٣١٠٨) عن عبد الله بن عدي بن الحمراء، وصححه الألباني.

يسمع عن حب الأوطان، فنمى في قلبه الدمار الذي يخرب الأوطان، ويقلق الغيرة عند الإنسان الحر الغيور على بلده ووطنه.

و- دور التربية والإعلام:

ولعلك تسأل: ومن المسؤول عن ذلك؟ ونقول مجيبين عن هذا السؤال: إن المسؤول بالدرجة الأولى مؤسستان: المؤسسة التعليمية، التي لا تنمي الانتماء، ولا تعلم الإنسان أنه يعيش في مجتمع من البشر، وأن له حقوقا قبل الآخرين يأخذها، وعليه واجبات نحوهم يؤديها، وأخذه لحقوقه وقيامه بواجباته متساويان لا تفضيل بينهما لحالة على أخرى، وإن وجد تفضيل فإن إيثار الآخرين أولى وأحق؛ ليتخلص الإنسان من أثرته وأنانيته.

والمؤسسة الأخرى هي المؤسسة الإعلامية التي تقدم - في معظم موادها - ما يخدش الانتماء الوطني، ويبرز الحقوق دون الحرص على تقديم الواجبات، ولذا فدغدغة الغرائز والشهوات، ونماء الثروات عن طريق النصب والاحتيال، أو الربا والقمار أو الغش والتزوير هي أبرز ما تدور حوله المسلسلات والأفلام والمسرحيات، وكلها في النهاية تصب في خانة المصالح الذاتية والمكاسب الشخصية، فهل تثمر مثل هذه الأشياء حرصا على أملاك الآخرين، أو حبا لممتلكات الدولة أو حثا على القيام بالواجبات الملقاة على عاتق الفرد؟ وبالتالي: هل تحقق هاتان المؤسستان التربية الوطنية الصحيحة؟

ومما يؤسف له أن الأمر ليس قاصرا على هاتين المؤسستين وحدهما، وإنما تعداهما إلى كثير ممن لهم شأن في تسيير شؤون البلد، حيث يساهم في هدم الإحساس بالمواطنة عدد غير قليل من المتنفذين على المستوى الرسمي أو المستوى الشعبي.

والمتابع للصحف اليومية يجد أمثلة لا تحصى على ذلك، ومنها أن الذين لم يسددوا فواتير الكهرباء كانوا بعد التحرير قرابة ٤٠٠ ألف، وقد أعلنت الوزارة الآن - في فرح ظاهر - أنهم يبلغون الآن قرابة ٤٠ ألفا فقط، والعجز في عدم مطالبة هؤلاء بدفع ما عليهم من أموال الدولة مرجعه إلى عدم وجود عقد بين هؤلاء وبين الدولة، أو اعتمادهم على المكرمة الأميرية التي أعلنها سمو أمير البلاد بعد التحرير بعدم قطع التيار الكهربائي عن أحد.

وليس معنى ذلك أن يأخـذ إنسان ما ليس له بحق، وأن يحرم الدولة من قـيمة عملها وجـهدها حين يجد مخرجـا قانونيا لعمله أو مستـندا يستند إليه . . ، وإننا إن فتـحنا ذلك نكون قـد فتـحنا الأبواب لكل من يستطيـع أن يأخذ شـيئا مـن أملاك الآخرين دون أن يلاحقه القانون.

ولعل هذا الجـمـود في الإحسـاس بالمواطنـة لا يرجع إلى تصـرفات الأفـراد ـ وحدهم ولا إلى بعض المؤسسات وحـدها ـ بل يرجع كذلك إلى بعض أجهزة الدولة والمتنفذين فيها، لأنهم يسمحـون بصورة أو بأخرى للبعض بأن يأخذ من أموال الدولة ما يسـتطيع الوصول إليه، وحـين لا يحاسب هؤلاء على ما أخـذوه يصبحـون قدوة للمواطن البسيط الذي يرى ما فعله هؤلاء، فلم يحاسـبهم قانون، ولم يلاحقهم قضاء، ولم ينبذهم المجتمع، بل إن هناك من غطى على أعمالهم بسن القوانين أو بإلغائها.

هؤلاء يدفعون المـواطن البسيط أن يفعل فـعلهم،وهو يدرك أنه يأخذ القليل في مقابل الكثير الذي أخذه الآخرون دون أن يدرك أن ما أخذه هو أو غيره ـ قلّ أو كثر ـ إنما هو جـزء من أملاك الدولة، وهو في النهـاية ملك لجـميع المواطنين لا ينبـغي أن يستقل به شخص أو أشخاص، ولا أن يدخره لنفسه ويحجبه عن الآخرين شخص أو أشخاص؛ لأن هذا خلل بحق المواطنة وبالتربية الوطنية ذاتها.

إن قرب عـودة السـياسيـين والنواب وغيـرهم من المهتـمين بقضـايا الوطن إلى استئناف عملهم بعد انتهاء الصيف يجعلنا نضع أمـامهم بعض هذه الهموم الاجتماعية التي تشغل البال وتحزن القلب، لعلها تجد على أيديهم حـلا منصفا، فيه الخير لأبنائنا وبلدنا.

ثانياً: قراءة في الواقع:

أ ـ واقع مفروض:

يفـرض الواقع نفسـه على الناس، أو على كـثيـرين منهم، فلا يسـتطيعـون أن يتجـاوزوه أو أن يغضوا الطرف عنه؛ لأن الأحـداث المتشابكـة ـ في هذا العالم الذي انعدمت فيه الحواجـز بين البشر ـ لا تجعل عاقلا يتجاهلهـا، فهي تؤثر على الجميع، شاركـوا في صنعها أم لم يشـاركوا، ومن هنا فإنه من اللازم لـلإنسان أن يلقي نظرة

على الواقع من حين لآخر؛ لـيرى أين هو من أحداث هذا الواقع؟ ومـا الأثر المترتب على هذا الواقع في حياة الأقربين وحياة الأبعدين على السواء؟

والواقع الكويتي مقـدم على غيره؛ إذ يؤثر مبـاشرة على حياة الكويتـيين، ويثير فيـهم التجاوب والتعـاون؛ ليعملوا على كـسر حواجز الفـرقة بكل أشكالها، ليـبقى التكافل والتواصل والتوادّ سمة مميزة لأهل الكويت جميعهم، رغم اختلاف مناصبهم، وتفاوت حظوظهم من مقدرات الحياة، وتعدد مذاهبهم وتوجهاتهم.

ب. تواصل ومودة:

وأقرب مثال واقعيّ تجـسّد لهذا التوادّ كان في لقاء سمو أمـير البلاد مع أصحاب الكفاءات العلمية من حملة الدكتوراه وما يـعادلها، وخطابه فيهم. وهو لقاء يعبر عن اهتمام القيادة السياسية ببناة الحركـة العلمية التي لا يكون تقدم بغير جهدها وبحوثها؛ لتدفع بـالوطن وأبنائه إلى الأمام في سلَّم الرقي والتـقدم والازدهار، مـتخـذة سلاح العلم أداة ومفتاحا لمغاليق كثيرة تحيط بنا وتجري من حولنا، وقد تعترض طريقنا، ولا حل لمثل هذه العوائق إلا بالعـلم والجهد الذي يبذله العلـماء في مجالاتهم المخـتلفة، تحت رعاية وعناية القيادة السياسية التي تمدّ للتواصل مع جميع أبناء الكويت يداً، فلم يكن اللقاء مع حملة الدكتوراه بدعا في التصـرفات، ولا أمرا غريبا في مجال اللقاءات؛ لأن التواصل مع الشعب إحدى السمـات المميزة للقيادة السياسيـة الكويتية، فمنذ كان لقاء سمو أمير البلاد مع الرعـيل الأول، ثم لقاؤه مع رجال البحر والصيد، ثم زيارته لعدد من الدواوين، ثم بعد هذا اتباعه لسـياسة الباب المفتوح، لكل من أراد من أبناء الكويت، وإيمانه بجدواها ونفعها.

هذا التواصل المتنامي بين أبناء الشعب وقيادته السيـاسية له ثمار عديدة من أهمها إقامة النسـيج الاجتماعي الكويتي على حب السخـاء والنماء للكويت، بحيث تذوب كل المعـوقات التي قـد تمنع بعض النا س من الجـهد والعطاء، فـيأتي هذا التـواصل لينعش الآمـال، ويقضي على الفتن والشـائعات، ويضع الحقـائق أمام الناس فـيزول الغبش، وينقشع الضبـاب، ويتجه الجميع نحو العمل الجـاد، مدركين أن هذا المجتمع الصغير بمساحته لا مجال فيه للخلاف، وإنما المجال فيه للتوافق والوفاق.

إن الجميع يدركون أن أي خروج عن التوجه العام الذي ارتضته الكويت لنفسها، يصيب كل الناس بأبلغ الضرر وأبلغ الآلام وأشدها، فسفينة الكويت لا تحتمل خرقا هنا أو خرقا هناك، بل لا بد فيها من سدّ الخلل في أي مكان يبدو، حتى لا يتسرب منه الماء فيغرقها. والجهود كلها تتكاتف وتتعاون من أجل الوصول إلى هذه الغاية التي تعمل لها القيادة كما يعمل لها الشعب، وتتلاقى الأكف وتتضافر الجهود من أجل ذلك ولو أن أفرادا قليلين، أو مجموعة صغيرة شذت عن هذا التوجه، وانحرفت عنه؛ لتحمل عبء فعلها وضرر جرمها جميع الكويتيين، فشأن الكويتيين جميعا هو شأن أصحاب السفينة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «**مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذونا، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوْا جميعا**»[1].

وتأتي أهمية هذه اللقاءات بين القيادة والشعب، لتعيد للنسيج الاجتماعي بهاءه ورونقه. فإلى مزيد من هذه اللقاءات لأنها زيادة في التواصل والنماء والعطاء.

جـ. منظومة القيم عند المسلمين وغير المسلمين:

ونظرتنا إلى الواقع العالمي تجعلنا نخشى على البناء الأخلاقي للبشر؛ لأن التفلت منه أو من بعضه أصبح ظاهرة عامة تتفق عليها كثير من الدول والشعوب من غير اعتماد على دليل، اللهم إلا الأهواء المتبعة، التي تجعل الناس يحلون ما يشاؤون ويحرمون ما يشاؤون، بحيث يفرغون الأخلاق من مضمونها متى أرادوا ذلك، فينثلم بناء القيم في النفوس، وتزول الضوابط النفسية والمعنوية من الصدور، مما ينذر بوقوع الخراب الذي عبر عنه الشاعر العربي بقوله:

وَلَيْسَ بِعَامِرٍ بُنْيَانُ قَوْمٍ إِذَا أَخْلَاقُهُمْ كَانَتْ خَرَابَا

إن منظومة القيم شبكة متماسكة من الأخلاق، تقي الإنسان من السقوط في

(١) سبق تخريجه.

مهاوي الأوحـال، فإذا انتقى الإنسان من بينهـا ما يروقه وترك ما لا يروقه فـقد مزق حبال هذه الشبكة الواقية، فصار عرضة للسقوط عند أي هزة أو أي اضطراب وهذا ما يحدث في الدول الغربية كلها، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يقف الناس هناك موقفا نراه عجيبا غريبا، بينما هم لا يرونه عجيبا ولا غريبا.

فالعيب كل العيب ـ عندهم ـ هو أن الرئيس قد كذب في بعض مراحل التحقيق معه، فصـار الكذب جريمة يعاقب عليها الرئيس، أمـا الزنى فليس بجريمة عندهم ولا شيء فيـه؛ لأنه يدخل في نطاق «الحرية الشـخصيـة» التي أقرها قانـونهم الوضعي، وانتـقلت منه إلى القوانـين الوضعـية في بلاد المسلمـين، التي تقرّ الزنى على فـراش الزوجية إن تنازل الزوج عن حقه في القضية، فتسقط بذلك آثار الجريمة.

د ـ القيم لا تتجزأ:

إنهم في الغرب يحلون ويحرمون ما به يرغبون، فأحلوا الزنى وحرموا الكذب، وكلا الأمرين في الـشريعة الإسلاميـة منكر يأباه الإسلام ولا يقبله، فـالزنى محرم، والكذب محـرم، وغيرهمـا من الآثام النفسيـة والموبقات المعنوية محـرم كذلك، ولا تهاون في شيء من المحرمات ـ صغر أو كبـر ـ كما لا تهاون في شيء من الفضائل، فكل شعب الإيمان مطلوبة من المسـلم ابتداء من أعلاها وانتهـاء بأدناها، وإن اختلفت درجة طلبها بحسب أولويتها وما يترتب على وجودها.

إن الأخلاق إن تجزأت فسقط بعضها من حساب النـاس، واحتفظ بعضها بقيمته عندهم، فإن ذلك مدعاة لسقوطها كلها، والاستـغناء عنها جملة وتفصيلا إن اقتضت الظروف ذلك، وهو ما يـحدث أحيـانا في غير بلاد المسلمين حين لا تـكون منظومة القيم الأخلاقية بكاملها مطبـقة، وإذا كان الكذب محرما عندهم الآن، والزنى حلالا في قانونهم بناء على رغبتهم، فـما الذي يمنع ـ بعد حين ـ أن يحلوا الكذب ويحرموا غيره؟ ولماذا يحلون شيئا الآن ويحرمونه فيما بعد؟

هـ ـ أهمية القيم:

إنها المصلحة الآنية والنظرة المادية هي التي تحرك القيم لتـختار من بينها ما يحقق هذه المصلحة، ولغـير ذلك جاءت القيم للناس، إنهـا جاءت لتكون هي النظام الواقي

من السقوط في هاوية الرذيلة والخيانة وغيـرها، فالقيم ـ لا المصالح ـ هي التي تضبط مسار الإنسان، وتقف في وجـه نزواته وشهواته، فإذا احتكم مجـتمع ما إلى المصلحة ضاعت منه القيم، وسقط كل رجاله ونسائه في دائرة الأهواء والرغـبات، وفي مقدمتها الرغبات الجنسية، التي تأخذ الآن من حياة الناس الكثـير من المتابعة والاهتمام، خاصة بعد أن سقط في وسطها الرئيس الأمريكي، وإذا كان المجتمع الأمريكي قد فاز بالسبق على جميع المجتمعات الأخرى في التحـرشات الجنسية من الرجال أو من النساء، كما ذكرت بعض الصحف، فإن مـصير القيم كلها لديه آيل للسقـوط، ليحدث بعد ذلك الانفلات الذي لا يوقفه غير انتشار الدمار والأمراض المستعصية على الشفاء.

وليت المسلمين كلهم يتمسكون في حياتهم بكل القيم التي جاء بها الإسلام، ولا يفرطون في شيء منها، خاصة بعد أن بيّن الرسول ﷺ أهميتها في قوله: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1] وليس للمسلم أن يختـار من بين مكارم الأخلاق ما يروقه، وأن يترك ما لا يحب؛ لأنه ملزم بها كلها فإن خرم فضيلة بارتكاب رذيلة، فقد وجب عليـه أن يتخلص منهـا وأن ينفض ثيـابه من غبـارها بالتوبة، وإلا زاد إثمـه، وعظم جرمه، ولم يتوقف في سقوطه عند حـد بعينه، عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن ملكاً من ملوك بـني إسرائيل أخـذ رجـلا فـخيـره بين أن يشـرب الخمر، أو يقتل نفساً أو يزني، أو يأكل لحم خنزير، أو يقتلوه إن أبى، فاختار أن يشرب الخمر، وإنه لما شربها لم يمتنع من شيء أرداوه منه**»[2]، تهدف إلى أن التخلي عن حكم شرعي، والتهاون في ارتكاب معصية من المعاصي كفيل بالوصول بالإنسان ـ ما لم يتب ـ إلى أحط دركات الشرك، وهذا يفرض على الإنسـان المسلم التمسك بكل القيم والآداب والأحكام الشرعية، حتى لا يزداد رصيده من المعاصي التي لا تقف به عند حد.

---

(١) أخرجـه أحمد (٢/ ٣٨١)، والـبخاري في الأدب المفـرد (٢٧٣)، والحاكم في المسـتدرك (٢/ ٦١٣) عن أبي هريرة، قـال الحاكم: « صحـيح على شـرط مسلم ولم يخـرجاه»، ووافقـه الذهبي، وصـححه الألبـاني في الصحيحة (٤٥).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٤٧)، والطبراني في المعجم الأوسط (٣٦٣)، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مـسلم ولم يخرجاه»، وقـال الهيثـمي في مجمع الزوائـد (٥/ ٦٧، ٦٨)، «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجـال الصحـيح خلا صالح بن داود الـتمار وهو ثقـة»، وصححـه الألباني في صـحيح التـرغيب والترهيب (٢٣٧٠).

وإذا كنا نقلد الغربيين ـ رغما عنا ـ في أمور كثيرة فإنه من الواجب أن تظل القيم الإسلامية كلها في حصانة من الترك أو النسيان أو الاختيار؛ لتبقى لها قيمتها ومكانتها في نفوس المسلمين، وحبذا لو أن بعض رجال الشريعة والقانون أجمعوا أمرهم في دراسة جامعة تبين زيف ما لدى الغربيين مما يدعونه من القيم، وهو من الهوى قبل أي شيء آخر.

ثالثاً: أسس منهجية للأخذ بالتكاليف الشرعية:

تهدف الحركة الإسلامية ـ فيما تهدف إليه ـ إلى العمل الدائب للمساهمة في إنجاح المشروع الإسلامي، الذي يعني أن الدولة تحتكم إلى الإسلام دستوراً ونظاماً وقانوناً وسلوكاً في كليات الحياة وجزئياتها، ويخضع أبناؤها لهذه التعاليم الشاملة، ولا يرضون عنها بديلاً.

ولما كان هذا الهدف غير ميسور التحقيق في وقتنا الراهن لظروف ترتبط بالسياسة الدولية، والظروف الداخلية لكل بلد إسلامي، ولوجود مناوئين معادين لهذا التوجه ممن لهم تأثير في صنع القرار، أو ممن جهلوا سماحة الإسلام وتعاليمه، فعادوا لجهلهم وقلة فقههم، وكابروا واستنكفوا أن يخضعوا لتعاليمه ظناً منهم أنها تجافي روح العصر، وأنها قيد على الحضارة الحديثة، لما كان هدف إقامة المشروع الإسلامي غير ميسور بقرار واحد، فإن العاملين في الحقل الإسلامي لم يستكينوا إلى هذا العذر، ولكنهم سعوا ـ قدر جهدهم ـ للعمل على أن تزداد صبغة مجتمعاتهم بالصبغة الإسلامية، واعتبروا ذلك هدفاً يمكن تحقيقه بالجهد والمثابرة والتحمل وإقامة جسور من الصلات والمودة، بين الحركة وبين جميع المؤسسات القائمة في المجتمع من ناحية، ومن ناحية أخرى بين أفراد الحركة وبين أبناء المجتمع على اختلاف توجهاتهم وأعمالهم، فمن كان محسناً أيدوه وعاونوه، ومن كان مسيئاً نصحوه بالحسنى، ولم يتخلوا عنه لهفوة هنا، أو عثرة هناك، أو رأي غير مصيب، أو فكرة غير سديدة، وكان حالنا معه هو التأسي بقول القائل:

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطْ　　وَمْنَ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطْ؟

وقد اتخذت الحركة الإسلامية عدة خطوات على سبيل هذا الهدف القريب،

فعـملت على المشاركة في السلطة مـا استطاعت إلى ذلك سبـيلاً، وقد اندفع التـيار الإسلامي للمـشاركة في هذا الاتجاه على جـميع المستويات الممكنـة، وقد أدى وجود الإسلاميين في بعض الأمـاكن إلى المساعدة في تقريب هذا الهـدف، أو إلى الحيلولة دون اتساع الهوة في حركة المجتمع بينه وبين الإسلام.

وكان اتصال كثـير من الإسلاميين بالمسئولين مزيلاً لكثـير من الشكوك التي كانت تنتاب الطـرفين، فزاد اقتناع الإسـلاميين بإمكان تغـيير حـركة المجتـمع،لتقـترب من الإسلام عن طريق المسـئولين، الذين يحرصـون على تحقيق هذا الهـدف، وزاد اقتناع المسئولين بأن الإسـلاميين لا يشكلون عنصر خطر في الدولة، كـما يحب الأعداء أن يتهموهم بذلك. وكانت هذه خطوة قوية لإزالة الغبش، الذي قد يقع فيه البعض هنا أو هناك، وسط ضـباب الدعايات المـوجهة ضـد الإسلامـيين بقصـد استعـداء النظم الحاكمة عليهم.

وعلى سبيل ذلك صدر في الكويت بعد التحـرير المرسوم الأميري بتشكيل اللجنة الاستـشارية العليا لاسـتكمال تطبيق أحـكام الشريعة كـمبادرة أميـرية، وهذه اللجنة متنـاغمة مع النـداء الشعبي الـذي صدر في مؤتمـر جدة١٩٩٠م، وفي وثيقـة الرؤية المستقبلية ١٩٩١م، مما يوحي بأن مسار الحركة الإسـلامية في السير بالمجتمع كله نحو إنجاح المشروع الإسلامي أخـذ خطوة على الطريق ، ولكن خطوة واحدة لا تكفي ولا تغني عن غيـرها شيئاً، اللهم إلا إذا اعـتُبرتْ بدء السيـر والحركة نحو هـدف موحد مشـترك مـن أجل التطبيق الكامل للشـريعة، وذلـك من خلال التنسـيق بين السلطة التنفيذية مع النواب والمؤمنين بالمشروع الإسلامي في مجلس الأمة، وهذا يجعل المناداة بتطبيق الشـريعة الإسلامية قـضية مجـتمع بأسره، وليست قـضية فرد بعـينه، أو فئة بذاتهـا، وتزيل الخوف من تطبـيق الشـريعة عن أذهان بعض الناس، مع الأخـذ في الاعتبـار الاستفادة من محاولات الـدول التي حاولت تطبيق الشريعة جـزئياً أو كلياً، وإدراك العلاقات المتشابكة مع العالم الخارجي في الإطار المحلي أو العالمي، واستصدار القوانين التي تحمي الشريعة من العابثين والساخرين.

وكل ذلك يؤدي في النهاية إلى أن يروى هـذا المجتمع الكويتي من نهر الشـريعة الإسلامـية العـذب، وأن يسعـد بما حبـاه الله إياه من رزق، دون تحزب أو تنـافر أو اختلاف.

رابعاً: الإيجابية في صنع الأمة:

الجهود الفردية للإصلاح هي لبنات تحـدث أثرها إن تآلفت وتجمعت، وكتب الله لها الذيوع والقبول بين أكثرية الأمة، بحيث تأخذ أنفسها باتباع معالم الإصلاح وهجر بؤر الفساد والإثم والعدوان، وتظـل هذه الجهود علامات مضيـئة على طريق الخير إن لم تتآلف وتتوحد، ولو لم تعتنقها الأكثرية، ما دامت الأقلية مستمسكة بها، حريصة على عدم التفريط فيها.

لا تضيع تلك الجهود سدى، لكنها قد تثمر قـريباً أو بعيداً بحسب همة أصحابها وقوة يقـينهم، ودأبهم في نشر مـبادئهم بالفعل والقـول على السواء، وتسـابقهم في خدمة المجتمع، وسد أي فراغ ينشأ عن خلل في البناء المؤسسي للمجتمع.

والمجتمع المـسلم اليوم فيه الخـير وفيه الشـر، وفيه الضلال والرشـاد، وفيه الحق والباطل، فيه نقص في الحريات العامة، وفيه ضعف في التربية والتوجيه، وفيه هجوم إعلامي وفكري غير مناصر لثقافتنا الإسلاميـة وقيمنا الروحية وفضائلنا الأخلاقية، بل قد يكون مضـاداً لها، معيقـاً لنشرها في بلاد المسلمين، وفيه معـاملات تخالف روح الإسلام وهديه، وفيه استلاب فكري، وخـمول سلوكي، وكسل علمي، وتغلبت فيه النظرة المادية للأشيـاء، وتواكل الناس، وتركوا كل أمـر صغير أو كـبير في حـياتهم للسلطة العامـة، وهي بدورها تحكمها علاقـات دولية، وتتصل بمؤسسات عـالمية تؤثر فيهـا وتتـأثر بها، وتـوازن ـ مـا استطاعت ـ بين ما تريد إقامته في مجتـمعها وبين ما يجب عليها نحـو غيرها، وقد يختل فـي يدها الميزان لمصلحة اقتصـادية، أو ضغوط خارجية أو مشكلات أمنية، أو مناوشـات حدودية، أو تكالب على السلطة الشرعية، أو غير ذلك مما لا يقف أثره عند الأفراد وحدهم، بل يتعداهم إلى المجتمعات كذلك.

ونحن لا نغفل الجوانب الإيجابية في المجـتمع فهي ظاهرة يراها المنصفون، الذين لا ينظرون بعين واحدة لجـميع الأشياء، وإنما هم يرون الخـير خيراً، والشـر شراً دون تداخل بينهما رعـاية لمصالح طائفية أو حزبيـة أو مذهبية أو فئـوية، أو غير ذلك من المصالح الكثيرة التي تتحكم في أفعـال بعض الناس وأقوالهم وكتاباتهم، فلا يرون إلا الخير المطلق فـيما اختاروه وإن كـان بعيداً عن هدي الإسلام، وإلا الشر المطلق فـيما اختاره غيرهم وإن كان قريباً من الإسلام.

وحتى لا يختلف كل فريق عن الآخر، ويظن أنه وحده على الحق وأن غيره على الباطل لابد من الاحتكام إلى شيء محدد، وإلى ميزان لا يحابي ولا يجامل ولا يتعصب، وذلك شرع الله وهديه الذي بعث به نبيه محمداً ﷺ **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾**(١) وحين ظهر هذا الشرع أقرّ عند الناس ما كان من خير تمثل في المروءة والنجدة والشهامة والكرم ونصرة المظلومين، ورعاية الأقربين، وحب الأدنين من الناس كما غيَّر منكرات كانت شائعة كالربا والزنا والخمر والميسر، والعصبية بكل أنواعها والجاهلية بكل مظالمها وجورها، وبيَّن أن على الناس أن ينظروا أين هم من الحق الذي جاءهم من عند الله، فإن كانوا مستمسكين به فهم من الفائزين، وإن كانوا بعيدين عنه غيّروا ما بأنفسهم وغيّروا من حركتهم في الحياة ليغير الله ما بهم **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾**(٢) .

ونحن ـ المسلمين ـ مطالبون اليوم في كل موقع وفي كل عمل نعمله أن نسأل أنفسنا: أين نحن من الحق الذي شرعه الله ؟ فإن كنا عليه فبها ونعمت، وإن لم نكن عليه سارعنا بأنفسنا فغيرنا ما في نفوسنا بحيث تشعر بالخشية والوجل لذكر الله، وبالخضوع لتعاليمه، وبتقبل أحكامه، وغيرنا كذلك حركتنا في الحياة بحيث تتواءم وتتوافق مع ما نؤمن به ونعتقده مما جاء من عند الله.

ومبادرة الأفراد إلى هذا التوجه أمر لا مفر منه؛ لأنهم مسئولون عن ذلك أمام الله **﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾**(٣) **«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»**(٤)، إن هذا التحول في الأفراد والمجتمعات لابد منه، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وقد صلح أولها باتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والعيش في ظلالهما والعمل بمقتضاهما، وعدم الرضا بما يخالفهما، وإن كان من ورائه المال أو المنصب أو الجاه.

وهذا هو ما تصلح به الأمة الآن، غير غافلة عن طبيعة العصر، وما فيه من علم وتقنية، وغير رافضة لمبدأ من مبادئ الشرع.

---

(١) الأحزاب: ٤٥، ٤٦ .
(٢) الرعد: ١١ .
(٣) المدثر: ٣٨ .
(٤) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنها .

ولن يتم هذا التغـيير بين عشيـة وضحاها، ولن يعم بين الناس جمـيعاً في وقت واحد، وإنمـا يكفي أن تتمـسك به وتعلنه وتعـمل به طائفة من الناس تتـوافر لديـها تخصصات كثيـرة بحيث تكون عمداً يستند إليها المجتمع في حركة التـغيير والتحول، وتكون جهودها وتضحياتها قنطرة العبـور نحو الانعتاق من التخلف والجمود والقهر، وبهذه الطليعة من أبناء الأمة تتحقق الآمال، إن علم الله منهم الصدق والصبر والعزم على تخليص مجتمع المسلمين مما يعوق نهضته ويوقف قوته ويقوّض بنيانه.

خامساً: الخيال والواقعية:

«لكل مقام مقال» جملة مـأثورة في أدبنا العربي، لا تزيد في معناها على الوصية بواقعية خطاب الناس، ومراعاة حـال المخاطَبين، وحال المخاطِبين، فالشطط في القول والمبالغـة في الكلام والتزيد في الخطاب يجـعل صاحبـه حالماً يتمنـى، ويجعل الناس يعيشون مخدرين، أسرى الأماني المكذوبة، والآمال الخداعة، والضبابية الغائمة؛ لأنهم تجاهلوا الواقع، وتـعلقوا بالخيـال، وحين لا تستند الآمال إلى ركـائز من الواقع يُدفَعُ الناس لتحقـيقها تكون وسيلة من وسـائل الخداع الجماهيري، تصرفـهم عن واقعهم، ولا تحقق لهم آمالهم ومطامعهم.

وكثيراً ما وقـعت الجماهير العربية أسيرة هذه الآمال المغـشوشة التي خدرت الأمة زمنا غير قليل؛ لأنها ابتعدت عن الواقعـية في الخطاب والواقعية في العمل والممارسة، وأنزلت خيالية الكلام لتحل محل العمل فاكتفت بالشعارات عن الممارسات، وتاريخنا الحديث مليء بمثل ذلك مما لا يحـصره إلا المراقب المتفـرغ الذي يستهويه الإحـصاء، ونحن نكتفي ببعـض الأمثلة التي تجاوز فيهـا المخاطبون الواقعيـة فضللوا المخاطَبين، فعاشـوا الواقع السقيم بعد انكشاف الزيف وظهـور الخداع، ولم يكن يوم أسوأ على الأمة الإسلامـية والعربية في العصـر الحديث إلا حين استيقظـت على الهزيمة المروعة سنة ١٩٦٧م، وامتدت إسرائيل بعدها في سيناء والجولان والضفة الغربية بما في ذلك القدس، كل ذلك يحـدث نتيجـة الأماني الكاذبة والوعود المضللة من بعض الزعـماء العرب، بأن إسرائيل ستُلْقَى في البحر هـي ومن وراءها، هكذا قال عبد الناصر يوماً من الأيام قبل الحـرب، فتغنت بمقـولته القيـان، وسارت بأقواله الركـبان، وعاش الجـميع

منتظرين لحظة النصر المبين، فإذا بهم في هوّة الخسف الأليم والزيف العميم والهزيمة المريرة. أين كانت الواقعية؟ كيف ماتت الأريحية؟ كيف حلَّ الزور والبهتان محل الحق؟

إنها مجانبة الواقع وسط الأوهام وأحلام اليقظة التي لم تتعلم منها الأمة، ولم تأخذ العبرة فوقعت بعد عقدين من الزمان أسيرة وهم من الأوهام يوم أعلن صدام أنه سيحرق نصف إسرائيل على ساكنيها، وأن قدرته وقوته فوق كل اعتبار، فماذا حدث لإسرائيل نتيجة هذا الخيال أو الخبال ؟ انطلق صاروخ «سكود» نحو إسرائيل فسقط في صحرائها كقطعة من الثلج فكان عليها برداً وسلاماً ،ونالت إسرائيل ١٠ مليارات دولار أمريكي حتى لا تدخل المعركة ضد صدام، فهل حقق الخيال شيئاً عند النزال والقتال ؟ أفليست الواقعية في الخطاب والعمل أقوم سبيلاً وأصدق قيلاً؟ إن إيقاظ الناس ـ وإن كرهوا ـ خير من تنويمهم ـ وإن رضوا.

إن الواقعية قد يغصُّ بها أناس لأنها ثقيلة على نفوسهم، وتجابههم بأخطائهم، وقد يرتضيها كثيرون لأنها بداية الإصلاح الحقيقي، فتعلم الأمة مواطن ضعفها، وتعمل على أن تأخذ أنفسها وأبناءها بالجادة، ولا تزيغ عنها، فلا تناطح السحاب وهي قصيرة القامة، ولا يزيد إنتاجها بالكلام وهي فقيرة تمد يدها هنا وهناك، ولا تحارب بالشعارات وهي ضعيفة عاجزة، هذه بعض مزايا الواقعية في الخطاب والواقعية في السلوك، التي تُفْتَقَدُ في كثير من الأحيان لدى كثير من الفئات والجماعات التي تضمها الأمة بين جوانحها.

ومن بين هذه الجماعات أبناء الصحوة الإسلامية، الذين يبتعد بعضهم عن الواقعية في القول، والواقعية في التصور، فيظنون أنهم قادرون على صنع المعجزات، وأنهم إن دانت لهم الأمور ذلت لهم الصعاب، ولانت الشدائد، وشاع هذا الوهم بينهم وانتقل منهم إلى غيرهم، فظن الكثيرون أن الأمور ستتحول من النقيض إلى النقيض على يد الإسلاميين، كما يتحول الإنسان من الشمس إلى الظل، في سهولة ويسر، وبعض قادة الصحوة لا يبصر الناس بواقعية الحال، وأن الأمة التي ظلت تتقهقر عن موقعها المتقدم قروناً وقروناً محتاجة إلى عقود من السنين، مليئة بالعمل المنظم، المستند إلى فكر سليم، بعيد عن العنتريات المزعومة، يقوم فيها كل فرد بدوره، ويؤدي واجبه على النحو الأمثل، غير ناظر إلى مكاسب شخصية ولا متهرب

من تضحيات مالية، أو بدنية في الجـهد أو في الوقت، وحينئذ يتم تحويل الأمة ويتم تقوية بنيـانها حقيقـة وواقعاً بعد تقـويض الخمول والكسل، والابتعـاد عن الشعارات الجوفـاء، والركون إلى الواقـعيـة في الخطاب والتربيـة والاعتـدال في ميـزان الأمور والتركيز على التربية الصحيحة المعطاءة للناس كل الناس.

وهذا الذي نقوله ليس بجـديد في الرؤية الإسلامية؛ لأن جيـل الصحابة الأولين هم أكثر النـاس تضحية، وأعظمهم جـهداً وأقلهم مطلباً، وأسخـاهم يداً؛ ولذا كان أثرهم في الأمة عظيماً.

ومن أولى بذلك اليوم من أبناء الصحـوة الإسلامية وقادتها الذين هم فـي مقدمة القائمين بواجبهم، والمضحين في سبيل دينهم؟ ولن يتم شيء مأمول إن كانت الأماني هي غـاية الأفكار، وكانت الأخـيلة هي دليل التحـول من الضعف إلى القـوة، ومن التأخر إلى التقدم.

إن الواقعية منهج للإصلاح يجب أن يسيـر عليه المصلحون الصادقون، وأملي أن يأخذ أبناء الصحوة أنفسهم بالواقعية، وأن يدركوا أين هم من أمتهم، وأين الأمة منهم؟

سادساً: في طريق البناء:

أ. التحدي القائم:

يلخص الدكتور/ سيد دسوقي دور الحركة الإســلامية في صنع الحضارة الإسلامية بأنه «المعاصرة بالإسلام تحت صليل السيـوف» ثم يقول: وصليل السيوف الذي أشرت إليه هو صليل السيوف الممشوقـة فوق رقابنا من الداخل والخارج تحرس تخلفنا وتحول دون تقدمنا فتزيد الإعاقة الحضارية ضراوة وشدة».

وهذا التشخـيص يكشف عن مدى التحدي الموضوع والمرصـود في طريق الحركة الإسلاميـة، بحيث يشل تفكيرها، ويشتت تركيـزها، ويعوق خطوها، ويضع السدود والحواجـز في طريقها، لعل ذلك يؤدي إلى سـقوط ثمرتهـا قبل نضجـها، أو ذبول شجرتها قبل كـمال نموها، وثبات موقف الحركة الإسلاميـة، وزيادة رصيدها، وتنمية دورها، وتنوع الطرق الموصلة إلى هذا الهدف هو أحد المثـبطات المرحلية لمواجهة هذا التحـدي، والتخلص من قبـضته، ثم العمـل باستمرار على إيـقاظ الأمة وتبصـيرها

بواقعها غير المرضيّ، وتحديد الآمال المعقودة على يقظتها وفطنتها، وخروجها من دائرة التأرجح والتذبذب في الاختيار والتوجه إلى توحيد المسار نحو القيام بالواجب الإسلامي في التنمية الاجتماعية والاقتصادية والمعنوية الخالية من التطفيف، والقائمة على سد حاجات الأمة الأساسية في جميع المجالات، التي لا تستغني عنها أمة معاصرة، على أن نستخلص من تراثنا وثقافتنا كل فكر إصلاحي، ثم نبثه بين الجماهير، التي تتفاعل كثيرا حين ترى أنوار الإسلام تظهر من خلال أعمال تساعد الناس في معاشهم ومعادهم، وتظهر من خلال أشخاص أشرقت في قلوبهم تعاليم الإيمان فتمثلوها كاملة في حياتهم وتشربتها أفئدتهم فحسنت أخلاقهم، وصاروا أكثر عطاء بجهودهم وأموالهم وأفكارهم، وصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ**﴾(١) حينئذ ينزوي الكيد، ويخلو الطريق من المكر الظاهر، وتأخذ الأمة مناعة ضد المكر الخفي الذي لن يزول مادام هناك صراع بين الحق والباطل.

ب- الحركة الإسلامية تملك الكثير:

وماذا تملك الحركة الإسلامية حتى تقوم بهذه الأعباء؟ إنها تملك الرؤية البصيرة الخالية من الغبش والضباب لمعالم الإسلام، وإنها تدرك أن الحياة الحقة للأمة إنما هي في العيش المستظل بظلاله، الذي لا مجال فيه للهوى ولا للعبث، إنها من خلال هذين الأمرين موكول بها أن «تخاطب عقل الأمة وفؤادها ممثلاً في طبقة المثقفين العليا الذين يملكون دفة التوجيه الفكري المستقبلي» .

إنها تستطيع أن تشحذ الفعالية، الطاقة الروحية للأمة بالزاد الذي يجعل من كل واحد من أفرادها عضواً عاملاً في بناء دولة إسلامية - في المجال الذي يحسنه - تقوم على العدل والقسطاس، وتتصدى للظلم والجور، وتحمي الحق وتناصره، وتأمر بالمعروف بعد أن تعمل به، وتنهى عن المنكر دون أن تقترفه، تقدم للناس ما يغنيهم عن غيرهم.

ولا ينبغي أن يختلط في الأذهان دور الحركة بدور الأمة، فكلا الدورين مختلف عن الآخر، وإن ارتبط بعضهما بالآخر ارتباطاً عضويًا.

---

(١) الليل: ٥-٧.

جـ . دور الحركة في الأمة:

إنَّ الحركـة ـ إن استطاعت أن تقـوم بهذا الدور ـ كانت بمثـابة القلب الذي يضخ الدماء إلى كل أجزاء الجسم، فيحفظ على هذه الأجزاء حياتها ونماءها وتجددها، رغم المؤثرات الخارجـية التي تؤثر على هذا الجسم من عـوامل البيئة المحـيطة به في الزمان وفي المكان.

والأمة هي ذلك الجسم الكبير الذي تعمل فـيه الحركة بصدق، وتبذل بإخلاص، وتضحي وتعـطي وتدعو وتضع بنفسـها النمـوذج الذي ينبغي أن يحـتذى، وفي هذا السبيل لا يغيب عن بالنا ما اقترحه الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه: «أين الخلل» حيث قـال: «ومن أهم ما ينبغي التخطيـط له: توجيه المواهب الشابة إلى التـخصص على أعلى المستـويات في كل مجالات الحياة: علمـية وشرعيـة وسياسية واقـتصادية واجتـماعـية وثقافـية وتربوية وإعـلاميـة وإدارية وتخطيطية وغـيرها من كل مـا يسد الثغرات، ويلبي الحـاجات في مجتـمع متـحـضـر معـاصر، في عالم (الكمـبيوتر) والأسلحة النووية، وغـزو الفضاء، والهـندسة البيـولوجية. . عـالم يضيف كل يوم جديداً بما يشبه الوثبات في العلم والتكنولوجيا، والمسلمون يتصارعون فيما بينهم، أو يلهون والدنيا تجد، أو يلوكون ألسنتهم بما لا يفيد.

فلابد من التـخصص الذي يعتبر في نظـر الشريعة من فروض الكفـايات الواجبة على الأمة مجتمعة، ولا يـجوز أن تتكدس القدرات والكفايات في مجال، على حين يغفل مجال آخر، يحتاج إلى من يقوم به فلا يجد»(١).

وحين يتم توجيـه المواهب الشابة نحو هذه الميـادين لتعمل فـيها بتجـرد وإخلاص، وهي تدرك أنها تعـالج أمة اسـتعصت زمناً طويلاً على العـلاج لغيـاب الأطباء أو نقص الدواء، أو عـدم استـجابة المـرضى، حين يدرك الشبـاب ذلك يضـاعفـون جهـدهم، ويستحدثون ما يقصر المسافات، ويسرع بهم إلى الغايات وكل ذلك لا يتم إلا في ظل عقيدة الإسلام التي تحيي موات القلوب، ويعمل العاملون على الاستظلال بها، لتظل

---

(١) انظر: أين الخلل ص ٤٨ ، ٤٩.

قلوبهم آملة في نصر الله، عاملة على مرضاته ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ﴾(١).

سابعاً: دعوة لعقلاء الأمة:

أ- المحك الحقيقي:

إن معادن الرجال لا تظهر إلا في الشدائد؛ لأنها المحكّ الحقيقي الذي يكشف دخيلة الإنسان، ويُظهر جوهره ومدى قدرته على الصمود في وجه الأحداث والتغلب عليها، أو على الانهيار أمامها، والاستسلام لمتطلباتها.

وأعاظم الرجال هم الذين يجابهون ـ في عزة ومقدرة وحنكة ـ أعتى المشكلات ويتخلصون، ويخلصون غيرهم من آثارها، وغير هؤلاء من الرجال همّهم معدة تملأ، ومتعة تقضى فإذا جدّ الجدّ، ونودي: واإسلاماه!! ذابوا بين الناس، وتلاشى كل أثر لهم، فلا يبقى في الميدان غير الأكفاء، الذين تعلقت هممهم بالثريا، وارتبطت قلوبهم بالله، وترطبت ألسنتهم بالذكر والدعاء والرجاء، وجرت دموعهم على خدودهم فرقا وخوفاً وخشية لله رب العالمين.

وأكثر هذا الصنف مهضوم ـ بين الناس ـ حقه، مجهول قدره، يؤخر في المواطن التي يجب فيها تقديمه، ويدعى غيره لاقتسام المغنم دون تحمل أي عبء من المغرم، فصار الجميع يجري على سنة الشاعر القديم:

وَإِذَا تَكُونُ كَرِيهَةٌ أُدْعَى لَهَا ... وَإِذَا يُحَاسُ الحِيسُ يُدْعَى جُنْدَبُ

الأمل والعمل:

إن هؤلاء الرجال الأكفاء هم الذين لا يفقدون الأمل، ولا يملّون العمل، ولا يصيبهم إحباط؛ لأنهم يفعلون ما يستطيعون ويبذلون ما يملكون، ويردون أمرهم وأمر غيرهم إلى مالك الأرض والسماء، الله رب العالمين. إنهم الذين لا يقنطون من رحمة الله؛ لأنهم بعيدون عن الضلالة، ولا ييأسون من رحمة الله؛ لأنهم عرفوا ربهم، وأسلموا إليه قلوبهم وجوارحهم، وعلموا أن كل شيء بقدر الله، فما أخطأهم لم يكن ليصيبهم وما أصابهم لم يكن ليخطئهم، فعلام الهلع؟ وفيم الجزع؟ وهم لا يأسون على ما فاتهم، ولا يفرحون بطراً وتكبراً بما آتاهم؛ لذلك تجد نفوسهم

---

(١) الروم: ٤، ٥.

مستبشرة يمسكها الصبر، ويحدوها الأمل، ويدفعها العمل نحو معالي الأمور التي بها يتحقق الفرج القريب.

فَكُلُّ ٱلحَادِثَاتِ وإِنْ تَنَاهَتْ فَمَوْصُولٌ بِـهَا فَرَجٌ قَرِيـبُ

ب. الإخلاص:

وهم في حركتهم في الحياة واثقون من عون الله لهم، وتأييده لجهودهم وأعمالهم؛ لأن الله ـ سبحانه ـ لا يخذل جنده، ولا يغيب مدده عن المخلصين، الذين اتبعوا شرعه، وأطاعوا أمره، وامتثلوا في حياتهم كلها منهجه، وساروا خلف رسول الله ﷺ لا يحيدون ولا يتحولون، وهم في أعمالهم لا يبغون من الناس جزاء ولا شكورا، ولا يطلبون من أحد نقيراً ولا قطميرا، ويكفيهم عون الله لتتواصل أعمالهم وتثمر جهودهم.

إذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّه للفتَى فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ أجتِهَـادُهُ

جـ. شكر النعم:

هؤلاء هم عقلاء الأمة، الذين تناط بهم المهام، وتوكل إليهم عمليات الإصلاح؛ لأنهم أقدر على تأصيلها، وإظهارها ومتابعتها في ضوء التعاليم الشرعية والآداب والفضائل الخلقية، والمحاسن المعنوية والمادية، فيكون غرسهم ثابت الجذور، باسق الفروع يؤتي أكله لكل محتاج، فتنتظم الحياة، ويشعر الناس بنعم الله وفضله عليهم فيشكرون نعمه، فيزيدهم منها ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]، وإذا خلت الساحة من هؤلاء العقلاء الذين بهم صلاح الأمة، فإن الشر يبدو، حين يعلو الفجار والأشرار، فتضطرب الأمور وتعمّ الفوضى.

تُهْدَى ٱلأُمورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلُحَتْ فإنْ تَوَلَّـوْا فَبٱلأَشْـرَارِ تَنْقَادُ
لاَ يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لاَ سَرَاةَ لَهُـمْ وَلاَ سَـرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَـادُوا

من أجل ذلك وجب أن يوكل أمر الإصلاح للمصلحين، وأن يبعد عنه الأشرار المفسدون.

(١) إبراهيم: ٧.

وهل يصلح فـرد غيـره وهو محتـاج إلى إصلاح ؟ إن فـاقد الشيء لا يعـطيه، فكيف ينتظر إصلاح ممن فقدوا هذه السمة ؟

الْمِلْحُ يَصْلحُ كُلَّ مَـــا يخْشَى عَلَيْه منَ الْفَسَـادْ
فَإذَا ٱلفَسَادُ جَرَى عَلَيْـهِ فَحُكْمُـهُ حُكْمُ الرَّمَـادْ

إنها دعـوة لعقلاء الأمـة في كل شأن من شـئونها ليـقومـوا بدورهم الإصلاحي المنشود، حتى تنفض الأمة عن نفسها غـبار التخلف عن السير في موكب الناهضين، الذين لا تتعثر أقدامهم، ولا تتثاقل خطواتهم.

وعقلاء الأمة علماؤها ومفكروها وأصحاب التجارب في المجالات المختلفة وولاة الأمر فيـها، وهؤلاء عليهم أعظم الواجبات وأثقل التـبعات في حمل أعبـاء التقدم، يقول الأسـتاذ أبو الأعلى المودودي: «إن واجب العلماء وأولي الأمـر من كل أمة هو أكبر الواجبات والتبعات؛ وذلك أنهم ليسوا مـسئولين عن أعمالهم وأنفسهم فحسب، بل تقع عليهم أيضاً إلى حد كبير تبعة أعمال الأمة بكاملها»[1].

ويقـرر ذلك بقوله: «إن القـوة الحقـيقيـة لأمة مـا لا تكون في عـامتهـا بل في خاصتـها، فهؤلاء هـم الذين يتوقف عليهم صلاح الأمـة وفسادها... فمـتى كانت الأمة في إقـبال نبغ من بينها خواص يسـيرون على الصراط السويّ، ويـسيّرون الأمة معهم عليه ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**﴾ ومتى كانت الأمة في إدبار ابتدأ الفساد فيها من خاصتها الذين يتأثر بـضلالهم وفساد أخلاقهم عامة أفرادها، فيقـعون جميعاً في الضلال وسيـئات الأعمال ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً**﴾» [2].

ومن ثمَّ، فإن الغـيورين على مصـالح الأمة من رجال الفكر وأصـحاب السلطة العامة مـدعوّون جميعـاً لأن ينبذوا خلافاتهم، وأن يرفعـوا راية الإصلاح في الأمة، جاعلين من أنفـسهم أمـثلة حية للصـلاح والإصلاح، ليسـير الناس وراءهم ومـعهم عاملـين مجدين، كـل في الميدان الذي يصلح فـيه، لعل الله أن يمنَّ على هـذه الأمة باليقظة والنهضة.

---

(١) نحن والحضارة الغربية ص ٢٣١.
(٢) الأنبياء: ٧٣.

المبحث الثالث

عبادة مفقودة في المشهد التربوي

أولا: هل للأخوة الإسلامية بيننا وجود؟

الأخوة الإسلامية لا تتحقق بين المؤمنين إن حادت عن المبادئ الإسلامية الصحيحة التي أرسى الإسلام دعائمها، فالناس متساوون في خلقتهم وإن تفاوتوا في أخلاقهم وأرزاقهم، والناس أحرار حتى في معتقداتهم التي على أساسها يتقرر الحكم عليهم في الدنيا وفي الآخرة، وليس من حق أحد أن يحدّ من هذه الحرية طالما أنها ملتزمة بالأصول المتفق عليها بين الناس بحيث لا تخالف شرعاً صحيحاً، ولا تنحرف وراء عرف معوّج أو سلوك أهوج.

ويكفي أن يرجع الناس إلى الأصول الإسلامية في هذا الموضوع لتستقر أخوتهم، وتذوب عصبيتهم ولايتفاضلوا بغير التقوى ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[1] والتقوى شيء يعلمه الله وحده؛ ولذا نهانا عن تزكية أنفسنا، ﴿**فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾[2] فماذا يبقى للناس؟ تبقى آثار التقوى وأماراتها التي تدل على أن الأخوة قائمة باقية.

ومن هذه الأمارات الإحسان إلى الناس بالقول وبالفعل، وهذا مأمور به لكل الناس، وأولى أن يكون ذلك بين المسلمين، قال سبحانه: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً**﴾[3] وبيّن ـ سبحانه ـ أن الكلام الجميل الذي يُرد به السائل والصفح والعفو عمّا يفرط منه عند الرد وعدم الإعطاء، خير وأفضل من صدقة يتبعها أذى، قال سبحانه: ﴿**قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ**﴾[4]، وإذا كان هذا في القول فهو في العمل كذلك، قال سبحانه: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً**﴾[5]، فحسن القول وحسن الفعل للناس أجمعين هو إحدى سمات الإسلام التي أمر الدين بها المسلمين، وإذا عمّ هذا الأمر الناس

---

(١) الحجرات: ١٣.
(٢) النجم: ٣٢.
(٣) البقرة: ٨٣.
(٤) البقرة: ٢٦٣.
(٥) النساء: ١٢٤.

أجمعين، فـإن من الأولى أن يكون هذا الإحسان بين المسلمين بعضهم بعـضاً قبل أن يكون مع غيرهم.

ووجوه الإحسان عديدة، وأعمال الخير والبر لا تحصى، ومن لوازم هذا الإحسان احتمال مساءات الآخرين والصبر على إيذائهم، والعفو عن مسيئيهم، والصفح عنهم، بل إننا نأخذ بأيديهم إن تعثروا، ونداوي جراحاتهـم بالصبر عليهم فنكون وإياهم كما قال الشاعر:

وَكُنْـتُ إِذَا صَحِـبْتُ خِيار قَـوْمٍ صَحِبْتُهُمْ وَشِيمَتِي الوفَـــاءُ
فَأَحْسِنُ حِينَ يُحْسِنُ مُحْسِنُوهُـمْ وَأَحْتَمِلُ الإِسَـــاءَةَ إِنْ أَسَاءُوا

ومن لوازم هذا الإحســان أيضـاً أن يفـتح الدعـاة صـدورهم للناس، يواسـون المكروب، ويخففـون الآلام عن المحزون، ويشاركون الناس في بأسـائهم وضرائهم، فإن الإنسان ضعيف، وهو يحتاج إلى من يسـمع ـ أحياناً ـ شكواه، ويحمل عنه شيئاً من بلواه، ويقوي ساعده أمام مشكلات الحياة، وهم بذلك يفتحون باباً أمام إخوانهم المسلمين، ليلتفوا من حولهم، لا لـيهتفوا بحياتهم، ولكن لكي يستـمدوا منهم الخير حين يقوم الدعاة بواجـبهم في الدعوة إلى الله على بصيرة، فينتـفع بها المسلمون قبل الآخرين.

ويصدق على هؤلاء الدعاة في تلك الحالة قول الشاعر:

صَدِيقِي مَنْ يقَاسِمُنِي هُمُومِي وَيَرْمِي بِالْعَدَاوَةِ مَنْ رَمَانِـي
وَيَحْفَظُنِي إِذاَ مَا غِبْـتُ عَنْـهُ وَأَرْجُـــوهُ لِنَـائِبَـةِ الزَّمَانِ

إن مشـاركة الناس في أفـراحهم وأتراحـهم حق من حقـوق المسلم على المسلم، يدعم رابطة الأخوة بقـوة معنوية لا تنفصم عـروتها ولا يزول أثرها، وخيـر من يقوم بهذا الواجب هم الدعاة الذين ينبغي أن يكونوا ملاذ كل متوجع، وبلسم كل مجروح الفؤاد منكسر الخـاطر، يواسون الناس في مصابهم، ويتوجـعون لآلامهم؛ لأن هؤلاء الدعاة هم أصحاب المروءة التي تجعل قلوب الناس تتعلق بهم.

ومن أمارات هذه الأخوة كـذلك لزوم مشاورة الإخوان فـيما يتصل بأمـور الحياة

العامة، التي يحتاج بحثها وتنفيذها إلى استنارة فكرية نظرية أو خبرة عملية، أو تجربة سلوكية، ومشاورة الإخوان مؤكدة النفع؛ لأنهم لا يصدرون في رأيهم إلا عن يقين مؤكد أو على الأقل ظن غالب، فالصدق مبتغاهم والنصح دليلهم، والحق مطلبهم، ولا يتم ذلك إلا بالمشاورة، وتمحيص الآراء.

الـرَّأيُ كَاللَّيْـلِ مُسْود جَوَانِحُـهُ ... وَاللَّيْـلُ لاَ يَنْجَلِـي إلاَّ بَإِصْبَـاحِ

فَاضْمُمْ مَصَابِيحَ آراء الرِّجَال إلَى ... مِصْبَاحِ رأيكَ تَزْدَدْ ضَوْءَ مِصْبَاحِ

إن أمثال هؤلاء الإخوان ـ وإن قلوا ـ هم صفوة الزمان التي تغني عن كثير من الرجال؛ لأن أصحاب المواقف قليلون، يكثر الغثاء من حولهم فلا يضيقون، وقد يتهمون في آرائهم فلا ينصرفون عنها ما دامت موافقة للحق، آمرة بالقسط، ناهية عن المنكر، عاملة من أجل تثبيت قيم الإيمان ومد أنوارها في الآفاق على يد الصادقين من الإخوان، الذين لا يخافون إلا الله، ولا يطلبون إلا رضاه.

وإذَا صَفَا لَكَ مِنْ زَمَانٍ وَاحِدٌ ... فَهُوَ المرادُ فَعِشْ بذَاكَ الْوَاحِدِ

ومن أماراتها: إحسان الظن بالآخرين، والمؤمن مطلوب منه أن يجتنب كثيراً من الظن، وأن يحذر من سوء الظن ﴿**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾[1]، وقد يدرك الإنسان بعد فوات الأوان أنه رمى إخوانه بسهام ظنه، فأدمى مكانتهم في نفسه، وانقطع عنهم بشخصه، وربما لاك لسانه سيرتهم، وعمل على أن يستشف دخيلتهم فلم يصل إلى حقيقة، بل تمسك بالشك أو بالوهم الذي يود أن يثبته على إخوانه ليظهر أنه يعمل غير عملهم، وأنه ليس شبيها بهم، والحق أن من بين إخوانه من لا يظن به إلا الخير، ولا يصنفه إلا مع أهل الحق والصدق، وشتان بين موقف هؤلاء وموقفه، إنه بالفعل ليس شبيهاً بهم، ولا قريباً من منزلتهم في حسن ظنهم بالآخرين ﴿**قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**﴾[2] وصحبة الذين يسيئون الظن بالآخرين تضر بالناس وتضر صاحبها؛ لأنها تعدي ولا تقف عند حد معين؛ ولذلك قيل:

وَاحْـذَرْ مُؤَاخَـاةَ الدَّنِـيء لأَنَّـهُ ... يُعْدِي كَمَا يُعْدِي الصَّحِيحَ ألأَجْـرَبُ

---

(١) الحجرات: ١٢.   (٢) المائدة: ١٠٠.

أسأل الله أن يجنبني وإخواني المؤمنين سوء الظن، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدا.

ثانياً: من أمارات الأخوة:

الأخوة إحدى السمات البارزة في الدين الإسلامي، الذي يعتبر الإيمان محوره وجذعه، والأخوة فرعه وغصنه، وقد بدأنا هذا الموضوع في الأسبوع الماضي، ولم نشأ أن نتركه إلا بعد أن نوفيه بعض حقه؛ ولذا فإننا نجعله حديثنا اليوم كذلك.

أ ـ العون في الضراء قبل السراء:

لا يُعرف الرجال إلا في الملمات، ولا تظهر معادنهم إلا في الشدائد، وشدائد العاملين في حقل الدعوة الإسلامية كثيرة متشعبة، إذ يصدق عليهم الحديث: عن سعد بن أبي وقاص قال: قلت: يارسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: « **الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه**»[١]، ومؤازرة الذين أحاطت بهم الشدائد، وحلّ بهم البلاء أمر واجب، لا تبرأ الذمة إلا بالقيام به، وإلا فإن عون الله يكون عنا بعيداً؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»[٢]، ومفهوم الحديث يوحي بأن امتناع العبد عن معاونة أخيه مدعاة لأن يتخلى الله ـ سبحانه ـ عن عوننا، وأي عون يريده المرء في حال اليسر والسلامة والصحة؟ إن العون في كل الحالات حسن، ولكنه في وقت الشدائد أكثر حسناً وأشد نفعاً؛ لأنه يكون كالغيث الذي يصيب أرضاً عطشى، فتهتز وتربو، وتحيا بعد ممات، وتنبت بعد جدب، وكذلك عون الإنسان لأخيه في شدته، يحيي نفسه، ويشد أزره، ويقوي عضده، فلا تقضي عليه الشدة، بل يقاومها بكل ما استطاع، لأن له مدداً وسنداً في إخوانه الذين لا يبخلون عليه بشيء معنوي يستطيعون أن يقدموه، وفي ذلك يعرف فضل الإخوان، ويُعلي قدر الإنسان:

وَلَيْسَ أَخِي مَنْ وَدَّنِي رأْى عَيْنِـهِ ... ولكِنْ أَخِي مَنْ وَدَّنِي وَهُوَ غائِبُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد (١/ ١٧٤)، وابن حبان (٢٩٠١)، والحاكم (١/ ٤١)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) حديث صحيح، تقدم تخريجه.

ب. السلوى والمواساة:

ولو كانت معونة الآخرين في إفساح صدورنا لهم لينفسوا عما يكنون مما ألمّ بهم، وما يكظمون مما يلاقونه في سبيل دعوتهم لربهم، لربما أغنت عن غيرها من المعونات، وخففت عن الناس بعض الأحزان في الملمات.

وَلاَبُدَّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذِي مُرُوءَةٍ ... يُوَاسِيكَ أَوْ يُسْلِيكَ أَوْ يَتَوَجَّعُ

إن هؤلاء الأوفياء الذين يقدمون للناس السلوى أو المواساة والعزاء، هم الظل الذي يستريح فيه سالك الصحراء عند الهجير، وهم الماء الذي يرتوي به الظمآن، فيجدد نشاطه ويوقظ آماله ويرفع من جديد فيه روح التحدي للمعوقات، ومواجهة ما قد ينزل به من خطوب، ويلاقيه من كروب، والناس مهما علا قدرهم، وكثر نصيرهم محتاجون إلى من يسمع منهم شكواهم، ويخفف عنهم بلواهم. وها هو ذا رسول الله ﷺ يشكو إلى الله بعد رحلة الطائف التي لاقى فيها ما لاقى من الأذى فقال: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس**»[(١)]، وقد كان ﷺ ملاذ البائسين، يسمع شكواهم ويزيلها، ويأتيه الجائع المحروم، والفقير المهموم، والغارم المكروب، فيسمع منهم، ويزيل عنهم كربهم، ويشفي صدورهم مما نزل بها من آثار الشدائد والحرمان.

وما من إنسان يخلو ـ في بعض الأحيان ـ من الاحتياج إلى الشكوى ليخفف عن نفسه بعض الآلام:

شَكَوْتُ وَمَا الشَّكْوَى لِمثلِي عَادَةٌ ... ولكِنْ تفِيض الكَأسُ عِنْدَ امْتِلائِهَا

وهذا السماع والإنصات للشكوى، والعمل على تذليلها، وإزالة آثارها، أقل ما يقوم به الأخ نحو أخيه، والصديق نحو صديقه.

جـ. التخلص من كل ظلم:

ومن أحق بهذا التنزه عن الظلم من الإخوة الذين جمعتهم آصرة الإيمان والحب

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٦٨) عن محمد بن كعب القرظي، والطبراني في الدعاء (١٠٣٦) عن عبد الله بن جعفر، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥): «رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات»، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٨٢).

في الله والبغض في الله؟ إن هؤلاء الإخوة هـم من أقرب الناس إلى القلوب، وأدومهم مودة؛ لأنهم عـرفوا حلاوة الإيمان، «**ثلاث من كن فيه وجد بهـنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**»(١).

ومن ظلم الإنسان لنفسه ولأخيه في نفس الوقت أن يتـجافى عنه وقت الخطر، وأن يتحامل عليـه عند العسر، وأن يعرض عنه وهو يمد إليـه يده، ويكون لسان حاله ما يغني عن كل بيان بلسانه، إنه لظلم ينبغي أن يتنزه عنه المسلمون العاملون:

وَظُلْمُ ذَوِي الْقُرْبَىَ أَشَدُّ مَضَاضَةً … عَلَى المرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ

ومن الواجب على العـاملين للإسلام تتبـع احتيـاجات إخوانهم، والـعمل على سدها مادامت في حـدود القدرة والاستطاعة، دون أن يكلفـوا هؤلاء بذل ماء الوجه في طلب ما يريدون، بل يكفيـهم أن يعلموا مصيرهم، وأن يعرفوا أحـوالهم؛ ليغيّروا سلوكهم نحوهم.

وَفِي النَّفْس حَاجَاتٌ وَفِيكَ فِطَانة … سُكُوتِـي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَـابُ

وأسأل الله أن يعيننا على أداء واجباتنا نحو إخواننا.

ثالثاً: من أجل الأمة يتألم الكبار:

آمال الأمة كبيرة وكثيرة، كما أن آلامهـا كبيرة وكثيرة، وقد تشترك الآمال والآلام في مسـألة واحدة في أمور تخص الأمـة، وفي أمور تخص الأفـراد كذلك، فتـربية الأبناء، مسألة تشغل كل من عنده شعور بالمسـئولية من ولاة الأمر والمصلحين والآباء والأمهات، ولم لا...؟ وأولادنا أكـبادنا تمشي على الأرض، وهم الامتداد الحـقيقي للإنسان «**إذا مات الانسان انقطع عمله إلا من ثلاث ـ منها ـ ولد صالح يدعو له**»(٢)، والأولاد ملح الأمة، فـفي الغد يكون منهم الأميـر والخفير والطبـيب والمهندس، فإذا صلحوا وهم صغـار أصلحوا وهم كبار، والعكس صحـيح فزوال الأمم بزوال أبنائها

---

(١) أخرجه البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٧٢)، ومسلم (١٦٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

عن الطريق الصحيح، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾(١) نعم فسنن الله لا تتغير ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٢)، وبعد هذه الأسطر يتضح أن الأنبياء كانوا مصدر أمل لأممهم حين عملوا على تغيير واقعها السيئ القبيح إلى واقع أكثر صلاحاً وحسناً.

من هذه الحقيقة كان تألم الكبار في الحرم المكي، حيث يأوي إليه الناس من كل صوب وحدب، ومن كل الأعمار والأجناس، ويتوجه إليه في الصلاة أكثر من مليار ونصف من الموحدين في العالم.

في هذا المكان(٣) كان الألم يعتصر قلب إمامنا ـ الشيخ سعود بن ابراهيم الشريم ـ في صلاة الفجر من السابع والعشرين من شهر شعبان حيث قرأ من سورة هود حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾(٤)، فلم يستطع أن يكمل من شدة بكائه، فقلت في نفسي: وهكذا الكبار يتألمون حين يرون أجيالاً من هذه الأمة يعصف بها التغريب في أخلاقها وقيمها وسلوكها ومعاشها ليدفع بهم إلى الغرق، على حين يناديهم أهل الإصلاح وينادون الأجيال معهم: يا أبناءنا اركبوا معنا.

ويستمر الكبار في آلامهم، ففي غرة رمضان يصعد على المنبر لصلاة الجمعة صاحب القلب الكبير الشيخ سعود ليتكلم عن استقبال رمضان، ويذكر جانباً من ضياع التربية، فيصومون وليس لهم من صيامهم إلا الجوع والعطش، ثم يُطيل في بيان ذلك ليذكر بعد ذلك الركن الكبير في العملية التربوية الأم فهي مدرسة الأجيال:

ٱلأُمُّ مدْرَسَةٌ إِذَا أَعْدَدْتَهَا أَعْدَدْتَ شَعْباً طَيِّبَ ٱلأَعْرَاقِ

وبلغة جميلة يبين مكانة المرأة في العملية التربوية في المجتمع فيقول: «المرأة نصف المجتمع وهي تلد النصف الثاني»، نعم إنها المجتمع ومحضن الأجيال المسلمة؛ ولذلك يهتم أهل التغريب بإخراجها عن دورها الأساسى الذي كرمها الله به حتى أصبحت

(١) الإسراء: ١٦.
(٢) الرعد: ١١.
(٣) الحرم المكى.
(٤) هود: ٤٢، ٤٣.

هي المجتمع، نعم ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً**﴾[١] لذلك كانت وصية النبي ﷺ «**إن الله ـ تعالى ـ يوصيكم بالنساء خيراً، فإنهن أمهاتكم وبناتكم وخالاتكم**»[٢]، فهي وإن كانت ضعيفة فإنها تعرف كيف تستغل ضعفها، فليس هناك نبع فياض بالمودة والرحمة مثل المرأة بحكم تكوينها وفطرتها التي فطرها الله عليها، وإذا كان في الرجال من يفيض على غيره بالمودة والرحمة، فإن صاحب الفضل عليه بعد الله من هذا الخُلق العظيم امرأة هي «أمه».

هل ترجع المرأة إلى مهمتها الأساسية وتمارس دورها الذي ينشده الجميع، ويبكي من أجله الكبار ويُصاب بالأرق من أجله الآباء، الذين شغلتهم لقمة العيش رغماً عنهم عن أن يلتفتوا إلى أبنائهم، معتمدين بعد الله على حرص الأم ودورها ؟ فالمرأة أم منذ المهد انظروا إليها مع دُميتها وإخوانها الصغار،وكذلك مع لعبها من أدوات المطبخ والزينة. نعم، لقد خلقت المرأة لتكون أما!! والمتتبع لأقوال الشهيرات في ميادين التهتك والفجور الذي يسمونه فنا، هؤلاء كلهن يقلن بعد أن يصلنَ إلى سن الأربعين: «خذوا ما عندنا وأعطونا بيتاً وزوجاً وابناً» وهكذا حنين المرأة للابن لتمارس معه مهمتها الأساسية (أن تكون أماً).

وتنتهي صلاة الجمعة وتأتي ليالي رمضان بقيامها، ويقرأ الشيخ سعود حفظه الله من سورة آل عمران فيصل إلى قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[٣] وعند هذه الآية يتأثر الشيخ فيبكي في الآية التي بعدها!! ولِمَ لا يكون هذا التأثر وهو يتعلق بالصنف الثاني من أجيال الأمة (البنت)؟

وهكذا تكتمل المسألة التربوية الأم والأبناء والذكور والإناث، إنها قضية الألم والأمل في أهم جزء من حياة الإنسان بعد تقوى الله وطاعته. وفي هذا الذي ذكرنا

---

(١) الأعراف: ٥٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٧٤) (٦٤٨) عن المقدام بن معدي كرب، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٠٢): «رواه الطبراني ورجاله ثقات إلا أن يحيى بن جابر لم يسمع من المقدام والله أعلم»، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٧١).

(٣) آل عمران: ٣٦.

شواهد كثيرة نراها في الحرم، فالآباء من كل بقاع الأرض جاءوا بأولادهم إلى العمرة وأرض الحرم، وتكلفوا مشقة المال والسفر من أجل أن يطهروا نفوسهم ويأخذوا بأيديهم إلى طاعة الله، وكذلك الدعاة من كل البلاد اصطحبوا شباب الصحوة حيث القلوب تتعلق بما عند الله، وكل واحد منهم يُريد البناء الإيجابي لهذه الأجيال ولسان حالهم يقول: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾[1] وهناك زاوية من زوايا في المسجد الحرام رأيت إنساناً ينظر إلى مئذنته وإلى جموع الطائفين والراكعين والقائمين والساجدين وتدمع عيناه بدموع حارقة، فقربت منه لأسأله عن دمعته، فقال وهو يتنفس الصعداء: إنهم أولادنا. قلت: ما بهم؟ إنهم على خير إن كان مثلك أبوهم، فقال: أنت لا تعرف الألم الذي في قلوبنا نحن المغتربين، خرجنا من ديارنا قهراً ونحن شباب إلى بلاد الغرب وتعلمنا واشتغلنا، واكتسبنا الأموال وشاركنا في الحياة فمنا أستاذ الجامعة ومنا التاجر، ومنا صاحب المؤسسة، ولكن هذا لا قيمة له عند مئذنة يراها أولادنا ويتربون تحت قبتها في مجتمع عربي مسلم، ونحن على استعداد لأن نضحي بنصف ما نملك وما نكتسب؛ لنجد عملاً في بلاد المسلمين، والله المستعان.

وهكذا أحبتي يتألم الكبار، فالتربية هي العاصم بعد الله من الفتن كلها، ولذلك صاح بها المربون، وبحت حناجر المصلين، وتألمت لأجلها أجيال الصحوة الإسلامية، فمع كل الجنسيات التي كنا نلتقي معها في الحرم كان الطلب الوحيد أن تهتم الحركات الإسلامية بالتربية من بعد ما غرقت في بحر العمل السياسي والجماهيرية الحماسية، فهذا الصوت تسمعه من القادمين من تونس الجريحة، وليبيا الضائعة، والجزائر المحترقة، ومن أرض الصومال المشتتة، وإفريقيا المنهكة، ومن أرض الكنانة مصر، ومن أرض الخليج المنفقة، وهكذا الحرص على التربية في كل وقت ومكان، فليس هناك زمن تنتهي فيه الحاجة للتربية، وهكذا يتألم الكبار إذا ضاعت العملية التربوية وضلت طريقها وهي تبحث عن منهج غير الإسلام الذي يجب الاعتصام بحبله والاستمساك بمنهجه وحده وطرح ما عداه.

---

(١) هود: ٨٨.

ثالثاً: لا يأس من رحمة الله:

﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (١)، والمسلمون لا يعرفون اليأس ولا القنوط؛ لأنهم يستشعرون في كل لحظة معية الله، ويزداد هذا الاستشعار بازدياد الطاعة في بيت من بيوت الله، ويكاد هذا الاستشعار يراه الإنسان وهو في البيت الحرام فتفيض الآمال التي تبشر بخير المسلمين، ويزيدها جو الحرم وما فيه من طاعات بروزاً ، وقد استشرفت بعض هذه الآمال التي أعرضها على المسلمين.

الأمل الأول: العيش مع القرآن وفي أجوائه:

قال ابن عباس رضي الله عنه وهو حبر هذه الأمة؛وهو الذي يحفظ في كل آية من آي الذكر الحكيم شاهداً من أقوال العرب قال: ما فهمنا قول الله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا . .﴾ (٢) ما فهمناها حتى كانت الفتنة «مقتل عثمان وما تبعه من اقتتال بين المسلمين»، نعم نزل هذا القرآن في واقع متحرك مولد للأحداث؛ ولهذا نزل منجماً ليثبت الله به القلوب، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(٣) ويظل بعد ذلك القرآن حيا في نفوس المسلمين عندما يعيشون أجواءه، وحين ذاك يفهمونه حق الفهم، فيفهمون آيات الأنفال إن عاشوا في أجواء بدر، ويفهمون آيات النور إن عاشوا في أجواء الإفك، ويفهمون آل عمران إن عاشوا أجواء بدر وأحد، وها نحن أولاء في الحرم نسمع من الإمام في صلاة التراويح آيات آل عمران ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (٤) وحين نسمع هذه الآية وننظر في المعتمرين والطائفين والساجدين والراكعين نجد أنهم جاءوا من كل فج عميق، أسودهم وأبيضهم، غنيهم وفقيرهم،عربهم وعجمهم من المسلمين، الكل استشعر أنه عبد لله ـ تعالى ـ تساوى مع الذي بجانبه بأخوة الإسلام يتراصون بالأكتاف والأقدام، يسألون الله أن يحفظ أعقابهم من النار، فيتساءل المرء ويبحث عن سبب هذا الإخاء وهذه السكينة التي نزلت على الناس مع اختلاف أشكالهم وثقافتهم وبيئاتهم، فلا يجد غير منهاجية الإسلام، إنها الكلمة الطيبة،والابتسامة المشرقة التي تزيل الحواجز بين الناس، وتطفئ الغضب في نفس الإنسان استجابة لأمر

---

(١) يوسف: ٨٧.
(٢) الحجرات: ٩.
(٣) الفرقان: ٣٢.
(٤) آل عمران: ١٠٣.

الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[(١)] وقول النبي ﷺ: «**تبسمك في وجه أخيك صدقة**»[(٢)]، وهكذا تنطفئ نار الفرقة والشقاق، فيـالها من روعة الإسلام في بيت الله. وهنا تدمع عين الإنسان عندما يتعـرف على واقع الجماعات الإسلامـية باختلاف أسمائهـا ومسمياتها، فـيجد صراعـاً وغمزاً ولمزاً، بل قد يصل الأمـر إلى التفسيـق والتضليل، كل يدعي أنه أحق بهذا الدين من غيره وأنه ناج، وأن الآخـرين هلكى بل قد يشتد أمر الخصومـة فتجد مجامع تشي بمجامع أخرى وتسـتبيح دمها ومالها، فهل استفـادت الحركات الإسلامية والمجامع الدعـوية من نفحات بيت اللـه الحرام فأزالت ما بـينهما من صـراع بالكلمة الطيبـة والابتسامـة المشرقـة، اللهم اهدنا واهدهم لأحسن الأخـلاق، التي لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا وعنهم سيئها، لا يصرف عنا أجمعين سيئها إلا أنت.

الأمل الثاني: إيجاد البدائل بعد تعرية المناكر ومحوها:

إن نجاح الدعـوة يشتـد ويكبر حـينما ينجح الرجـال في تعرية البـاطل، وإيجاد البديل للناس، فإذا أزالوا منكراً أحلوا مكانه معـروفاً، وهذا منهج العظماء. فها هو ذا الإمام يقرأ من سورة مريم منهج أبي الأنبياء إبراهيم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا . إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا . يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾[(٣)]، فقد عـرى إبراهيم ـ عليه السلام ـ منهج الشـيطان ودعا أباه إلى منهج الرحـمن، فلم يكتفِ بإزالة البـاطل، بل أوجد بديلاً لمن ترك الشـرك، وذلك بالدخول في التـوحيد وقـد نظرت في جموع المـسلمين، فإذا هم على استـعداد لأن يغيروا من أنفسهم، فالدمـوع النازلة دليل على ذلك، لكن بعد التوبة وترك الملهيات، فهل يستطيع الدعـاة أن يجدوا البديل النافع للأمة والمجتمع؟ والملهـيات الصارفة عن الطريق المستقـيم كثيرة والصراع قـائم، وسيمكّن أهل التوحـيد بإذن الله، فالأمل لا يأفل من نفوسنا، والضياء لا يغيب عن أعيننا.

---

(١) الإسراء: ٥٣.

(٢) أخرجـه البخـاري في الأدب المفرد (٨٩١)، والترمـذي (١٩٥٦) عن أبي ذر # وقال: «حـسن غريب»، وصححه الألباني.

(٣) مريم: ٤١.

رابعاً: لا حدود لعمل الخير والبر:

عمل الخيرات توفيق من الله، ومحض فضل، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[١] ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية وهو ساجد بين يدي ربه: «**ما أنا بشيء وما مني شيء، إنما أنا المكدي، وابن المكدي، وكذلك كان أبي وجدي**»، يقول هذا مع أنه كان من أسبق أهل زمانه مسارعة إلى الخيرات، وعملاً بالصالحات فهو في مقدمة المجاهدين حين اللقاء مع المغول، وهو في الدعوة والتربية الأستاذ الذي لا زالت مدارس الفكر والهدى تستمد من منهجه، أما العلم فكان فيه البحر الزاخر، فقد أجيز للفتيا وهو لم يبلغ العشرين، ومجموع الفتاوى دليل واضح على سعة علمه، وهكذا من يتفنن في جمع الخير، وسلفه في هذا الصديق رضي الله عنه فهو كان سابق الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في كل شيء، فحديث «**من أصبح منكم اليوم صائماً**»[٢] واضح، وقوله ﷺ لأبى بكر وهو يسأل هل هناك من يدعى من كل أبواب الجنة: «**نعم وأرجو أن تكون منهم**»[٣] وتظل الأمة يتفنن المسلمون فيها في جمع أعمال الخير كل يوم، والسعيد من يوفقه الله لتذكر الخير في ساعة الاحتضار فتطمئن نفسه، فهذا ابن إدريس لما نزل الموت به بكت ابنته فقال يتذكر طاعة من الطاعات التي وفق إليها فقال: يا ابنتي لا تحزني، فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة. فالتنوع في عمل الطاعات يدل على نشاط متدفق وتجديد متألق، وعمل لا يكل، وتفكير لا يمل.

وهذا في ميزان البشر متعب وصعب وهذا طريق الكبار، قال ابن القيم عنه: «طريق تعب فيه آدم، وناح فيه نوح، وألقي في النار إبراهيم، وتعرض للذبح إسماعيل، ونشر بالمنشار زكريا ، وذبح السيد الحصور ـ يحيى»[٤].

فعدم التنوع والتغير والتفنن يورث الرتابة ويدفع إلى الملل، والوقائع في حركة التنوع كثيرة، فهذا نوح ـ عليه السلام ـ نوع في دعوته وحركته ليلاً ونهاراً، سراً وجهراً، وهذا النبي ﷺ دعا في السفح في مكة، وصعد الجبل في الطائف وذهب إلى الأسواق في عكاظ، وخاطب الكبار، وخاطب الصغار، وسيرته في ذلك دليل لكل عارف.

---

(١) النحل: ٥٣ . (٢) أخرجه مسلم (١٠٢٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧).

(٤) الفوائد لابن القيم (ص ٤٢)، ط دار الكتب العلمية.

وتدوين عمــر بن الخطاب الدواوين في إدارة الدولة دليل آخر علــى التفكير غــير المنقطع لنصرة هذا الدين، فالــداعية له كل يوم جديد كما قــال الإمام الرافعي: «كل يوم لا أزداد فيه فأنا زائد على هذا اليوم»، فالمسلم في كل أمــره خير، والله ـ سبحانه ـ يقدر ويختار ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (١)، وانتقال المسلم من مــيدان لآخر لأي سبب يرجع بالخــير على الأمة في النــهاية من حيث يدري المسلم أو لا يدري، فــهذا الإمام السيوطي موسوعة زمانه تصدر للعلم والتعليم وهو في العشرين من عمره، ثم تركــه في الأربعين، معللا تركــه بقوله: «فلمــا رأيت نظام العلم قــد فســد، وسوق الفضل قد كسد، ووقع التساوي وليته لم يقع، وتمَّ تقديم الهر على الأسد، رأيت أن أدع العامة وأمرها، فتركت التدوين والإفادة».

وانقطاع الإمام السيوطي عن الإفتاء والتــدريس،وإن كان في ظاهره حرمان لطلبة العلم في زمانه إلا أنه قد عاد على الأمــة بفائدة كبيرة من جهة تأليفــه وتحريره، فقد أخذ يخــاطب الناس بالكتب والرسائل، حــتى صار أكثــر علماء الإسلام والمتــأخرين جمعاً وتصنيفاً، ومن خلال النظر في كتاب «مكتبة الجلال السيوطي» نجد أن له ٧٢٥ مؤلفاً ســوى المكرر، أخرجت المطابع ٢٠٤، منها، وأما كلام الســخاوي في «الضوء اللامع» فهو كــلام الأقران لا أثر له، كما أن هذا الانقطاع للتأليف لا يعني مــقاطعته عن مخــاطبة الناس، وقد ظل شــيخاً للمدرســة «البيبــرسية» وهكذا التنوع في حــياة العلمــاء فــيــه نفع من حــيث يدرون أو لا يدرون،هذا التــنوع لا تعــارض بينه وبين التخصص والتركيز،فكل ميسر لما خلق له.

والناظر في الحــرم الشريف يرى أنه مــا من إنسان فــيه إلا وبيــديه أن يزرع بذرة خير، فهــذا يطعم تمرة،وذلك يقدم قهوة ومن حولك الصــغار يوزعون مناديل الورق حفاظاً على نظافــة الحرم، وبجانب السارية رجل يركع أو يسجــد أو يسبح، وكذلك المرأة، وهناك آخر يسند ظهره إلى ســارية من سواري المسجد، ينهي ختــمة أو يحفظ ورده، وهناك الطائف والساعي والمزاحم على حجر إسماعيل يريد أن يصل إلى داخل الكعبة، وهناك شيخ عجوز خرج من الزحام مسروراً، وهو يقول لأبنائه: قبلت الحجر

---

(١) القصص: ٦٨.

وأعلم أنه لا يضر ولا ينفع، ولكن هذا هو هدي النبي ﷺ،والكل ينوع في طاعته حتى إذا ما جاء احتضاره قال لزوجه وأولاده وأهله من حوله: (لا تحزنوا،ففي كل زاوية في بيت الله لي طاعة)، والحمد لله الموفق للطاعات نسأله لنا ولإخواننا التوفيق. . آمين.

المبحث الرابع
وقفات مع المشهد التربوي

أولا: مقاومة الفتنة والتحصن ضدها:

﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [(١)]، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[(٢)].

هذا تعبير القرآن عن الفتنة مما يوحي بمدى أثرها في زعزعة ثقة الأمة بنفسها، وفقدان التوزان بين أبنائها، ونشر بذور الفساد في أرجائها، مما يجعلها ضعيفة البنيان تتآكل من داخلها، حتى تنهار في النهاية أو على الأقل تعيش سليبة الإرادة، فاقدة المناعة أمام كل شر وكل ضرر.

والفتنة: الاختبار بالنار، والابتلاء، والإعجاب بالشيء، والاستهتار به، والتدله بالشيء والاضطراب وبلبلة الأفكار، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [(٣)] والعذاب، والضلال، وفتنة الصدر: الوسواس[(٤)]، ومعظم هذه المعاني إن لحقت بفرد أو جماعة أضرت بها ما لم تكن لها حصانة من دين قويم وتقوى وصبر ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [(٥)] ولذا جاء في القرآن التحذير من الفتنة ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[(٦)] وذلك لأن الأعداء لا يخطر في بالهم أن يحولوا كل المسلمين عن إسلامهم، وإنما كل آمالهم أن يصرفوا بعض المسلمين عن إسلامهم أو يصرفوا أكثر المسلمين عن بعض إسلامهم، وهذا ما اعترف به كبير المنصّرين في العصر الحديث (زويمر) حين قال في مؤتمر المنصرين: «لا نطمع في أن يدخل المسلمون المسيحية، وإنما نعمل على أن نصرفهم عن إسلامهم».

ووسائل الفتنة كثيرة، ففتنة النساء، وفتنة المال، وفتنة الزوجات والأولاد، وفتنة الأقارب، وفتنة العصبية لجنس بعينه أو قوم، أو مذهب أو طائفة، أو غير ذلك من ألوان تحيط بالإنسان الذي هو موطن الاختبار في الحياة، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[(٧)]، والعصمة من هذه الفتنة وغيرها هي الاستمساك بحبل الله المتين

---

(١) البقرة: ٢١٧.
(٢) البقرة: ١٩١.
(٣) آل عمران: ٧.
(٤) المعجم الوسيط مادة: فتن.
(٥) يوسف: ٦٠.
(٦) المائدة: ٣٩.
(٧) الملك: ٢.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١] ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٢]، وبغير هذا الاتباع للقرآن والسنة، لا حامي من فتنة ولا عاصم من ضلالة.

وكثير من الناس لا يحتكمون إلى الدين، ولا يتمسكون بفضائل وقيم إلا إذا ضربتهم الفتنة بسوطها، فذاقوا ألمها وعذابها، بل إن بعض كبار الملحدين لجأوا إلى إحياء الدين في نفوس أتباعهم لمقاومة شدة معينة أو التغلب على صعوبة بارزة، وهذا ما فعله ستالين في حربه مع ألمانيا حين حاول إحياء بعض القيم الدينية في نفوس جنده حتى يقدموا في القتال ولا يتقهقروا، مع أنهم ـ جميعهم ـ من قبل ومن بعد أنكروا أثر الدين في الحياة، وفي عمل الرجال.

وفي عالمنا الإسلامي تجد أناساً ـ في أوقات الرخاء ـ يعملون على إحياء الفتنة من مماتها، وبعثها من مرقدها، لتثير الأهواء بين المسلمين، فتفرق جماعتهم، وتخضد شوكتهم، وتقتل أخوتهم، فيصيرون كالغنم القاصية عرضة لافتراس الذئاب «**وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»[٣]، وهؤلاء ينبشون قبور الماضي القريب والبعيد، لعلهم يجدون رفاتاً ينثرونه في وجوه المسلمين ليغمضوا عيونهم، ويسدوا أنوفهم ـ إن استطاعوا ـ حتى لا يؤذوا بما فعله ناشرو الفتنة الذين لا يخلو عملهم من شر يضر الناس ولو كان عن طريق الشبهات:

كَذَا الماء إِنْ حَرَّكَتْهُ يَدٌ   طَفَا عَكَرٌ رَاسِبٌ فِي إِنَائِه

وناشرو الفتنة وناثروها بين الناس لا يظهرون على حقيقتهم، بل إنهم يلبسون لكل حالة لبوسها، ويتحدثون مع كل أحد بما يهوى، دون أن تصدق وعودهم، أو تكشف كلماتهم عن حقيقة موقفهم:

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللسَانِ حَلاوَةً   وَيَرُوغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ

وقد يستهين البعض بما يثار من غبار الفتنة على الساحة، على اعتبار أن أثره حقير، وفعله في النفوس هيّن، يمكن التغلب عليه في وقت قصير، والباطل بغير

(١) الزخرف: ٤٣.   (٢) الإسراء: ٩.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٤٧)، والنسائي (١٠٦/٢)، وأحمد (١٩٦/٥) وابن خزيمة (١٤٨٦)، وابن حبان (٢١٠١)، والحاكم (٢١١/١) عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وقال الحاكم: «هذا حديث صدق رواته، متفق على الاحتجاج برواته إلا السائب بن حبيش، وقد عرف من مذهب زائدة أنه لا يحدث إلا عن الثقات» فالحديث حسن.

شك ضعيف الجـذور، وإن انتفشت أغصانه، وامـتدت ظلاله، ولكنه إن طال أمده، وفتـرت النفوس عن مقـاومته، ترسب في قعـر الحياة وأحـدث آثاراً ضارة في البناء الاجتماعي والسلوكي للإنسان، ولذا فإن علينا سد كل باب للفتنة مهما كان صغيراً، ودرء الشر عن حياة الناس ما استطعنا إلى ذلك سـبيلا، دون استهانة بأي انحراف أو ميل عن الطريق المسـتقيم، فبـداية الانحراف تبدأ بخطوة «ومـعظم النار من مستصـغر الشرر» وكم كان الشاعر صادقاً في قوله:

لا تحْقِرَنَّ صَغِيراً فِي مُخَاصَمَة ... إنَّ البعُوضَةَ تَدْمِي مُقْلَـةَ ألأَسَـد

وللشَّرَارَةِ حَقْرٌ حِينَ تَنْظُـرهَـا ... وَرُبَّمَـا أَضْـرَمَتْ نَاراً عَلَـى بَلَد

وصدق الله القائل في كتابه: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾[1].

ثانياً: متى يكسر هذا الجدار؟

متى يكسر هذا الجدار؟ سؤال تردد عند البعض، والمراد به أن نوقف نقوشنا على جدار الـدعوة، وأن نقـتحمـه اقتـحامـاً؛ لنخلص للعـاملين من ورائه، ونتطرق إلى مواضيع تمـس حياة الدعاة بأسلوب مـباشر، ونحن ـ بحمـد الله ـ عندما نكتب على جدار الدعـوة أو عندما نكتب بعـد الولوج إلى فناء الدعوة لا نسن الحـراب لنلاحق المخطئين عن قـصد فـضـلاً عن المخطئين عن غـير قـصد، وإنما نحـن نوجه كلمـتنا بالحسنى، ونـتجاوز عن ذكـر الأسماء فليـس من غرضنا التشـهيـر بأحد، وإنما كل غرضنا ذكر مـا نراه صواباً وعرضه على الآخرين، ولعـلهم يرون ما نرى، ويأخذون به، إن استطعنا إقناعهم بما نقول. كسر الجدار إذاً غيـر مجدٍ وغير نافع، وضرره أكثر من نفـعه. وليس مـعنى ذلك أن نتـوقف عن التناصح أو عن النقـد الذاتي الذي به يستقـيم المعوج ويعتدل المائل، وهذا ما نمارسه بناء عـلى المنهج الإسلامي القائم على الحكمة والموعظة الحسنة. وإننا وهؤلاء متفـقون على النفاذ من هذا الجدار إلى رحاب الدعوة الفسيـحة لنقول كلمتنا، التي تمس المواقف والأحداث لا الأشـخاص، فهدفنا إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وبيان آثاره الضارة على الدعوة والدعاة.

وكسر الجدار قـد يحدث في وقت يكون الكاتب غير منتبـه إلا لحظته الحاضرة،

---

(١) الأنفال: ٢٥.

التي يراها أمام ناظريه، فـهو يتصرف في ضوئهـا غير عالم بما هو آت بعـدها، وغير متحسس لعواقبها التي قد تكون وخيمة في بعض الأحيان بحيث تلحق بالعاملين أكبر الأضرار، فالكـسر إنما يحمل في بعض إيحاءاته التـخلي عن الرفق، والرسول ﷺ أخـبرنا وأرشـدنا إلى السلوك القـويم حين بيّن لنا أنه: «**مـا دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه**»[1]، والطرق على جدار الدعـوة، أو النقش إنما هو يوقظ الوسنانين، وينبه الغـافلين، فإن أحدث ذلك فهذا مرادنا، وإن لم يحـدث فقد وقفنا عند قـول الله لرسوله: ﴿**إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ**﴾[2] والكسر من نـاحية أخـرى قد يُسبب إزعاجاً ينفـر النفوس اللوامة، فتتوقف في السيـر حتى ترى ما يتكشف لها من أمارات الطريق، وقد يصيب (التكسير) هذا النفوس الأمارة بالسوء بحالة من التحدي والعمل على الانتصار للنفس، ومحاولة القطيـعة أو العداء والنفور والاستعلاء، وفي كلتا الحالتين، فـإن الدعاة الذين يفعلون ذلك يكونون قد عملوا على خـسارة الدعوة حين لم تكسب قلوب هؤلاء المدعوّين؛ بل إنها تجعلهم يضعون أصابعهم في آذانهم، حين تعلن الدعوة نداءها، ويقوم الدعاة بتبليغها.

كمـا أنه ليس من الحكمة ولا من الموعظة الحـسنة أن نكسر جـدار الدعوة؛ لأننا بذلك نفتح باباً للفتنة لتطل برأسها، وتنعق بصوتهـا فتصيب بشررها نفوساً تحاول أن تتـجنب الفتنة، وضـررها أبلغ من كل ضرر، وأشـد من كل بلاء، وأكثـر الناس لا يتبينون ـ زمن الفتنة ـ معالم الطريق الصحيح فيضلون ويُضلون، وهذا دأب الفتنة من قديم، وهو ما كان يحـذره عمر بن الخطاب رضي الله عنه والصحابة مـعه، وخاصة حذيفة بن اليمان، كما يتـضح ذلك في الحوار الذي دار بينهما قبل أن يقتل أبو لؤلؤة المجوسي عمر بن الخطاب، قال حذيفـة: «بينما نحن جلوس عند عمر إذ قال: أيكم يحفظ قـول النبي ﷺ في الفتـنة؟ قال حذيفـة: فتنة الرجل في أهلـه وماله وولده وجاره تكفرها الصـلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قـال عمر: ليس عن هذا أسألك، ولكن التي تموج كموج البحر. فقال حذيفة: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينهـا باباً مغلقاً، قال عمر: أيكسـر الباب أم يفتح؟ قال: لا. بل يكسر، قال عمر: إذاً لا يغلق أبداً. قال حذيفة: أجل.

(١) سبق تخريجه.
(٢) الشورى: ٤٨.

قال شقيق الذي روى عن حذيفة: أكان عـمر يعلم الباب؟ قال: نعم. كما يعلم أن دون غد ليلة، وذلك أني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط. فهبنا أن نسأله مَنْ الباب ؟ فأمرنا مسروقاً فسأله: فقال: من الباب ؟ قال: عمر»[1].

وإلى جانب ذلك فإن كسـر هذا الباب يخالف منهج التدرج الذي يراعي ظروف العصر وأحوال الناس في غير ترخص ولا تهاون على حساب الدين، وقد كانت هذه السنة ـ سنة التدرج ـ دأب الخليـفة الراشد عمر بن عبـد العزيز رضي الله عنه، الذي ردّ مظالم بني أميـة وعدل بين الناس، وجاء ابنه عـبد الملك الشاب المتـحمس، الذي يود أن يحمل النـاس على الحق حملاً فـقال: «يا أبت ما يمنعـك من أن تحمل الناس على الحق؟ فإني ـ والله ـ مـا أبالي أغلت بي القدور أم بك. فقال له الخليـفة الراشد معلماً: يا بني إن الله ذم الخـمر في آيتين وحرمها في الثالثـة،وإني أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة، فيدعوه جملة».

وإني لأعلم حـسن نية المطالبين بكسـر الجدار، ولكن حـسن النيـة ـ وحده ـ لا يكفي، إذ لابد إلى جـانبه من الإدراك السليـم لكل حركـة، وكل خطوة في السلوك الدعوي المرصود ـ الآن ـ على ساحة البلاد الإسلامية أكثر من كل وقت مضى.

وهنا نقول لقـد كان النبي ﷺ يعلم أصحـابه الصبر والأناة، ويُبين لهم عاقـبة التعـجل وأنها خاسـرة في كل الاتجاهات فـقال ﷺ: «**إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى**»[2]، وبين لهم أن العجلة تضيف كـربا إلى كربهم وآلاما إلى آلامهم دون أن تفيدهم شيئاً.

فقال رداً على خباب بن الأرت حين شكا إليه كثرة ما أصاب المسلمين من الأذى في مكة: «**والله ليتمنَّ الله هذا الأمـر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حـضر موت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٥)، ومسلم (١٤٤) عن حذيفة رضي الله عنه، انظر: رسائل العاملين (١/ ٤٨)ـ للكاتب فيه تفصيل في الموضوع.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (١١٤٧) عن جابر، وعزاه الهيثمي في مجـمع الزوائد (١/ ٦٢) للبزار قـائلا: «رواه البزار، وفيـه يحيى بن المتـوكل أبو عقـيل، وهو كذاب»، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦١٢)، وأبو داود (٢٦٤٩) عن خباب رضي الله عنه.

وليس معنى ذلك أيضاً الركون إلى ما هو واقع، والتهاون في حق الدين، والتقصير في بيانه، فذلك أمر مرفوض تماماً.

وواجب المسلمين أن يتمسكوا دائماً بقول الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[١] وبقوله: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾[٢] وبقول رسول الله ﷺ: «**الدين النصيحة**»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ورسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[٣]، والخير كل الخير في الوسطية التي هي منهج الإسلام. والله المستعان.

ونحن اليوم نقول لإخواننا سنجتهد في فتح الباب والولوج إلى الداخل من خلال التطرق للمواضيع الآتية:

١ـ التوطين بين القول والحقيقة. **٢ـ** استمرارية الدعوة في الخارج والداخل.

٣ـ التفاعل. **٤ـ** التعاون المثمر.

كما أننا سنكتب في هذه النقاط بأسلوب هين لين، لعل ذلك يوصل المعنى للقلوب.

ثالثاً: حاجتنا ـ نحن المسلمين ـ إلى العمل:

الأمة مدعّوة اليوم قبل الغد إلى العمل الجاد الدءوب، وخير الأعمال ما داوم عليه صاحبه وإن قلَّ، وإنما تبنى الأمم بالأعمال لا بالأحلام ولا بالأقوال والأماني. ويستحق الفرد منزلته في الآخرة بين الأبرار بعمله الصالح المبني على الإيمان، أو بين الأشرار بعمله الطالح المبني على الكفر والجحود والنكران.

العمل إذن طريق الرقي في الدنيا وسبيل السعادة في الآخرة، ومع إيمان المسلمين بهذا إلا أنهم لا يعملون العمل المناسب الذي يدفع الحياة إلى الأمام دفعاً، ويرقى بهم في مصاف الأمم، ليكونوا على مقربة من قامتها السامقة، ومنزلتها العالية.

كأنما تطرق إليهم ذلك المفهوم الخاطئ، الذي تسلل إلى عقولنا خلسة، حين فهمنا أن الدين لا صلة له بالحياة؛ إذ يكفي أن الإنسان ينجو به من عذاب النار، أما

---

(١) آل عمران: ٢٠٠. (٢) المائدة: ٢.

(٣) حديث صحيح، سبق تخريجه.

أنه هو المحرك نحو العزة والكرامة، هو المحـرك للهمم، هو الدافع للعمل، فذلك ما ليس للدين إليه سبيل. هذا وهمهم في فهمهم، وكم من فهم خاطئ عن صلة الدين بالحياة يعيش بيننا الآن، ويشدنا إلى القاع، دون أن يرفعنا إلى القمة.

فهل غاب عن الناس أن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل؟ ولعلهم يظنون أن المقصود بهذا العمل هو العمل الصالح، وهل العـمل الصالح في كثير من الأحيان إلا متصلاً بالناس يقـدم لهم ما يحتاجون، ويؤخر عنهم مـا به يتضررون؟ وهل غاب عن الناس «**أن من بات (متعباً) من عمل يده بات مغفوراً له؟**»[1] وهل غاب عن الناس أن من كان يسـعى على أبوين ضعـيفين فهـو في سبيل الله، ومن كـان يسعى على صبية صغـار فهو في سبيل الله[2]؟ إن الرجل الذي سقى كلباً غفر الله له[3]، وإن المرأة التي حـبست هرة دخلـت بسبـبهـا النار[4]، أليس هذان نوعين من العـمل الدنيوي أحـدهما فيـه الخير فكان جـزاؤه الغفـران، وثانيهمـا فيه الشـر فكان جزاؤه الخسران. وكم بين سقي كلب وإحيـاء نفس من درجات في مراتب العمل، وكم بين حبس هرة وقتل نفس أو إشراك بالله من دركات في إحباط العمل.

فمراتب العمل متفاوتة والناس فيها متفاوتون بحسب قدراتهم وطاقاتهم وعلمهم وابتكارهم، وغير ذلك مما فـضل الله به بعض الناس على بعض، ولكن هذه الجهود المتفاوتة تنتظم في سلك واحد يخدم الأمة، حين يبذل كل إنسان ما استطاع من عمل عقلي أو عـمل يدوي في إتقان ومهارة، بحـيث نصل في يوم من الأيام ـ وعسى أن يكون قريباً ـ إلى أن تكتفي أمة الإسلام بما لديها في المرحلة الأولى... ثم يفيض ما عندها بعـد ذلك على غيرها فـي جانبيـه المعنوي والمادي، المعنويّ المتمـثل في الدين والقيم والأخلاق، والماديّ المتـمثل في كل ما يحتاج إليـه الإنسان مما لا غنى عنه في

---

(١) أخرجـه ابن عساكـر في تاريخ دمشق (١٤/ ١٠)،ط دار الفكر عن المقـداد بن معدي كـرب رضي الله عنه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٠١٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ١٢٩) (٢٨٢)، والأوسط (٦٨٣٥)، والصـغير (٩٤٠) عن كعب بن عجرة رضي الله عنه، وقال الهيـثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٢٥): «رواه الطبراني في الثلاثة ورجـال الكبير رجال الصحيح»، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٣)، ومسلم (٢٢٤٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣١٨) ومسلم (٢٦١٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أي مكان على وجه الأرض.

لترفع أمتنا بهذين الجانبين العمليين من قيمة الإنسان فلا يظل حيواناً ناطقاً، ولا حتى راقياً كما ينظر إليه الغربيّون، بل إنه جنس آخر غير الحيوان، وغير الشيطان وغير الملائكة الكرام، إنه جنس كرمه الله، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، فكيف نوافق أصحاب الأهواء في تصورهم الناقص للإنسان حين يعتبرونه حيواناً همه إشباع الرغبات، وتحقيق الشهوات والملذات، ولا نتبع في تصورنا ما أخبر الله به من تكريم لهذا الإنسان حتى أسجد الملائكة لآدم أبي البشر؟

لقد انحرف تصور أصحاب الفلسفات الأرضية عن الإنسان فصار همهم الأول، بل الأوحد ما أخبر به القرآن ﴿**يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ**﴾ (١) فلماذا انحرف تصورنا نحن، وعندنا الخبر اليقين عن هذا المخلوق.

إننا نحاول أن نتبع الغربيين في كل أمر، ونلهث وراء أعمالهم الدنيوية التي بغيرها تتعثر الحياة. فلماذا نتبعهم في الأفكار والتصورات ولا نتبعهم في الأعمال والإنجازات؟ لقد صار الإنسان عبداً للآلة، مع أن المفروض والمنتظر أن تكون الآلة في خدمة الإنسان. . .، ولعل هذا الذي أخبرك به بعيد عن رأيك وفكرك، مع أن الأمر واقع بيننا اليوم. وإذا ما نظرت إلى كثير من البيوت وجدت الأقساط تكاد تفتك بجهود صاحب البيت، وتكاد تخربه لسداد قرض هنا وقسط هناك في شراء بعض الأمور التي يمكن الاستغناء عنها بغير ضرر.

وإن العمل بجانبيه المادي والمعنوي المبني على الإيمان الذي يجعل أصحابه رواداً على طريق الخير للبشرية كلها؛ لأن العاملين المؤمنين المنتجين يدركون واجبهم نحو إخوانهم في الإنسانية، فلا يحرقون الغلات والحبوب حتى يحافظوا على بقاء الأسعار، ولا يلقون بمحصول في البحار لنفس الغرض، ولا يثيرون القلاقل في البلاد، ويبعثون الفتن بين العباد من أجل أن يبيعوا لهم سلعة معينة، يكسبون من ورائها الملايين، ولا يستفيد المشترون لها شيئاً يذكر حتى بعد سنين.

العمل في الإسلام عبادة والمقصرون في أعمالهم لا يضرون ـ فقط ـ أنفسهم، بل

(١) محمد: ١٢.

يضرون غيرهم من البشر، ويؤثرون على التصورات والقيم، ويجعلون الحياة قحطاً، حين يقودها الماديّون الذين قست قلوبهم فخلت من الرحمة والشفقة إلا إذا كانت لهم من وراء ذلك مصلحة تذكر.

فهل نقوم بهذه العبادة، فنحقق قول شوقي أمير الشعراء:

سَعْيُ ٱلفَتَى فِي عَيْشِه عِبَادَهْ وَقَائِدٌ يَهْدِيه لِلسَّعَادَهْ
لأَنَّ بِالسَّعْيِ نَمَاءَ الْكَوْنِ وَاللَّهُ لِلسَّاعِينَ نِعْمَ الْعَوْنِ

والأمم بحسب ما اعتاد أبناؤها، فإن عودتهم احتمال الشدائد، والصبر على المكاره، وإتقان العمل، وإشراقة الأمل خلقت منهم رجالاً يشدون أزرها، ويقوون عضدها، وإن اعتادوا الرخاوة والترف والكسل في العمل والتهاون في المسئولية كانوا كلاًّ على الأمة وعالة عليها.

ونحن ـ بحمد الله ـ لم نكن كذلك، حين كانت أمتنا تقوم على الجهاد والاجتهاد، فكنا بحق كما قال شوقي:

وَنَحْنُ فِي عَيْنِ ٱلوُجُود أُمَّهْ ذَاتُ اشْتِهَارٍ بِعُلُوِ الْهِمَّهْ

والأمر محتاج إلى تربية وإلى بعث للعزيمة وإلى قبول التحدي المطروح علينا، والدين الإسلامي خير هادٍ لنا وخير مرشد لأبنائنا على امتداد الأجيال.

رابعاً: حتى لا تكونَ فتنة لا بد من......:

إن الفتن لا تهجم فجأة ولكنها تنسل إلى الأفراد والمجتمعات كتسلل الشيطان «**إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم**»[1] فتبدأ بكلمة لتنتهي بانفجار مروع يهز الأمة، وتاريخنا شاهد على ذلك، ولذلك قال ﷺ محذراً من التهاون وعدم الالتفات إلى زحف الفتن واستصغارها عند بدايتها، قال ﷺ: «**تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عوداً عوداً فأي قلب أُشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا**

(١) أخرجه البخاري (٢٠٣٨)، ومسلم (٢١٧٥) عن صفية بنت حيي رضي الله عنها.

ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»[1] وبيان هذه الأمور خطوة في البداية، فميدان العمل فيه سعة لمن شحذ همته، وبذل نصحه، ونسأل الله أن نخلص النية وألاّ نطيل القول في أمر معاد لعل ما فيه يثلج الصدر، ويبرد الوحر ويطمئن لها قلب من له طلب مليح وقصد صحيح، وتوضيحنا لبعض ما نراه سبباً لحصول فتنة كبرت أم صغرت ليس تقليلاً من قدرة العاملين في الحقل الإسلامي على معرفة الأمور، بل كما قال ابن رشد: ما من مسألة وإن كانت جلية في ظاهرها إلا وهي مفتقرة إلى الكلام على ما يخفى من باطنها، وقد يتكلم الشخص على ما يظنه مشكلاً وهو غير مشكل على كثير من الناس، وقد يشكل عليهم ما يظنه هو جلياً.

١ . عــلاج الهواجس والخطرات:

لا بد من رصد وعلاج الهواجس والخطرات والإرادات في أي تجمع، من قَبلِ أن تصير عزمات فحركات فعادات يصعب التعامل معها وقد استقرت كأعراف، ينشأ عليها الجيل الجديد فيصعب علاجها. .

وَلاَ تَحتَقِرْ كَيْدَ الضَّعِيفِ فُربمَا ... تمُوتُ ألأَفَاعِي مِنْ سُمُومِ الْعَقَارِبِ

فَقَدْ هَدَّ قِدْماً عَرْشَ بِلْقِيسَ هُدْهُدٌ ... وَخَرَّبَ فَأْرٌ قَبْلَ ذَا سَدَّ مَأْرِبِ

كان نصر بن سيار يحذر الأمويين من دعوة العباسيين التي تنتشر شيئاً فشيئاً، وكانوا لا يعبأون بذلك حتى استفحل الأمر، فأرسل إليهم بهذه الأبيات:

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِيضَ نَارٍ ... فَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضِرَامُ

فَإِنَّ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تُذْكَى ... وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا الْكَلاَمُ

فَإِنْ لَمْ يطْفِهَا عُقَلاَءُ قَوْمٍ ... يَكُونُ وُقُودُهَا جُثَثٌ وَهَامُ

فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِي ... أَأَيقَاظٌ أُمَيَّةُ أَمْ نِيَامُ؟

فَإِنْ كَانُوا لِحِينِهِمُ نِيَاماً ... فَقُلْ قُومُوا فَقَدْ حَانَ الْقِيَامُ

فَفِرِّي عَنْ رِحَالِكِ ثُمَّ قُولِي ... عَلَى ألإِسْلاَمِ وَالْعَرَبِ السَّلاَمُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٤) عن حذيفة رضي الله عنه.

٢ـ استفادة مرجوّة:

لا بد من المحافظة على كل مكسب، ولو كان عقال بعير كان يؤدى لهذه الدعوة المباركة، فالدعوة سلسلة متصلة من الإنجازات، وهذا لا يعني عدم مراجعة مكونات المسار الدعوي وحلقاته؛ لمعرفة صلاحيات الوسائل والطرق من أجل الاستفادة من كل التراكمات والخبرات والتجارب والخطط؛ ليتآلف هذا كله فيؤدي عملية بعث جديد، ودورة من دورات التجديد.

٣ـ احتراز وواجب:

لا بد من رصد لاتجاهات الرأي العام داخل هياكل الجماعات لمعرفة أماكن الخلل ومواطن الصواب في المناهج وطرائق التفكير مع فتح باب الحوار وحلقات الرأي، حتى يقطع التشرذم والتشبع الحركي الداخلي، وحتى لا تتلوث البيئة الداخلية وينفرط رباط المحبة والإخاء، ونظن أننا بهذه المنهاجية سنغلق باب التأويل المفتوح على النوايا واتهامها، ونتقبل الرأي المقابل في فهم النصوص الدعوية وتفسيرها وتنفيذها، فليست هناك أي مصادرة لحقوق الغير في أن يحوز الصواب أو بعضاً منه.

لا تحْقرَنَّ الرَّأْيَ وَهُوَ مُوَافِقٌ   رَأْيَ الصَّوَابِ إِذَا أَتَى منْ نَاقِصِ
وَالدُّرُّ وَهُوَ أَعَزُّ شَيْءٍ يُقْتَنَى   مَا حَطَّ قِيمَتَهُ هَوَانُ الْغَائِصِ

٤ـ النظرة الموضوعية:

لا بد حين المعالجة لمشاكل الدعوة من الالتزام بالنظرة الموضوعية المؤسسة على معطيات محددة بعيداً عن الاستغراق في العموميات، وذلك في محاولة للإجابة على منظومة الأسئلة الأساسية، ولرسم التوجهات في المسارات الحركية المختلفة لوضع مجموعة بدائل متصورة للمرحلة المرتقبة، وهذه المنهاجية تستلزم أن تكون لنا آذان صاغية، وعقول واعية، وصدور رحبة لكل إضافة منهجية موضوعية، تكمل سلسلة المعاني الدعوية الكبيرة، إذن لابد من السماع للرأي الآخر حتى لا تكون الفرقة والاختلاف.

قال بشار بن برد:

إذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِنْ   بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةِ حَازِمِ

وَلاَ تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً فَإِنَّ الْخَوَافِي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ
وَمَا خَيْرُ كَفٍّ أَمْسَكَ الْغُلُّ أُخْتَهَا وَمَا خَيْرُ سَيْفٍ لَمْ يُؤَيَّدْ بِقَائِمِ

وَقَالَ آخَرُ:

مَنِ اسْتَشَارَ فَبَابُ النُّجْحِ مُنْفَتِحٌ لَدَيْهِ مَا يَبْتَغِيهِ غَيْرُ مَرْدُودِ

٥ ـ رأي القاعدة:

لا بد من عمل استفتاءات لمعرفة الرأي العام الداخلي، بغية التعرف على اتجاهاته، وأن تؤخذ نتائج الاستفتاء في الخطط والإستراتيجيات، ورسم السياسات والأهداف العامة والخاصة القريبة والبعيدة، وهذا كله حتى لا تحدث هناك حالة انفصام منهجي فتولد الخطط الغريبة بين أهلها، وحتى لا تكون الحوارات بين القاعدة والقيادة أشبه بحديث الطرشان.

قال امرؤ القيس:

ألِمَّا عَلَى الرَّبْعِ الْقَدِيمِ بِعَسْعَسَا كَأَنِّي أُنَادِي أَوْ أُكَلِّمُ أَخْرَسَا

وَقَالَ آخَرُ:

إنَّ اللَّبِيبَ إِذَا تَفَرَّقَ أَمْرُهُ فَتَقَ الْأُمُورَ مُنَاظِراً وَمُشَاوِرَا
وَأَخُو الْجَهَالَةِ يَسْتَبِدُّ بِرَأْيِهِ فَتَرَاهُ يَعْتَسِفُ الْأُمُورَ مُخَاطِرَا

وَقَالَ آخَرُ:

خَلِيلَيَّ لَيْسَ الرَّأْيُ فِي صَدْرِ وَاحِدٍ أَشِيرَا عَلَيَّ الْيَوْمَ مَا تَرَيَانِ

٦ ـ مواجهة جريئة:

لا بد من مواجهة التحديات بشيء من الجدية والواقعية والعلمية، وهذا ما يقوله الإمام البنا ـ رحمه الله تعالى ـ عن حال الإخوان في عملهم الدعوي: «فهم يواجهون جملة من التحديات لا يسعهم تجاوزها بدون فقه واع ذي خصائص متميزة، الربانية بابه الجامع، والفعالية والجدية والواقعية والمثالية والكفاءة فصوله، والهموم القطرية المحلية وقضاياها المعيشية اليومية والتأثيرات الإقليمية والعالمية مسائله ومباحثه

التي يحكم عليها، كل هذا لكيلا يحـدث الفتور ويدب الضعف ويظهر الوهن ويحل الموت».

٧ ـ تصحيح المفاهيم:

لا بد من تصحيح منهج فهم النصوص وتطبيقهـا وتنفيذها، فمنهج الفهم يعتمد على العلاقـة بين العقل وقوة آلته، ووضـوح النصوص ودقة دلالتها، كـما أن منهج التطبيق يعـتمد على طبيـعة العلاقة بين الـعقل والواقع والقدرة على تفهم مـلابسات الحدث الذي يتأثر بالأعراف والأحوال والزمان، ومعـرفة الحال مسألة بينها الإمام ابن القيم في «إعلام الموقعين»[١] في موضوع تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان. .

قال المتنبي:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحـاً   وَآفَتُـهُ مِنَ ٱلفَـهْـمِ السَّـقِيمِ
وَلـكِـنْ تَـأْخُـذُ ٱلآذَانُ مِنْـهُ   عَلَى حَسَبِ الْقَرَائِحِ وَالْفُهُومِ

٨ ـ بين الأقوال والأعمال:

لا بد من تجديد عـهد الأخوة والمحبـة بين العاملين في الحقل الإسـلامي حتى لا يكون هناك انفصـام بين الشعارات التي نحملها ومـقتضيـات هذه الشعارات في واقع حياتنا وعلاقاتنا فتحدث الفتنة فيتسور علينا الشيطان، ويدس أنفه ويبث أراجيفه.

وقد يكثر الإخوان في السـراء، ولكنهم يقلون في الضراء، وفي ذلك المعنى جاء قول الشاعر:

فَمَا أَكْثَرَ ٱلإِخْوَانَ حِينَ تَعُدُّهُمْ   وَلكِنَّهُمْ فِي النَّائِبَاتِ قَلِيلُ

وَقَالَ آخَرُ:

إِنَّ أَخَاكَ ٱلحَقَّ مَنْ يَسْعَى مَعَكْ   وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَـكْ
وَمَنْ إِذَا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَعَـكْ   شَتَّتَ فِيكَ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكْ

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٤١) وما بعدها، ط دار الجيل. تحقيق طه عبد الرؤوف سعد.

وَقَالَ آخَرُ:

وَمَا ٱلْمَرْءُ إلاَّ بِإِخْوَانِهِ　　كَمَا يَقْبِضُ ٱلكَفُّ بِٱلْمِعْصَمِ
وَلاَ خَيْرَ فِي ٱلْكَفِّ مَقْطُوعَةً　　وَلاَ خَيْرَ فِي السَّاعِدِ ٱلأَجْذَمِ

٩ـ الإقدام المبني على الحقائق:

لا بد من وقفة جادة في محاكمة الأمور ومراجعتها، واتخاذ القرارات العلمية الجادة، ذات الأثر في مسار العمل وإنتاجيته بدلا من الاختباء خلف عبارة «الأحوط» والتوقف عن إصدار الحكم بالخطأ أو الصحة على أي تصرف أو موقف، وقد قيل: إن التوقف عند غير موارد الشبهات مذلة للعقل، مفسدة للرأي مضيعة للحزم.

قال الشاعر:

فَقسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً　　فَلْيَقس أَحْيَاناً عَلَى مَنْ يرحمُ

١٠ـ القوة الغلاّبة:

لا بد من بث روح التحفز والتحرش بالواقع مراغمة ومغالبة لأعداء هذا الدين، وطرح البدائل وسرعة الاستجابة لمتطلبات الواقع حتى لا يدب إلينا الوهن.

قال بشار بن برد:

وَخَلِّ الْهُوَيْنَا لِلضَّعِيفِ وَلاَ تَكُنْ　　نَؤُومًا فَإِنَّ ٱلحَزْمَ لَيْسَ بِنَائِمِ
وَحَارِبْ إِذَا لَمْ تُعْطَ إِلاَّ ظُلاَمَةً　　شَبَا ٱلحَرْبِ خَيْرٌ مِنْ قَبُولِ ٱلمَظَالِمِ

وقال آخر:

إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلاَّ ٱلأَسِنَّةَ مَرْكَبٌ　　فَلَمْ يَبْقَ لِلْمُضْطَرِّ إِلاَّ رُكُوبُهَا

١١ـ معالجة الخلل:

لا بد من تحديد المنهاجية في معالجة الأمور المعتادة والمتكررة في قاموس الدعاة اليومي والكيفية التي نقوم بتحليلها وسبر غورها ومعرفة أسبابها، فعلى سبيل المثال للأمور المتكررة: الفتور، ضعف الالتزام بالتوجيهات، أو التخلف عن التبرع والمساهمة المالية الدورية، وكذلك التخلف عن حضور اللقاءات، أو غير ذلك من قائمة العلل والأدواء التي يعاني منها الصف في بعض الأحيان.

ونحن حين نذكر هذه العيوب لا يعني أنها متفشية في الجماعات الإسلامية، ولكنها بلا شك موجودة بدرجات متفاوتة، وهي في الغالب فردية، ولكن لابد من الاعتراف بوجودها، لأن ذلك أول مراحل العلاج، والتنبيه عليها نوع من التربية العلاجية، تمنع الحدوث ابتداء أو على الأقل منع تفشيها والعمل على حصرها في إطار ضيق، وأما السكوت عنها دون علاجها أو التنبيه عليها يجعل انتشارها وسط الأجيال الجديدة شيئاً طبيعياً، بل وجود هذه الأمور في وسط الجيل الأول يجعل الجيل الجديد ينظر إليها على أنها أمور طبيعية وليست ظاهرة مرضية.

١٢ ـ أبي الإسلام:

لا بد من أن يكون الانتماء إلى الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر انتماء مصيرياً لا انتماء هواية، وألاَّ يكون التنفيذ للأعمال متى شئنا، وهذا الذي ذكرنا حتى لا تكون الاستمرارية على الخطأ.

أَبِي ٱلإِسْلاَمُ لاَ أَبَ لِي سِوَاهُ ... إِذَا افْتَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمِ

١٣ ـ إعطاء كل ذي حق حقه:

لا بد من الابتعاد عن البغي والتطفيف، وبخس الناس أشياءهم وإلحاق الأذى بهم، فإن انتشار عدم الإنصاف، وشيوع فقه الحيل والمخارج الشرعية، وأكل الحقوق، وغياب فقه المقاصد وميزان الاعتدال؛ يؤدي إلى ظهور التفرق وانتشار التعصب والغلو وفقدان ميزان العدل، وهنا يغيب الحق ويظهر الهوى..

قال زهير:

وَلَكِنَّ الْفَتَى حَمْلَ بْنَ بَدْرٍ ... بَغَى وَٱلْبَغي مَرْتَعُهُ وَخِيمُ

وَقَالَ آخَرُ:

كَذَاكَ الذِي يَبْغِي علَى النَّاسِ ظَالِماً ... تُصِبْهُ عَلَى رَغْمٍ عَوَاقِبُ مَا صَنَعْ

وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول: لو بغى جبل على جبل لدُكّ الباغي.

وكان الخليفة المأمون يتمثل بهذين البيتين:

يَا صَاحِبَ ٱلْبَغْيِ إِنَّ ٱلْبَغْيَ مَصْرَعُهُ ... فَارْبَعْ فَخَيْرُ فِعَالِ ٱلْمَرْءِ أَعْدله

فَلَوْ بَغَــى جَبَـلٌ يَومـاً عَلَى جَبَـلٍ لانْـدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيـهِ وَأَسْفَلُــهُ

١٤ـ دعائم التوازن:

حتى لا تنتشر مشاكل عدم التوازن بين النظـرة المثالية الواقعية والجانب العاطفي، وبين البعد العـقلاني المنطقي ومداراة الظروف والوقائع، حـتى لا يضيع الصواب في زحام القضايا والهموم، وطغيان عمـوميات الابتداء، حتى لا نصل إلى عدم الاكتراث بمفهوم الحركة والزمن، ويغيب عنا التوازن بين البعد العالمي والبعد المحلي للدعوة إلى الله، حتى لا تنتشر هذه الأمور كلها لابد عند مناقشة القضايا الدعوية من إطار يلتزم بـ:

أ ـ التقدير للموقف المراد مناقشته.

ب ـ رسم دقيق لحدود الإمكانات المتاحة للحركة عند المناقشة.

جـ ـ طرح البدائل المتنوعة للتـفاعل مع الواقع وتغييره حتى لا نحـصر العلاقات في نمطية واحدة جامدة.

د ـ دراسة الواقع بكل تعقيداته وتشابكه ومداخلاته المختلفة.

١٥ـ التدبر في أوقات العافية:

لا بد من معالجـة الأمور في وقت العافيـة فهذا أفضل من النظر إلـيها في وقت المشاكل والفتن فإنه يحدث في وقت الفتن وتدخل العوام مالا يحدث في أيام العافية، فمعالجة الأمور وقت الفتن قد يؤدي إلى التشرذم والتفسخ فتكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً.

قال الناظم:

لقْطُ شُرُوطِ الشُّحِّ فِي الرَّخَاءِ وَفِي ٱلأَوَانِ طَــلَبُ ٱلأَشْيَـــاءِ

١٦ـ حسم الأمور في أوقاتها:

لا بد من الانتبـاه إلى عدم التعـويل الكثير على «الوقت» كـعلاج، أو الانتظار حتى تأتي فـرصة خارقـة للعادة، فإن الحلول لا تقـدم على طبق من فضة والداعـية متكئ على أريكته.

فَلاَ يَغُرَّنْكَ مَا مَنَّتْ وَمَا وَعَدَتْ إِنَّ ٱلأَمَانِيَّ وَٱلأَحْلاَمَ تَضْلِيلُ

١٧ ـ اليقظة والتنبه:

لا بد من عدم الغفلة عن الحقيقة الاجتماعية، التي تنص على أن الإنسان نتاج لبيئته، فإذا سرى في بيئته خلق معين، أو سلوك محدد فهو لا محالة متأثر به، بل الأخطر من ذلك أن إلف الأوضاع غير المستقيمة والتعود عليها يكون في معظم الأحيان مدعاة لرفض الإصلاح والتقويم ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**. .﴾[١] لذلك لابد من الاعتراف بأثر البيئة والمجتمع على التكوين التربوي للدعاة، وحصول التأثير البيئي على نفس المسلم وتفكيره، وهذا واضح في جعل أجر السابقين إلى الإسلام يفضل أجر اللاحقين أضعافاً، وما ذاك إلا أن السابقين تنكبوا صعاب مخالفة بيئتهم، وتحرروا من سلطان الإيلاف على تفكيرهم ﴿**لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ**. .﴾[٢]، وكذلك أجر المجددين وتميزهم لنفس السبب والعلة، التي فضلت السابقين، وهذا الاعتراف بأثر البيئة من أجل ألاَّ يحدث الصراع النفسي داخل الداعية.

وقال الشاعر:

وَلاَ تَقُلْ جرَتْ بِذَا الْعَوائِدُ ... وَهِيَ مُحَكَّمَةٌ إِذْ تَطرِدُ

وَٱلعُرْفُ إِنْ خَالَفَ أَمْرَ ٱلْبَارِي ... وَجَبَ أَنْ يُنْبَذَ فِي ٱلبرَارِي

وقال آخر:

وَآفَةُ الْعَقْلِ ٱلهَوَى فَمَنْ عَلاَ ... عَلَى هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدْ نَجَا

١٨ ـ التفاعل مع المستجدات:

لا بد من تفعيل كامل لكل مكونات الدعاة في الحركة الإسلامية، حتى لا ينحصر دور الفرد في الإدلاء بصوته في الانتخابات، أو دفع ما يستوجب عليه من رسوم، أو تنفيذ ما يأتيه من أوامر، وهذه الحالة تتكون عندما يعزف الدعاة عن التفاعل الحقيقي مع مستجدات العمل، وعندما تهيّأ تربة خصبة لقلة من الأفراد تنفرد بالرأي والقرار، ولا ترى في الآخرين إلا هياكل تنتظر أن تحركها الأوامر والنواهي، وتلوح بين الحين والآخر بعصا التنظيم، ولهذا لابد أن ترافق كلمة الطاعة كلمة السمع التي تعني

(١) البقرة: ١٧٠. (٢) الحديد: ١٠.

التفهم والإدراك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[١]. وهذا وإن كان موجودا في أدبيات الدعاة إلا أن الممارسات اليومية والقيادية في بعض الأحيان تحيد عنها.

أخي الكريم:

هذه مسائل نرجو أن تثلج الصدر، وتبرد الوحر ويطمئن لها قلب من له طلبٌ مَليح وقصد صحيح.

وأخيراً نقول لإخواننا: أي النفوس نحن معاشر الدعاة حينما نمدح أو نذم وحين يسكت عن خطئنا أو يشار إليه في معرض النصح والبيان؟ وإليك أخي الكريم ـ مقياساً من التاريخ، نفس متجردة وأخرى مستعلية ثم خذ بعد ذلك ما تشاء لقدوتك.!!

أولا: نفس متجردة وهي التي تستشعر دائماً أنها ستقف بين يدي الله، وسيسألها عن انتصارها للحق والوقوف عنده: عمر بن الخطاب# يدخل يوماً على ملأ من الصحابة في مسجد الرسول ﷺ فيصعد المنبر فيقول: لقد رأيتني من قبل أرعى لخالات لي من بني مخزوم، وأستعذب لهن الماء فيقبضنني القبضة من التمر والزبيب، وهنا يسأله ابن عوف#: ماذا أردت بهذا يا أمير المؤمنين؟ فيقول: ويحك يا ابن عوف خلوت إلى نفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين، وليس بينك وبين الله أحد فمن أحسن منك؟! فأردت أن أعرّفها قدرها!!

ثانيا: نفس مستعلية تتقاصر عن هذا الصلاح والرقي، وتضعف أمام الرغبات والشهوات، ونماذجها كثيرة منها: ما روي عن أحد خلفاء بني أمية أنه أجاز للأخطل الشاعر أن يركب ظهر جرير الشاعر كما يركب الرجل البعير، وهذا ليس انتصاراً للحق أو دفعاً للباطل، إنما لأبيات من الشعر مدحه بها الأخطل لامست لبه، وأنعشت فؤاده، فأمر له بجائزة وزاده بأن يتخذ من ظهر جرير مركباً !

هذه زوايا من رواق جميل يستظل به نفر كثير..

---

(١) ق: ٣٧.

خامساً: هل نحن مقتدون..؟

١ ـ أذلة على المؤمنين:

«**الإنسان القدوة**» هو النموذج الواقعي المتجسد الذي يحمل من القيم والفضائل والمكارم ما يعلو به على نوازع الأرض وثقلة الطين، لأن له بالله صلة قوية تمنعه من التردي والسقوط، فهو مشدود إلى العلا، بعيد عن الهوى، أسلم قياده لله فحماه وآواه، وأمده بنصره ورعاه ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾(١) والذين يقتدى بهم لهم في الفضائل والمكارم درجات، بحسب استمساكهم بمنهج الله، ولذا كان خير قدوة مأمور باتباعها النبي ﷺ ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾(٢) ويظل الناس يحاولون الارتقاء نحو هذا المرتقى الصاعد، لعلهم يقتربون من هذه القمة السامقة التي يقف عليها رسول الله ﷺ، وهم في ذلك متفاوتون أشد التفاوت بحسب القدرة والإخلاص والاستمرار والعلم والمعرفة والاشتغال بالعمل الإسلامي العام، الذي يقوم به بعض الدعاة سواء على المستوى الرسمي أم على المستوى الشعبي المتمثل في أصحاب المشروع الإسلامي، هؤلاء الذين ينبغي أن يتجردوا من كل ما يمس ذواتهم، ويجعلوا أنفسهم مذللة للدين، تمثله سلوكا وعملا والتزاما قبل أن تتحدث به، أو تعلن للناس عنه ليكونوا قدوة لغيرهم، وسراجا منيرا ينير الدرب، ويزيل الغبش أو الظلام فهل نحن ـ الدعاة ـ كذلك؟

هل قادة المشروع الإسلامي ودعاته حين نظروا إلى أتباعهم فرأوهم ـ في بعض الأحيان ـ كثيرين، ونظروا إلى أعمالهم فرأوها في بعض الأحيان غير قليلة، بالقياس إلى غيرهم تواضعوا لله، وشكروا أنعمه عليهم، أم أنهم اعتدوا بحولهم وطولهم وقضهم وقضيضهم، وظنوا أن الأرض دانت لهم، وأن الناس نازلون على حكمهم، سائرون على دربهم، منفضون عن غيرهم، فاستعلوا في الأرض، ولم يتواضعوا أمام أتباعهم، ولم يتذللوا خضوعا وانكسارا لربهم. . وكأني بهم يقولون: لن نغلب اليوم من قلة. . ؟

---

(١) محمد: ٧.
(٢) الأحزاب: ٢١.

إن التواضع للناس أجمعين أمر حث عليه الدين، وأوحاه الله إلى نبيه محمد ﷺ: «**إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»(١) وكان الرسول القدوة ﷺ إمام المتواضعين، حتى إن الجارية كانت تأخذ بيده إلى أي طريق من طرق المدينة(٢) لتسر له بحاجتها، كان يلاطف الصغير، ويحترم الكبير، ويقدر الآخرين، ولا ينتقص جهد أحد، ويقبل من كل أحد بحسب ما يستطيع، وقد بين لنا أن المتواضعين يرفعهم ربهم، ويعلي من شأنهم «**وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»(٣).

وقد كان موقفه في مواطن الترفع التي يقع فيها الناس مثالا للتواضع، ألم يأتك نبأ فتح مكة؟ كم يساوي هذا الحدث في دنيا الناس آنذاك حين يجد الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله، وقد نصرهم الله فعادوا إلى موطنهم ظافرين، وعلى أعداء الأمس منتصرين، استسلمت لهم الجباه، وخضعت لهم الهامات، ودانت لهم الدور والجبال في موقعة حربية سبقها إعداد واستعداد؟

ومع عظمة هذا الحدث فإنك تنظر إلى القائد العظيم محمد ﷺ ورأسه تكاد تمس عنق راحلته تواضعا لله، وشكرا له على ما رزقه إياه، وساقه إليه من النصر، ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ**﴾ (٤).

وانتقل هذا الخلق الكريم من الرسول ﷺ إلى أصحابه حتى إن أبا بكر كان يحلب للحي أغنامهم قبل الخلافة ـ كما أخرج ابن سعد(٥) ـ فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا تحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر، فقال: بلى، لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهم. والأمثلة عديدة، وكلها تبين أن الإسلام صاغ نفوس المسلمين صياغة جديدة، وصفاها تصفية بديعة، أزالت شوائبها وعمقت فضائلها، وجعلت

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥)، وأبو داود (٤٨٩٥)، عن عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً (٦٠٧١)، وأبو داود (٤٨١٨)، وأحمد (٣/ ٩٨) والترمذي في الشمائل (٣٢٤)، والبغوي (٣٦٧٢)، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) والترمذي (٢٠٢٩)، وأحمد (٢/ ٣٨٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) الأنفال: ١٠

(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ١٨٦)، وابن جرير الطبري في تاريخه (٢/ ٣٥٤).

للتواضع مكانا بارزا بين هذه الفضائل.

فهل ما زال مكان التواضع هذا بارزا في القلوب، ظاهرا في الأعمال؟

إن بعض الأضواء وبعض الأتباع وبعض الأحاديث والأقوال والكتابات لا ينبغي أن تمس القيم الأصيلة في النفس، ولا أن تطغى عليها لتزيحها من مكانها، أو تحجب نورها، أو تزعزع مقدارها، وإلا فإن هذا أول الشروخ في زجاج الدعوة، وإن الزجاجة كسرها لا يجبر.

٢ ـ هل نحن دعاة المشروع الإسلامي. نغضب للحق أم نغضب لذواتنا؟

وهل المعارك التي تقوم بين أصحاب الفصيل الواحد، وتنشرها الصحف وتزكي أوارها، وتنفخ في لهبها مقصود بها وجه الله أو يقصد بها وجه فلان ورأي فلان؟

إن الغضب غريزة في الإنسان والحيوان لا يمكن منعه، ولكن يمكن التخفيف من أوضاره، والتخلي عن أثقاله، وتجنب أسبابه أو بعضها على الأقل، وتوجيهه الوجهة النافعة حين يكون الغضب من أجل إحقاق الحق وإن خالف رأينا، وإزهاق الباطل وإن وافق هوانا.

وهكذا كان غضب رسول الله ﷺ، فما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط، وما كان ينتقم إلا أن تنتهك محارم الله[١].

وهل كانت مناصبة المشركين العداء وجهاد المسلمين الأولين، وبذلهم للأموال والدماء إلا غضبة للحق ونزولا على مقتضياته.. فما بالنا نجانب هذا المنهج، أو يجانب بعضنا هذا المنهج في بعض الأحيان والمواقف، فلا يرى غير نفسه ولا يقبل غير رأيه، فإما رأيه وشخصه وإما غضبه الذي لا يبقي ولا يذر. فأين الحلم؟ وأين الرفق؟ ثم أين الإيثار؟ ثم أين موضعك من الأتقياء الأخفياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا؟

إن فلانا إذا أراد ألا يرى الناس إلا شخصه ولا يسمعون إلا رأيه، ولا يقدمون في المهمات غيره، ولا يقضون أمرا إلا بمشورته، قد يشتط إذا تجاوز الناس شيئا من

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧) عن عائشة رضي الله عنها.

ذلك لسبب من الأسباب، فإن هم فعلوا نالهم غضبه، وأحاط بهم سخطه، وعبس وبسر وأدبر واستكبر، وقال: مالكم من داعية غيري، ومُنظِّر مثلي!! وإلا فهاتوا برهانكم وأجمعوا جموعكم فإني لكم بالمرصاد أكشف أوهامكم، وأظهر أسراركم، وأهتك أستاركم.. ثم يتمادى في غضبه، مستظهرا بالشيطان على نفسه، فينطق لسانه في أشخاصهم، وربما أطلق قلمه في كشف أخطائهم مدعيا أن غضبه للحق، والحق أن غضبه لنفسه...، لكنه لم يعد يرى أين الحق من الباطل أم أين الهدى من العمى، وكثيرا ما تكون طامة هؤلاء أن يأتي ضلالهم الحاضر على أثارة من علم سابق فيحدثوا فتنة، قد تشتد حتى تضر بآخرين.

وقد يستمر هذا الغضب لأن أسبابه قائمة ودواعيه لا تتوقف، فما من إنسان غير الأنبياء أوتي الحكمة وفصل الخطاب، بل إن الرأي بين الناس مشترك والأمر شورى، والناس يحترمون كل صاحب رأي لا يتعصب لرأيه، ولا يرى أن قوله ـ وحده ـ هو الحق، وقول غيره هو الخطأ، بل إن المنصفين يقولون قول الإمام الشافعي: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب»، ويتحلون بما تحلى به الشافعي في مناظراته من سلوك «ما ناظرت أحداً إلا تمنيت أن يجعل الله الحق على لسانه».

فأين هذا مما يظنه البعض في آرائهم من أنها لا تحتمل الخطأ، ولا يأتيها باطل من بين أيديها ولا من خلفها؟ فإن أظهر أحد عوارها وأبان بهرجها وفسادها، صب عليه الغضب صبا، وذاق من أفانين الكيد ألوانا، وشهر به، واجتنبه الناس، وتحزب ضده المتحزبون...، أفلا راجع الدعاة الهداة أنفسهم؟ أفلا جعلوا غضبهم للحق؟ أفلا سخروا أنفسهم وأقلامهم وأقوالهم وأموالهم وجهودهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رغبة فيما عند الله، وطمعا في رضاه، فتجاوزوا عما يصيبهم في ذات الله، ولم يغضبوا لمنصب ذهب، أو رأي مخالف لرأيهم بين الناس اشتهر، أو شخص غيرهم تقدم؟

أسمعت أن أحدا غضب أو ثار أو استدبر أمره واستدار لأن الرسول ﷺ ولى أسامة (٢٠ سنة) جيشا فيه أبو بكر الذي جاوز الستين أو عمر أو غيرهم من الصحابة.. وحقا حين مات الرسول ﷺ حاول البعض عزل أسامة بناء على رأي رآه

ولكن تمسك أبي بكر بقيادته للجيش حسم الموقف، فلم يخرج عن قيادته أحد من مشاهير القواد المهرة المعروفين. . لماذا الغضب إذن إن أخذ رأي من الآراء، واستحسن اجتهاد معين قد يناسب الظرف الآني فيكون أولى بالتقديم؟ ولماذا الغضب إن قدم هذا أو ذاك لتولي قيادة أو الاضطلاع بأعباء الريادة؟ إننا ننصح له ونبذل معه ما نستطيع، ونكون له ردءا وعونا. . . ؛ لأننا نعمل في سبيل الله وينبغي أن نستعين بما أمر به الله: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**﴾ (١) أسأل الله لي ولكم العافية.

٣ ـ حب النفع للآخرين:

هل نحب للآخرين ما نحبه لأنفسنا، ونكره لهم ما نكره لها؟ هل نعتبر صالح المسلمين صالحنا؟ هل نبذل ما نستطيع من نصح أو جهد أو مال في سبيل الآخرين، نعلم جاهلهم، ونعالج مريضهم، ونحاول إغناء فقيرهم بإعطائه حقه ومنع الظلم عنه ما استطعنا إلى ذلك سبيلا؟ هل نصرناه كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالما أو مظلوما**»؟(٢) وهل حققنا في المسلمين قول الله: ﴿**وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ**﴾ (٣)؟ هل أقمنا بيننا حقوق الأخوة التي قررها الله سبحانه بين المؤمنين ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ (٤)؟ وقول الرسول ﷺالذي ربط فيه تحقق الإسلام بحب النفع للآخرين: «**وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما**»؟(٥)

هل نحن على قلب رجل واحد نتعاون على البر والتقوى، ونتباعد عن الإثم والعدوان؟ هل تآلفت منا القلوب، وتماسكت منا الأيدي، وتدابرت عنا الأحقاد؟

وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ وَتُبْدُونَ الْعَدَاوَةَ وَالخِصَامَا؟

كم من مرة تناصح فيها الإخوة في المشروع الإسلامي؟ وكم من مرة تصافح فيها ذوو الاتجاهات المختلفة في هذا المشروع الإسلامي؟ هل عفا أحد فيه عن مخطئ أساء، أو جاهل بغى، أو عالم تأول بعد اجتهاد أم أن هؤلاء المخطئين سلقوا بألسنة حداد، وجلدوا بكلمات أقسى من السياط، وأشد من وقع النبال عند النزال؟ هل

---

(١) البقرة: ٢١.
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٣)، والترمذي (٢٢٥٥)، وأحمد (٣/ ٩٩) عن أنس رضي الله عنه.
(٣) الأنفال: ٧٢. (٤) الحجرات: ١٠.
(٥) سبق تخريجه.

فعل فيهم أحد ما فعله ابن عباس رضي الله عنه حين سبه أحد المسلمين؟ ماذا كان رد فعله، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن؟ قال له: إنك لتسبني وإن في ثلاث خصال: إني أقرأ الآية من كتاب الله فأود لو أن كل المسلمين يعلمون منها ما أعلم، وأني أسمع بالغيث نزل في أرض المسلمين فأفرح وليس لي في مكان نزوله سائمة، وأني أسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فأفرح وربما لا أقاضي إليه أبدا.

لقد اكتفى ابن عباس في رده على من سبه بأن قلبه يحب للمسلمين ما يحبه لنفسه، وأنه يفرح لكل خير أصابهم، ويحزنه كل شر نزل بهم.

وتلك هي النفس التي تحمل الدين وتعمق له مكانا في قلوب المسلمين، وتنشره بين الناس أجمعين، فهل نحن كذلك؟ وهل قمنا بحقوق الآخرين؟

٤ ـ التضحية في سبيل الدين:

هل نحن ـ حقا ـ نضحي التضحية الواجبة في سبيل نصرة هذا الدين؟ إن الغايات العظيمة تتطلب تضحيات جسيمة، وأي تضحية تكون هينة بسيطة أمام عظمة هذا الدين.

لأنه النعمة الكبرى التي امتن الله بها على المؤمنين ورضيها لهم **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾**(١)، وقد فهم المسلمون الأولون قيمة هذه النعمة (الدين) في حياتهم وآخرتهم، فاسترخصوا كل شيء في سبيله، قدموا أموالهم وأولادهم، وأنفسهم لإعلاء كلمة الله، وجعلوا حياتهم وقفا على نصرته، وتحملوا ما تحملوا من جهاد لينتشر نور الله بين العالمين، وأي تضحية تأتي بعد تضحيتهم لن تكون على مثال ما قدموه، ولا قريبة مما فعلوه. وأحداث الصدر الأول من المسلمين مع رسول الله ﷺومن بعده، لا تترك مجالا لمقارنة ولا حتى لمقاربة في الأفعال مع الذين يظنون ـ اليوم ـ أنهم يضحون، وهم يجنون ويحصدون ثمرة ما يعملون، حيث يجدون أنفسهم وقد صار لهم أتباع وصارت لهم كلمة مسموعة بين مجموعات من الناس، ولا يحرمون من السفر هنا أو هناك، ليؤدوا بعض المحاضرات، ويتم الاتفاق معهم على كتابة بعض المقالات، أو يحضروا بعض

---

(١) المائدة: ٣.

الاجتماعات، ثم يظنوا أنهم قد ضحوا وأنهم قد بذلوا وأدوا لهذا الدين بعض ما يجب عليهم أداؤه، وأن تضحياتهم قد تجاوزت الحد، وبلغت الأوج، فيعتزون بما فعلوا، وهم لم يفعلوا شيئا إلا أنهم خرجوا عن إطار العرف الفاسد، الذي أصبح الدين آخر ما يتصل به أو يعبر عنه، وهذه ليست تضحية، لأنها واجب من واجبات المسلم التي تجعله ينأى بنفسه عن كل ما يرتضيه العرف الفاسد ويرتفع بنفسه، وبغيره عن السفاسف والدنايا ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ**﴾[1]، ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ**﴾ [2]، فهل إن تجنبنا أمثال هذه الأشياء نكون قد ضحينا أم نكون قد التزمنا بشيء ديني أوجبه الله علينا؟

وهل التضحية ترك المعصية أم هي التسابق في حمل الأعباء وتخفيف اللأواء على المسلمين؟ هل التضحية عند المسلمين غير بذل وعطاء يتفاوت فيه المسلمون ابتداء من شق تمرة «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**»[3] ، وانتهاء بتقديم النفس في سبيل الله ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[4].

وبين البدء والانتهاء في سبيل الحق ومن أجله درجات كثيرة يتفاوت فيها المؤمنون وتتنوع وتتعدد من أجلها التضحيات، التي تتجمع لتصد عن الدين شرا قادما، أو تدفع عن الدين شرا قائما ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾ [5]، وبدون هذه التضحيات يبقى الشر منتفشا والحق منكمشا.

وكان السابقون في الإسلام هم أكثر الناس تضحية بالمال والوطن والأهل والولد والعشيرة والتجارة ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ [6]، لقد أحبوا الله ورسوله فقدموا كل شيء، قدم أبو بكر كل ماله، وقدم عثمان الكثير من المال، وسمع أبو طلحة

---

(١) القصص: ٥٥. (٢) النساء: ١٤٠.

(٣) أخرجه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٤) آل عمران: ١٦٩. (٥) الأنبياء: ١٨.

(٦) التوبة: ٢٤.

الآية الكريمة: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1]، فجعل بستانا له من أجمل بساتين المدينة تجري فيه عين ماء في سبيل الله، وقسم عبد الرحمن بن عوف ماله نصفين جاء بأحدهما إلى رسول الله ﷺ لينفقه حيث شاء في مصالح المسلمين، وفعل مثله أحد فقراء المسلمين، وحملوا جميعهم السلاح في وجه البغاة المتجبرين ليردوهم إلى الحق الذي جاء من عند رب العالمين، فأين نحن من هذه الأعمال؟ ومتى نقوم بها أو نؤدي بعضها؟

سادسا: من له الحق...؟

عالمنا اليوم يسعى حثيثا نحو الاختصاص، فالعلم الواحد يتفرع إلى جزئيات عديدة، والعمل الواحد تنتجه عدة مصانع، كل منها متخصص في ناحية بعينها، ثم تجمع هذه الجهود في عمل معين، يعرض في الأسواق ويباع للناس بعد مروره بمراحل من الإنتاج تتجمع وتتصل لتشكل في النهاية تلك السلعة، وهذه التجزئة سواء مثلت سلعة كاملة أو جزءا من سلعة هي ما تحاول أن تقوم به المؤسسات والدول، فيما يسمى اليوم «بالخصخصة» التي تعني كذلك رفع يد الدولة عن عمل مؤسسة من المؤسسات ذات الشأن وتركها لأفراد يديرونها أو لبعض أفراد يشاركون في شراء أسهمها وأعمالها مشاركة جزئية أو انتقالا كليا، وكل ذلك من أجل زيادة الإنتاجية ورفع الكفاءة وتدفق العطاء البشري، ويأتي هذا الأمر طبيعيا اليوم، حيث تداخلت الأعمال وتزاحمت الأفكار وكثرت المشاغل، وهذه الأمور تدفع إلى إلزامية التخصص في الأعمال.

ومن هذا المنطلق سنقف عند توجه بدأ يسري في أوساط الكثير من المبدعين في العمل الإسلامي، ألا وهو الإسراع نحو الهدف النبيل من أقصر طريق وبأيسر وسيلة، وهذا الشيء لا غبار عليه إن لم يأخذ طابع التسرع والعجلة، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، والمطلوب منا أن نرتقي بمستويات العطاء ونحن نقتحم الحياة ونقدم للناس هذا الدين وأن نكون متسلحين بالعلم والإيمان والمعرفة بالأمور الجائزة والممنوعة في الميدان الذي نلجه، فعلى سبيل المثال نجد عند الكثيرين من

(١) آل عمران: ٩٢.

المتحمسين لتطوير العمل اقتناعا بأنهم لا بد لهم من أن يفعلوا كذا، وأن يصلوا إلى الناس في أماكنهم، ولو كان في هذا الوصول تلطيخ لأثوابهم وأجسادهم بالطين، فالذي يقوم بإنقاذ الناس من البحر لابد أن يبتل ثوبه ويصاب بأمراض البرد، ولا يأمن كذلك أن يغرق، ونحن إذ نشكر للمبدعين والمتحمسين هذه الروح منهم نخشى عليهم ألا يستطيعوا التخلص من لوثات هذه المغامرات لا لضعف في إيمانهم، ولكن لعدم تخصصهم وقلة علمهم بالضوابط والقواعد الشرعية التي يجب أن ينطلقوا منها في تحركهم الإبداعي وإنتاجهم المتميز، فالمسلم قبل أن يفكر في إنقاذ الآخرين يفكر كيف ينقذ نفسه بين يدي الله يوم القيامة، ولهذا نجد أنه في عهد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانت المسألة الفقهية تدور على ثلاثين من الصحابة ـ رضوان الله عليهم، يدفعها كل واحد لأخيه يريد النجاة من غير جهل منه، وفي النهاية يفتي مضطرا لا مفتخرا، وهكذا المسلم يحرص على إنقاذ نفسه قبل إنقاذ الآخرين.

ولخطورة الدخول في مزالق الصراع مع الباطل نذكر مثالا من التاريخ: الإمام الغزالي قال عنه الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء: «الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام أعجوبة الزمان، زين الدين أبو حامد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الغزالي، صاحب التصانيف والذكاء المفرط»[(١)]، هذا الإمام ألف في ذم الفلاسفة (كتاب التهافت) فلم تقم لهم قائمة بعد ذلك، ولكن ماذا حصل؟ نترك الإمام أبا بكر ابن العربي ليقول: «شيخنا أبو حامد بلع الفلسفة وأراد أن يتقيأها فما استطاع»[(٢)].

وكذلك دخل على المناطقة متأثرا بهم حتى قال عن علم مبنى على المنطق الصوري اليوناني: «هو مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط به، فلا ثقة له بمعلوم أصلا»[(٣)].

وقد امتدحه المازري في الفقه والأصول، ولكنه بين أن ما جاء به من أقوال شاذة في أصول الدين إنما هو من أثر تبحره في الفلسفة، حيث أكسبته الفلسفة جرأة على المعاني، وسهولة في الهجوم على الحقائق[(٤)].

ومع ذلك قال الإمام الذهبي عنه: «الغزالي إمام كبير، وما من شرط العالم أنه

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٣٢٢ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٣٢٧ .
(٣) السير ١٩ / ٣٢٩، المستصفى ١ / ١٠ .
(٤) السير ٩ / ٣٤١ .

لا يخطئ».

وما كـان من سبب لما وقع به الإمـام من سقطات القوم إلا أنه دخـل على القوم قبل ثبـوت الرجل بالسنة النبوية المتـبوعة، فـفي كتـاب الإحياء أحـاديث لا سند لها عدتها ٩٤٣ حديثا[١].

وفي المقابل نرى أن شيخ الإسلام ابن تيمية دخل في علم المنطق وهدمه في كتابه (الرد على المنطقـيين)، وخـرج في الغـالب سالما مـن لوثاتهم، حيـث كان مـؤهلا للدخول في وحل المناطقة مع القدرة على الاحتراز من التلطخ بطينه، وإن كان ولا بد من إصابته بشيء منه، فقد استطاع أن يتنظف منه، والمطلع على كتب الشيخ يجد أنه لا أثر عليه من الغوص في مغاليق المناطقة حتى قالوا: إنه عرفها أكثر من أربابها.

وواقعنا اليوم يحـتاج إلى جرأة لاقتحـام المستجدات وإسقـاط الأحكام والقواعد العامـة على مستـجداته. ولكن من له ذلك؟ إنهم أهل الاختـصاص والمحقـقون في العلوم، فـالدقة في البـيان والإفتـاء عند النوازل، وتفـصيل الأمـور وتيسيـرها بما لا يتعارض مع النصوص والقواعد الشرعيـة أمر يحتاج إليه العاملون في تحركهم، فنحن اليوم نحتاج إلى أصـالة وصلابة شيخ الإسلام ابن تيمية، كمـا نحتاج إلى دقة الإمام الحافظ: محمد بن إسـماعيل البخاري عندما بين مسألة اللفـظ بالقرآن، فقال: القرآن كلام الله لفظا ومعنى، ولكن لفظي في القرآن مخلوق.

وكان الإمـام أحمد لا يرى الخـوض في هذه المسألة لقربـها من فتنة المعـتزلة في القول بخلق القرآن، ولكن بعـد انتهاء ذاك الزمان كان لابد من الدقـة في البيان الذي انبرى له الشيخ الإمام محمد بن إسـماعيل#، وبعد قوله انقسم الناظرون إلى هذه الجرأة المبنية على العلم والفهم، فقال الإمام الذهلي وهو شيخ البخاري عندما كان في نيسابور: «من جلس مجلس محمد بن إسمـاعيل فقد تجهم»، لقوله باللفظ، ثم جاء بعد ذلك الإمام المحقق ابن قيم الجوزية يقـول عن عبارة الإمام البخاري: «نهي الإمام أحمد أحوط، وقول البخاري أدق ونحن عند أمن الفـتنة نحتاج إلى الدقة وخصوصا أننا في بحر مائج متلاطم لا نهـاية له»، ولهذا نطلب من إخواننا الذين يخوضون في

(١) ذكر ذلك الإمام السبكي في طبقاته ٦/ ٢٨٧، ٣٨٨، وقد بين ذلك الكثير من العلماء.

بحر الإبداع والتجديد والـدخول إلى المستجدات في الحياة أن يتـحصنوا بلباس العلم الأصيل المبني على الكتـاب والسنة، وأن يعطوا لأهل الاختصاص والعلـم حقهم في توجيه المسار الدعوي والحركي.

وأسأل الله السلامـة للجميع،وأن يوفقنا إلى اتبـاع الوسائل الصحيـحة للغايات العالية.

سابعًا: دروس باقية:

اعتاد النـاس أن يكون تصريح أي مسئـول في أي موقع تعبيراً عـن رأي المؤسسة التي هو عنها مسئول، وذلك نظراً لعدم وجود الفصل المميز بين ما يخص مؤسسة ما وما يخص المسئول عنها، فالمؤسسـة لا يطلق عليها هذا الاسم، ولا تحمل هذه السمة إلا حين تكون لها نظم معروفة، ولوائح وأسس معروضة مـشهورة، يعرفها أعضاؤها ولا يجهل طريقها من يبحث عنها من غـيرهم، وبالتالي فلا ينسب إلى هذه المؤسسة قـول يخـالف نظمـها ويناقض المعروف من لـوائحهـا وبنودها وإن صـرح به أحـد مسئوليـها؛ لأنه في هذه الحالة، يكون معبراً عن رأيه الشـخصي، الذي لا ينبغي أن تحمل المؤسسة تبعته،ولا أن توجه لها الطعنات كرد فعل لرأي شخص من الأشخاص وإن علا منصبه، وذاع بين الناس حديثه أو تصريحه.

والقائمون على المشـروع الإسلامي ليسوا مستـثنَين من هذه القاعدة، بل إنهم في أوائل محتوياتهـا وبدايات تعليماتها؛ لأنهم أولى من غيرهم بالتفرقـة بين ما يخصهم كأناس لهم آراء في بعض الأحداث، أصابوا فيها أم أخطأوا، وبين ما يخص المؤسسة أو الحركة الإسلامـية، التي ينظر الناس إلى كل ما يصدر عنها نظرة تخـتلف اختلافاً جذرياً عن كل ما يصدر عن أحد الأشخاص.

وقد كان الإمام البنا ـ رحمه الله ـ أحد المتـمسكين بهذه القاعدة، الحريصين على تثبيتها بحيث لا تمنعه نظم المؤسسة من إعلان رأيه الخاص دون إلزام أحد به، وبحيث لا يؤخذ رأيه الخاص في مسـألة بعينها على أنه رأي المؤسسة، فقـد يضرُّ بها ويجلب لها شدائد هي في غنى عنها.

يقول ـ رحـمه الله ـ وهو يتحدث عـن الأحزاب والحزبية: «وإن لي في الحـزبية

السياسـية آراء هي لي خاصة، ولا أحب أن أفرضهـا على الناس، فإن ذلك ليس لي ولا لأحد، ولكني كذلك لا أحب أن أكتمهـا عنهم، وأرى أن واجب النصيحة للأمة يدعوني إلى المجاهرة بها وعرضها على الناس في وضوح وجلاء»[1].

فهو مع مجاهرته بآرائه يرى أنها لا تمثـل التيار الذي كان يقوده حينذاك، ويعلن أنها آراء خاصـة يقدمها للأمة قـياماً بواجب النصيـحة، ومعنى ذلك أن آراءه هذه إن قبلت فبها ونعمت، وإن رفضت فلا ينبغي أن يلحق جـماعته ضرر بسببها، أو تهجم من أجلها.

وهو بذلك يعلن أن تبعـة آرائه يتحملها هو شخـصياً، وأن الجماعـة لا شأن لها بهذه الآراء، وأن على صاحب كل رأي يرى أنه مـفيد للأمة أن يتقدم به لا بـاعتباره مسـئولاً في جـهة ما، ولكن باعـتبـاره، إحدى لبنات المجتـمع التي يجب أن تكون صالحة لبناء الأمة، فهو يتفاعل مـعها ويؤدي دوره في تقديم ما قد يظن أنه نافعٌ لها، في صورة لا تخلو من برهان ودليل على ثاقب رؤيته، وسلامة نظرته.

وواجب النصح هنا قام على استكمال وحدة الصف بين الحاكم والمحكوم، بديلاً للحزبيـة التي كانت سائدة فـي عصره؛ لأن وحدة الـصف تؤدي إلى تماسك الأمة، وتداخل نسيجها الاجتماعـي، وتشابك الأيدي العاملة واستعدادها للبذل والعطاء، أو هي كما قـال: «ونريد أن نبني أمتنا بناء قوياً، يسـتلزم تعاون الجهود وتـوافر القوى، والانتفاع بكل المواهب، والاستقرار الكامل، والتفرع التام لنواحي الإصلاح»[2] وهذه العوامـل التي لا تقوم بغـيرها وحـدة المجتمع، كـانت خيـر دليل على سـلامة رأيه الشخصي في ضرورة التخلي عن الحزبيـة وعن الأحزاب، أو بالأحرى الابتعاد التام عن الممارسات التي تزيد تمزيق الأمـة، وتجعلها تتناحر من الداخل، وتتـآكل أجزاؤها بفعل عوامل داخلية، قد يصعب صدها والتصدي لها قبل أن تأتي على بناء المجتمع بأكمله.

وما تزال وحدة الصف في أي شعب هي المدخل الحقيقي لقوته الذاتية، التي يعبر بها من المخاطر إلى الأمان، وما تزال روح التفرق والتمزق ـ إن وجدت في أي أمة ـ تحمل بذور الضعف والهوان.

ولعل فيما قلناه وبيناه عظةً لقوم يعلمون ويعقلون.

(١، ٢) الرسائل ص١٦٦ .

ثامنًا: عقول تهدم:

يقول الكاتب الفرنسي (ك. موريل) بسخرية عن فترة تصفية الاستعمار: «إذا أرخنا للمعارك فقد أخفق الاستعمار، ويكفي أن نؤرخ للعقليات لنتبين أننا إزاء أعظم نجاح في كل العصور، إن أروع ما حققه الاستعمار هو مهزلة تصفية الاستعمار، لقد انتقل البيض إلى الكواليس، لكنهم لايزالون مخرجي العرض المسرحي»(١).

لقد استطاعت الشعوب المُستعمرَةُ أن تقلص نفوذ الاستعمار، وأن تفك عنقها من قبضته القوية، وظنت أنها بذلك تخلصت منه إلى الأبد، واستردت عافيتها وحريتها في أرضها ووطنها وساعدها المستعمرون في ترسيخ ذلك الظن، حين سحبوا جيوشهم وأساطيلهم بعيداً عن هذه المستعمرة أو تلك، فأراحوا أنفسهم من التكاليف المادية، وصانوا أرواح جنودهم من أن تزهق في غير طائل، وأن تظل العداوة لهم في نفوس الشعوب بدون ضرورة. وما ضرورة بقاء الجنود في أرض تعاديهم وقد تقاتلهم ما دام الهدف يمكن أن يتحقق بغيرهم من أبناء تلك البلاد بدون ضجيج أو إزعاج؟

إن هدف المستعمرين أن تظل البلاد تحت سيطرتهم الفعلية، تتبعهم في سياستهم، ولا تخرج عن سلطتهم، وتظل سوقاً لبضائعهم ومصدراً يمدهم بالمواد اللازمة لاحتياجاتهم المتعددة متى احتاجوا إليها، ومن العبث أن يتحقق هذا الهدف بالقوة العسكرية في عصر لم يعد يقبل مثل هذا التصرف، ولماذا القوة العسكرية...؟ والبدائل كثيرة، منها: الضغوط الاقتصادية، وإثارة الفتن العرقية، وخلق مشاكل الحدود بين الدول، وإيجاد أناس يعملون على حراسة التخلف وإعاقة التنمية، ودفع سياسة البلاد نحو هذا المستعمر أو ذاك.

ولقد مكّن الاستعمار لهذه الفئة من الناس حين رباها على يديه، وصنعها على عينيه، فصارت تفكر بعقله، وتسترشد برأيه، وتستوحي مشورته، وتعمل بنصيحته وساعد على ذلك تقدم بلاد الاستعمار، وتأخر البلاد المستعمرة، واحتياجها إلى كثير من التقنيات الحديثة التي تساعدها في حياتها، ولا مجال لها إلا بأخذها من المستعمرين، والركون إلى ذلك وحده، دون عمل على غربلة الاحتياجات والاستغناء

---

(١) مجلة البيان العدد (٧٦) نقلا عن: كتاب تغريب العالم.

عمـا ليس من الضرورات، وفـتح باب الابتكار والاختراع بقـوة للعمل على تضـييق الهوّة وتحقيق بعض ما يفيد ويغني عن كثير من سلع البلاد المتقدمة.

إلى جانب أن البلاد الاستعمارية اسـتغلت سذاجة بعض الذين قفزوا إلى السلطة من العسكر دون أن يتربوا في دهاليز السياسة، أو يعرفـوا دروبها ومسالكها المتعرجة، فتلاعبت بهم الدول المستعمرة فساروا مرة نحو الغرب وأخرى نحو الشرق دون هدف واضح أو سيـاسة مرسومـة، ولم توف لهم تلك الدول التي اتجهوا نحـوها بما كانت تظهره أمامهـم في العلن، وربما فعلت عكسه تماماً في السر واتفاقـية (سايكس بيكو) نموذج مـسجل على ذلك، وبعض أصـحاب السلطات في البـلاد الناميـة نموذج حيّ شاهد على مـا نقول، وقد لاقت البـلاد على أيدي هؤلاء السياسـيين غير الفـاقهين الخراب والفـقر، وما نموذج العراق عنا ببـعيد، ومقـارنة بلد كالعراق مثـلاً حين كان تحت أيدي الاستعمار الإنجليزي وتحت أيدي نظامه الفاجر الآن تريك أنه تقهقر مرات ومرات، لسـوء القيادة فيـه مما أفقر العبـاد وخرب البلاد، واعتـدى على من أحسنوا إليه، فـهل هناك خير يرجى من مـثل هذه القيـادات المنحرفة التي أضـرت ببلادها، وبكل من تحتك به أبلغ الضرر؟

ولسنا بذلك نؤيد بقاء الدول تحت هيمنة الاستـعمار، ولا نؤيد كذلك بقاء سلطة العسكر، فكلاهما شر ساعد على تأييده بعض المثقفين، الذين ظهرت من بينهم نخبة تغذت بلبـان الاستعمـار وتعلمت في مدارسه، وتشربت حـبه، وارتبطت مصـالحها بمصالحـه، ساعـدت على تهيـئة الجو العـام الذي يبقى نفـوذ الاستـعمـار دون قوته العسكرية، ويـبقى روحه دون جـسمه، ويحـقق له مصلحتـه التي يرقبـها من خلف ستار، وقامت هذه الفئة بما لم تقم به قـوى الاستعمار فسددت طعنة، أو طعنات إلى الأمة في دينها، وأشـاعت ـ زيفاً وزوراً ـ أنه سبب تخلفهـا، ودعت إلى التخلي عن كثير من شعائره ومظاهره، وأرادت له أن يكون مستتراً في الوجدان لا يطلع عليه غير الرحمن.

ثم وجهت طعنات إلى الأمـة في تاريخها بتـشويهه، والإعـلاء من شأن كل من أثار فتنة بين المسلمين من الباطنيين والقرامطة والخـوارج وغيرهم ممن كان معول هدم في بلاد المسلمين، وممن يسير على نهـجهم اليوم، مع تغيير فـي الأسماء والشارات،

وموافقة في الإصرار على هدم مقومات الأمة وضرب استقرارها، والعمل على توجيهها فكرياً وثقافياً بعيداً عن مقومات الدين، بحيث تتناسق الأفكار وتتناغم الثقافات مع ما يردد ويذاع في الغرب، حتى تتقارب المفاهيم، فيألف أبناء البلاد النامية الآراء والأفكار والعادات والتقاليد السائدة في البلاد غير الإسلامية، فلا يستغربون بعد ذلك من كل ما يخالف روح الإسلام ولا يستنكرون ما يقرب بينهم وبين أهل الغرب، وإن شذ عن الدين، بل إنهم يبررون كل تصرف ومسلك وإن خالف الدين صراحة لا تأويلا.

وهذا أحدهم يقول: «ليس في الفن حلال أو حرام، إن فيه جمالاً أو غير جمال، فلا يقاس الفن بمقاييس الدين، وإنما يقاس بمقياس الجمال، فكل فن جميل مقبول، حتى وإن خرج عن حكم الدين،حتى وإن حكم عليه الدين بالحرمة، فإنما العبرة بالجمال، والجمال وحده». فلماذا إذن الدين إن لم يحكم التصرفات والقيم والمفاهيم؟

ويقول نفس الكاتب في مقال آخر: «فنحن مهددون بطغيان يتوسل بالدين ويتستر بأرديته، فيزعم الداعون إليه أن كل الشرور التي أصابتنا في العقود الأخيرة إنما تعود إلى ما أخذناه عن الحضارة الأوربية الحديثة. وقد أخذنا عن الأوربيين فكرة الوطنية والدستور، وحقوق الإنسان، واحترام العقل، والركون إلى العلم، وفصل الدين عن الدولة، وهذا كله كفر في نظر دعاة الدولة الدينية؛ لأن السلطة كلها يجب أن تكون لله، أي يجب أن تكون لزعماء الجماعات كلها سواء، لأنهم في نظر أنفسهم يمثلون الله ويجاهدون في سبيله، فمن حقهم وحدهم أن يضعوا القوانين ويطبقوها، أما نحن المواطنين ـ أو الرعايا بتعبير هؤلاء السادة ـ فأطفال نسمع ونطيع لحكامنا الذين يحق لهم أن يكونوا طغاة مستبدين؛ لأنهم يملكون الحقيقة وحدهم فلابد لهم من فرضها علينا، وهم أولياء أمورنا المسئولون عنا، كما كانوا مسئولين عن آبائنا وأجدادنا في العصور الوسطى، وهي في نظر دعاة الدولة الدينية فردوس مفقود يجب أن نسعى للعودة إليه، حتى ننقذ أنفسنا من شرور الحضارة الحديثة»[1].

إن مثل هذه الأفكار الهدامة التي تشيع وتنتشر بين المسلمين وتلقى من أجهزة

---

(١) الأهرام القاهرية في ٣٠ أبريل سنة ١٩٩٧م .

الإعـلام قبـولاً بل رواجـاً هي التي تدعـو إلى أن يتـخلص المسلمـون من هويتـهم الإسلامية، وألا تكون لهم ذاتيتهم التي يعـتزون بها، وهي التي تعمل على أن يتقبل المسلم ـ ولو على المدى الـبعـيد ـ هـذه الأفكار التي تلح على عـقله وإن اصطدمت بإيمانه؛ لأنهـا تنشـر عليه باسم «التـنوير» وهي تضليل لا يحـتاج إلى بيـان ولا إلى برهان.

تاسعًا : ..... أين نحن؟

إن موقف الناس من الأحداث المؤثرة في حركة الحـياة ارتفاعا أو هبوطا، عزة أو ذلة، قوة أو ضعفا، يتمثل في ثلاثة:

١ـ ملاحـق للأحداث، يلهث وراءها وتعـتبـر تصرفـاته رد فعل نحـوها، فـهو مشغـول بما يأتيه منها لا يكاد يبصر غـيرها ولا يستطيع أن ينفذ من خلالهـا ليرى ما تحجبه خلفها من آثام وشرور، وهؤلاء هم عامة الناس.

٢ـ مسـابق للأحداث يتـوقع حصولهـا، ويبني مواقفـه على ألا تمسه بشـواظها ولهبها، فيتجنب طريقها، ويبتعد عن شررها إن كانت ضارة، أو ينتفع بخيرها ويأخذ من ثمارها إن كانت نافعة وهؤلاء قلة.

٣ـ صانع للأحـداث يود أن يحقق لنفسـه أهدافها دون كد أو عناء، من غـير أن يبدو أن الأمر مقصود لذاته، أو أن أحدا سعى إليه أو هدف لتحقيقه، ونكمل حديثنا قائلين:

إن المعول عليه في ذلك بالنسبة لهؤلاء جميـعا هو عملية استشعار الأحـداث عن بعد ـ زماني أو مكاني ـ ومـدى صدق هذا الاستشعـار، المبني على السنن الجارية في خلق الله وفي كونه، وعلى التجارب التاريخية التي تتكرر بصورة من الصور في كثير من الأحيان، وعلى مـعرفة طبائع الشعوب والأمم والمؤثرات التي تؤثر فـيها، وتدفع بها إلى صنع الأحداث أو تلقيها، ومدى ظهور ذلك أو خفائه، حتى يبدو وكأنه قدر من الأقـدار، لا مجال فـيه لصـناعة بشـرية، أو مكيدة دوليـة، وكل ذلك يؤثر في الصنفين الأول الذي يلاحق الأحـداث، والثـاني الذي يسابقـهـا ويحاول أن يتـوقع حصولهـا قبل أن تهب ريحها؛ ليبتـعد عن عواصفها ورعـودها، أما الصنف الثالث

(صانع الأحداث) فإنه صاحب نظرة أبعد، وفكرة أعمق، ورؤية للحياة أشمل، يدرك عوامل التـأثير في الآخرين، ويعلم مـتى يحين قطاف هذه الأحداث وأين. . . ، ولذا فهـو يعلم متى ينطلـق بدعوة من الدعوات، ومـتى يعلو صوته، ومـتى يخف أثره، ومتى يظهر بوضوح على الساحة، ومتى يـكمن خلف الستور. . . فأين موقع الحركة الإسلامية المعاصرة من هذه الأصناف الثلاثة؟

لقد انتقلت الحركة بين هذه الأصناف الثلاثة انتـقالا غير مبرمج، فكانت في بدء ظهورها على الساحة وإعـلان مبادئها، واتساعها وامـتدادها في عديد من المجالات، وكثير مـن المؤسسات، وانتقالها من بلد إلى آخـر، ومن دولة إلى أخرى، كانت في هذا صانعة للأحداث على المسـتوى العام حينا وعلى المستوى الخـاص أحيانا، وكانت المؤسسات الأخرى تحاول أن تلاحـقها أو تسابقها أو توقف جريها وانهمـار غيثها في أودية الناس فلا تستطيع منعها، وإن وضعت عقبات في طريقها.

ثم في نهاية الأربـعينيات ومـا بعدها حتى السـبعيـنيات كانت الحـركة ملاحـقة للأحداث، تـلهث من خلفهـا وتأتيهـا الأحداث بالضـربات من حيث لا تحـتسب، وفقدت روح الاستشـعار ـ أو قل أغفلتها ـ اعتمادا على مـا لها من رصيد في نفوس الجماهير، ظنا منها أن هذه الجماهير درع تقيها الشرور والإيذاء، فأغفلت بذلك تجربة قديمة دون أن تستفيد منها أية فائدة.

لقد سـأل الحسين بن عـلي الشاعر الـفرزدق عن حال الـناس في الشام، فـقال: قلوبهم معك وسـيوفهم عليك، والنصر في السمـاء، وهكذا كانت أغلبية الجـماهير متعاطفة مع الحركـة الإسلامية، دون أن تمد يدا لمناصرتها أو منع الأذى عن أن يلحق بها، اللهم إلا في أقل الأحوال، وتتالت الضربات إثر الضـربات للحركة الإسلامية، وتوالت الفتن عليـهـا من بعض أبنائهـا تارة، ومن المتربصـين بها تارات، حـتى ظن البعض أن الحركة لم تعد تلاحق الأحداث فقط، بل توقفت تماما، وغيبت عن الساحة.

ثم منذ منتصف السـبعينيات وحـتى الآن، والحركة تلاحق الأحداث وتسـابقها، وتحاول ألا تتأخر عن ركبها، فتنجح في ذلك حينا وتخفق أحيانا.

ومن الأهمية التي تأخـذ حكم الوجوب والإلزام أن تظل الحركة الإسـلامية ـ في

الفترة الحالية ـ مسابقة للأحداث على الأقل؛ ليظل لها شيء من الحضور الواعي في الساحة الإسلامية، فلا يغيب دورها الفاعل عن الوجدان، ولا يغيب صوتها عن الآذان، حتى يأذن الله لها بصنع الأحداث النافعة للأمة وللبشرية.

عاشراً: المرأة التائهة والصورة الشائهة:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١) فالزوجية سمة أصيلة من سمات هذا الكون وما فيه، لا تختص بالإنسان وحده ولا بالإنسان والحيوان فقط، وإنما تمتد في عمومها وشمولها إلى كل شيء مخلوق عرفناه أو جهلناه، ذكرناه أو نسيناه. ويأتي الإنسان في مقدمة الأجناس التي تتضح فيها هذه الزوجية متمثلة في الذكر والأنثى أو الرجل والمرأة؛ ليلبي كل منهما حاجة الآخر الطبيعية الفطرية وفق ما جاءت به الشرائع السماوية، التي أباحت لكل منهما الاستمتاع بالآخر في إطار الضوابط والأصول التي ارتضاها الله للناس؛ كي يظل هذا الكون معموراً مأنوساً بهذا (الخليفة) الإنسان الذي جعله الله في هذه الأرض، وبيّن أن عليه عمارتها وبنيانها، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (٢).

وقد مرت علاقات الزوجية بمراحل شتى تسلم ويعم خيرها ويذوق الناس جمالها كلما اقتربوا مما شرعه الله لهم، وتشقى ويعم كدرها كلما ابتعدوا عن شريعة الله، وساروا خلف أهوائهم أو قل: شياطينهم، معصوبي الأعين لا يدركون إلا كل ما هو ماديّ حسيّ نفعيّ، والعلاقات الزوجية اليوم ـ في غير الإسلام ـ كذلك، والسمة الغالبة على غير المسلمين تتحدد فيها مكانة المرأة بمقدار ما تلفت إليها أنظار الرجال، وما تتمتع به من جمال جسدي يثير، ويغري بالرؤية والمشاهدة، ويحقق كثيراً من العائد الماديّ من وراء ما يسند لهذه المرأة من أعمال في مجالات تبرز فيها الأنوثة أكثر من غيرها، وتستفز فيها الشهوة لتدفع نحو المزيد من الاستمرار في الإغراء، وشاعت هذه التقاليد وقبلها العرف العام حتى صارت النساء يسعين بأنفسهن للتكشف والتعري، لعل في ذلك ما يستثير الإعجاب، ويحقق الشهرة، ويلفت الأنظار، وقد نشرت الصحف هنا من أيام قريبة أن الشرطة في كندا تطارد السابحات عاريات

---

(١) الذاريات: ٤٩. (٢) هود: ٦١.

الصدور من كل شيء، ويقـوم هناك نقاش بين الجهـات المختصة بسن القـوانين لترى متى يحق لهذه الفتاة أن تكشف صدرها، أو أن تستره أو بالأصح تستر بعضه بكل ما هو شفاف قد يثير الفضول أكثر من غيره.

وليس حديثنا عن التكشف والتعري في ذاته، ولكنا أردنا أن نقول: إن حضارات الآخرين تنظر إلى المرأة نظرة حسية جسدية لا مـعنى فيها لمعنويات تقوم على التقدير والاحترام لعـجوز مسنة، أو لأم مضحيـة بحياتها في سبيل أبنائهـا أو لابنة مهذبة لا تتاجر بجسدها ولا تفرط في عرضها.

مثل هذه الأمـور غير معـروفة إلا فيمـا شرعه الإسلام، حـيث جعل الأم أحق الناس بالصحـبة، بل هي مقدمـة مرات على الأب، وقد جـاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، من أحق الـناس بحسن صحابتي؟ «**قال: أمك**» قال: ثم مَنْ؟ قال: «**أمك**» قال: ثم مَنْ؟ قال: «**أمك**» قال ثم مَنْ؟ قال: «**أبوك**»[(١)]. وجعل النساء شـقائق الرجال، وجـعل الرجل والمرأة متسـاويين في التكليف والجزاء ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ**﴾[(٢)] ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ**﴾ [(٣)] وألزم الأب بالإنفاق على بناته حتى يتزوجن ولا يتـركهن عرضة للضياع والغـواية، وفي هذا تقدير للمرأة وإعلاء من شـأنها لا تجـده في غيـر الإسلام؛ لأنه يقـدر دورها في استـمرار الحـياة وإعمار الأرض «لقـد أعاد الإسلام للمرأة مكانتها المهـدورة من الأديان السابقة ـ التي اعتـبرتها مـصدرا للخطيئـة، ولذلك عدّت العزوف عن الزواج من المرأة مـثلاً أعلى للعـفـة والرقي الروحي ـ بالحث على الـزواج وتكوين الأسـرة التي تتـفق مع فطرة الإنسان وواقعـه، وحفظ كرامة المرأة ومكانتـها في بيتها وبين أولادها، وأمـر زوجها بالإحسـان إليها وحسن مـعاشرتها، وفي هـذا قمة المساواة بين الرجل والمرأة بمعـايير الفطرة والقدرات المـتوفرة لكل منهـما على العمل داخـل البيت (للمرأة) أو خـارجه (للرجل)»[(٤)] .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨) عن أبي هريرة #.

(٢) النساء: ١٢٤.   (٣) آل عمران: ١٩٥.

(٤) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية. وحيد الدين خان.

لقد مرت المرأة الغربية منذ بداية عصر النهضة ـ كما يقولون ـ بمراحل متعددة، حيث أخرجت من البيوت مع ظهور المصانع وتعددها لأنها أرخص أجراً من الرجل، ثم بعد حين نادت بالمساواة مع الرجل في الأجر، لأنها تؤدي نفس العمل، ولا تأخذ نفس الأجر ثم تطور الأمر فامتدت المطالبة بالمساواة بالرجل من مساواة في الأجر الماديّ على العمل إلى مساواة في جوانب شتى من الحياة، ثم إلى مماثلة في كل شيء تقريباً فاختلط الحابل بالنابل، وصارت الفتاة يتحمل أبوها نفقتها حتى سن معينة، ثم لا شأن له بها تفعل ما تشاء، وتكسب من أي طريق، وتعيش كيفما تعيش، فإذا تزوجت تركت اسم أبيها وانتقل اسمها إلى زوجها، ثم إنها لا حق لها على زوجها ما لم تكن تعمل ـ مع اعتبار أن كل ما يتعلق بشئون البيت ليس عملاً يذكر ـ فلم يعد البيت بعد انتشار المطاعم والمغاسل ودور الحضانة، والعمل في المؤسسات غير مكان يأوي إليه اثنان (زوجان) يقضيان فيه وقتا، وكفى. وكل منهما مشغول بهمومه الخاصة ومشاكل العمل وحساب البنوك وغير ذلك من الأمور.

وإذا عرضت هذه الصورة في بلاد المسلمين لوجدتها صورة دخيلة في كثير من جوانبها، فما زال الآباء يشعرون بواجبهم نحو أبنائهم عامة وبناتهم خاصة في كل بلاد المسلمين لا يتخلون عن مسئولياتهم نحوهن مهما كانت الشواغل، ولم تمر المرأة المسلمة بما مرت به المرأة الغربية منذ قرون من التعرض للعمل لرخصٍ في الأجر، ولم يتخل زوج عن النفقة عن زوجته التي ترعى بيته، وتجعل البقاء فيه أنساً وحبوراً، إلا أن يكون مخالفاً لشريعة الإسلام. فلماذا انتقلت هذه الصورة الشائهة للمرأة هناك إلى بلادنا، وأصبحت مثارة في كل حين وفي كل وقت إن سكنت هنا تحركت هناك؟

ليس في الأمر سرٌّ ولا ضرورةٌ اللهم إلا التقليد الذي لا يضر ولا ينفع، وإلا إثارة الزوابع في مجتمع المسلمين حتى يشغلوا الناس عن همومهم الحقيقية، ومشاكلهم اليومية.

وإلا فقل لي بربك: لماذا لا تثار مشاكل التصنيع في بلاد المسلمين؟ لماذا لا تثار مشاكل التخلف العلمي؟ لماذا لا تثار مشاكل التخلف في الاقتصاد والإنتاج؟ لماذا نظل في بلاد المسلمين مستوردين لأكثر ما يحتاج إليه الإنسان من الطعام والشراب والكساء

والدواء وحتى الأثاث وغيـره من مواد العمران وهذه من الضـرورات التي لا يستغنى عنها؟ لماذا تـظل إسرائيل متـفوقة علينا مجتـمعين؟ لماذا تظل المقـدسات تحت أيدي المغتصبين؟ لماذا ولماذا؟

في فمي ماء، وهل ينطق من في فيه ماء؟

ولكنا نستسهل القضايا،ونسعى إلى ما لا ينفع نترك ما عندنا مما أنزله الله وشرعه ورسوله ﷺ للحفاظ على الذكورة والأنوثة وتكريمهمـا ومراعاة الفطرة في كل منهما. نترك كل مـا ترقى به الأمة من فكر خَلاق وعـمل نافع لنهتم بما يسمى مـشاكل المرأة والكرة وغـيرها مما ليسـت له الأولوية، ونظل نناقش ونناقش دون أن تهدأ الـثائرة أو تغلق هذه الدائرة.

الحادى عشر: مسكينة .. أيتها المرأة:

الحديث عن دور المرأة في صناعة الأمة وتكوين أجيالها التكوين النفسي والتربوي والإعـداد المادي والروحي حـديث ليس بـجديـد، فكل الأمم تدرك هذه المسـؤوليـة الجسيـمة التي تقع على عاتق المرأة، بل إن عبـاقرة الشخصيـات الذين مروا بالتاريخ يذكرون دور أمـهاتهم بالفـضل والتقـدير، فالمخـترع الكبـير أديسون يلخـص المسألة بكلمتين فيقول: «أمي صنعتني».

والحديث عـن دور المرأة في الإسلام حديـث يطول، فلها من التـقدير والحـقوق والمكانة ما يجعـل الآخرين ينكشفون بدعاواهم البـاطلة عن نصرة المرأة، ولا نريد أن نخوض في شواهد السيرة والتاريخ في فضل المرأة وعظم دورها، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يزور قبر أمه ويبكي عليها حباً وتقديراً لها، وكان يذكر زوجه خديجة بالخير بعد وفاتها عرفاناً بدور المرأة الفاضلة التي ساندته في بداية الدعوة كما نذكر له كيف كان ﷺ يبتسم ويقوم مرحباً عندمـا تأتي لزيارته أخته من الرضاعة بنت حليمة السعدية (الشيماء)، فكان يفرش لها «بردته» ويجلسها مكرمة معززة.

وفي التاريخ نماذج لنساء وشخصيات كثيـرة مثل عائشة وفاطمة وحفصة والخنساء ولو سردنا ما قدمته المرأة المسلمة للدعوة وللمجتمع الإسلامي لاحتجنا إلى الكثير من الوقت والمساحة، فالمرأة هي عمود رئيس في صرح الإسلام العظيم، وحفظ المرأة من

الدعوات التخريبية والمشبوهة هو حفظ لهذا الصرح من الهدم، فالمحافظة على هذا الصرح وتدعيمه أمر واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

إن الحفاظ على المرأة مما يريده المتآمرون في حقيقته إنما هو حفاظ على صرح الإسلام التليد، الذي أسسه محمد ﷺ، واستنه صحابته، وتواتر المسلمون على حفظه من سلف وخلف، فاستتم البناء، وسبق الصرح عالياً حتى أظل أقاصي الأرض من حدود الصين حتى هدير المحيط غرب الأندلس، فجنوب فرنسا فأبواب فيينا، مروراً بأفريقيا حتى حدود صحرائها الكبرى وما حولها...

لقد تحفز الأعداء لكي ينالوا من هذا الصرح وتوالت مؤامراتهم عليه حتى اضطرب ركنه وتزلزلت قاعدته وتناثرت محاسنه وشاهت معالمه، بعد أن أصابنا الوهن وغفلنا عما يراد بنا، وتركنا ـ من ضمن ما تركنا ـ المؤامرات التي أحاطت بالمرأة المسلمة وسعت جاهدة للنيل منها ومن دورها الرائد في تربية الجيل المسلم، حتى كاد يتهدم الصرح لولا أن قيض الله للأمة رجالاً أدركوا خطورة ما يخطط ويدبر للمرأة المسلمة وسعوا في الإصلاح وكان رائدهم في ذلك كتاب الله الذي بصرهم بالدور الذي تقوم به المرأة في حفظ تماسك كيان المجتمع، بل ونصرة الدعوة والدفاع عنها.

❖ عندما تصلح المرأة:

والقرآن الكريم يعطينا الدروس والعبر في دور المرأة الحيوي في مجال نصرة الدعوة، والمتأمل في قصة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ يجد العديد من النسوة اللاتي كن سبباً من أسباب التمكين في الأرض، فيعرض لنا أولاً المرأة في صورة الأم، في قصة أم موسى وكيف بدأت رحلة الإيمان بإلقاء موسى بالنهر تنفيذاً لأمر الله: «فإذا خفت عليه وهو في حضنك، وهو في رعايتك، إذا خفت عليه وفي فمه ثديك، وهو تحت عينيك، إذا خفت عليه فألقيه في اليم»!!، فهذه الأم العظيمة لولا ثقتها بالله لم تقدم على هذا العمل التي لا تجرؤ عليه أية أم، ولذلك جاءت بشارة الله لها: ﴿**إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ**﴾ وأيضاً ﴿**وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [١]، فأم موسى سمعت الإيحاء، وألقت طفلها إلى الماء ولعلها سألت نفسها: كيف أمنت على فلذة كبدي أن

---

(١) القصص: ٧.

أقذف بها في اليم؟

كيف تفعل ما لم تفعله من قبل أم؟ كيف طلبت له السلامة في هذه المخافة".

ثم يذكر لنا القرآن المرأة في صورة الأخت، حيث «ذهبت أخته تقص أثره في حذر وخفية، وتتلمس خبره في الطرق والأسواق» وتدل آل فرعون على من يرضعه بعد أن رفض المراضع كلهم، حيث يعود إلى صدر أمه التي زكاها الله وقال لها بعد نجاحها في الامتحان: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] ويؤكد نعمته عليها بقوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

وفي مقطع آخر يذكر لنا القرآن مساهمة المرأة في الإصلاح عندما تكون قريبة من دوائر السلطة، فيذكر لنا زوجة فرعون عندما طلبت من فرعون ألا يقتل الوليد كعادته في قتل مواليد بني إسرائيل الذكور فقالت له: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[3] وهكذا حمت المرأة زوجة فرعون نبي الله موسى الوليد الصغير «بالمحبة ذلك الستار الرقيق الشفيف، لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال، حمته بالحب الحاني في قلب امرأة، وتحدث به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره.. وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف».

وهكذا نجد بصمة للمرأة الصالحة في كل مرحلة من مراحل الدعوة، وفي مقطع آخر من سورة القصص، يعلق سيد قطب ـ رحمه الله ـ على حياء المرأة عندما يعرض القرآن المرأة في هذه المرة في صورة الزوجة عندما جاءت إحدى بنات الشيخ الكبير وهي تمشي على استحياء فيقول: إنها مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلتقي الرجال على استحياء، في غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء، جاءته لتنهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدله يحكيه القرآن بقوله: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[4] فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح.. فالفتاة

(١) القصص: ١٠.
(٢) القصص: ١٣.
(٣) القصص: ٩.
(٤) القصص: ٢٥.

القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، لكن لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب، الاضطراب الذي يطمع ويغري ويهيج، وهذا الحياء هو الذي يمنع المرأة من الاحتكاك بالرجال ولو كان من أجل سقي الماء، فالمرأة العفيفة الروح، النظيفة القلب، السليمة الفطرة، لا تستريح لمزاحمة الرجال، ولا للتبذل الناشيء من تلك المزاحمة.

وهكذا تسرد لنا سورة القصص قصة الطغيان الذي مثله الفرعون في هذا العصر ودور المرأة صانعة الأجيال والأمم في مواجهة هذا الطغيان الذي استمر طويلاً يقتل الأطفال الذكور ويستحيي النساء، خوفاً من أن يسلبه هذا الطفل الذي يتربى على الإيمان والعقيدة ملكه الذي قام على الظلم والجور والعدوان واستباحة الأموال والأعراض والدماء، وهكذا استمرت دورة التنشئة حتى دارت الدائرة،وعاد موسى عليه السلام،ليكمل هذا البناء الذي رعته أمه وزوجه وأخته،ويقوم بواجب الدعوة إلى الله،ويحرر البشرية من ظلم الطاغوت فرعون، وهكذا مثلما يحتاج الفرد إلى تنشئة سليمة، فإن الأمة تحتاج مثل هذه التنشئة، ولذلك حكم الله على بني إسرائيل بالتيه أربعين عاماً، وهي فترة الجيل الكامل؛ لأن هذا الجيل لم يكن مستعداً لدخول الأرض المقدسة لأنه لم يف باستحقاقاتها وهذا ما يجب أن تنتبه له الأمة الإسلامية، فتعمل على حفظ المرأة المسلمة من كل التيارات التي تسعى إلى إفسادها وطمس فطرتها حتى تنجح في مهمتها العظيمة، وهي تربية جيل التغيير، وإن من مبشرات النصر في استعادة فلسطين الأرض المباركة أننا بدأنا نشاهد قصصا رائعة من التضحية والتربية والثبات للمرأة الفلسطينية المسلمة في ميدان العطاء والجهاد.

صورة عن نساء فلسطين الباسلات .. «نموذج أم نضال»:

لله در نساء فلسطين

ابتلين ... . فصبرن ... !

وفقدن ... فاحتسبن ... !

وتعثرن ... فلم يهن ... !

وتعذرن ... . فلم يسألن ... !

لله هن ... وهن بالله ... .ولله ... وأجرهن على الله ... !!!

لا يسعني في مقامي هذا إلا أن أبوح بأبيات . . لا تقال إلا للعظيمات منهن ... فهن الشموس ... وهن ضياء الضياء ... ولواء اللواء ... في العلاء

فَلَــــوْ كَـانَ النِّسَاءُ كَمَـنْ ذَكَــرْنا لَفُضِّلَت النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَــالِ
فَمَـا التَّأْنِيثُ لاِسْـمِ الشَّمْـسِ عَيْبٌ وَلا التَّـذْكِيرُ فَخْــرٌ للْــهِلالِ

وإليكم صفحة وضـيئة من صفحات جهادهن . . أختـصرها من صميم الواقع ... لا من نسج الخيال ... أحكـيها عن سليلة من سليلات المهـاجرات الأوليات ... ووارثة الأنصاريات المناصرات ... ألا وهي «أم نضال» ... !!

أم فلسطينية رقيقة الحال . . . ، رزقهـا الله بثلاثة من الذكور فأحسنت تأديبهم ... وأجادت تربيتهم ...

فهذا أحـدهم يحوط شعلة الحمـاس ... ورمز الجهاد الفلسطيني شـيخ المجاهدين الشيخ أحمد ياسين ... وهو مطلوب هنا ... وهناك ... !!

وهذا الثاني مكبل بالسلاسل والقيود ... في سجون ومعتقلات اليهود.

إذ حكمـوا عليه بالسـجن مائة وعـشرين عـاماً ...وإن شئت فـقل حكموا عـليه الخلود . . في سجونهم الحصينة ... وبالعذاب في نارهم المهينة . . !!

وهذا أحمد أخوهما . .ثالث ثلاثتهم . .وكمال عدتهم ابن سبعة عشر ربيعاً . .

يتوق على صغر سنه للجهاد ليلحق بدرب أخويه وإخوانه من المجاهدين فيقولون له كن في خدمة أمك واستبق نفسك عندها ... ! فتـأبى أمه الشماء العصماء لابنها أن يكون حبيس البـيت حياً كالميت . . يخضع ويذل ... ويساق كـالأنعام وتصيح بالحق، وتفوه بالصدق قـائلة ما معناه :«أن ليس البيت مأواه . . وليس القـعود بثواه . . وإنما مكانه هناك في حلبات الجهاد والاستشـهاد ... يدفع عن أمته عارها ... وعن فلسطين احتلالها ... . ويقصف يهود ... قصف القوارع والرعود ...» ... !!

وكأن جهاد أخويه يناديه:

أَخِي جَاوَزَ الظَّالِمُونَ المدَى فَحُقَّ الجِهَادُ وَحُقَّ الْفِدَا

وها هي أم نضال تلقن ابنها أحـمد دروس الجهاد، وتسقيـه من كأس الشهادة. . وتقيم له حفلاً كـبيراً... كأنه سيتوج أمـيراً وتوزع الحلوى. . . ، وتُعلى الزغاريد... ، ثم يمضي بعدها إلى بؤر الاسـتيطان. . بل بؤر الشيطان. . بؤر من سـرقوا الأرض، وهتكوا العرض... وجرفوا المزارع. . وأهلكوا الزيتون...

فتسلل إلى هناك مستوثقاً بربه، حاملاً زاده وعتاده. . سبع قنابل يدوية. . وست خزائن كلاشينكوف تقريباً... ، وعندما قارب المستوطنة اتصل بأمه. . من محموله. . فهـتفت به. . أن امض إلى ربك. . واستـعن بالله في كل أمرك فـيواصل سعـيه. . ويحطم سواتـر المستوطنة في بسـالة ونبالة وحب للشـهادة يعيـد به سيـرة المجاهدين الأولين . . كأنما يهتف بمن وراءه:

سَأَحْمِلُ روحِي عَلَى رَاحَتِي وَأَمْضِي بِهَا فِي سَبِيلِ الرَّدَى
فَإِمَّا حَيَاةٌ تَسُـرُّ الصَّدِيـقَ وَإِمَّا مَمَـاتٌ يَغِيـظُ الْعدَى

ثم يقـتحم المسـتوطنة...ويتـصل على أمه. .بأني على أبواب بؤرة الشـيطان. . فـتصـيح به...أن امض أمـامك. .وزد في إيمانك ولا تلتـفت القـهقـرى...ولا تنظر للوراء... فالجنة موعدنا. .والله جامعنا...في رحبة فضله ومستقر رحمته ـ بإذن الله.

فينقض على المعتدين الآثمين من أبناء القردة والخنازير في شجاعة علي. . وثبات عمر. . ويقين أبي بكر... وبسالة عـثمان فيقتل اثنين. . ويصيب أكثـر من ستة عشر يهودياً آثماً... نحسبه شهيداً مجـيداً خالداً ممجداً عند ربه في مقعد صدق... ورحاب حق... وكأنما وفى بعهد الله كـما قال الله تعالى: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾**[1] .

❖ المرأة الكويتية ... تلك المظلومة:

وقد يستغرب كثير من القراء لهذا العنوان، وخاصة وهم يرون المرأة الكويتية وقد نالت حظاً وافراً من التـعليم ودخلت سوق العمل، وتعـيش في طفرة مادية تحـسدها عليهـا كل نساء الأرض، بالإضافة إلى جـيش الخادمات الذي ملأ بيـوت الكويتيين، دون أن ينظر إلى الصورة المقابلة لهذه الصورة التي تعلق بذهن الكثيرين منا . .

(١) الأحزاب: ٢٣.

فالمرأة الكويتية عندما دخلت سوق العمل وحققت نوعاً من الاستقلال المالي، صارت فيما بعد وخاصة المتزوجة مطالبة بأن تتحمل جزء من الأعباء المادية مع الرجل في توفير احتياجات المعيشة للبيت والأبناء، بل إن بعض الرجال لا يتورعون عن أخذ كل مرتب الزوجة دون أن يشاركها في مسؤوليات وهموم البيت والأولاد، فأصبحت الزوجة تعمل داخل البيت وخارج البيت فزادت أعباؤها والتزاماتها الأسرية والوظيفية دون أن يزيد ذلك من أعباء الرجل داخل المنزل، فهي التي توقظ الأطفال من النوم وتتولى رعايتهم وتقديم طعام الإفطار لهم، ثم تذهب بهم إلى المدرسة، ثم تذهب إلى مقر عملها، وبعد يوم متعب تعود وسط الزحمة والإرهاق لتأخذ الأولاد إلى المنزل، وربما جمعتهم من أكثر من مدرسة، فتشرف على تقديم طعام الغذاء، ثم على راحتهم، ثم بعد ذلك تعود في نصف اليوم الثاني لتقتسم وقتها ما بين تدريس الأولاد، وقضاء حوائج البيت وما إن يأتي المساء حتى تكون قد شارفت على الانهيار.

وهكذا يستمر عملها طوال الأسبوع مما يعجل لها بالشيب المبكر والتعب والأمراض، وربما بالتنكر لها في آخر عمرها ورميها في دار العجزة، بينما يصر بعض الرجال على التخلي عن مسؤولياتهم، وربما قضوا الوقت بالساعات بالديوانيات والمقاهي والسفر وصيد السمك، نحن لا نقول كل الرجال، ولكنها ظاهرة تدفع المرأة الكويتية ثمنها من شبابها وصحتها وعمرها، حتى لقد ذكرنا هذا الجهد بقصة «الحصاية» التي يعرفها الجيل القديم عندما كانت بعض التجمعات السكانية التي تعيش في منطقة الحدود الكويتية العراقية، حيث كانت النساء تعمل في جمع الحصى حتى تأتي الشاحنات لتحمله، فكانت تلك النسوة يعملن في جمع الحصى، وفي تسوية بيت الشعر والطبخ وحلب الغنم وذلك من الصباح حتى المساء، بينما يكتفي الرجال بشرب الشاي والتدخين وفتل الشوارب، وما أرى واقع بعض الكويتيات الآن إلا تكرارا لهذا الجور الذي أصاب «الحصايات» ولكن بأسلوب عصري «ذرب».

إن المرأة الكويتية تدفع ثمن غلاء المهور الفاحش بحيث أصبحت نسبة العنوسة في المجتمع الكويتي مرتفعة جداً، وبلغت النساء الطاهرات العفيفات اللواتي بقين بلا زواج بعشرات الألوف، ورغم الوفرة المادية التي تعيشها المرأة الكويتية وتحسدها عليها نساء الأرض إلا أن الحرمان من تكوين الأسرة، وتحقيق الإشباع النفسي والعاطفي

جعلنا نقول؛ إن المرأة الكويتية هي المرأة المظلومة الساكتة.

وماذا عن حالات الطلاق المرتفعة؟ وماذا عن الجور الذي يمارسه بعض الآباء والأزواج تجاه تلك المرأة؟ وكيف تضيع المرأة ترتيب أولوياتها؟ بحيث نرى بعض النسوة شغلن أنفسهن بدخول المعترك السياسي ـ وكأن المعترك السياسي ناقص ـ وتنسى أولويات في غاية الأهمية في حياتها، وتنسى تكاليفها الصعبة للغاية التي تريد منها أن تكون في النهار موظفة منتجة وذات دخل محترم، وفي وسط النهار مربية ومعلمة وربة منزل وطاهية من الدرجة الأولى، وفي آخر النهار ملكة جمال تستطيع أن تشبع ذلك القادم من ثرثرة الديوانيات في آخر الليلة.. حقاً إنها مسكينة، فهي المرأة التي يطلب منها أن تكون موظفة وسائقة ومشرفة اجتماعية ومعلمة وسكرتيرة وحارسة للمنزل، وممرضة للأطفال، وطاهية، ومسئولة مشتريات، وحاضنة وربة بيت وأم وزوجة، فالكل يطلب منها شيء.

زَوْجُك يُرِيدُك قَوِيَّة وَرَبُّك يُرِيدُك تَقِيَّة
شَيْخُك يُرِيدُك نَقِيَّة وَأَهْلُك يُرِيدُنَك غَنِيَّة
جِيرَانُك يُرِيدُنَك سَخِيَّة وَالأَطْفَالُ تَذْهَبِينَ بِهِمْ لِلْجَمْعِيَّة

❖ مكرُ الليل والنهار:

لقد أدرك أعداء هذه الأمة خطورة المرأة وعظم دورها في تكوين الأجيال المسلمة القادرة على نصرة أمتها وتحقيق الآمال وصناعة النهضة الحضارية، والحفاظ على الهوية الإسلامية، فسعوا إلى توجيه سهامهم وضرباتهم المتوالية والشديدة من أجل انحراف المرأة عن الدور العظيم والهام الذي أسنده لها الإسلام، فقاموا بمكرهم ليلاً ونهاراً من أجل إفساد المرأة المسلمة وتغريبها وتذويب شخصيتها ومسح هويتها، والحديث عن حركة تحرير المرأة في وطننا العربي مكرر ومعروف ومعروفة هي شخصياته وأدوارهم فيها منذ كتاب: «المرأة في الشرق» لمرقص فهمي المحامي الذي دعا فيه إلى القضاء على الحجاب وإباحة الاختلاط وتقيد الطلاق والتعدد، ثم تبعه قاسم أمين بكتاب «تحرير المرأة»، ثم «المرأة الجديدة» وصدور مجلة: «السفور» أثناء الحرب العالمية الأولى، وقد أدرك الغرب ضرورة دعم هذه الحركات ونصرتها، فقام

الإنجليز أثناء وجودهم في مصر ـ بترجمة كتاب: «تحرير المرأة» إلى الإنجليزية ونشروه في الهند والمستعمرات الإسلامية، مما حدا إلى بعض المخلصين إلى التنبه إلى خطورة الأمر مما دعا الاقتصادي المصري الشهير طلعت حرب إلى إصدار كتاب: «تربية المرأة والحجاب» رداً على قاسم أمين قال فيه: «إن رفع الحجاب والاختلاط كلاهما أمنية تتمناها أوربا».

لقد ساهمت حركة «تحرير المرأة» كما يسمونها في النهاية إلى إيجاد القابلية وتهيئة الجو أمام الغزو الثقافي الغربي، وإدخال نظام التعليم المختلط في المدارس والجامعات، وتمييع أحكام الشريعة، وإدخال المجتمعات الإسلامية في دوامات من القلق والانحلال والتفكك والضعف الأسري.

كما مارست المؤتمرات الدولية منذ عام ١٩٤٨م دورها المشبوه عندما أعلن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وخرج موضوع الأسرة والمرأة كقضية عالمية، ثم حاولت عقد مؤتمر آخر عام ١٩٥٠م تصدرت له الحكومة المصرية أيام الملكية، ثم أعيد طرح الموضوع في مؤتمر المكسيك عام ١٩٧٥م حيث تمت الدعوة فيه إلى حرية الإجهاض للمرأة والحرية الجنسية للمراهقين، وقد أخفق هذا المؤتمر أيضاً، ثم عقد عام ١٩٨٥ مؤتمراً آخر في نيروبي، ثم مؤتمر القاهرة للسكان والتنمية عام ١٩٩٤، ثم مؤتمر المرأة في بكين عام ١٩٩٥، وهي كلها مؤتمرات تصر وتؤكد على اهتمام المنظمين لهذه المؤتمرات على فرض صورة محددة لهوية وشخصية المرأة وضرب وطعن كل الثوابت الموجودة في المجتمعات الأخرى التي لا تتفق مع هذه الصورة المنشودة، وقد لاقت بعض هذه المخططات نجاحاً محدوداً وبعضها الآخر نجاحاً كبيراً، مما جعل الحصاد مريراً من أمثال تلك الدعوات المشبوهة.

❖ ثمار مريرة:

ولقد ولدت حركة «تحرير المرأة» كما يزعمون والمؤتمرات التي انعقدت هنا وهناك تأثيرات لا يستهان بها في هويات المجتمعات، وبنيتها الاقتصادية والاجتماعية والتربوية، وكان لهذه الحركات ثمار مريرة بعد أن أطلقت العنان للمرأة لكي تفعل ما يحلو لها دون قيد أو ضابط، حتى لو كان قيد الأخلاق والقيم الرفيعة التي أجمعت عليها البشرية منذ بداية تكوين التجمعات البشرية على هذا الكوكب.

إن إحدى النتائج المدمرة لتلك الدعوى تحويل المرأة إلى سلعة في سوق

الاقتصـاد، تعرض للبيع والشراء سواء كان ذلك حـقيقة أو مجازاً وخـاصة في سوق صناعة الجنس، حيث تشـير الإحصائيات إلى وجود مـا يقارب ٢٠٠ ألف امرأة يتم تهريبهن كل عام من أوربا الشرقيـة إلى أوربا الغربية للعمل في تجارة الرقيق الأبيض، بل إن الإدارة الدولية للهجـرة، نشرت تقريراً يتضمن الإمسـاك بحوالي نصف مليون امرأة سنوياً تنتـقل في أوروبا كبضاعة رائجـة، كما أعلن خبـراء في الأمم المتحدة أن تجارة الرقـيق تحتل المرتبة الثـالثة عالمياً في الأنشطة غـير الشرعـية الأكثر مـردوداً بعد تهريب المخدرات والأسلحة، حيث بلغت سبعة مليارات دولار في السنة.

هذه بعض جوانب الحياة المأزومة التي تعيشها المرأة في الغرب بسبب هذه الدعوى الماكرة البراقة المظهر التي كلفتها الكثير، بل إن ما تعتقده المرأة مكسباً في الظاهر، عند التمعن فـيه نجد أنها تدفع ثمنه بطريقة أو بأخـرى، فدور الأزياء والزينة والموضة التي تحرص المرأة على مـتابعتهـا باعتبارها إحـدى الوسائل التي تجعل المرأة امرأة عـصرية متحضرة وجميلة في أعين الآخرين، هي في الحقيقة سلسلة من العذاب للمرأة، فهي في سبيل متابعة آخر صيحات عـالم الأزياء تنشغل عن كثير من الأمور الهامة والجادة في حياتها، فـتهمل الأولاد والاهتمام بهم ومتـابعة احتياجاتهم، كـما إنها ترهق إما ميزانيتها أو ميزانية أسرتهـا في الإنفاق على هذه المظاهر، كما أنها تقلق وتتعب نفسياً عندما ترى امرأة أجمل وأكـثر أناقة منها، وقد تتأزم عندما تكون مـتزوجة وتخاف أن ينظر زوجهـا إلى خارج بيتهـا بسبب كل هذه المغريات الموجـودة في الشارع، بل إن دراسة علمـية أجـرتها جـامعة تورنتـو بكندا أظهرت أن الـنساء الكنديات وبخـاصة المتزوجات يـعانين من الاكتئـاب وتدني معنوياتهن، وقد شملت عـينة الدراسة ١١٨ طالبة جامعـية حيث كان استجابتـهن للبحث أنهن يشعرن بالاكتئـاب والعدوانية تجاه الآخرين خاصة بعد مشاهدة ما يعتقدن أنها نموذج المرأة المثالية في إعلانات الأزياء.

وماذا عن الاعتـداءات المتكررة على المرأة ففي الولايات المتحدة باعـتبارها نموذج ومحضن مثالي لحركة تحرير المرأة؟ دعوا الأرقام التالية تتكلم:

ـ في كل دقيقة يتم ضرب خمس نساء في أمريكا، أو ٢٤٠ امرأة كل ساعة**!!**

ـ في كل خمس سنوات يقتل العنف الأسري ما يعادل مجموع الأمريكيين الذين قتلوا في حرب فيتنام.

ـ ١٠٠ألف امرأة تنام في المستشفيات كل عام نتيجة العنف الأسري.

ـ تبين أن كثيرًا من النساء اللواتي يراجعن أقسام الطوارىء في المستشفيات الأمريكية كان بسبب الضرب المؤذي المستمر.

ـ تخسر أمريكا كل عام ما قيمته ٥ مليارات دولار نتيجة الغياب عن العمل الناتج عن الضرب.

ـ تصرف الولايات المتحدة سنوياً **١٠٠** مليون دولار كفواتير لأطباء المعالجين لحالات الضرب.

ـ خصص الرئيس الأمريكي الأسبق كلينتون مبلغ ١,٦مليار دولار لقانون مكافحة العنف المنزلي لتعويض النساء، وتأمين بيوت وملاجئ سكن لهن.

وبعد هذا هل تحسنت أحوال المرأة؟

تمثل المرأة **٧٠** ¥ من **٩٠** مليون أمي في العالم.

تمثل المرأة **٧٠** ¥ من فقراء العالم.

تشغل المرأة **١٠**¥ فقط من المقاعد البرلمانية **٦**¥ من المناصب الوزارية.

❖ مؤشرات العودة إلى الفطرة:

إن عقلاء الغرب بعد هذه التجربة المريرة خلال القرن الماضي أدركوا كم كانت ساذجة تلك الدعوى المخادعة، وهناك حركات اجتماعية بدأت تعي خطورة ما آل إليه وضع المرأة ، ومن هذه الحركات حركة اجتماعية ظهرت في الولايات المتحدة، وصل عدد أعضائها حتى الآن أكثر من ربع مليون شاب وفتاة يجمعهم هدف واحد: الحفاظ على العفة، وقد حرصت إحدى عضوات الحركة وهي الفرنسية «كارين» قائلة: «إن الحفاظ على العفة ليس خروجاً على الطبيعة، فقد كان هذا الأمر سائداً في زمان أجدادنا ولم يكن يشكل صدمة لأحد، ونحن في هذه الحركة الجديدة نريد وضع علاقة المرأة بالرجل في إطارها السليم وهو الزواج».

أما الحركة الجديدة الأخرى فهي حركة «النساء المستسلمات»، وهي حركة تقف خلفها سيدة أمريكية تدعى «لورا دويل» وتهدف إلى إقناع النساء الأمريكيات بطاعة أزواجهن.

المبحث الخامس

السعـــــادة

أولا: خطوات على طريق السعادة:

١ - الإحساس بآلام الآخرين:

الإنسان اجتـماعي بالطبع. هكذا قال العلامة ابن خلدون، والمقـصود أن الإنسان بطبعه لا يستطيع أن ينعزل عن الآخرين كل الوقت. إنه يعيش في جماعة تجري عليها سنن الله في خلقه، ففيهم الضعيف والـقوي، والفقير والغني، والمريض والصحيح، والعاجز والقـادر. وهذه الجماعة كالجسم الإنساني، تعمل الأعضاء القـوية فيه على حماية الأعضاء الضـعيفة، ويمد كل جهاز في الجسم بقية الأعـضاء بما تحتاجه منه من عناصر، بل ويتألم الجـسم كله إن جرح أحد أعضائه أو أصـابه مرض أو تلف، وقد بيّن ذلك رسول الله ﷺ في قوله: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمـهم وتعاطفهم كـمثل الجسـد الواحـد إذا اشـتكى منه عـضـو تداعى له سـائر الأعـضـاء بالسـهـر والحمى**»(١). ومثل هذا الترابط القـوي لا يتحقق لو فقد الناس الإحـساس بالآخرين والتفاعل معـهم، ومحاولة مدّ يد العون إليهم، والتخـفيف من آلامهم ولو كان ذلك بأن تعود مريضًـا، أو تدعو لمكروب، فما بالك بمن ينفّـسون كرب الناس وينزلون في قلوبهم الفرحة والبهـجة حين ينقذونهم من البلاءات التي وقعوا فيـها، وكادت تأخذ بخناقهم، فيلمـسونها بيدٍ حانية، وكلمـة طيبة: «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيـا، نفس الله عنه كـربةً من كرب يـوم القيـامة، ومـن يسّر على مـعـسر يسّـر الله عليه...**»(٢). الحديث.

إن هذا الإحسـاس بالآخرين يدفع الإنـسان إلى التفـاعل الإيجابي لحـمل بعض المسئوليـة عمن أرهقتهم أو عمن لا يستطـيعون حملها، أو عمن يفـرون من حملها، فينسد الخلل ويلتئم الصف، ويستمر الـسير الناهض في طريق الحياة، حتى ولو تأخر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٦) وأحمد (٤/ ٢٧٠) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأحمد (٢/ ٢٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

قليلا، إلا أنه لا يتوقف.

والإنسان الإيجابي، هو الذي يرى الخلل فيسده، والإهمال فيصححه، والفساد فيصلحه «**وتميط الأذى عن الطريق صدقة**»(١)، إن نصيحة صادقة قد ترشد ضالاً، وكلمة بسيطة قد تمنع جريمة، وفعلا صغيراً منك قد يزيل حقداً ويزرع حبًا، ويصنع بين الناس شبكة من التآلف والتعاون، وأنت بذلك تحقق ذاتك، وتحقق للآخرين نفعًا، وتزيل عنهم ضرراً وشرّا، ولن يكون ذلك قبل الإحساس بهم والتفاعل معهم ومشاركتهم فيما هم فيه.

٢ ـ تعلم حب الغير:

كما يشعر الإنسان بالضيق وربما بالغضب من شخص بعينه أو موقف بذاته، فإنه كذلك يشعر بالرضا والسرور من شخص آخر أو موقف معين أرضاه وأسعده، وكثير من الناس لهم منّة عليك، حتى ولو كانوا أعداء ظاهرين، حيث يحترز المرء منهم، ويصون نفسه من أذى ألسنتهم وأيديهم، ومن هنا كانت نظرة ذلك الشاعر القديم الذي قال:

عدَاتي لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَمِنَّةٌ فَلاَ أَذْهَبَ الرَّحْمَانُ الأعَادِيَا
هُمُو بَحَثُوا عَنْ زَلَّتِي فَاجْتَنَبْتهَا وَهُمْ نَافَسُونِي فَاكْتَسَبْتُ المَعَالِيَا

وغير الأعداء من الناس لهم أفضال لا تحصى، ففضل الوالدين والأقارب والجيران والأصحاب غير منكور في حياة الناس، ولكنهم قد ينسون معلمًا أنار لهم العقول، وفتح لهم باب المعرفة، وقد ينسون طبيبًا شخص لهم الداء وأعطى الدواء، وأزاح آلام الشقاء، وقد ينسون خادمًا أعدَّ لهم الطعام ونظّف المكان، وقد ينسون كثيراً من الناس قدموا لهم بعض الخير في بعض مراحل الحياة، ولو أن الإنسان حاول أن يتذكر بعض مَنْ قدموا له خدمات في حياته لتذكر كثيرين، ولو أنه عايش الاهتمام بهم وحاول أن يرد إليهم بعض جميلهم لعاش لحظات سعيدة، وشعر في قلبه بشيء من السكينة، ورد عن نفسه عادية الحقد والكراهية . . إنّ تَذَكُّرَ الأفعال الحسنة من الآخرين كفيل بأن يقيم رابطة معنوية بينك وبينهم، وكفى بالحب بين الناس رابطة،

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وأسمى أنواع الحب وأبقـاها وأدومها الحب فـي الله، الذي هو علامة كـمال الإيمان: «**من أحب في الله، وأبغض في الله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»(١).

وكثـيرًا ما كـان الصالحون المصلحـون يتذكرون إخـوانهم على البعـد فيسـعدون ويسرون، ويـدعون الله أن يديم هذه السـعادة، سـعادة المحبـة بين أهل الخيـر وأهل التقى: « **اللهم إنك تعلم أن هذه القلوب قـد اجتـمعت على مـحبتك، والتـقت على طاعتك، وتوحدت على دعوتك، وتعاهدت على نصرة شريعتك، فوثق اللهم رابطتها وأدم ودها، واهدها سـبلها، وامـلأها بنورك الذي لا يخبـو، واشرح صدورها بـفيض الإيمان بك، وجمـيل التوكل، وأحيها بمـعرفتك..**» ولعل هذا التذكر لما فـعله الخيّرون معك من معـروف مدعاة لتذكر آلاء الله عليك ونعمـه التي لا تعد ولا تحصى، وهذا قد يكون بـعض أسرار التفكيـر في آلاء الله وآياته في السمـوات والأرض، فكم من نعمة له علينا لا ندرك كنهها ولا نفقه سرها، ولا نقدرها قدرها، لا نستثني من ذلك أحدًا من الناس إلا قليلاً ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ...**﴾(٢). أرأيت شيئًـا حولك مما خلق الله في السموات والأرض لا نفع فيـه للمخلوقات جميعهـا فضلاً عن الإنسان ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(٣). وقد كـان بعض المشهود لهم بالـصلاح والتقـوى إذا أصابته ضَـرَّاء أو بأساء نظر إلى بعض ما يدرك من نعم الله حوله فعدد منها ما يستطيع دلالة على رضاه بقضاء الله، وإدراكـه لامتنان الله عليـه، وإحسـاسه بـوجوب الحب لله الذي يعطي ولا يأخـذ، ويطعِم ولا يطعَم، ويخلق ويرزق ويبرئ من الأسقام ويزيل الكروب والآلام، ويحيي ويميت، وله كل شيء، وليس لغيره شيء، فيتـجه بالشكر لله، ويعيش أسعد لحظات الحيـاة، غير ناظر في بليّـة ابتلى بها وإنما مـتفكر متـدبر في نِعَمٍ عظيمـة أحاطت به وسُبِغت عليه، وعليه أن يشكر ربه عليها ليستبقيها ويسعد بدوامها.

والذي عرف نعم الله فلم يجحد، وشكر فضل الله ولم يبطر أو يتكبر، لا بد أن يعرف فـضل كل من أسدى إليه يدًا، وقـدم إليه جميـلاً، ولو عاش الإنسان متـذكرًا لهؤلاء ولأعمالهم مـحاولاً أن يشكر لهم فضلهم ولو بدعوات صالحـات لاستصحب

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، عن أبي أمامة رضي الله عنه ، وصححه الألباني.

(٢) سبأ: ١٣. (٣) الجاثية: ١٣.

السعادة، وعاش في سكينة وسلمت نفسه من الكروب، وربما صح جسده ولم تصبه أسقام أو آلام؛ لأن نفسه امتلأت بالحب والشكر والعرفان فسلمت،وصحت ففاضت على الجسم سلامة وصحة.

إن رسالة صغيرة تكتبها لشخص له عليك منّة من أي نوع ولو لم تعدْ لَكَ به صلة الآن كفيلة بأن تخرجك من عالمك الصغير المحدود إلى مجال أرحب وأوسع فتنسى بعض همومك، وتدخل السرور على نفسك أولاً وعلى غيرك ثانيًا، ولعل هذا كذلك يكون بعض السر في قول رسول الله ﷺ: «**وجُعلَتْ قرة عيني في الصلاة**»(١)، إنها مناجاة لله يخرج الإنسان بها من عالم الأرض والسماء إلى عالم لا يعلمه إلا الله، فيرضى ويسعد وتقر عينه بعد أن سبح لله وكبر الله وتلا آياته، وغاب بتفكيره عما حوله من الدنيا؛ لأنه يفكر في خالق السموات، رب العالمين وفي كتابه المبين، يقدم على الله في صدق فيقدم الله عليه،وفي الحديث القدسي: «**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ، ذكرته في ملإ خير منه، وإن تقرب مني شبراً، تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً، تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة**»(٢). وكفى بهذا سعادة وكفى به حبورًا، ونعود فنقول: لعل هذا كان بعض السر وراء قول الرسول ﷺ.

إن إدراك نِعَمِ المنعمين وتذكرها، وإسداء الشكر عليها بطريقة أو بأخرى ترياق من هموم الحياة وقضاء على الخلل النفسي، وباب واسع من أبواب السعادة لا يدخله إلا الأقلون. فهل أنت منهم؟ إن لم تكن فلا تقنط ولا تيأس، ﴿**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾(٣). وما عليك إلا أن تضع قدمك على هذا الطريق وستصل إن شاء الله إلى أن تتذوق بعمق حلاوة السعادة في كل الحالات، وسترى في كل ضراء أو بأساء تلقاها في الحياة خيرًا،وستقول دائمًا. ﴿**وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾(٤). ﴿**فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾(٥). فهل تبدأ السير معي؟.

---

(١) أخرجه النسائي (٣٩٥٠)، وأحمد (١٢٨/٣)، والحاكم (٢/ ١٦٠) وابن أبي عاصم في الزهد (٢٣٥)عن أنس رضي الله عنه ، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) يوسف: ٨٧. (٤) البقرة: ٢١٦. (٥) النساء: ١٩.

٣ـ إحسان العمل:

من قديم قال الشاعر العربي:

تَمُوتُ مَعَ الْـمَرْءِ حَاجَاتُهُ وَحَاجَةُ مَنْ عَاشَ لاَ تَنْقَضِي

أي إن الإنسان تظل أمامه مطالب يريد إنجازها حتى لحظاته الأخيرة فوق الأرض، بل إنه بعد أن يفارق الحياة يكون قد ترك خلفه بعض الأعمال التي تحتاج إلى من يقوم بها نيابة عنه، فالأعمال أكبر من الأوقات، ومهمة الإنسان أن يختار من الأعمال أعمها نفعًا، وأدومها بقاءً، وأبعدها عن الفساد والشر، وأن يجعل من هذه الأعمال غاية في ذاتها، بحيث تخرج من بين يديه في غاية من الإحسان والإتقان، لا يجد مستزيد فيها مجالاً لزيادة، ولا يجد ناقد فيها موضعًا لنقصان، وفي الحديث: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**»(١).

وهل يتحقق إتقان بدون معرفة جزئيات هذا العمل التي يتألف منها؟ وهل يتحقق إتقان عمل بدون الاستغراق فيه وإعطائه الوقت المناسب؟ وخير للإنسان وللمجتمع أن ينجز عملاً جيدًا يفيد ويغني عن غيره في مجاله من أن ينجز أعمالاً عديدة، سمتها التشويه، وصفتها النقصان، يراها الرائي فيعدد احتياجاتها حتى تكون على النحو المطلوب، إن مثل هذه الأعمال تأخذ جهودًا عديدة، وقد يكون نفعها غير مواز لما بذل فيها من جهود.

إتقان العمل ضرورة حياتية لكل إنسان يبتغي النجاح في الحياة، فإذا استصحب هذا المتقن لعمله الأمانة في المحافظة عليه، والحرص في وصول نتائجه وثمراته إلى المستحقين، كان هذا قمة في الأداء، تحقق لصاحبها سعادة كبيرة ينسى بها آلامه ومعاناته والمشاق التي تحملها في سبيل هذا الإتقان.

أرأيت الطبيب الذي يتقن عمله كم يحبه الناس ويثقون به، ويسألون عنه إن غاب، وينتظرون عودته؟ أرأيت المعلم الذي يتقن عمله كم يحترمه طلابه ويثني عليه أولياء أمورهم ويقدره زملاؤه ورؤساؤه؟

أرأيت إلى السياسي الذي يرعى مصلحة شعبه، ويعمل على تحقيقها، ويحول

---

(١) شعب الإيمان للبيهقى(٥٣١٣، ٥٣١٤) عن عائشة رضي الله عنها وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٨٠).

بينهم وبين المشقات والمصاعب كم يحبه الشعب؟

وهكذا في كل عمل يسند إلى شخص من الأشخاص، فاحرص على إتقان عملك ولو لم يشكرك عليه أحد، ولسوف ترى ـ حين يصبح ذلك عادة لك ـ أنك حققت لنفسك ما لا يمكن تحقيقه لو أنك اشتغلت بأعمال كثيرة لم تتقنها، فالناس يستهويهم الجمال، والإتقان جزء من الجمال، والإهمال والفوضى ضرب من التشويه والنقصان، فاسع نحو الجمال والكمال، واترك الإهمال والكسل والنقصان تسعد في الحياة وتنل احترام الآخرين في كل حين.

٤ ـ أن تشعل شمعة خير من أن تلعن الظلام:

المصالح بين الناس متشابكة، والأعمال التي بينهم ـ في كثير من الأحيان ـ متداخلة. ولو نظرت إلى أي شيء مما يغطي بعض حاجات الإنسان لوجدت أن أيادي كثيرة قد شاركت في إعداده حتى يتم الانتفاع به على النحو المطلوب، وهذا ما جعل شاعرًا قديمًا يرى أن الناس في خدمة بعضهم بعضًا وإن لم يشعروا بذلك فقال:

النَّاسُ لِلنَّاسِ مِنْ بَدْوٍ وَحَاضِرَةٍ ... بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ

والناس جميعا ليسوا على مستوى واحد من الفهم والعمل والإتقان والإجادة، وقد تجد بينهم المقصرين وقد تجد المهملين الكسالى، وقد تجد من لا يحسنون عملاً، ولا يفقهون قولاً، وبدلاً من أن تضيق بصنيعهم، وتبتعد عن طريقهم، ولا تشاركهم في أعمالهم، بدلاً من ذلك، فإن عليك أن ترشدهم إلى الخير، وأن تعلمهم كيف يعملون، وأن تعمل أنت ما تستطيع عمله، وأن تقدم لهم النموذج والقدوة، وأن تشكر الله أن جعلك عاملاً وسط الكسالى، مجدًا وسط المهملين، ولذا فلا تعرض عنهم، ولا تهمل رعايتهم، ولا تتأخر في نصحهم وتعليمهم ومعاونتهم ما استطعت إلى ذلك سبيلا. إن القرآن يقص علينا قصة رجل آتاه الله الملك فشرّق في البلاد وغرّب، وآتاه الله العلم والحكمة فعمل بها وسط قوم لا يعلمون ولا يبينون، ولا يجيدون عملاً، لقد قام بواجبه نحوهم فساعد وأعان وعمل وعلم، وحمى وقوى، إنه ذو القرنين الذي قص القرآن قصته ومنها: ﴿**قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا . قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا . وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ**

صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾(١).

ومنها وهو شاهدنا من ذكره ودلالة على عمله قول الله: **﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا. قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا. قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا. آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا. فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا. قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾** (٢).

إنه ـ وهو القوي ـ لم يتخل عن هؤلاء المستضعفين، ولم يعرض عنهم، بل أعانهم ـ بغير أجر ـ وأخذ بهم إلى العمل، حتى يتركوا ما هم فيه من سلبية، وحتى يتدربوا ليعملوا بأنفسهم لأنفسهم بعد ذلك.

إن هذا النموذج الرفيع في دنيا الناس الذي يقصه القرآن الكريم هو ما ينبغي أن تتخذه لنفسك أسوة، وأن تتخذ من عمله لك مسلكًا، ومن إقباله على غير القادرين ومعاونته لهم مجالاً تبرز فيه همتك، وتظهر فيه شكرك لله على نعمه، فلا تمن على أحد بما عملت، ولا تؤذ أحدًا بما صنعته له؛ لأنك تعلم أن هذا الذي تقوم به من نعم الله عليك، وأنت مأمور بإظهار نعمة الله، وإشاعتها بين الناس «**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**»(٣) إنك إن فعلت، فإن سعادتك حينئذ تكون عظيمة وراحتك من متاعب الحياة اليومية تغنيك عن شكر الآخرين وثناء المادحين، وذم المغرضين.

هذه بعض خطوات على طريق السعادة التي ينشدها كثير من الناس في الحياة، أردنا أن نضعها بين يديك.

٥ ـ منكدات سياسية:

تكاد الانقلابات العسكرية تقتصر على البلاد الإسلامية، حتى أصبحت إحدى السمات البارزة في كثير من بلاد العالم الإسلامي منذ الأربعينيات من القرن العشرين وإلى ما شاء الله، وقد كنا نظن أن هذه الظاهرة ستتلاشى مع نهاية القرن العشرين،

(١) الكهف: ٨٦، ٨٧. (٢) الكهف: ٩٣ ـ ٩٨.

(٣) الضحى: ١١.

نتيجة كثير من التطورات الدولية، ونتيجة انتشار الفكر السياسي وبلورة الفكر الاستراتيجي، وإجماع كثير من العارفين على سلبيات الحكم العسكري وأضراره في كثير من البلاد حيث لا يحقق غير الهزائم، ولا يثمر إلا الديكتاتورية البغيضة، ولا يجلب للشعوب إلا الخلافات والتمزقات الفكرية، التي قد تتبعها تمزقات مادية بوسائل عسكرية لا تثمر غير دمار العمران وإزهاق الأرواح؛ لهذا كله كنا نظن أن ظاهرة الانقلابات العسكرية في البلاد الإسلامية ستنحسر عما قريب، بل ستزول من الوجود، لتحل محلها وسائل أكثر أمنًا، وأنفع للناس، ولكن يبدو أننا كنا متفائلين أكثر مما نظن، فها هى ذي إحدى كبريات الدول الإسلامية يحدث فيها هذا الانقلاب العسكري، ولم يبق على نهاية القرن العشرين غير أشهر معدودة، يحدث ذلك لإثبات التخصص الذي امتازت به بعض البلاد الإسلامية، ولرد الظنون المتفائلة على أصحابها، ولدفع أي بادرة تقدم حقيقية في تغيير نظام السلطة التنفيذية بالوسائل المعروفة المتبعة في بعض الدول الغربية أو الشرقية، أو في بعض الدول المحيطة، فالهند المجاورة لباكستان قريبة عهد بانتخابات ديمقراطية فاز فيها الحزب الحاكم بأغلبية، لم تقم على التزوير أو التغرير، ولم يحدث فيها انقلاب عسكري في أي وقت من الأوقات، فلماذا يحدث في باكستان ولا يحدث في الهند ؟ وقد تكون لحكومة نواز شريف أخطاء كبيرة ولا شك؛ لأن موقفه الأخير من معالجة المشكلة الكشميرية لم يرض كثيراً من المسلمين في الداخل أو في الخارج، وكان فيه من المآخذ ما فيه، خاصة بعد زيارته لأمريكا، ولكن هذا ليس مبرراً لإحداث انقلاب عسكري ضده، ولماذا لا تكون هناك آلية ثابتة للتغيير كلما أرادت الشعوب ذلك دون تدخل من العسكر؟ لماذا يحدث ذلك في إسرائيل ولماذا يحدث ذلك في الهند ولماذا لا يحدث ذلك في البلاد الإسلامية ؟

إنه لأمر محير أن يبقى المسلمون ـ وحدهم ـ من دون الناس، تحدث بينهم الانقلابات العسكرية، ويفاجئهم بين عشية وضحاها رجل على صهوة دبابة شاهراً سيفه، معلنًا أمام عدسات المصورين وممليًا على أقلام المحررين أنه جاء لإنقاذ الشعب المهضوم، ولمعالجة الاضطراب المزعوم، ثم يحكم الناس بالحديد والنار ويقيدهم بالأحكام العرفية، ويصادر آراءهم باسم الحرية، فمتى ينتهي هذا الكابوس وفى أي قرن ؟

٦ ـ حتى لا تؤثر حرارة الصيف على سعادتنا:

مع ارتفاع حرارة الصيف ووسط حياة يومية لا تخلو من الضغوط النفسية والعصبية يمكنك أن تصبح أكثر هدوءًا واطمئنانًا عبر تخلقك بجملة من الآداب والسلوكيات التي زخر بها الإسلام ودعا إليها وحينذاك سوف تصبح صافي الذهن وهادئ البال مقدرًا كل شيء بمقدوره، قال تعالى: ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾(١). وسوف يترتب على ذلك ترفُّعك عن الانسياق وراء الصغائر وتوافه الأمور، ومن ثم سوف تكون في كامل قواك العقلية، وقادرًا على اتخاذ القرارات السليمة في الأوقات المناسبة .

فالمسلم ينبغي أن يكون من الفراسة والذكاء والفطنة «**المسلم كيِّس فطن**»(٢) حيث يحول دائمًا الشدائد والمواقف الصعبة التي يمر بها إلى مواقف لصالحه، يتعلم من خلالها كيف يكظم غيظه ويتدرج في ذلك حتى يصل إلى درجة الإحسان ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾(٣). كما يتعلم فنون الصبر على أذى الآخرين «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»(٤).

وعليك أخي المسلم بتدريب نفسك على سلوكيات الإسلام وآدابه القيمة والممتعة اقتداءً بأساتذتك من الأنبياء والصحابة والتابعين، فقد كانوا حقًا جامعة شاملة تخرج فيها متخصصون عظام في جميع المجالات المعرفية والعلمية، فقد حرصت هذه الجامعة الإسلامية على تكوين شخصية المسلم وصياغتها روحيًا ونفسيًا وبدنيًا واجتماعيًا، من خلال روشتة صحية تعالج التوترات التي يتعرض لها المسلم يوميًا لتفرز شخصية مسلمة سوية.

هذه الشخصية المسلمة السوية لن تتشكل إلا من خلال الدربة والممارسة على استلهام كنوز ولآلئ الإسلام وضوابط السلوك ومناهجه الراشدة .

---

(١) الرعد: ٨.

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٢٨)، والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٦٥٤٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٥٩٠٤): «موضوع».

(٣) آل عمران: ١٣٤ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)، والترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، وأحمد (٢/٤٣)، وحسن الحافظ ابن حجر إسناده في فتح الباري (١٠/٥١٢).

لا تغضب لنفسك:

لم يرد أن النبي ﷺ قد غضب لنفسه قط، فكان الأعرابي يشد رداءه فيؤثر على جسده الشريف وكان الكفار يضعون سلا الجزور على ظهره الطاهر(١) ويسبونه ﷺ بقولهم: «يا بني عبد المطلب إنكم قوم مطل» ومع ذلك لم يثأر ولم يقتص لنفسه بل كان يحنو على أعدائه ويتسامح معهم ويمنع الصحابة من التعرض لهم .. هكذا تجسدت القدوة الحسنة في شخصية النبي ﷺ فكان خير من أفاد البشرية في كل جوانبها.

أما نحن اليوم فقد ضعف هذا النهج القويم فينا ومع هذا لا يزال الخيار بأيدينا، فإما أن نعيش في قلق ومعارك يومية طاحنة وشجارات مستمرة تستنزف الجهد والوقت وإما أن نؤثر الارتياح والسكينة من خلال قراءة متأنية لفقه الواقع ومجريات الأحداث وإدراك المشكلة لوضعها في حيزها الطبيعي والقفز عليها إلى ما هو إيجابي ونافع، فلو افترضنا أن شخصًا ما، قطع عليك الطريق بسيارته فأنت مخير بين أمرين:

١ ـ عدم الاهتمام بالأمر وكأنه لم يحدث وهذا هو الأفضل .

٢ ـ الالتفات إلى الحدث والعيش معه وإقناع النفس أن هناك ما يستدعي الغضب وقد تترتب على ذلك مواجهة مع صاحب السيارة وهذا من شأنه أن يعيش في قلق واضطراب بدلاً من نسيان المشكلة والالتفات إلى ما هو أهم .

وهنا نقول: إنه من المستحيل أن تشعر بالسكينة عندما تكون رأسك مليئة بالقلق والضيق، إذ إن حياتك في هذه الحالة سوف تصير محبطة للغاية، فَدَرِّبْ نَفْسَكَ على فنون الصبر والتصبر، فقد أمر الله في آيات كثيرة بالصبر ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**﴾(٢)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا**﴾(٣)، ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾(٤).

فكلما زاد صبرك زاد تفهُّمك للأمور من حولك خاصة أن الصبر أمر مهم للحصول على طمأنينة القلب واستقرار النفس، فإذا تأخرت مثلاً عن موعد ما بسبب زحام المرور، يمكنك أن تفكر في اللحظة الحاضرة قبل أن تشتت تفكيرك وتفقد السيطرة

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٠)، ومسلم (١٧٩٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) البقرة: ٤٥ . (٣) آل عمران: ٢٠٠ . (٤) النحل: ١٢٧ .

على أعصابك، ولتقـل لنفسك: إن الحياة مدرسة للتمـرس على تعلم الصبر وأن هذا الحادث قد وقع أمـامي من أجل أن أتعلم ضبط النفس، وهذا أمر يحـتاج إلى عزيمة قوية وهمة عـالية ورباطة جأش، فالصـبر وضبط النفس وتحكيم العقـل من الصفات التي تولد النجاح وتجعلك تفكر برؤية وتريث وتعيش لحظتك الحاضرة وبهذا يمكن أن تلقن الآخرين دروسًا عملية في تغليب العقل على العاطفة، ولينظر المسلم ويتأمل في حال الذين يقدمون على الانتحـار والذي يعرف بأنه موت ثم نار، هذه الجريمة المنكرة لا تقع إلا بعد نفاد الصبر، وتأجّج نار الغضب، والنظر لجميع الأمور على أنها مسألة حياة أو موت.

٧. فكر بأملٍ لا بخوف!

كان النبي ﷺ يعجبه أن يسمع كل صباح «**إذا خرج لحاجة أن يسمع: يا راشد يا نجيح**»[١]، ويستبشر بالاسم الحسن؛ لأن العيش بتخـوف وذعر يستهلك قدرًا ضخمًا من الطاقة ومن ثم يستنفـد المسلم القدرة على الإبداع والقوة الدافعة لصناعـة الحياة، والمسلم يستطيع أن يسمع كل يوم (يا نجيح) ويستبشر خيرًا بذكر الله وتسبيحه وحمده ﴿**أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[٢]. ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾[٣]. فحارب القلق والخوف في نفـسك قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾[٤].

إذًا لا بد من تنميـة الطاقة ومضاعفـة الجهود عبـر بعث الأمل في النفوس وقطع دابر اليـأس والقنوط، وعندئذ! لا يمكن للمـسلم أن يعـيش في اضطراب داخلي؛ إذ سوف يـعيش يومـه وحاضـره بعيـدًا عن الوقوف على أخطاء الحـاضر والخـوف من المستقبل المجهول، فساعات الإنسان واحدة بعضها مضى وانتهى وهي في علم الله إن كانت خيرًا أو شرًا، وساعة ستأتي لا نعـرف كيف ستكون ؟ فلا يحمل همها وساعة هو يعيش فيهـا، فليجعلها ساعة للعمل الصالح، ويأمل بعـد ذلك خيرًا إن كان يريد لنفـسه استـقرارًا وسكينـة،وعليه أن يحـيل كل ما يؤدي إلى القلق إلى شيء يعـلمه الطمأنينة .

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦١٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ،وقال: «حسن غريب صحيح».
(٢) الرعد: ٢٨.   (٣) طه: ١٢٤.   (٤) الحجر: ٩٧ ـ ٩٩.

٨. تعلم الرحمة بالآخرين :

الرحمة خلق إسلامي رفيع، قال عنه النبي ﷺ «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع عن شيء إلا شانه**»(١).

هذا الخلق يبعث على العيش مع الآخرين في تراحم وتواد من خلال مشاركتهم أحزانهم والشعور بآلامهم، حيث تتحرك الشفقة في قلبه، فيضع نفسه مكان الإنسان المتألم فتتفاعل عاطفته وتجيش في صدره، فينطلق دون تردد إلى مواساة هذا المنكوب أو إغاثة الملهوف بحب ورحمة من غير كبر ولا منة، وهكذا كان النبي ﷺ يربي أصحابه ويقول: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**»(٢) حتى إنهﷺ تعامل مع الحيوانات برحمة ورأفة غير مسبوقين .

إذ روي أن النبي ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا، فنزل فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله فغفر له**»، فقالوا يا رسول الله! وإن لنا في البهائم أجرًا، قال: «**نعم في كل ذات كبد رطبة أجر**»(٣) وقال ﷺ: «**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**»(٤)، إذا كانت هذه أدبيات الإسلام في التعامل مع الحيوانات فما بالنا ببني البشر .

إن الشعور بالآخرين يبعث في نفس الإنسان حالة من الرضا والسكينة والاطمئنان الداخلي، ولذلك قيل: «من عاش لنفسه عاش مرتاحًا، ولكن عاش صغيرًا ومات صغيرًا، ومن عاش لغيره عاش متعبًا، ولكن عاش كبيرًا ومات كبيرًا»، والرسول ﷺ يقول: «**الراحمون يرحمهم الله، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»(٥).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٣)، وأحمد ٢/ ٤٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٥) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٢/ ١٦٠) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

وهناك أيضًا رحمة ينبغي أن يمارسـها الإنسان مع نفسه. . . «**وإن لنفسك عليك حقًا**»[(١)] فلا يمكن للإنسان أن ينجز كل شيء وضـعه على أجندة أعماله؛ لأنه بمجرد أن ينجز بعضها تظهر أخرى، ومن أراد أن تهدأ نفسه عليه أن يدرك أن يومه المشحون بالأعمال، يعني أن لوقته قيمة عظيمة، وأنه عضو نافع للمجتمع.

أما من تعامل مع المهـام الموكلة إليه على أنها مجرد واجبـات يجب إنجازها كلها في إطار الأمور الطارئة، وعلى أي نحو . . . فهذا النوع سوف يعيش في قلق دائم.

٩ ـ تخلص من أنانية النفس وحب الظهور:

حتى تؤتي أعمالك الصالحة ثمارها اجتـهد أن تخفي عملك، فهو من الصدقات والأصل فيها الإخفاء حتى لا تـعلم يمينك ماذا أنفقت يسارك ما لم تكن في الإعلان مصلحة عامـة للمسلمين؟ وبهذا ذكر النبي ﷺ أن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله «**رجل تصدق بيمينه فأخفاها حتى لا تعلم شماله**»[(٢)].

هذا السلوك النبيل سيجعلك تتخلص من أنانية النفس وحب الظهور والمباهاة أمام الغير، وهذا مرض يقع فـيه كثير من الناس ولكن بنسب متـفاوتة، ومن لوازم تحقيق السعادة لـلنفس أن تتخلَّى عن حقك في المدح والثناء من الآخـرين، وإذا تحدث أحد عن بعض سلوكيـاته الخيرة، فامتـدح ذلك لا تقل وأنا كذلك، بل أنكر ذاتك، فكل طاعة يُسِرِّها الإنسان في نفسه، سـيأتي اليوم التي يبرزها الله ـ عز وجل ـ ناهيك أن إخفاءها سيبدلك داخليًا براحة وطمأنينة كبيرتين .

١٠ ـ نعيب زماننا والعيب فينا:

لا يوجد أحد كـامل ومنزه عن كل نقص إلا الله ـ سبحانه وتعـالى ـ فهو ـ جل وعلا ـ له الكمال المطلق وليس كمثله شيء ومن ثم! إن أي إنسان على وجه الأرض لا بد أن تجد عيبًا يعتريه، وميزة مـا تنقصه وخلقا ما به خلل، فلا ينبغي للمسلم أن ينشغل بعيوب الآخرين عن عيوب نفسه ويحملهم الأخطاء والتجاوزات والأوزار؛ إذ إن الكثيرين حين لا يجـدون ما يوافق توقعاتهم يسارعون إلى توجـيه اللوم للآخرين

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣٦٩)، وأحمد (٦/ ٢٦٨)، عن عائشة رضي الله عنهما وصححه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وتعليق الخطأ عليهم، وهذه ظاهرة غير صحية تكرس التوتر والمرض النفسي،وتعمل على استمرار حالة الغضب والتوتر، والشعور بالإحباط، وبالتالي سوف نعجز عن السيطرة على حياتنا .

وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول:

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا

إذًا كل مسلم يجب أن يبدأ بنفسه ويبادر إلى إصلاحها ويستعيد شعوره بقدرته الشخصية، فدائمًا البدء بالنفس ثم اتساع دائرة الإصلاح لتشمل الآخرين هو المنطق الأمثل في التفكير؛ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾(١).

وليس من أخلاق المسلم أن يكون كثير النقد إلى حد كشف معايب ومآخذ الآخرين وجلد ذواتهم وبالتالي تنخفض رقة قلبه وتقل دماثة خلقه ويكثر أعداؤه وينصرف عن مساوئ نفسه ومجاهدتها وأداء واجباته .

١١ ـ كلامك صحيح ولكن:

ينبغي على المسلم ألا يتعود تسفيه الآخرين مهما كانت آراؤهم خاطئة؛ لأن هذا الموقف السلبي من الآخر لن يديم الحوار والنقاش الهادئ البناء؛ لذا يمكن أن يكون الاعتراض مسبوقًا بكلمات توحي بأن هناك قواسم واهتمامات مشتركة في الحديث مثل قولك: أنت على حق في كذا وكذا ولكن!! كلامك صحيح ولكن هناك بعض الإيضاحات، وهذا الحوار من شأنه أن يلطف الأجواء، ويضفي نوعًا من التقارب والحب أثناء المناقشة، ويقلل من حماس الآخر في الدفاع عن رأيه، كما أن هذا الأسلوب يجعلك تقدم رأيك دون انفعال أو ضغوط نفسية .

ومن ثم سوف يتسم الرأي بالرشادة، وقد يجد قبولاً لدى الآخر، فمن شروط سلامة الرأي انطلاقه في جو تسوده السكينة ويحفه الأمن وتعلوه راية الأخوة والمودة، وخلاف ذلك جو التشاحن والانفعال وإعجاب كل ذي رأي برأيه والله تعالى يقول: ﴿**وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾(٢). ولتضع في ذهنك أثناء الحوار أنك لا ينبغي

(١) الرعد: ١١ (٢) الأنفال: ٤٦ .

أن تكسب موقفًا بقدر ما تسمو نفسك إلى أن تكسب شخصًا .

أقول ذلك؛ لأن النفس غالبًا ما تجنح نحو كراهية تصحيح الغير لمسيرتها ومصادرة آرائها بأسلوب مباشر فهي تحتاج دائما إلى من يظهرها أنها على حق، وهؤلاء الذين يعملون الأسلوب الهادئ في الحوار، ينالون الحب والاحترام من خصومهم .

وليس معنى ذلك أن يضحي المسلم بمعتقداته الراسخة وثوابته التي لا تقبل التنازل أو المفاصلة وإنما الهدف أن يقيم تواصلاً مع الآخرين عبر منحهم الزهو والفخر بأنفسهم وكان الرسول ﷺ ينزل الناس منازلهم إذ يقول في حديث ما معناه: «**من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن**»[1] .

ومن أدبيات الإسلام: الإنصات الجيد إلى المتحدث وعدم مقاطعته أثناء كلامه، وحينما تأتي فرصة تعليقك أو الرد سوف تجد نفسك أكثر طمأنينة وأكثر ارتياحًا، وسوف تجد قبولاً لدى الآخرين، الأمر الذي يجعلهم يبادلونك الأسلوب نفسه في الإنصات إليك بكل اهتمام ودون مقاطعة فلا يجب أن يتحول الحديث مع الآخرين على أنه سباق، وكأن الهدف ألا تكون هناك فواصل زمنية بين نهاية حديثه وبداية حديثك.

أضف إلى ذلك ضرورة بث الحماس والتشجيع في مُحَدِّثكَ إن عمل عملاً طيبًا يستحق ذلك، فلا ينبغي أن نبخل عليه بكلمات التقدير والتشجيع، فلو أنها استخدمت فإنها تختزن في ذاكرته، وتتجاوب أصداؤها في صدره على مر السنين نغمًا حلوًا لا ينسى، ويمكن أن تأتي بمردود إيجابي يجعله يتعاطف مع فكرتك بل وقد يتحول ويؤيدها.

١٢ ـ خيرهما الذي يبدأ بالسلام:

أَخْذ زمام المبادرة في حد ذاته مثال للفضائل الحميدة خاصة إذا كانت في مجال الخير، إذْ حث الإسلام على عدم التقاعس والاستكانة، ويزداد هذا المبدأ أهمية وفاعلية إذا كان في مجال إصلاح ذات البين ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ**﴾[2]. أو

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٠)، وأحمد (٢/ ٢٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الأنفال: ١ .

إلقاء التحية ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[١]، أو إظهار الحب والمشاعر الطيبة.

هذه قيم إسلامية تعمق الصداقات الحميمة وتكسبك صداقات جديدة، فعندما يبادر المسلم ويلقي السلام على من هجره لا بد أن ذلك فوز لكل من الطرفين، يقول الرسول ﷺ: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان، فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»[٢] فكونك على حق ليس أهم من أن تكون سعيدًا، ولكي تكون سعيدًا فعليك أن تتسامح وتبدأ بالحديث إلى من قطعك.

هذا التنازل من أجل تحقيق السعادة سوف يكسبك فضائل التسامح والمبادرة والمسالمة وود الآخرين وسوف يجعلك صافي القلب، ولعلنا نذكر هذا الرجل الذي بشر بالجنة لأنه كان يبيت وليس في قلبه غل أو حقد لأحد.

ولتضع في ذهنك على أسوأ الفروض أنه إن لم يستجب لك الآخرون فيكفي أنك تشعر بالرضا؛ لأنك حاولت أن تخلق جوًا مليئًا بالحب والتسامح، فلا تستنفد طاقتك في أن تنشغل بهجران هذا وخصام ذاك، حتى تتجنب المؤامرات التي يحيكها ضدك وبالتالي لا تكون مضطرًا لإعداد نفسك لإثارة دفوعك، وتمثل مقولات النبي ﷺ: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أَوَلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ... أفشوا السلام بينكم**»[٣]، وفي حديث آخر: «**يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[٤].

وهناك أفكار كثيرة يمكن عن طريقها استرداد علاقتك بالآخرين أو تعميق صلتك بهم كأن تضع في برنامجك اليومي الاتصال بأحد الأصدقاء للتعرف على أحواله وظروفه، أو أحد الأطباء أو أي شخص قدم لك معروفًا ما؛ للتعبير عن امتنانك

---

(١) النساء: ٨٦.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠) عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٥٤)، وأبو داود (٥١٩٣)، وأحمد (٢/٤٤٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٨٥)، وصححه، وابن ماجه (١٣٣٤، ٣٢٥١)، وأحمد (٥/٤٥١)، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه.

وتوجيه الـشكر له، هذا الأسلوب سوف يجلب عليك الإحساس بالامـتنان تجاه آلاء الله ونعمه سبحانه وتعالى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[١].

وعن عبـدالله بن عمـرو بن العاص رضي اللـه عنهم أن رجلاً سأل رسـول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «**تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**»[٢] فإلقاء السلام يخلق تواصلاً ويشيع جوًا من المحبة والألفة والود وابتسم في وجه كل من تلقاه «**تبسمك في وجـه أخيك صدقة**»[٣] فالتكشيـر والعبوس وتجاهل إلقاء التحية على الآخرين، أو عـدم ردها عليهم لن يشعرك بالسلام الداخلي، جَرِّبَ هذا الأسلوب الودود، فهـو سوف يحدث تغـيرات طيبة عـلى شخصيـتك، وسوف يتقرب منك هؤلاء في لطف وامتنان.

١٣ ـ الحياة دار كبد ومشقة:

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[٤]. إن الحياة دار للنصب والتعب وبذل الجهـد وليست مثاليـة ولا بد من إدراك هذا المعنى؛ لأن الاعتـقاد بأنها مثـالية سوف يجـعلك تنفق وقتك وتضيعـه هدرًا في الشكوى من المظالم والتحسـر على ما أصاب النفس من أذى، وهذا المـفهوم غيـر المثالي لا يدعونـا إلى الكسل والإهمال، وإنما يحتاج إلى تفجير الطاقات وبذل القدرات وإظهار ملكات الإبداع من أجل التغيير نحو الأفضل، فلكي تكون سعيدًا أخي المسلـم في هذه الدنيا، فعليك أن تفسر دائمًا الظواهر تفسيرًا إيجـابيًا يشعرك بالسكينة والراحة، فإذا كانت الحـياة دار عمل وسعي ودأب إلا أنه أحيانًا يتعـرض الإنسان لنوع من الملل بين الحين والآخر، هذا الملل رغم أنه صفـة سلبية إلا أن تحـويله إلى نوع من الاسترخـاء وإعطاء التفكير إجـازة لبعض الوقت يجـعلك تعـود إلى الحيـاة مـرة ثانيـة وأنت أكثـر قـدرة على الإبداع والخلق والابتكار، فـهذا النـوع من الاستـرخاء يـخلصك من قدر هائـل من الضغـوط التي تتعرض لها يوميًا .

ومعترك الحياة نفسه قد يصيب المسلم بالتوتر بسبب الضغوط المختلفة أيضًا، لكن

---

(١) الضحى: ١١.

(٢) أخرجه البخاري (١٢، ٢٨)، ومسلم (٣٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٣) سبق تخريجه. (٤) البلد: ٤.

كل توتر تتعرض له ينبغي أن تتحمله اعتقادًا منك أن ذلك في مقدورك لأن ثقتك في قدرتك على التحمل تخفف منه، وحين تزداد حدة التوتر وتشعر بالامتعاض والضيق يمكنك أن تروح عن نفسك وتسلي عنها بما هو مشروع، أو أن تعود بالذاكرة إلى الوراء وتتذكر شيئًا حسنًا، الأمر الذي قد يساعدك على تجاوز المشكلة والشعور بالسلام الداخلي وتعود إلى صفائك الذهني وهدوئك القلبي؛ لتؤدي واجباتك الحياتية بأداء جيد: ومستوى أفضل، فالحياة ليست حالة طوارئ متواصلة .

١٤ ـ الفهم أولاً:

لا بد من أن ندرك ونفهم أن الذين نتعامل معهم لا يمكن أن يكونوا على الحال التي نريدها أو يتصرفوا بالطريقة التي نرغبها لاختلاف الذوات والظروف الفردية التي حبانا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها، ولكي تعيش حياة مفعمة بالسكينة، خالية من التوتر ديدنها الطمأنينة لا تنسق وراء توافه الأمور والأشياء الصغيرة التي يمكن أن تستفزك، وعجبًا لهؤلاء الذين يتطاحنون في الدنيا بسبب التكالب والتصارع من أجل مكاسب دنيوية رخيصة وفانية .

فالفهم وإدراك طبيعة المشكلة أصل مهم من أصول التواصل الفعال مع الآخرين؛ ولذلك فالنبي ﷺ بذل في المجتمع المكي سنوات حاول فيها فهم تركيبة هذا المجتمع، وإدراك قدرات كل صحابي؛ لتحديد الأدوار التي يمكن أن يقوموا بها، وحين وجد أن هذا المجتمع لم يعد خصبًا للدعوة إلى الله على الأقل على المدى المنظور هاجر إلى المدينة، فكانت الفتوحات العظيمة، إذًا التفكير الواعي والمدرك وفهم طبيعة الأشياء، وفقه الواقع يجعلك تعيش حياتك دون توتر أو قلق، فإذا تعرضت للأذى من الآخرين كالأطفال مثلاً فعليك أن تتخيل ملامح وبراءة عيني الطفل الصغيرتين، وأن ما يقومون به من محاولة جذب انتباهك، أو لفت نظرك ليس الهدف منه تعطيلك عن القيام بأعبائك، وإنما هو الحب الذي يكنه هذا الطفل لك، ومن ثم فهو يحتاج إلى توجيه وحكمة في التعامل .

أما الطاعنون في السن فعليك أن تتفهم ظروفهم ودوافعهم، وأن تعاملهم كما لو كانوا أطفالاً حيث البر بهم وتقديم الرعاية لهم، فكلما يتقدم العمر بالإنسان تضعف قواه العقلية ويحتاج إلى معاملة خاصة، ولهذا يستحسن أن تدخل لكل إنسان من

زاوية اهتمـاماته، وتعلم كـيف يمكنك توظيفـه بعد إنضاج هذه الاهـتمامـات، حاول وسوف تحصد ثمارًا طيبة، المهم لا تكن صداميًا واجعل شعارك الفهم أولاً.

والمثال الصـارخ في حيـاتنا الذي يدعوك إلى اعـتناق مبـدأ الفهم أولاً هو كـثرة حالات الطلاق، فنسبة كبيرة مـن الزيجات تنتهي بأبغض الحلال إلى الله بسبب عدم التفـاهم وعدم القدرة على الوصـول إلى أرضية مشـتركة، فلو حـسنت النوايا وساد التفاهم فـي ظل الحب وتسابق كل زوج في إسعاد الآخـر عبر فهم طبيـعته وتركيـبته لتغير الحال وصارت الحياة بعيدًا عن الكدر ولتحقق السكن والدفء الزوجي ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ**﴾[(١)]، إذًا لا بد من فهم أن المرأة تفكر بعاطفتهـا لا بعقلها كما أنها تمر بأغيار شهرية تجعلها شديدة العـصبية، وكذلك لو تفهمت المرأة قول الرسول: «**لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها**»[(٢)] وقتئذ لن تكون هناك مشكلة وسوف يسود السلام الداخلي في النفوس.

ويذكر أن زوجين قضيا العشر سنوات الأولى من زواجهما في حالة من الإحباط والخلاف، وقد ضاع أي تفكير عقلاني بينهما في غمرة هذا الخلاف، وموطن الخلاف أن الزوجة كانت اقتصادية بينما الزوج كان مسرفًا، فلم تكن تدري الزوجة السر وراء كونه مسرفًـا، وكذلك الزوج لم يكن يعرف سبب إمساك الزوجـة، أي لم يتفهم كل منهما وجـهة نظر الآخر لكن حينمـا تفاهما، وعرف الزوج أن الزوجـة كانت تدخر حـتى تتـجنب الكارثة المادية التي أصـابت أبويهـا وهي في الواقع تخـشى من خطر الإفلاس كما كان الزوج خجولاً من عجزه عن الاعتناء بها كما كان الحال مع أبويها، وكان يرغب في أن يفتخـر به ومع تعلم كليهما تفهم الآخر، تحول شـعور كل منهما تجاه الآخر من الكراهية إلى الحب وساد حياتهم توازن جيد بين ما ينفقون وما يدخرون.

١٥ ـ المسلم سفينة عطاء بلا حدود:

المسلم في هذه الدنيا يجب أن يكون سـفينة خير، عطاؤه بلا حـدود، يترك آثاره الصالحـة أينما حل، فـما أعظم العطاء دون مـقابل، وما أحـسن أن يكون ذلك بين الإنسـان ونفسـه، فجـرب أن تُهدي أحـد أصدقـائك هدية ولو متـواضعـة «**تهادوا**

(١) البقرة: ١٨٧.

(٢) أخرجه الترمذي (١١٥٩) عن أبي هريرة وقال: «حسن غريب».

تحابوا»[1]، وجرب أن تنفق جـزءًا من مالك في مجالات الخـير «**ما نقـص مال من صدقة**»[2] فقد يعاني أحد أصدقائك أو جيرانك من أزمة مالية خانقة، تخيل لو أنك أرسلت له قدرًا من المال ليتجاوز به أزمته فما مردود ذلك؟ كيف سيكون شعوره حقًا؟ إن تقديم الخير والعـون للمحتاجين والملهوفين يعمل في النفوس عـمل السحر ويعود على المجتمع بردود فـعل إيجابية عظيمـة الأثر في تماسكه وترابطه وتضامنه وتكافله، وتصور لو أنك كـفلت يتيمًـا يقول النبي ﷺ: «**أنا وكافل اليـتيم في الجنة كـهاتين**» وأشار بالسبابة والوسطى[3]. إن هذا الأمر حقًا سوف يدخل عليك السعادة ويجعلك تشعـر بالرضا، فـالمسلم ينبغي أن يشـعر بالاستـمتاع وهو يتـبرع بقـدر من ماله في مجالات الخير وما أكثرها .

والصـحف تتـحـــدث عن بيل غـيـتس المليـاردير الأمـريـكي مـالك شـركـة (مايكروسوفت) لبـرامج الكمبيوتر والتي تربو ثروته على المائة مليـار دولار، تتحدث عن تبرعـاته للجمعيـات الخيرية في أمريكا، والتي قـدرت بالمليارات فضلاً عـن عزمه التـبرع بمبـالغ كـبيـرة من أجل تخليص العـالم من الأمـراض الخطيرة مـثل: الملاريا والإيدز، إنه من الأحرى بأثرياء المسلمين وما أكثرهم أن يتقـدموا الصفوف في مجال العطاء والإنفاق.

١٦ ـ تجنب أفكارك السلبية:

يقال: إن الإنسان تداخله آلاف الأفكار يوميًا، هذه الأفكار بعضها إيجابي والآخر سلبي، وقد تكون الغلبة للأفكار السلبية مثل: الغـضب والانهزامية والخوف والتشاؤم وغيرها، ولكي يعيش الإنسان حـياته في سلام داخلي وأمن نفسي وسكينة لا بد من أن يتدرب على كـيفية مـواجهة الأفكار السلبـية والعمل على نبذها، إمـا من خلال تفهمها ودراستها، وإيجاد حلول لها على أن تنحاز إلى الحل الذي يكفل لك الاستقرار

---

(١) أخرجـه البخـاري في الأدب المفرد (٥٩٤)، وأبو يعلى في مـسنده (٦١٤٨)، والبيـهقي في السنن الـكبرى (٦/ ١٦٩)، وفي شعب الإيمان له (٨٩٧٦) عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٦٠١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٢٩)، وأحمد (٢/ ٣٨٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٠٤، ٦٠٠٥)، وأبو داود (٥١٥٠)، والترمذي (١٩١٨) وأحمد (٥/ ٣٣٣)، عن سهل ابن سعد رضي الله عنه .

النفسي والصفاء الذهني، وإما من خلال تجاهلها وإعطائها حيزًا أقل من الاكتراث والأهمية، والبعض يرى أن التجاهل من أفضل الأساليب في التعامل مع هذه الظواهر السلبية؛ لأنك لو وضعت في ذهنك أن مثل هذه الأفكار متوقعة وإيقاع الحياة وتفاعلاتها تفرزها باستمرار، فإنك لن تحتاج إلى جهد كبير في نسيانها والتغلب عليها، والعودة إلى سابق عهدك من الهدوء والراحة .

فقد تشعر بنوع من الضيق لكون أبويك لم يكونا من الأغنياء وبالتالي لم ترث عنهما أموالاً وعقارات، هذا الشعور سوف يولد لديك نوعًا من عدم الاستقرار النفسي، وقد تحتل هذه الفكرة حيزًا كبيرًا من التفكير والمبالاة، وقد ينتج عنها حسدك للآخرين، وقد يتطور الأمر لدى البعض إلى السطو على أموال الغير، ومن ثم سوف يقودك هذا التفكير إلى المهالك، لكن إذا أردت أن تتخلص من عواقب هذا التفكير فلتتذكر قول الشاعر :

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمْعَ مَالٍ ... وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ

وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا ... وَعِنْدَ اللَّهِ لِلأَتْقَى مَزِيدُ

ومن وسائل التخلص من الأفكار السلبية: أن تسأل نفسك عن أهم وأولى الأعمال التي ينبغي أن تقوم بها يوميًا حتى توجه إليها طاقتك، وهذه طريقة معينة لتجنب التفكير فيما هو سلبي؛ لأن ذلك قد يعيقك عن اتخاذ القرارات الواعية السليمة، وقد يحول دون أداء واجبك.

لابد أن تؤمن أن عدم السعادة دائمًا تقترن بالأفكار السلبية وليس بالحياة في مجملها؛ ولذلك عليك أن تفكر دائمًا في إحالة الأفكار السلبية إلى أفكار إيجابية وحاول أن تغمر حياتك بالحب والأفكار الباعثة على ذلك، ووقتها سوف تجد نفسك مصدرًا مشعًا بالحب ويمكن أن تصبح قدوة للآخرين .

١٧ ـ تعامل مع مجريات الأحداث بحكمة:

العالم من حولنا يموج بالكثير من الأحداث على مستوى كل الدوائر التي ينتمي إليها الإنسان سواء في عمله أو منزله أو مصنعه أو متجره، من بين هذه الأحداث ما هو جدير بالاهتمام والعناية وما هو هامشي، وإذا كان هدف الإنسان أن تأتي كل

الأمور لصالحه، فإن أي خلل في تعاملاته سوف يصيبه بالتعاسة والإحباط .

لذا لا بد أن نؤمن بأن الحيـاة وما تجري فيـها من أحداث نادرًا مـا تكون على الحال الذي نريد، وأن من حولـنا لايمكن أن يتصرفـوا بالطريقة التي نحـبذها ونرغبـها، ولن تكون كل الطرق معبدة وسهلة ويسيرة أمام كل ما تستهويه أنفسنا، فإذا ما ناضل الإنسان في كل هذه المعتركات، فإنه سوف يقضي حياته جميعها في مشاكل لا حصر لها.

أما إذا اسـتطاع أن يميز بين الأهم،والمهم واخـتار بحكمـة ووعي،وإدراك الحدث الذي يستحق أن يوليه اهتمامًا فإن ذلك قد يبعده عن التوتر نسبيًا .

هذه الأحداث اليومـية يقضي فيهـا الناس معارك طاحنة، يتصـارعون ويتنازعون ويتسابقون في جـو مشحون بالتوتر من دون أي تقدير لعـواقب الأمور، والمضار التي يمكن أن تعـود على النفس البـشـرية من جـراء ذلك، ومن ثم إذا نظر الإنسـان إلى الأمور بمنظور صائب،وتمتع بالفطنة والحكمة فسوف يجـد الحياة أمامه رائعة وجميلة، خاصة أن أمزجة البشر دائمة التـقلب، وبسبب هذه الشدة في التغير قد ينظر الإنسان إلى كل شيء أمامـه على أنه مؤامرة تستـهدف إفشال حـياته وعدم إنجاحهـا وبالتالي ينعكس داخله الضيق والتوتر ويفقد نظرته الصائبة للأمور .

١٨ ـ تمثل هذه المعاني وتتبع النتائج:

- ردود الأفعال المتأزمة تمنع الحصول على الحلول وتدفع إلى السخط والإحباط.
- ألق السلام على من تعرف ومن لا تعرف، وابتسم في وجه الجميع.
- تَوَدَّد إلى الآخرين وتَحَيَّنِ المناسبات لتقدم لهم الهدايا.
- لا تنصح إخوانك على الملأ، وصن عرضهم ولا تفش سرهم.
- انصت إلى محدثك، وأظهر التواضع في ردك عليه إن أخطأ.
- لا تتصيد أخطاء الغير حتى لا تشغلك عيوبهم عن عيوبك.
- تذكر كل صباح الأمور المهمة في يومك حتى تستطيع ترتيب أولوياتك.
- أثناء حوارك مع الآخرين حاول أن تكسب شخصًا، ولا تكسب موقفًا.
- لا تجعل دائمًا طلب المزيد يؤرقك، فلن يتحـقق رضاك، فالنفس تطمع للمزيد دائمًا.

- إن لم تشغل نفسك بالحق شغلتك بالباطل.
- لذة في لحظة معصيــة تنال منها عذابًا أليمًا أمد الحياة، ومــشقة في لحظة طاعة تنال منها نعيمًا مقيمًا أمد الخلود.
- التعاسة هي الشعور الذي يصاحب الأفكار السلبية عن حياتك.
- كلما زاد مقدار الحب الذي تمنحه للآخرين زاد المقدار الذي تتلقاه.
- لا تستصغر الخطأ، ولا تصر على الصغيرة، فالإصرار عليها كبيرة.
- كن مرهف الحس، دقيق الفهم، سريع البديهة، واسع الأفق، بعيد النظر.
- عش حياة سعيدة، واجلب السلام الداخلي إلى نفسك.
- الارتياح وهدوء النفس طريق العطاء.
- الحياة سهل وصعب وسهولة ومعاناة .
- لا تقف عند الحدث، وتجاوزه إلى حياة جديدة .
- ذات الإنسان هي محور التغيير .
- كل خَطْبٍ دون الدين هين وسهل .
- أمور الدنيا لا تستحق منك هذا الغضب .
- فكر برؤية وتريث، تأخذ القرار المناسب في الوقت المناسب .

ثانياً: من قضايا المجتمع «العنوسة»:

القضايا الاجتماعية لا يقتصــر تأثيرها على فئة معينة من الناس؛ لأن المجتمع دوحة كبيرة تتواصل فروعها وأغصانها، وتتأثر بما يجري في جذعها من عصارة مستمدة من التربة أو متأثرة بالحــرارة والهواء، ولذا فإن المهتمين بالشأن الاجتمــاعي وغير المهتمين يؤثرون في المجتــمع ويتأثرون بما يجري فيــه، مع اختلاف في درجة التأثــر والتأثير، نظرًا لعوامل كثيرة تجعل بعض الناس أكثر إحــساسًا وأعظم تجاوبًا مع قضايا المجتمع، فيقبلون على حــمل الأعباء، ويضحون بالوقت والجهد في إزالة العلل الاجــتماعية؛ لأن بقاءها واســتشراءها كفــيل بخلخلة المجتمع وإحــداث بعض الثغرات فــيه، ولذا

تتضافر الجهود لتسد منافذ البطالة أو تقضي على المخدرات، وتحاول إقامة مؤسسات لليتامى والعجزة ولمن يرغب من كبار السن، وتحاول القضاء على الأمية، وتيسر سبل الزواج أمام الشباب وغير ذلك مما يتصل بهذا الأمر الاجتماعي، حتى يظل للمجتمع وجهه الإنساني المشرق، وإحساس المشاركة والتعاطف بين ساكنيه والمجتمعين فيه.

العنوسة:

ومن القضايا الاجتماعية التي برزت كظاهرة تأخذ نسبة مئوية بين قضايا المجتمع ظاهرة «العنوسة» التي تختلف نظرة المجتمعات إليها بحيث تتحول في بعض الأحيان من النقيض إلى النقيض، فبينما نحن في شرقنا الإسلامي ننظر إلى صاحبة هذا الوصف نظرة ملؤها التقدير والاحترام؛ لأننا نرى فيها أختًا أو بنتًا، لم تجن ذنبًا ولم ترتكب إثمًا، يرى غير المسلمين أنها السبب في إلحاق هذا الوصف بها، فهي ـ في رأيهم ـ مذنبة؛ لأنها لم تبذل نفسها رخيصة على مذبح الشهوة الآثمة حتى يقبلها المجتمع، وتظل تلاحقها الوصمات أينما حلت حتى تفقد آدميتها وإنسانيتها، ونظرة تلك المجتمعات غير الإسلامية إلى «العانس» هي جزء من نظرتهم إلى المرأة التي إن لم تكن صاحبة مال أو جمال تتابعت عليها الآلام، ولحقت بها الإهانات، فلا يشعر ابن نحو أمه ـ هناك ـ بغير النفور والتقزز، إن احتاجت منه إلى دريهمات تقتات بها، وتدفع البنت في بيت أبيها ـ بعد سن معينة ـ تكاليف نفقتها ومعيشتها، بصرف النظر عن مصدر كسبها.

فالاحترام مفقود هناك لغير صاحبة المال والجمال، فهل يبقى للعنوسة شيء من التقدير عند أصحاب النظرة المادية في المجتمعات المعاصرة؟

ولسنا في مجال المقارنة والموازنة بين المرأة الغربية والمرأة الشرقية، وإنما نحن نحاول أن نتعرض لظاهرة اجتماعية موجودة بيننا، ونحمد الله أن جعل نظرة الجميع إلى هذه الظاهرة نظرة طبيعية، لا ميل فيها نحو الإفراط أو التفريط، ولا شطط في الحكم لها أو عليها، ويكفي أن جميع المسلمين يدركون أن صاحبة وصف «العنوسة» لا يد لها في هذا الوصف، ويبقى أن تدرك صاحبة الشأن وأن يستقر في وجدانها أنها لا نقص فيها ولا عيب يلحقها، وأنها جديرة بالاحترام والتقدير، فإنما يعاب المرء ويذم بما جنت يداه واقترفت من الذنوب جوارحه.

أما ما لا دخل له فيه، فليس هناك ما يعاب به؛ لأن أقدار الله تجري على البشر وهم يتلقونها بالرضا والتسليم، أيعاب إنسان بسواد لونه؟ أيعاب إنسان بطوله؟ أيعاب إنسان بقصر قامته مثلا؟ كلا.. لا يعاب أحد منهم بشيء من ذلك؛ لأنهم لا دخل لهم فيما يلحق بهم من مثل هذه الأوصاف، وكذلك «العانس» لا دخل لها في هذا الوصف، فلها من المجتمع كل التقدير والاحترام.

إنما يلام الناس على سوء أخلاقهم، ورداءة سلوكهم، وشناعة أقوالهم يلام الناس على خيانة الأمانة، وعلى تهديدهم للأمن والسلامة، وعلى حرصهم على غمط الآخرين حقهم، واستيلائهم على جهودهم.

أما الأوفياء الأمناء أصحاب الذمم النقية، والهمم الفتية، الباذلين لغيرهم في مجتمعهم مما ملكت أيديهم فعلام يلامون؟ وبم يؤاخذون؟

إن الإنسان إنما يقاس بمدى نفعه للآخرين من البشر، ومدى ما قدم لغيره، ومدى ما تحلَّى به من إيثار في سبيل الآخرين، ولا شيء يعيب هذا الإنسان طالما تمسك بالخلق القويم والسلوك المستقيم، ونحن هنا لا نتحدث عن الأسباب البشرية التي كتب فيها من قبل، مثل: إعراض الشباب عن الزواج ـ غلاء المهور ـ وجود الفارق الاجتماعي بين الخاطب والمخطوبة ـ انتشار أماكن الرذيلة... إلى غير ذلك من الأسباب.

باب العمل الاجتماعي:

والمجتمع يدرك أن هذه «العانس» جزء منه، وفرع في دوحته، لا يستغنى عنها، ولذا! فإن أبواب العمل الاجتماعي أمامها مشرعة مفتحة، وهي أبواب عديدة تدخل من أي باب شاءت؛ لتشارك أبناء المجتمع في بنائه، وتشاركهم في تخفيف آلامهم، وإزالة متاعبهم، فإن المؤمن والمؤمنة لا يقف عند حدود ذاته، بل يتعدى ذلك؛ لأنه يدرك أن الرسول ﷺ يربط بين الفرد ومجتمعه في صورة تجعل الفرد عاملاً من أكبر عوامل تدعيم المجتمع؛ كي يصبح صالحًا نافعًا، فلا يغدو الفرد عضواً سلبيًا كليلاً لا ينفع أحدًا من المجتمع الذي يعيش فيه، بل يصبح عنصرًا فعالاً، يتعايش مع مجتمعه مؤديًا ضريبته الإنسانية، وبهذا يصير الفرد شيئًا له كيانه وفائدته، وذلك يدفع

المجتمع نفسه إلى الاهتمام بشأن الفرد والعناية بأمره في كل ما يرفع من شأنه في هذه الحياة، يقول رسول الله ﷺ: «**على كل مسلم صدقة**» فقالوا: يا نبي الله.. فمن لم يجد؟ قال: « **يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق**»، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «**يعين ذا الحاجة الملهوف**»، قالوا فإن لم يجد؟ قال: «**فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر، فإنها صدقة**»[(١)].

والحديث لم يترك درجة من درجات القدرة الإنسانية إلا كشف عنها،وفتح الطريق أمامها لتعطي مما تملك للمجتمع بغير حدود، فمن كان صاحب مال فسخاؤه مطلوب، ورحمته بالسائل والمحروم لازمة، ونفقته على المحتاجين والفقراء واليتامى والمساكين لا غنى عنها ـ بقدر وسعة ـ والمؤمن على العموم (عف الفرج، عف اللسان واليد، ملتزم بواجبات المجتمع، لا يخون أمانة، ولا يغدر في عهد، ولا يكذب أو يكتم شهادة الحق)،وكل أعماله في خدمة الآخرين عبادة (فإلقاء السلام عبادة .. وعيادة المريض عبادة .. وزيارة الأخ في الله عبادة، وأن تبسمك في وجه أخيك صدقة، والكلمة الطيبة صدقة ...، ومصافحة أخيك صدقة ...، وأن مسح رأس اليتيم عبادة، وصلة الرحم عبادة، وبر الوالدين عبادة، وإغاثة الملهوف عبادة، وقضاء الحوائج عبادة، ومساعدة المحتاج عبادة، ولو أن تحمل عنه شيئًا يثقل عليه).

فمعظم القضايا الاجتماعية تدخل في دائرة العبادة بمعناها العام الشامل وينال فاعلها الثواب العظيم من الله رب العالمين، إن أخلص نيته وأحسن عمله، وفيها مجال فسيح لكل من يريد أن يعمل خيرًا ذكرًا كان أم أنثى، متزوجًا أم غير متزوج، وما على الإناث إلا أن يتخيرن من بين الأعمال الاجتماعية ما يناسبهن، ليعملن فيه بقدر طاقتهن واستعدادهن، ولسنا بذلك نقلد الغربيات في أعمالهن؛ لأن الغربيات لم يهتممن بالأعمال الاجتماعية إلا في القرن الأخير، على حين أن المسلمات منذ عهد رسول الله ﷺ كانت لهن أعمال نافعة في المجتمع، (فقد كانت أم المؤمنين زينب بنت جحش امرأة صَنَاع اليد، فقد كانت تدبغ وتخرز ثم تتصدق في سبيل الله، وكانت امرأة عبدالله بن مسعود سيدة تتكسب وتنفق على ولدها وزوجها، وولّى عمر امرأة للإشراف على جانب من السوق .. وكن ـ النساء ـ يخرجن في

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٤٥)، ومسلم (١٠٠٨) ، وأحمد (٤/ ٣٩٥)،عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

الغزوات يداوين الجراح ويسقين العطشى، وكان كبار الصحابة يسألون السيدة عائشة رضي الله عنها عن الفرائض، وكانت من أفقه الناس، وأحسنهم رأيا في العامة).

وظلت النساء يعملن في رفعة شأن المجتمع ويقدمن له مما يملكن من جهد أو مال ما يستطعن، وكم كانت لهن أعمال نافعة في خدمة المسلمين، وما زالت أسماؤهن يتحلى بها سجل التاريخ ويسطر لهن الفخار والتقدير دون نظر إلى أن هذه المرأة متزوجة أم هي غير ذات زوج.

وما زال عطاء المرأة في مجال الخير لا يقل عن عطاء الرجل، بل يسبق العمل الخيري النسائي في بعض المجالات أعمال الرجال.

وقد تكون الفرصة مهيأة أكثر أمام غير ذات الزوج لتنضم إلى العمل الاجتماعي بنفسها أو برأيها وقلمها أو بمالها، فتمسح رأس اليتيم، وتقدم العون للمحتاج، وتخفف أعباء الأرامل والفقراء، فتقدم للآخرين الرعاية والعناية،وتساعد في صنع الخير لمن حرموا منه، إن مجال الخير مفتوح على مصراعيه وهو يتسع لكثير من الناس ليشاركوا في العمل من أجل الآخرين، الذين إن لم نساعدهم بأنفسنا وجهودنا ساعدناهم بأموالنا وصدقاتنا، وتركنا بينهم أثرًا عظيمًا من التقدير والاحترام.

جهود غير المتزوجين:

إن ظاهرة (العزوبة) بين الذكور أو بين الإناث ليست ظاهرة جديدة، ومشاركة أصحابها في بناء المجتمع مشاركة قديمة،فقد كان من بين العزاب: المحدثون، والفقهاء، والباحثون، وعلماء اللغة، والأدباء،والشعراء، والباحثون، وكان من بين العانسات: العابدات الزاهدات،كرابعة العدوية،والأديبات الناشطات،مثل (مي زيادة)، ومن حملن على عاتقهن مشاكل الأيتام أو الفقراء، أو المرضى والعجزة، ومنهن من قامت بدور رائد في مجتمعها؛ لأنها لم تنظر إلى ذاتها، وإنما نظرت إلى يتامى المجتمع على أنهم أبناؤها، وإلى مرضى المجتمع على أنهم أخواتها، وإلى العجزة والمقعدين على أنهم شركاؤها في الحياة، يستحقون منها العون والمساعدة باليد أو بالقلم أو بالمال، ومن هؤلاء كانت (جين آدامز) تلك التي ركزت دراستها في الطب لتعيش للفقراء، فقد كان شعورها ببؤسهم يطغى على تفكيرها ؛ولذا صممت على

استئجار منزل في شيكاغو تجمع فيه كل من تتحرك فيه العواطف النبيلة لمساعدة الآخرين، وأخذ المتطوعون يتدفقون عليها للاشتراك في تشييد الوحدة الاجتماعية التي سميت: (هل هاوس) والتي عنيت بالأطفال والشيوخ، وكافحت ضد مرض السل وَحَدَّت من انتشار وبيع المخدرات، وقد نالت (جين آدامز) هذه جائزة نوبل على خدماتها، ونالت هذه الجائزة كذلك عنساء أخرى هي (غابريللا مسترال)، تلك الشاعرة التي تملكتها نزعة أمومة قوية لم تعط فرصة تغذيتها فحولتها إلى أطفال الآخرين، وقد كانت صاحبة نظرة شمولية تنظر إلى الإنسانية كأنها أسرة واحدة، رافضة التمييز بكل وجوهه، فالإنسان يقدر بقيمته وكيانه الإنساني، وليس بعرض من أعراض الحياة الدنيا.

وكم من فتاة عانس في بلادنا العربية كانت ملء السمع، بعد أن حققت بأعمالها شهرة كبيرة في مجال العمل العام، ومن هؤلاء (ولادة بنت المستكفي)، و(حسانة التميمية)، و(الزباء بنت عمير) وغيرهن في القديم والحديث، وكم من امرأة لها باع طويل في المشاركة في بناء المجتمع، والتفاعل مع مشاكله وقضاياه لا يدفعها الزواج إلى ذلك العمل، ولا تمنعها «العنوسة» من مزاولة الخير وتقديم النفع والحرص على العمل العام.

ومجال المجتمع مفتوح يتسع لكل صاحب طموح تزوج أم لم يتزوج، والمشاركة في بناء المجتمع تغني بعض الذين وهبوا أنفسهم لخدمته عن غيره، والأمثلة عديدة في تراثنا القديم وفي عصرنا الحديث، وفي المجتمع الغربي الحديث، فكم من واحدة أخذت على عاتقها القيام بعبء مجموعة بذاتها في ركن من أركان الأرض، فسعت إليهن الصحف، وأتتهن الجوائز العالمية، وسعى إليهن ـ في احترام ـ كبار الرجال.

فلسنا نعدم في مجتمعنا الإسلامي كثيرات قمن وما يزلن بخدمات كثيرة، وإن زهدن في الدعاية لأنفسهن والإعلان عن أعمالهن، دون أن يشعرن أنهن فقدن شيئًا، أو أن في حياتهن نقصًا، والعمل الخيري الكويتي يشهد بذلك؛فكم من مسجد حمل اسم محسنات، وكم يتيم كفلته النساء، وكم من مدرسة شاركن في بنائها، وكم من بئر للمياه حفر على نفقتها، وما يزال هذا الباب مفتوحًا أمامهن يشاركن فيه بالمال أو بالجهد إن أردن، والأبواب الأخرى لم تغلق ولن تغلق في وجه من تريد الخير، وتفعل البر حملت لقب (سيدة) أم ظلت عذراء تحمل لقب الآنسة.

المبحث السادس

الإعسار والأسعار

قد تنزل بالفرد جائحة من الجائحات الماليــة يضطر على أثرها إلى مراجعة نفسه، والتفكر في أمره؛ ليــرى ما بين يديه من إمكانات، وما هو قادم عليه من مــشروعات ومصروفــات، ويوازن بين ما عنده، وما يريده، مــحددا الأولويات اللازمة، مستـغلا كل باب ممكن، تزيد به ثروته وتقل به نفــقته دون أن يحمــل أبناؤه عبئا أو يشــعرهم بضائقة أو يعرض مستقبلهم القريب أو الــبعيد لمخاطر الديون والأعباء المالية، التي قد يضيقون بها أو يتضعضعون تحت سطوتها وجبروتها.

والدول في ذلك كالأفراد، فــقد تضيق موارد الدولة حينا لســبب من الأسباب، وقد تتوسع في بعض النفــقات حينا آخر لضرورة من الضرورات، وقــد تجد بعد حين من تنفيذ سياسة مــعينة أن الخلل قد دب في الميزانية، وأن العجز قد ظهر فــيها كبيرا كان أو صــغيــرا. . .، وقد يصل الأمــر لأن تعرض بعض المؤســسات الدولية المــالية خدماتها في صورة مقترحــات لضغط النفقات وزيادة الغلات، وأسهل الطرق وأقربها أمام هؤلاء رفع أسعار الخدمــات، أو إلغاء مجانيتها، مع إضافــة رسوم أو قيود تجعل الضرورات يرتفع ســعرها، ويصعب على كــل الناس تحمل ثقلها. والمؤســسات التي تقترح مثل هذه الأشــياء لا يعنيها في شيء إرضاء الشعب بقدر مــا يعنيها جمع المال وزيادة وفرته، وكثرة تكديسه في خزانة الدولة، لتــقول: إن العجز قد قل أو اختفى، وإن التضخم قد ذبل أو انمحى.

أما الذين يعنيهم أمر شعوبهم فــإنهم لا يقبلون مثل هذه التصرفات ولا يضطرون إليها إلا بعد أن يستنفدوا كل وسيلة،ويسلكوا كل طريقة لحل عجز الميزانية قبل تحميل أصحاب الدخول المحدودة أعباء جديدة.

وليست حكومة الكويت بمعزل عن أحاســيس الشعب ومشاعره، ولا هي ترضى أن تضيف إليــه ـ مختــارة ـ بعض ما تضيق به نفــسه، ويعجــز عنه دخله؛ ولذا فإني أظن أنها لن تدخر وسعا في أن تسلك كل طريق ممكن قبل أن تأخذ بهذا الحل السهل

عند اتخاذ القرار،الصعب عند تطبيقه، حيث ينكسر نصله أمام المشاعر الرافضة التي تأبى اللجوء لمثل هذه التصرفات. . . ، وقد اعتاد شعب الكويت أن تقدم له الحكومة كل ما يسره، وأن تدفع عنه كل ما يضره. ولهذا فنحن على ثقة من معالجة هذا الأمر دون تحميل أصحاب الدخول المحدودة ما لا يطيقون.

(١) الفقر فقر النفوس:

إن فقر النفوس أشد إيلاما وأصعب علاجا من فقر الجيوب أو الخزائن؛ ولأن هذا النوع من الفقر يشقى به صاحبه وتشقى به الأمة، جعل الله الفلاح في توقيه فقال: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[١] ولقد حقق المسلمون الأولون هذا الفلاح لمجتمعهم، حين تخلوا عن شح أنفسهم، وجادوا بما عندهم في سبيل الله، حتى كان أحدهم لا يستكثر شيئا يجود به في سبيل الله، يعالج به الفقر، ويحفظ على النفس الإنسانية عزتها من ذل الدين والحاجة والسؤال، ولم يقتصر الجود على الواجدين المكثرين وحدهم، وإنما امتد لبعض الذين لا يجدون غير القليل، الذي يقتسمونه مع إخوانهم، لا لكثرة مالهم وإنما لكرم نفوسهم، وصفاء قلوبهم، وسخاء أيديهم، مما استرعى نظر المنافقين، فعابوا المكثرين وعابوا المقلين فأنزل الله: ﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[٢].

فإذا شحت النفوس، وامتنعت الأيدي عن العطاء، وتغلغلت الأثرة في القلوب، وسادت بين الناس في المجتمع فإن الفشل والإخفاق يسرع إلى هذا المجتمع إسراع السيل إلى المنحدر المائل، وإن كثر فيه المال، وتنوعت مصادره، فما قيمة المال في أيد لا تعطي، وما قيمة العلم في عقول لا ترشد، وما قيمة الفقه في قلوب لا تضيء للآخرين طريق الحياة ليخرجوا من الظلمات إلى النور. ومن هنا كان رسول الله ﷺ يقول: «**فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**»[٣].

---

(١) الحشر: ٩. (٢) التوبة: ٧٩.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١) عن عمرو بن عوف رضي الله عنه .

الفقر الحقـيقي هو فقر النفوس حين تتنافس على متـاع الدنيا وتعرض عن طلب الآخرة بإنفاق المال في غير موضعه، أو الشح به على المكدودين الذين أعياهم النصب والتعب وراء تحقيق مطالب الحيـاة في يسر وسهولة، ولو أن هؤلاء المكدودين وجدوا من يمد إليهم يد العطاء، فيواسي جراحاتهم ويخفف آلامهم، لتحملوا راضين بما قدر لهم، ولصبروا مـحتسبين عند الله أجرهم، ولكنهم قد يجـدون ـ في بعض الأحيان ـ أعباء تضاف إلى أعبائهم، فتضاعف من غمهم وحزنهم وكربهم، لضيق ذات اليد أمام المتطلبات الجديدة، وعـدم قدرة كواهلهم على تحمل الأحمال الثـقيلة؛ لأن ضرورات الحياة قد قضت على أشواقهم الروحية.

فسلبـوا ذلك التكريم الإنساني الذي اسـتحق به الإنسـان هذه الصفـة، فإذا لم يتوافر للإنسان من ضرورات الحياة ما يتيح له فسحة من الوقت والجهد لهذه الأشواق الروحية، فقـد سلب التكريم، وارتكس إلى مرتبة الحيوان، لا بل إن الحـيوان ليجد طعامه وشرابه غالبا، وإن بعض الحيوان ليختال ويقفز ويمرح، وإن بعض الطير ليغرد ويسقسق فرحا بالحياة بعد أن ينال كفايته من الطعام والشراب.

فمـا هو بإنسـان وما هو بكريم على الله، ذلك الذي تشـغله ضرورات الطـعام والشراب عن التطلع إلى مثل مـا يناله الطير والحيوان، فضـلا على ما يجب للإنسان الذي كرمه الله. فإذا قـضى وقته وجهده، ثم لم ينل كفايتـه، فتلك هي الطامة التي تهبط به دركات عما أراد به الله، والتي تصم الجماعة التي يعـيش فيها، بأنها جماعة هابطة لا تستحق تكريم الله، لأنها تخالف عن إرادة الله.

ودولة الكويت منذ عقود من السنين يفيض منهـا الخير بعد أن يعم أبناءها، وقد كانت المؤسسات العـالمية المعنية بالدراسات الاقتصادية والتي تقيـس قوة اقتصاد الدول وثباته بمعرفة مقدار دخل الفرد فيهـا، كانت هذه المؤسسات تعتبر أن الفرد الكويتي لا يقل دخله السنوي عن دخل الفرد في كثير من الدول المتقدمة صناعيا وتقنيا.

(٢) أسباب منطقية وموانع أخلاقية نفسية:

ومعنى هذا أن الأزمة الحالية التي قد ترفع بسببها الأسعار أو تنقص الخدمات هي أزمـة مرتبطة بأمن دولة الكويت بـعد أن اهتـز كيـان هذا الأمن بشدة في أغـسطس

سنة ١٩٩٠م مما استدعى زيادة الإنفاق العسكري زيادة كبيرة، بالمقارنة بما كان عليه قبل ذلك، ثم كانت الارتباطات الأمنية مع بعض الدول، وهي تكلف الميزانية عبئا ماليا قد لا يمكن الاستغناء عنه في المستقبل المنظور، فإذا أضفنا إلى ذلك انخفاض سعر النفط بما لا يقل عن أربعة دولارات للبرميل الواحد أمكننا أن نعرف مدى ما يلحق الميزانية من عجز مع مطلع كل يوم جديد، كل هذا نسلم به ولا نغفل عنه ولكنا نقرر ما قرره الاقتصاديون من أن العجز المستمر يقود إلى التضخم ويكرسه، ويؤدي إلى ارتفاع مستمر في الأسعار، وإذا عجزت دخول الأفراد والأسر عن مجاراة ارتفاع الأسعار فإننا نعلم ـ والتجارب أمامنا كثيرة ـ ما لذلك من آثار ضارة ليس فقط على الاقتصاد ولكن أيضا على البنية الاجتماعية والأخلاقية للمجتمع[1].

ومن هنا وجب قبل وقوع الآثار الضارة على البنية الاجتماعية والأخلاقية للمجتمع أن تعمل الحكومة على زيادة موارد الدولة من غير رفع للأسعار، وإلحاق ضرر بالناس، وإيذاء أصحاب الدخول المحدودة، الذين قد يتخلون ـ قبل رفع الأسعار ـ عن بعض ما يطلبون لأنفسهم ولأبنائهم من الرعاية، فما بالنا إذا ما ارتفعت الأسعار؟

وقد أصبح هاجس هؤلاء وقلقهم ألا يتوقف رفع الأسعار عند حد معين، وهذا ما تشير إليه الزيادة المرتقبة في أسعار الوقود والمحروقات، التي سيترتب عليها من غير شك ـ زيادة أسعار النقل والشحن والتفريغ وأسعار السفر، مما يؤثر ـ بدوره ـ على أسعار الأغذية وعلى تقليص الخدمات في بعض المرافق الحيوية، وقائمة ارتفاع الأسعار لا تقف عند حد مما يستلزم وقفة جادة تقوم بها الدولة قبل أن تقرر رفع الأسعار، لمعالجة عجز الميزانية، ومن المعروف المعلوم لدى المخططين الاقتصاديين (أن أي نفقة في ميزانية الدولة يمكن أن تعد مصدرا لعجز مساو لها في المقدار.. بحيث إننا لو امتنعنا عن تلك النفقة كلا أو بعضا لانخفض العجز).

(٣) وسائل ممكنة:

وسائل تخفيض العجز وأساليبه متنوعة، منها ما يتفق مع ما تقرره الشريعة

(١) بحث معالجة العجز في الميزانية للأستاذ. عدنان البحر.

الإسلامـية في السياسـة المالية، ومنها مـا لا تقبله لأنه لا يتفق مع هديهـا، ولذا فلا يصح الاندفاع نحو تمويل العجز بصيغة شرعية قبل البحث في إمكان تخفيضه أصلا.

وإمكان تخفيض العـجز غير بعيـد عنا لو أحسنا استخـدام إنفاق ما تحت أيدينا فيما يجب الإنفاق فـيه، وتخلينا عن الهدر، وإضاعة كثيـر من الأموال في أمور غير ذات بال، ولا نفع من ورائها إلا لقلة قـليلة، هي في الأصل مستـغنية بما عندها عن هذا النفع القليل الذي يضـيع كثيـرا من المال على حساب الميـزانية العامـة، مما يضر بأصـحاب الدخـول المحدودة، ويضـيف إلى المتـرفين ترفا، ينشـأ عنه الفسـاد؛ لأن الرسول ﷺ سمى بيـوت المترفين بيوت الشـياطين، لما ينبع فـيها من الفـساد، ولما يخرج منها من الفتنة: «**تكون إبل للشيـاطين، وبيوت للشياطين. فأمـا إبل الشيطان فقد رأيتها، يخرج أحـدكم بنجيبات معه قد أسمنها، فلا يعلو بعـيرا منها، ويمر بأخيه قد انقـطع فلا يحـمله، وأما بيـوت الشياطـين فلا أراها إلا هذه الأقـفاص التي تسـتر الناس بالديباج**»[١].

وإذا كان رسول الله ﷺ رآها إبلا للشياطين، لا حاجة بأصـحابها إلى ركوبها، بينما المنقـطعون لا يجدون مـا يركبون. فنحن نجـدها هنا في بعض مظاهر الفخـامة والرفاهة التي لا يعـرفها إلا الأقلون! أما البـيوت التي رآها النبي ﷺ في الأقفاص التي تستر الناس بالديباج، فنحن نراها ووسائل التـرف فيها لم تخطر على قلب بشر في ذلك الزمان![٢]، ثم إننا لو تخلينا ـ أفراداً ودولة ـ عن الإسـراف والتبذير، وهو السمة المميزة للاستهلاك في كثير من السلع والخدمات، لحققنا كثيرا من الأغراض من غير أي زيادة يتحملها صاحب الدخل المحدود وفـرق بين توفير ما يحتاج إليه الفرد، بحيث يضيف إلى رصيده النفسي والمادي استمتاعا بالطيبات، وبين التبذير والإسراف الذي يتجـاوز مرحلة الاسـتمتـاع بالطيبـات إلى الاستغـراق في إضاعـة المال إرضاء للنزوات وطلبا للشهوات «**إن الله يكره لكم ثلاثة: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»[٣] ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾[٤] ﴿**إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٦٨) عن أبى هريرة #، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٨٧).

(٢) العدالة الاجتماعية فى الإسلام، ص ١٢٩.

(٣) أخرجه البخارى (٢٤٠٨)، ومسلم (١٧١٥) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

(٤) الأعراف: ٣١.

الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾[١].

إيقاف الهدر، والابتعاد عن التبذير وتحديد الأولويات في الإنفاق وهي كما أوردها د. عبد الله محمد عبد الله على النحو الآتي:

أولا: رعاية المصلحة في تقسيم النفقات والبدء بالإنفاق على الضرورات ثم الحاجات ثم الكماليات ولكن في حالة الحروب والدفاع عن النفس تكون الأولوية في توفير حاجة الدفاع.

ثانيا: توفير أكبر قدر من المنفعة للمجتمع بأقل قدر ممكن من الإنفاق وذلك بتجنب التبذير والإسراف في الإنفاق، وهو ما يعرف عنه بترشيد الإنفاق الآن، وأن نبحث اختيار من يناصبهم الأعمال.

ثالثا: وأن تكون زيادة الإنفاق مرتبطة بنسبة الزيادة في الإنتاج على الأقل،وإلا كان هناك تضييع لحقوق الأفراد في المجتمع.

رابعا: رعاية العدالة في التوزيع والقيام بحاجة الفقراء والمساكين،وعدم استغلال النفقة العامة لمصلحة شخصية[٢].

وبعد تحديد النفقات والأولويات تحدد المقادير الصحيحة للإنفاق،ليتم إصلاح العجز والتخلص من الخلل الاقتصادي.

ثم بعد ذلك يأتي قانون الزكاة الذي يخرجها من إطار التصرفات الفردية إيجابا أو سلبا إلى التصرفات القانونية الملزمة ـ بحسب الشروط المقررة في الشريعة ـ وهي تقدر بالملايين، وتقوم مؤسسة رسمية كبيت الزكاة مثلا بجمعها بالطرق الرسمية، وتتولى مسؤولية تقديم خدمات اجتماعية كثيرة، نص عليها القرآن الكريم، وأحاطتها السنة المطهرة بعناية خاصة، وقد رفع الإسلام من أهمية الزكاة فجعلها الركن الثالث، وأناط بالدولة الإسلامية مهمة تطبيقها وتحقيق أغراضها.

إن التطبيق الصحيح للزكاة، إلزاميا على الأغنياء، وحقا للفقراء، يرفع عن كاهل ميزانية الدولة عبئا كبيرا في المعونات والمشروعات الاجتماعية مما يخفف من

---

(١) الإسراء: ٢٧.

(٢) موارد الدولة ونفقاتها ص ٥٥.

الضغط على الميـزانية، ويقلل من عجزها إن وجـد، فضلا عما يفـعله من تأثير على التضامن والتـآخي والتراحم في المجتمع (التزكـية والتطهير الاجتـماعيين) مما يزيد في رغبة، واستعداد القطاع الخاص لدعم الميزانية العامة للدولة[١].

وهذا يحقق عـدة وظائف اجتـماعيـة وأخلاقيـة، ويخفف الأعـباء عن ميـزانية الدولة. ومن هذه الوظائف التي يحـققهـا نظام الزكاة: ضمـان حد أدنى من الدخل للذين عجزوا بوسائلهم الخاصة من حيث العمل والملكية عن توفير هذا الحد من الذين يظهرون هنـا: أصحاب الحـاجة من الفقـراء والمساكين، أصـحاب الحاجـة من أسرى المسلمين (مصرف في الرقاب) الـغارمون الذين استدانوا لأنفسهم أو لغـيرهم استدانة مشروعة، بجانب ذلك فتظهر مجموعة أخرى منها الإعانة على التعليم والإعانة على الزواج، كما حدث في عهـد الخليفة عمر بن عبد العزيز والرعاية الاجتـماعية تشمل كل الأفراد الذين يعيشون في ظل الدولة الإسلامية، والزكاة هي الإيراد الرئيسي الذي يمول هذه الوظيفة[٢].

الزكاة تحقق جانب الرعاية الاجتماعية وتعفى الدولة من حمل أعبائها.

(٤) استجاشة الشعور الأخوي:

والخدمات العـامة التي تقوم بها الدولة للمواطنين إنما يتكـفل بها ما تملكه الدولة من موارد ومصانع ومناجم ومعادن. . وغـير ذلك، وقد لا تكفي هذه الموارد ـ أحيانا في بعض الدول ـ سد الاحتياجات ومتطلـبات الخدمات، وفي هذه الحالة يلجأ الحاكم المسلم إلى ما كان يلجـأ إليه الرسول ﷺ في مثل هذه المواقف، حيث يحث الناس على بذل أموالهم والتصـدق على إخوانهم، وقد جاء أبو بكر بكل ماله، وجـاء عمر بنصف ماله، وجهز عـثمان رضي الله عنه جيش العسـرة واشترى بئر رومـة وجعلها للناس بغيـر ثمن، وكان أحد المسلمين يأتي بالصـرة، قد عجزت يده عن أن تحـملها لتتكون أكوام من الطعـام أو الذهب والفضة عند رسول الله ﷺ يعطي منها الفقراء والمحتاجين ويجعلها في الأغراض التي يحتاج إليها المسلمون.

---

(١) معالجة العجز في الميزانية ص ١٩٢.

(٢) موارد الدولة ونفقاتها ص ٢٣.

وهذا يؤدي إلى قيام كل قادر بالاشتراك في تكاليف الدولة العامة بقدر استطاعته، على أن تقوم الدولة المعنية بذلك بصورة عصرية قد تأخذ صورة اكتتاب مثلا لإصلاح مرفق معين أو إحياء أرض أو تعليم الأفراد، أو تطبيب غير القادرين، وقد تتكون هيئات من بعض ذوي اليسار تؤدي خدمات للناس لا تقل كثيرا عما تقدمه الحكومة لهم، فماذا لو اشتركت شركات المقاولات على إقامة جسر معين، أو إنشاء محطة لتوليد الكهرباء وتحلية المياه على أن يساهم فيها كل قادر بقدر ما يستطيع.

وماذا لو قامت مجموعة من التجار بصيانة مرفق معين يخدم الناس؟ والمجالات أمام الأثرياء لا تنتهي ولا تأخذ صورة معينة، وبإمكان الحكومة أن تجعل مثل هذه الأمور تحت إشرافها إما بالتوجيه الفني والتقني أو بالمشاركة العلمية والمالية.

وبهذا وغيره مما يعرفه الراسخون في علم الإدارة وعلم الاقتصاد يمكن أن تسير قافلة المجتمع متعاونة متعاضدة، تعتبر الضعيف فيها أمير الركب، لا يلحقه حيف أو ضرر، ولا يقع ارتفاع الأسعار على رأسه وحده، فيحار في أمر بنيه وفي أحواله حين يجد أن ما في يده من المال يتآكل ويتناقص ويفنى قبل أن يفي بطلباته الضرورية مع ضياع الطلبات التحسينية والكمالية، مما يجعله حاقدا على المجتمع، حاسدا لأرباب النعمة، يتمنى أن تزول نعمتهم ليشعروا بما يشعر به من ضيق وكرب..

والإسلام بالسياسة التعاونية التكافلية التي تجعل الأثرياء يقدمون من أموالهم خدمات للفقراء يستل من النفوس سخاءها، ومن القلوب ضغائنها؛ لأن الفقراء يشعرون أن لهم في أموال الأغنياء حقا يأتيهم في صورة خدمات أو معونات أو غير ذلك.

وبهذا يكون أبناء المجتمع صفا واحدا لأن البر جمعهم، والإسلام ضمهم بتعاليمه فكانوا محققين للآية الكريمة: **﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾**(١).

---

(١) البقرة: ١٧٧.

المبحث السابع
لولا أن رأى برهان ربه

(١) البرهان تثبيت:

نزلت هذه الآية في حق رجل بلغ أشده، وأوتي شطر الحسن، وتهيأت له جميع الأسباب التي لو توفرت لغيره لربما زلت قدمه، وغاصت في أوحال الشهوة المحرمة نفسه، فقد راودته عن نفسه امرأة متميزة في مكانتها الاجتماعية، وهي ذات سطوة تستمد نفوذها من سلطان زوجها عزيز مصر، ولعلها تعودت وهي في هذه المنزلة أن تأمر فتطاع، وأن تطلب فتجاب مطالبها وتلبى رغائبها، ثم احتاطت للأمر فغلقت الأبواب وعرضت نفسها وقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ (١)، ولعلها كانت في كامل زينتها وأبهى حالاتها. ولكن يوسف النبيّ الفتيّ الحفيظ العليم يأبى بشدة الوقوع في هذه الفتنة ويقول: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾(٢) هذا موقفه الثابت ورفضه القاطع من الدعوة إلى ارتكاب الفاحشة مع توفر الأسباب.. ثم جاءته المؤيدات فرأى برهان ربه، ونستطيع أن نقول: إنه رأى من آيات الله ما يدعم موقفه ويثبّت عفته، ويصرف عنه السوء والفحشاء، لأنه كان من المخلصين، الذين يحفظهم ربهم، وإن لحق بهم في سبيل ذلك الأذى والضراء، وظل على موقفه رغم التهديد: ﴿لَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (٣) وحين ثارت الأقاويل بين المترفات، ولاكت الألسن ما حدث، ووقفت النسوة مؤيدات امرأة العزيز وقلن التماسا لعذرها: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٤) حين فعلن ذلك وبدت لهن براءة يوسف أصررن على سجنه ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾(٥) والمهم أن برهان ربه ثبَّت موقفه، وقّوى إصراره، وجعل تحمله للأذى والسجن خاليا من الرهبة أو الركون للظالمين، وكان من حسن تقديره للأمور والأفضليات بينها أن قال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾(٦) فكان السجن أحب إليه من ارتكاب الفاحشة. وكان الأذى أطيب إلى نفسه من

(١، ٢) يوسف: ٢٣.
(٣) يوسف: ٣٢.
(٤) يوسف: ٣١.
(٥) يوسف: ٤٢.
(٦) يوسف: ٣٣.

الوقوع في هذا المنكر الكبير، فإنه لم يكن متلهفا على رد هذا الأذى، بل كان همه نفي أي شك قد يلحق بسمعته، ولذا حين استدعاه الملك، وجاءه من يطلبه **﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾**(١) وفتح باب التحقيق من جديد واعترفت النسوة: **﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾**(٢) وقالت امرأة العزيز: **﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾**(٣).

(٢) حقيقة البرهان:

وبرهان الله أو آياته قد تظهر للمعتبرين في صورة من الصور فتردهم إلى الرشد وتصدهم عن الغيّ، وتمنعهم من الفساد، وتخرجهم من اللهو واللعب، إلى الجد والعمل، ليتحملوا المسؤولية الموكولة إليهم، ويصلحوا في الأرض بعد أن طغى فيها الفساد، وانتشر بين العباد، وليس يعنينا البحث في نوعية هذا البرهان وحقيقته، لأن هذا أمر غيبي لا معرفة لنا به إلا من طريق الكتاب أو السنة، ولم يرد في الكتاب والسنة بيان لهذا البرهان، وكل ما جاء في كتب التفسير إنما هو آراء للمفسرين لا دليل عليها، وبعضها يدخل في باب الإسرائيليات التي تنسب ليوسف عليه السلام ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق كما يقول صاحب البحر في تفسيره، وقد عدد ابن كثير بعض الآراء حول المقصود ببرهان ربه ثم قال: والصواب كما يقول ابن جرير: «أنه آية من آيات الله تزجره عمّا كان هم به».

ما هي هذه الآية؟ ما طبيعتها؟ كيف رآها في هذا الموقف؟ فذلك كله خارج إطار النص ولا شأن لنا بتحمله ومحاولة استكناه ذاته.

ويكفي أنه رأى آية من آيات ربه.

(٣) آيات ونُذُر:

وآيات الله لا تنقضي ولا تنتهي، آياته في الكون وما فيه من خروج على المألوفات لتنبيه الغافلين الذين لا يملكون لأنفسهم حولا ولا طولا، لعلهم ينتبهون إلى ما هم فيه وإلى ما هم مقدمون عليه، مما قد يؤثر في حياتهم.

(١، ٣) يوسف: ٥٠. (٢) يوسف: ٣١.

﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾[1] فالحرائق التي تلتهم الآن آلاف الهكتارات من الغابات في بعض البلدان دون أن تستطيع قوة في الأرض السيطرة عليها هي آيات من الله ونذر، تسير وفق الأسباب التي خلقها، لعلها تكون عبرة وعظة ومانعا من الاستمرار في الكفر والفسوق والعصيان. والزلازل والبراكين والفيضانات في بعض البلاد والجفاف في أخرى، والأعاصير والعواصف، وغيرها هزات تأخذ بمنكب الإنسان علّه يفيق من سكرته ويستيقظ من نومته، ويعود إلى ربه ولكن: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾[2] وبعض هذه الكوارث تحدث في بلاد المسلمين لتردهم إلى الله تائبين، وقد أخبر الله بذلك فقال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [3] أي يرجعون عن الفساد والعصيان والتكبر والغرور إلى طاعة الله والاعتصام بحبله.

وكما تظهر آيات الله في كونه تظهر في النفس البشرية، في صورة مرض خطير أو غير خطير أو جائحة مالية، أو كارثة أسرية أو غير ذلك مما يقطع على الناس طريق الغواية ويردهم إلى طريق الهداية.

والمجتمعات في ذلك كالأفراد سواء بسواء.

(٤) نذير للدولة والأمة:

وحادثة الغزو العراقي رغم قسوتها وشدتها كانت آية لنا على مستوى المجتمع حتى تقضي على ما تسرب إلى بعض الأفراد من أنه مواطن كويتي يفعل ما يشاء، في أي مكان شاء، دون التزام أحيانا بالضوابط الصحيحة في الإنفاق أو في التصرف.

هكذا صنع الغرور ببعض الناس فما عاد يعنيهم شيء -أو هكذا ظنوا- بعد أن ظل الغرور ينتفش في النفوس، حتى جعل الأبصار لا ترى الأشياء على حقيقتها، مما دفع البعض إلى أن يتصرف في رحلاته الخارجية تصرفات بعيدة عن الرشد

(١) الرعد: ٣١. (٢) يونس: ١٠١.
(٣) الروم: ٤١.

والمقاييس الإنسانيـة الصحيحة، فاكتـسب لنفسه حقد الآخرين وكراهـيتهم ونفورهم وأساء بذلك إلى دولته وشعبها أبلغ إساءة.

وجاء الغزو ليرد الســادرين في الغيّ، ويزيل غرور المتكبرين، ويدفع بالناس إلى الاتصال الوثيق بالله، والابتعاد عن جحود نعمه وإنكار فضله، وقد عزم الجميع على شكر الله إن تحررت البلاد لأنه ـ سـبحانه ـ قال: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[١] وبالفعل عاد الناس بعد الغزو الذي شاء الله بفضله ورحمته ألا يطول، عاد الناس أكثر إدراكا للواقع، وأكثر اتجاها إلى الله، وأكثر تمسكا بالقـيم والمبادئ. واستمر هذا حينا ثم بدأ يضعـف أو يفتر، فـكانت الأزمة الحالـية التي نعـيش فيهـا الآن، والتي نحـتاج في معالجتـها إلى الإيمان والصبر والثقة، والتمـسك بشرع الله قبل أي شيء آخر. وهذه بعض الآيات والنـذر أتت تدفـعنا نحـو الفـرار إلى الله كي يـرفع عنا البـلاء ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**﴾[٢].

(٥) نذير للأسرة:

وتأتي الآيات كثيرة على مستوى الأسـرة مثل نفور بعض الأبناء أحيانا، ورفضه الانصيـاع لرغبـات الأبوين أحيـانا أخرى، ورفض الزوجـة تلبيـة مطالب زوجـها، ومحاولة الزوج التخلص من مطالب أسرته، وعدم القيام بواجباته نحوها، تأتي هذه الآيات وأمثالها لتجعل الأسـرة تستقيم على المنهج الذي أراده الله لها: ﴿**وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾[٣] منهج المودة والرحمـة الذي يربط أفراد الأسرة ويحيط بهـا ويجعلها قوية في وجه مشكـلات الحياة ومتاعب الأبناء، وكثرة المطالب الـتي تواجهها، وهذا المنهج هو بعينه الكفيل بتـرميم التشققات في جنبـات الأسرة، وهو الذي يعمل على تلاحم الأم والأب، ووقوفهمـا متكاتفين ضد الخلافات التي تبدأ ضيـقة محدودة، ثم تصير ـ بعد حين ـ متسعة ممدودة تهدد كـيان الأسرة وقد تقضي عليها. . . ، وقبل أن تصل الأسرة إلى هذه النهاية المفجعة تأتيها آيات كثيرة ونذر عديدة، لتردها إلى منهج (المودة والرحمـة) إن هي ابتعـدت عنه، كلها أمارات دالة علـى أن هذه الخلية إن لم يصلحهـا أصحابهـا أصابها التـحلل والفساد، وحين يحـدث ذلك يكون كل أفرادها

---

(١) إبراهيم: ٧. (٢) هود: ٣.

(٣) الروم: ٢١.

تقريبا قد أصبحوا عبئـا على المجتمع؛ لأنهم لم يراجعوا أنفسهم حين جاءتهم النذر، ولم يعملوا على ترميم حياتهم الأسرية حين ظهرت فيها التشققات فأصابها الانهيار، ولو أنهم تنبهوا إلى النذر أو الأمارات أو الآيات وأصلحـوا أنفسهم قبل الوصول إلى حافة الهاوية لسلموا وسلم مجتمعهم، وأراحوا أنفسهم وأراحوا كذلك مجتمعهم من أعبائهم.

(٦) نذر الجماعة:

ولا تقل النذر والآيات التـي تلحق أي جمـاعـة عن النذر التي تلحق المجتـمع والأسرة. فالجـماعات الإسلاميـة تأتيها نذر كثيـرة، لتتدبر أمرها، ولتصلح عـوجها، ولتعود إلى السير في الخط المرسوم.

أبرز هذه الآيات أو النذر تتمـثل في بعض الاختلافات التي تجـعل فردا أو أفرادا يخرجون من الإطار العام للجماعة، لسبب من الأسباب، ويشكلون جماعة صغيرة، أو يكتفون بانفضـاضهم عن الجماعة الأم، كما أن هذه الآيات تتـمثل في فتور بعض الأفراد، أو قلة عطاء بعض الـعاملين مما يؤثر على صورة العـمل العام، وقد تتـمثل الآيات في صورة بعض الاتهامات التي توجه لبـعض الجماعات، وقد تأتي في صورة بعض البلاءات التي تصيب جـماعة من الجماعات قليلا أو كـثيرا. . . ،وقد تكون في صعوبة العمل، أو في الحيرة أمام موقف مستجد طارئ لم يكن في الحسبان، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة والنذر العـديدة التي تجعل جماعة ما تراجع منهـجها وتراجع مواقفـها، وتوازن بين آمالها وواقعهـا، وتعرف مقدار ما يمكن أن تحقـقه الآن أو بعد الآن. وهل هو مناسب لقدراتها أم أقل مما يجب؟

(٧) إن في ذلك لعبرة:

فالنذر هنا مفيـدة عظيمة حين ينتبه لها الناس، أما إن أغـفلوها أو أهملوها فإنها تحدث أثرها في تفكك البناء وضعفه مما يؤدي ـ إن استمـر ـ إلى القضاء عليه فيصبح تاريخا بعد أن كان واقعا.

وهذه النذر أو الآيات أو البـراهين التـي يراها الناس إحـدى سنن الله في خلقـه ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[1] فقبل نزول المصيبة وحلول

(١) الشورى: ٣٠.

الكارثة تكون قد ظهرت للناس أمارات كثيرة وعوائق تصدهم عن الوصول إلى نهاية المنحدر، فإن هم توقفوا عن الانحدار سلموا من الوصول إلى قاع الجب، وإن هم أصروا على انحدارهم أصابهم العذاب وحلت بهم الكوارث، ﴿**ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ**﴾[(١)]، وكم كان أحد الصالحين صادقا في قوله: «إني لأعرف أني ارتكبت بعض الذنوب من عصيان زوجتي ونفور دابتي وإعراض خادمي» ومعنى ذلك أنه يعتبر هذه نذرا تدله على أنه ارتكب بعض الآثام فتصده عن التمادي أو التغاضي ويعود إلى ربه بالتوبة والأوبة.

وما لم تحدث النذر والآيات والبراهين التي يرينا إياها ربنا هذه التوبة والأوبة على مستوى الفرد أو الأسرة أو الجماعة أو المجتمع فلا مفر من الوصول إلا الهاوية، ولا مهرب من استحقاق العذاب، الذي لا ينزله الله على الغافلين إلا حين يعرضون عن نذره، ويبتعدون عن هديه.

وإنه لمن نعم الله وفضله على الناس عامة، والمؤمنين خاصة أن تأتيهم أمثال هذه الآيات لتكون لهم بمثابة المنبهات التي تجعلهم يحاسبون أنفسهم ويراجعون مواقفهم قبل أن يأتيهم حصاد ما صنعت أيديهم.. وقد بيّن الله لنا ذلك حين كشف لنا عن أنه يملي للكافرين ليزدادوا إثما فقال: ﴿**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾[(٢)]، وأخبر الرسول ﷺ بأن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

فآيات الله ونذره ينبغي أن تجعل الناس يقطعون حبل الظلم حتى لا تحل بهم النقمة وتطاردهم اللعنة. وهذا من فضل الله على المؤمنين، وأولى بنا أن نكون من المعتبرين، الذين قال الله في حقهم: ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾[(٣)].

(١) الأنعام: ١٣١.
(٢) آل عمران: ١٧٨.
(٣) الحشر: ٢.

المبحث الثامن

الطريـق إلى الهاويـة

تحدث عملية النخر في مجتمعنا بوسائل متعددة، قد تصل لإخواننا ولأبنائنا وإن كانوا من الراكعين الساجدين، ووسـائل النخر متنوعة، فبعضها اقتـصادي، وبعضها اجتماعي، وبعضها فكري ثقافي، بعضهـا يقتصر على الأفراد، وبعضها يحدث على يد المؤسسـات، وكلها في النهاية تصب في خانـة المجتمع، فتـعوق حركته، وتـقيد نهضته، وقد تعوقه عن السيـر المطلوب نحو الهدف المرصود فترة تطول أو تقصر، مما يستـرعي لفت الأنظار، ويستـدعي مؤازرة كل قـادر على الإسهام في الـتخلص من الأخطار.

ولا نكون مـبالغين إن قلنا: إن أهم الأسـباب الدافـعة إلى هذا النخـر هو ذلكم الانفصـام النكد ـ لدى كثـير من الناس ـ بين الدين والـدنيا، بين المسلم في مـحرابه متبتلاً، وبينه في سوقه متـمولا، بين الصائم نهاره طاعة لله، ثم هو في ليله مقترف لمعـاصي الله، باحـث عن الشـهـوات والملذات وإن كـانت من المحـرمـات، ألم تر إعلانات الصحف عن الخيام الرمضانية وساهراتها؟ إن لم تكن - يا أخي - قد قرأت فإني أنقل لك بعـض ما جاء في إحـدى صحف الأسبـوع الماضي: (بمناسبة الشـهر الفضيل، وإحياء لتقليد الأمسيات الرمضانية الجميلة، أعد فندق.... أمسية موسيقية بعنوان (حلم ليلة شرق) أحياها بالغناء والعزف.....وفرقته الموسيقية العربية، شهد الأمسية عدد كبير من السفراء الـعرب من محبي فن الغناء العربي، ونخبة من المجتمع الكويتي، ورجـال الصحافـة والإعلام، واسـتمـرت الأمسيـة حتى سـاعات الفـجر الأولى، وسط انسجام وتشـجيع الجمهور من عـشاق الموسيقى الغنائيـة العربية)، ولا نشك في أن أغلب هؤلاء الحاضرين ـ إن لم يكونوا كلهم ـ يصبحون صائمين، فهل يتفق صـيام النهار مع سهـراتهم الليلية أم أن صيـامهم شيء وسهـراتهم الليلية شيء آخـر؟ إنه ـ إذن ـ الانفصـام النكد، الذي يجـعل بعض المسلمين يـسجـدون لله في المسجد فإذا خرجوا من المسجد ألقوا أمر الله خلف ظهورهم، وأقدموا على فعل كل ما يريدون، لا تردعهم ولا تمنعـهم صلاتهم من أن يبيعوا مثـلاً ـ السموم ـ للناس،

يهلكون بها عافيتهم، ويسلبون منـهم أموالهم، وهل المخدرات ـ وما يسير في فلكها إلا سموم قاتلة؟

إنه الانفصام النكد الذي يجعل بعض الصـائمين، ينسون أوامر الله في أعمالهم فإن كـان تاجراً غش وأقـسم زوراً، لا يعنيه شيء من أمـر الحلال والحـرام ما دامت سلعته رائجة وتجـارته غير كاسدة، وإن كان مـوظفاً ربما وقع في الرشّوة، وأهمل في العمل، ولم يؤده على جهة الإحسان أو الإتقان.

على حين أن الذين عرفـوا ربهم فعبدوه هم أحق الناس أن يكونوا نمـاذج يقتدى بهم في أعمالهم، وأن يكونوا وقافين عند حدوده، فـلا يقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا يرتكبوا الآثام خـوفاً من غضب الله سبحـانه، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فهم يعرفون الحلال فيأخذون منه ما يرضي الله وما قسم، ويعرفون الحرام فـيتوقفون عنه كله، لأنه يغـضب الله، هذا شأن المسلم الذي يحمل إيمانه في قلبه فهو معه حيثما حلّ، ولكن بعض الناس يجعلون إيمانهم كثيابهم يغيرونها بحسب الـظروف والأحوال، وبحسب المـزاج والرغبات، فـخف وزن الإيمان عندهم، وصار خـوف الناس أعظم في قلوبهم ونفوسـهم من خوف الله، ارتفع في مـيزانهم الخوف والرهبـة من عذاب الآخرة، ورجح عندهـم عذاب الدنيا، فـهم يحاولون أن يتوقوا عذاب الدنيا بما استطاعوا ولا يتوقـوا عذاب الآخرة، وصار الدين ـ بتعاليمه ـ طقوساً تؤدى في وقتها، ثم بعد ذلك ينطلق الإنسان يعب من الحياة عبا، غير عابىء بحرام أو حلال طالما أمن عقاب الدنيا وعذابها، فإن كان لما هو مقدم عليه عذاب في الدنيا فإنه يتوقف ريثما يستقر أمـره: أيخاطر فيقدم أم يتأنى ويحجم؟ أما أمر الآخرة فقد هان عند الكثيرين حتى صار كأنه غير كائن، أو هكذا يتعامل معه الناس.

حدثني أحد العـاملين في مجال الإعلام، بعد أن استـضاف ـ في رمضان هذا ـ أحد المختصين في مـرض فقدان المناعة (الإيدز) وبعد حديثـه عن أن أهم أسباب هذا المرض (العلاقات الجنسية غيـر المشروعة)، وبعد أن بين أعراض المرض وطرق الوقاية منه بعد هذا الحديث جاء العاملون في إعداد هذا البـرنامج التليفزيوني وسأل بعضهم هذا الضيف: لـقد نمت بالأمس مع امرأة فـهل يمكن أن أصاب؟ ومـاذا أعمل الآن؟ وقال آخر: كنت من أسبوعين مع اثنتين، فماذا أصنع الآن وهل يمكن أن أكون أصبت؟

يحكي محدثي أن هؤلاء العاملين معه في إعـداد البرنامج صائمون، نعم صائمون نهاراً ضائعون ليلاً، يتـبعون طريقة الانفصام النكد، فلا يبقى مـعهم من العبادة التي يؤدونها رصـيد ينهاهم عن الفحـشاء والمنكر، ومع علمهم بحـرمة الزنا التي هي من المعلوم بالدين بالضرورة فإنهم ما خافوا عـذاب الله، فامتنعوا عن الفحشاء، أو على الأقل فكروا في التوبة منهـا والرجوع عنها، فلما علموا عـذاب الدنيا الذي تمثل لهم في (الإيدز) خافوا وفزعوا، وجاءوا يسألون: ماذا يعملون؟

فليقرؤوا إذن ما يقوله د. راشد عبدالعـزيز العويش مقرر اللجنة الوطنية لمكافحة الإيدز: «وأفـضل علاج واق من وجـهة نظري هو العـفة والتـقوى وتربيـة الشـباب عليها، وهذا ما كفله لنا ديننا الإسـلامي للوقاية من جائحة هذا المرض. . . ينبغي أن يكون حرص المرء مـبنياً على تقـوى الله، وعلى العفـة والطهارة، وابتغـاء الحلال، والبعد عن الممارسات غيرالمشروعة»[1] .

إن طريق النجاة من الإيدز وغيره من الأمراض والمعوقات هو في الالتزام بتعاليم الدين في كل وقت وفي كل مكان، وصدق الله العظيم: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى**﴾[2] فهل يعي شبـابنا هذا؟ وهل تعي تلك المجموعة من الـشباب ـ التي رأيت سخطها في المطار وسمعت جلبتها ـ ما أقول؟

والقصة رأيتهـا بعيني منذ سنتين عندما اضطررت للسفر في صبيـحة عيد الفطر عبر مطار الكويت، وكـانت الطائرة تقلع في الساعة التاسعـة، ومعنى ذلك أن أكون في المطار في حدود الثامنة تقريباً، وتـوجهت في الموعد المحدد الى المطار وإذا بجلبة وسخط تلفت الانتباه، فنظرت فإذا مجـموعة من الشباب لا تقل عن ثلاثين ارتفعت أصواتهم، ولما حـاولنا أن نعرف سبب السخط والغـضب قيل: إنهم كانوا مسـافرين إلى (. . . .) البلد العربي، ولظروف الطيران فإن هذه المجمـوعة قسمت إلى قسمين قسم يسـافر في الموعد المحـدد ، وقسم يتأخر حـتى المساء، وهنا علا الصـياح وزاد الغضب، وانكشف المسـتور لأنهم على موعـد هناك مع بعض الغانيـات قبل حلول المساء.

---

(١) الوطن ٢١ / ١ /١٩٩٧م. (٢) طه: ١٢٣.

فأين منهم صيام رمضان الذي صاموه؟ هل وصلوا أرحامهم؟ هل خافوا ربهم؟ هل كانت رهبة عذاب الآخرة في نفوسهم؟ إلى آخر هذه الأسئلة التي يعتبرها البعض أو قد يعتبر المقالة كلها موعظة تمر وتمضي. وإنني أقرر أنها موعظة ونصيحة ودواء عظيم لشفاء النخر الذي يكاد ـ إن لم يوقف ـ يستنزف قوى المجتمع، ثم يؤدي به إلى البوار.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ. . .﴾[1].

---

(١) الحديد: ١٦.

المبحث التاسع

نصائح دعويــة

(١) دع عنك الأَثَـرة:

إن راحـة الإنسان وسـروره ولذته لا يعـدلها شيء ولا يـتحـقق به ذلك إلا إذا استطاع أن يتخلى عن الأنانية، وأن يحب للآخرين ما يحبه لنفسه وألا يستأثر دونهم بشيء.

وقد حرص النبي ﷺ على بيان ذلك للناس حتى يتمسكوا به، وجعل ذلك من سمات المؤمـنين، فقال: «**وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنًا**»[1] والأَثَرة داء بغيض، ومرض نفسي خطير تجعل الإنسان يقسـو قلبه، وتجعله يفتقد نوازع الرحمة، ويخلو من الشـفقة، ولا يعـرف من العطف شيـئًا، بل إنه ليشـتد في قـسوته على الآخرين، وربما انـتزع بعض حقـوقهم، فكرهتـه القلوب، وتمنت له شـديد البلاء، وعظيم الكرب والشـقـاء. وفي المأثور الشـعبـي: «من أحب نفسـه كـرهه الناس»، والإنسان العاقل جدير بالتخلص من هذه الأوهام، لو أنه نظر للآخرين نظرته لنفسه، وحـافظ على حقـوقهم كـمـا يحافظ على حـقه، ولو أنـه ارتقى خطوة في سبـيل التسـامي، فتنازل لغـيره عن بعض حقـه، لكسب بذلك محـبة الآخريـن وتقديرهم ولعاش حياته ناعم البال، رضي الفؤاد.

إن حاجتنا لجذب أنظار الآخرين تضر بنا أكـثر مما تصلح؛ لأننا نفعل ذلك بفخر واسـتـعلاء علـى الغيـر « إن الأنا هي ذلك الجـزء الذي بداخـلنا والذي نرغب من الآخرين أن يروه وأن يسمعوه ويحترموه، وأن يعتبـروه شيئًا متفردًا غالبًا على حساب شخص آخر. ويتمثل هذا الشيء في الرغبة في الحديث لشد الانتباه أو إحداث حركة للفت الأنظار، أو جعل حديث بعض الناس تأكـيدًا لما قلته من قبل، ولو أنك أثنيت على أعمال الآخـرين التي تستحق الثناء، وحاولت أن تتعلم مـنهم وأن تعمل مثلهم لأسعـدت الآخرين وأسـعدت نفسك وجنبـتهـا نظرات الآخرين المؤلمة، وعـباراتهم

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٣٠٥)، وقال: «غريب»، وابن ماجه (٤٢١٧)، وصححه الألبانى.

المسفَّة، ولأثبت لغيرك حضور ذهنك وتفتح قريحتك، وجمال عبقريتك بدون أن تثير فيهم نوازع الأحقاد والآلام.

إن الناس يكرهون المتعالين، ومن أولى بالتعالي ممن يرى لنفسه حقًا فوق الآخرين وقدرًا يعلو على قدرهم؛ لأنه أوتي شيئا من البيان أو شيئًا من الصحة، أو شيئًا من الذكاء، إن هذه العوامل هبات من الله يكون شكرها بجعلها في خدمة الآخرين لا في الترفع والتعالي عليهم وتسفيه آرائهم، وإظهار ضعفهم ووهنهم، ولعل سد هذا الباب، الذي يكون ضرره أكبر من نفعه هو ما جعل رسول الله ﷺ يقول لسعد بن أبي وقاص وقد رأى أن بنفسه شيئًا يتفوق به على الضعفاء: «**وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم**»[1].

إن الناس يحبون أنفسهم من غير شك ـ تلك فطرة أوجدها الله فيهم ـ ولا نطلب منهم أن يغيروا طبيعتهم،وأن يتخلوا عن حبهم لذواتهم، ولكنا نطلب منهم ألا يبالغوا في حب أنفسهم بحيث لا يرون شيئًا غير ذلك، نطلب منهم أن يجعلوا للآخرين مكانًا معهم، نطلب منهم أن يعملوا على إسعاد أنفسهم بحب الآخرين وخدمتهم، والعمل على التخلِّي لهم عن بعض حظوظ النفس، فذلك باب فسيح ومدخل واسع لسعادة عظيمة في الحياة.

(٢) حساب النفس:

كان من دأب الصالحين ـ وما يزال ـ أن يحاسبوا أنفسهم كل ليلة قبل أن يستسلموا للنوم، ليروا أأحسنوا في يومهم أم أساؤوا؟ وليصححوا ما قد يكونون وقعوا فيه من أخطاء، ويستغفروا مما قد يكونون اقترفوه من سيئات، وليصلحوا ما بينهم وبين الناس إن كانوا قد أساؤوا إليهم، وليستمروا على نهجهم إن كان الله قد حفظهم من الوقوع في شيء من ذلك.

وهذا النهج ـ إن أخذه الإنسان بصدق وعزم ـ تجديد للحياة، وبناء صاعد للفضائل والمحاسن يعلو كل يوم ويفكر فيه الإنسان دقائق كل ليلة، فيفيض قلبه

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٩٤)، والترمذى (١٧٠٢)، والنسائى (٦/ ٤٥)، عن أبى الدرداء رضي الله عنه ، قال الترمذى: «حسن صحيح».

بالرضا حين يجد كفة الحسنات تعلو في ميزان الحياة على كفة السيئات، حين يجد أن أخطاءه وخطاياه قليلة، وأن أعماله الخيرة راجحة لا مرجوحة، وأن صلته بالله وبالناس وثيقة مكينة، **ومن هنا كانت نصيحة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب:** «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتزينوا للعرض الأكبر، **﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾**[(١)]».

إن هذا الحساب اليومي ـ إن واظب الإنسان عليه ـ وجعله أداة إصلاح كفيل بمنع الندم عند الكبر، وكفيل بألا تتطرق إلى لسان الإنسان كلمة «لو» التي تفتح عمل الشيطان، وجدير بأن يحمى الإنسان من الندم الطويل على ما فرط في جنب الله، أو ما فرط في جنب نفسه في مراحل عمره المتقدمة حين يكون استدراك ما مضى أمرًا عسيرًا أو على الأقل أمرًا صعب التحقيق، بعيد المنال.

وكم من أناس ندموا أشد الندم وبكوا أعظم البكاء وهم يحتضرون؛ لأنهم لا يملكون إصلاحًا لما فات، ولا إحسانًا فيما هو آت، وكم من أناس أقعدهم المرض فعجزوا عن أن يغيروا من شأن ماضيهم ما كان قد لحقهم فيه التقصير، ولو أنهم كانوا حريصين على المحاسبة اليوم لأدركوا ما أملوا فيه قبل فوات الأوان ومرور الأيام، ولكن هيهات، ضعفت هممهم، وتمادوا في غيهم، وغرهم شبابهم أو جاههم فاستمروا في اللهو واللعب وبعدوا عن جادة الصواب والرشاد، فعاد عليهم لهوهم وبالاً، ولعبهم ضلالاً، وندموا حيث لا ينفع الندم، وبكوا حين لا يجدي البكاء.

إن التخلص من هذه الآلام والأحزان يحتاج إلى يقظة وهمة، وترك للغفلة، وأول هذه المراحل المحاسبة الواعية التي تصلح الأخطاء إن وجدت،وتستمر في المحاسن ما بقيت لها حياة.

(٣) الإنسان بين المدح والقدح:

«**حب الثناء طبيعة الإنسان**» والإنسان أي إنسان لا يستطيع أبدًا أن يكتسب رضا الناس جميعًا، إنه إن حاز ثقة البعض نال سخط آخرين، أو على الأقل عدم

---

(١) الحاقة: ١٨.

رضاهم، وبقدر مـا يمدحه بعضهم على حـسن تصرفه في أمر من الأمـور، بقدر ما يلومه غيرهم علـى أنه لا يحسن التصرف في عمل من الأعمال أو لـم يحسن توجيه قول من الأقوال.

الإنسان يعيش حياته بين مدح طائفـة له وذم أخرى، ولا ينبغي للإنسان أن يغره الثناء، فلا يتـبصر أمره، ويدرك عـاقبة عـمله، ولا أن تأخذه العزة بالإثم فيـعرض جملة عن الناقدين متهمًا إياهم بسوء القصد، وانحراف الغرض، فقد يكون من بينهم من يقدم له خـالص النصيحة لتـسلم أعماله من الغبش، وتسلم أقـواله من التلبيس والتدليس، وكفى بصاحب هذا النصح فضلاً وبرًا وقد يكون من بينهم من يدله على ثغرة قد أقامها وحفرة يوشك أن يتردى في جوفها، ولذا فليس كل نقد دافعه الحقد، وليس كل نقد غرضه الهدم،ومن هنا وجب على الإنسان أن يعلم أن النقد ـ أحيانًا ـ يكون مقومـا من مقومات بناء الحيـاة، وأن الإعراض عنه استمـرار للهدم وضيق في الأفق وبعد عن جـادة الصواب والالتزام. ولذا كـان ابن الخطاب # يقول: «رحم الله امرأ أهدى إليّ عيوبي»

وليس في مـقدور الإنسـان ألا يشـعر بالـغضب إزاء رفض الآخـرين لآرائه أو تصوراته أو أعماله، وبدلاً من الدخول معهم في جـدال وصراع وشجار وخصام فإن تعوده على قبول هذا الأمر مع افتراض صدقـهم، ومحاولة التثبت والمراجعة لما صدر عنه خير من التمادي فيما لا تحمد عقباه، ولا يجلب على النفس غير الشر والمكيدة.

ومن الطبيـعي في الحياة أن يلقى الفـرد من الناس الخير والشـر والمدح والقدح، وأن يتردد عـملهم معه وقولهم عنه بـين الحق والباطل، ومن وطَّنَ نفسه على قـبول هذه الحقيقة من الناس لم يعد يعنيه المدح ـ وإن ارتضـاه ـ ولم يعد يعنيه القدح ـ وإن كـرهه ـ وإنما انصبت عـنايته على تحسين أعـماله وتهذيب أقـواله، وموافقـته للحق والصواب، وتحـقيق الخـير للآخـرين ولو لم يشكروه، فشـأن كثيـر من الناس إنكار الخير، وجـحود المعروف، والتغـافل عن شكر صاحبهـما وإعطائه حقه من الـتقدير والتكريم، وخير جائزة لمحب الخير هي فعل الخـير، وخير مكافأة لفاعل المعروف هي إرضاء النفس، وتحقيق ما تصبوا إليه من إتقان العمل، وعموم النفع، من غير انتظار ثناء من أحـد، وكفى أن الله عليم بما في الصـدور، وهو الذي يجزي على الحـسنة

الواحدة أضعافًا مضاعفة، وهذا الأجر عند الله لا ينفد ولا يضيع هو خير عوض وهو الذي إن استقر في القلوب شعرت بالسعادة والرضا على ما قدمته من خير للآخرين ولو لم ينلها منهم ثناء أو جزاء.

فالخير الخير والبر البر والصلاح الصلاح. فكل ذلك سبيل السعادة التي لا يدركها الآخرون... فأين المبادرون؟

(٤) عدوى الأعمال النافعة:

يردد الأشرار في كل عصر طرائق الشر التي مارسها الأقدمون مع بعض إضافات تقتضيها طبيعة العصر وظروف البيئة وميول الناس، ولكن أصل الشر لا يتغير، وبذرته الأولى التي إن نمت وقويت فتكت بالمئات أو الآلاف تظل هي هي رغم تغير الوسيلة، وابتكار الطريقة، وإحداث بعض التمويه أو التشويه، وكذلك الخير ينتشر ويتسع مداه بوجود الأخيار الذين يحملون فكرته في عقولهم، ويغرسون شجرة الخير في أرضهم، فيستظل بها عديدون، ويبدؤون يعملون على غرسها في أماكن عديدة وفي نفوس كثيرة، ولعل هذا يفسر لنا أمر رسول الله ﷺ للمسلمين في قوله: «**بلغوا عني ولو آية**»[1]، وقول الصحابي حين يلقى أخاه: «هيًّا بنا نؤمن ساعة»، وعمل كل أحد من المسلمين حين يتاح له فعل الخير في دعوة الغير إلى نور الله، أو في تقديم عون مادي أو معنوي، وهل كان فعل رسول الله ﷺ إلا خيرًا استقى منه الصحابة فساروا على نهجه؟ يرشدون الضال، ويفكون الأسير، ويعطون العائل الفقير، ويرحمون الصغير، ويحترمون الكبير، وينصرون المستغيث، ويدافعون عن الحق والعدل، ويواجهون الجور والشر، ويتعاونون في البأساء والضراء ولا يتعاونون في إثم أو عدوان. سار بينهم الحق فكانوا جنوده، وكرهت نفوسهم الشر فصاروا أعداءه يحاربون ناشريه، ويواجهون مروِّجيه.

وسار على نهج هؤلاء الأصحاب ثلة من الناس لا يخلو منهم عصر من العصور؛ ليظل وهج شعلة الحق مضيئًا، ونورها وضيئًا، يجتمع حوله أصحاب الهمم الصادقة، والفضائل الناطقة بسمو المقصد، ونبل الغاية.

---

(١) أخرجه البخارى (٣٤٦١)، والترمذى (٢٦٦٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ولا يعنينا أن نعدد وجوه الخير في عصرنا؛ لأن الناس يعرفونها وقد يمارسونها أو يمارسها بعضهم على الأقل، ولكنا نود أن نؤكد أن سـعادة فعل الخير، وإدخال السرور على الآخرين لا تعدلها سعادة، ولا نود أن تقـتصر هذه السعادة على عدد من الناس محدود؛ لأن في مقدور كل أحد أن يفعل شيئًا من الخير قلَّ أو كثر، وأن يجعل من نفسه ركيزة لمن حوله ومنارة تشع الضوء والخـير للآخرين الذين لن يكتفوا ـ بعد حين ـ بالرؤية المجردة، وإنما سيشاركون في حمل أمانة النفع وفي إيصال الخير للآخرين كما وصل إليهم من قبل، فـتقديم الخير عمل ممتع يفـعله الإنسان وإن كلفه بعض الوقت وبعض المال والجهد؛ لأنه يشعر بالرضا بـعد أدائه، ويشعر أن هذا الرضا لا ينبغي أن يكون وقفًا عليه وحده من دون الآخرين، فمجالات الخير المتعددة التي تبدأ من التصدق بالقليل من المال «**ولو بشق تمرة**»[1] والقليل من القول «**الكلمـة الطيبـة صدقـة**»[2] ثم تتصاعد في الرقي والجهد والبذل إلى ما شـاء الله، وفيها لكل أحد متسع يستطيع أن يقوم به وأن ينفع به الآخـرين، وأن يمتع نفسه بعـديد من المتع المعنوية في هذا المجال الحيوي البالغ الأهمية.

(٥) القناعة والرضا:

إن من أكبر أسباب القلق للإنسان تركـيز تفكيره على ما يريد أن يتملك لا على ما يتـملكه بالفعل، ورغـبات الإنسان من مـتاع الدنيا لا حـد لمنتهاها مـا لم يحاول الإنسان الوقوف عند حد معين من هذه الرغبـات المشتهاة، وقد بيّن رسول الله ﷺ طبيعـة الإنسان، الذي لا يشبع من متاع الحيـاة الدنيا في قوله: «**لو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانيًا، ولو كان له واديـان لابتغى لهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدمً إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»[3]، وهذه الطبيـعة التي تريد وتريد وتريد من غير أن تشبع أو تقنع، تجعل المرء لا يستريح في الحياة، ومهما أعطى من النعم، فإنه يظل يتطلع إلى غيرها، أو إلى ما هو أكبـر منها، وهذا التطلع الدائم قد ينغص عليه حياته، وينكد حـاضره، ويضر بمستقـبله، ويجعله لا يستقـبل نعم الله عليه بالشكر

(١) أخرجه البخارى (١٤١٣)، ومسلم (١٠١٦).
(٢) أخرجه البخارى (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).
(٣) أخرجه البخارى (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

والرضا، بل يتقبلـها بالجحود والنكران، فتزول من يده النعمـة ولو بعد حين، ويبقى له الشقاء الذي كان يصاحبه في حضور النعمة، ولم يفارقه عند زوالها.

ولو أن الناس تدبروا مـا تحت أيديهم من نعم الله لأدركوا أنهـا ـ وإن قلت في أعينهم ـ أعظم من أن تعدّ وأكبر من أن تحصى: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا**﴾(١). وأن عليهم ألا يخالفوا طبيعتهـم في التطلع المشروع لمزيد من النعم، يحققه لأنفسهم أصحاب الهمم العالية، الذين يواجهون الصعاب ويقتحمون الأخطار، والذين عندهم من المصابرة والمثابرة على الأعمال النافعة ما يحقـقون به لأنفسهم شيئًا زائدًا من متاع الدنيا وطيـباتهـا، والله سبحـانه قد أمر بالمشي في مـناكب الأرض والأكل من رزقه والاستمتاع به، فقال: ﴿**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾(٢).

لا بأس إذًا من السعي المشروع لتحقيق مزيد من المتاع، ولكن القدرات متفاوتة، والطاقات البشرية ليـست متعادلة، والناس ليسوا سـواسية في هذا الجانب، ومن لم تكن له منهم همة عالـية، ونشاط دائب وسعي موصول، فـإن عليه أن يرضى بحظه في الحيـاة مع استمراره في السـعي والعمل، وأن يقنع أن ما عنده ربما أكـثر مما عند غيره وأن بلاءه ـ إن حدث ـ أخف من بلاء غيـره، وأن الحظوظ مقسمة في الأرض، وأن القناعة مع بذل الجهد، والرضا بما قسم الله خير قد يبارك الله فيه، فيغدو القليل كثيرًا والكثير أضعافًا.

إن كثيـرا مما يشكو منه الناس هو من صنع أنفسهم، وبقليل من الـتروي والتأمل والقناعة بنعم الله تزول هذه الآلام وتخف هذه الأحزان.

إنك حين تملك القليل من المتاع خـير لك من العدم، وطالما أن الكثـير ليس في مقـدورك فليكن رضاك بالقـليل الذي تملكه مسـتمرًا، وليـكن شعورك وامـتنانك به دائمًا، وتذكـر القول السائر «عـصفور في اليد خـير من ألف على الشجـرة» والقول المأثور: «**القناعة كنز لا يفنى**»، واعلم أن السعادة ليسـت في كثرة العرض، وإنما هي في الرضا بالمتـاح، وعدم التطلع إلى ما في أيدي الآخـرين، ولتكن دائمًا على يقين

(١) إبراهيم: ٣٤.

(٢) الملك: ١٥.

من قول رب العالمين: **﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾** [(١)]، وقوله: **﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾** [(٢)]، وبذلك يظل بينك وبين السعــادة أسباب لا تنقطع ولا تزول.

---

(١) النحل: ٧١.

(٢) النساء: ٣٢.

المبحث العاشر

لك الاختيار ..... في رمضان

حمامة مسجد ..... أو غراب مفسد

(١) وقوفا مع الحق الأصبح ..... لا مع الباطل الأقبح:

مخطئ من يظن أن الاستـعداد لرمضان يبدأ عنـدما يتم الإعلان عن رؤية هلال شهر رمضان. .إذ من المعروف أن التوبة من المعاصي والاستعداد النفسي لهذا الشهر، العظيم، والشوق إلى بلوغه يتملك جوانح المخلصين، فيقضون الأسابيع،وربما الشهور وهم في وهج الشوق إلى رؤية أيام رمضان المباركة ولياليه العامرة بالطاعات والقربات.

هذا الشهـر يتطلب منا أن نشد المئـزر، ونحرم النفس من بعض حـظوظها في الدنيا، حتى يصل المؤشر الإيماني إلى أعلى مـدى، والزاد الإيماني إلى أكبر مخزون، فدمعة الليل وسـجدة الفجر، وتسبيحة الصـباح وسائل لا تخيب ولا تخطئ في نيل المرام ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[1]. والورد القـرآني، والذكـر الإيماني، والقلب المعلق برب الشهر خـير ما يفيد العبـد وهو يسير إلى الله، ويقطع مسـيرة الحياة في تحـقيق العبودية لـله سبحانه وتعـالى . . . وإذا كان رمضان مـجد فحري بطالب المجد أن يجد ليجد، وأن يغرس ليجني، ولله در القائل :

لا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ ... لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

إن أفضل ما يمكن أن يفعله العبد في شهر رمضان أن يكون حمامة مسجد،ما إن يبتعد ليقضي بعض حوائجه حـتى يعود مسرعًا على جناح الشوق إلى مصلاه . . . يلقي عن كاهله هموم بقية الشهور،ويبتعد عن الأعمال التى تأكل الذنوب كما تأكل النار الحطب وليصد عن الرذائل والهفوات. . . وليضرب عن المزلات وليكن شعاره:

لا تلْهِيَنَّكَ عَنْ مَعَادكَ لَذَّةٌ ... تُغْنِي وَتُورِثُ دَائِمَ الْحَسَرَاتِ

إِنَّ السَّعِيدَ غَدَاً زَهِيدٌ قَانِعٌ ... عَبْدُ الإله بِأَخْلَصِ النِّيَاتِ

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ إِنْ مُنِحْتَ إِمَارَةً ... وَارْغَبْ بِنَفْسِكَ عَنْ رَدَى اللَّذَاتِ

(١) البقرة: ٤٠.

وحبذا أن ينفـرد العاقل مع ربه مناجيًا، ومع كـتابه تاليًا، وليأخذ نفـسه بالحزم والعزم كأنه في عمليـة تصفية للنفس مما أصابها من معـارك الصراع في الدنيا، حتى تعود نقية إلى فطرتهـا التى فطرها الله عليها . . . خالية من أسلحة الغيـبة والنميمة التى تحقق بها بعض النفوس ما عشعش في قلوبهـا من علل الحقد والضغينة لتصيب عرضًا من الدنيا هنا أو هناك . . .

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

عندمـا يأتي رمضـان ويصفـد الله شيـاطين الجن، يأبى شيـاطين الإنس إلا أن يقومـوا بدورهم ودور إخوانهم شيـاطين الجن المصفدين، فـينحرفون بأهداف الشـهر الفضيل ورسـالته، ويتحول إلى شهر تتـكالب فيه رؤوس الشياطين على إفسـاد عباد الله المؤمنين تارة عـبر وحل الفـضائيـات التى أصبـحت المتنفس الرئيسي للـمائلات المميلات، والكاسيـات العاريات التى انساق خلفهن الفتيان والفتـيات، وأتبعوا النظر الأول بعشـرات النظرات حتى يتحول المشـهد كله إلى شياطين تلقـي بسمومهـا عبر جهاز التلفـاز في العقول والعيون، وَمُـشَاهِدٌ يجلس كالمبهور الأسـير يتلقى كل تلك المشاهد كالإسفنجة الجافة التي سرعان ما تمتص مئات، بل آلاف الذنوب المتراكمة في فتـرات زمنية قـصيرة. . ومـتى؟ . . في شهـر الانتصارات والرحـمات والعـبادات والطاعات . . !

وتارة أخرى عبر شبكة الحاسوب الـعنكبوتية التى نقلت قذارات الأفلام الساقطة والمجلات الخليـعة إلى شـاشات الحاسـب الآلي، فضربت العلم الـذي كان يمكن أن يستفاد من هذه الشبكة في مقتل، ورغم أن هذه المواقع الإباحية لا تشكل إلا أقل من ١٪ من حجم المعلومـات في الشبكة عظيمـة الفائدة، إلا أن ٩٢٪ من المترددين على الشبكة يتكالبون على هذه المواقع الساقطة، فـلا يمكن أن نصدق أن هذا الجيش المقبل بشغف واهتـمام على شبكة الإنترنت يهـتم بالجوانب العلمية الموجـودة في الشبكة؛ لأنهم لو كانوا صـادقين لكانوا قد ملأوا المكتبـات العامة ودور معارض الكـتب بحثًا واهتمـامًا، قبل أن يدخلـوا إلى هذه المواقع لينتهكوا الأعـراض «إلكترونيا» ويقـضوا الساعات الطويلة في المحادثات ـ المليئة بالزيف والكذب.

وهذا لا يعني أنه ليس هناك من يستـفيد من هذه الشبكة استـفادة جادة، لكنهم

أقلية وكالشعرة البيضاء في الثور الأسود، ولا حول ولا قوة إلا بالله...!!

يدخل الإنسان في شهر رمضان، وهو يمني نفسه بالأماني الكاذبات، فيسرف ويؤخر ورده القرآني، ويتكاسل عن العبادات والتراويح، ويقضي الساعات الطوال أمام أجهزة التلفاز والحاسب، ويحسب ذلك من ليالي رمضان الجميلة والحلوة، ولا يذكر ولا يدري أن هناك آخرين غيره قد قبضهم الله إليه قبل أن يبلغوا شهر رمضان المبارك، وكان من الممكن أن يكون منهم، وكأنه أخذ عند الله عهدًا أن يحييه حتى رمضان القادم، فيحرق أيام رمضان المباركة في حل فوازير المجلات، والسهر مع المسلسلات، حتى تظله العشر الأواخر، فيجد أنه لم يقرأ من القرآن ما كان يأمل، ولم يتمتع بالنظر في كتاب الله، وكل دروس العلم والخير قد فاتته، وأصبحت الغربة بينه وبين بيوت الله مرة وشديدة ... فبدل أن يصبح في شهر رمضان حمامة مسجد يجد نفسه وقد أصبح غرابًا مفسدًا ...

فأيها الغافل ... اتق يومًا يتبرأ فيه الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا... وتتقطع بينهم الأسباب ... فترى نفسك وحيدًا وقد مضت قافلة المؤمنين بالأجر ... بينما أثقلك الوزر أن ترحل معهم، فتعض أناملك من الندم ... يوم لا ينفع فيه تلفاز ولا حاسب ... إلا من أتى الله بقلب سليم ...

(٢) احذر ضياع المتاع وإهدار جبال الحسنات :

وإليك أخي الصائم دعوة بهمس ونصيحة برفق... أودعكها وَقَبْلاً أنصح بها نفسي... أن احذر عليك جبل الحسنات أن يتهدم... ونفحات الطاعة أن تغدو لفحات.

لاَ تَخْدشنَّ بِمَطْلٍ وَجْه عَارِفَة ... فَالْبِرُّ يَخْدشُهُ مَطْلٌ وَلَيَّانُ
كُلُّ الذُّنُوبِ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُهَا ... إِنْ شَيَّعَ الْمَرْءَ إِخْلاصٌ وَإِيمَانُ
وَكُلُّ كَسْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يُجْبِرُهُ ... وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ

وإذا خلوت بنفسك في غرفتك .. وظننت أن لا أحد يراك .. ولا أحد يراقبك .. وغلقت كل الأبواب .. وقالت لك نفسك الأمارة بالسوء:.. هيت لك ..

فاحذر الوحل وذكر الرقيب !

إذا صالت وجالت في بالك الخطرات .. وضعفت همتك أمام المغريات ....، وحدثتك نفسك بالاقتراب من المنكرات .. والانسياق خلف الشهوات ..

إذا فعلت ذلك.. أو هممت بفعله.. فتذكر تلك الجبال من الحسنات التي عملتها في رمضان وغيره من الأيام ...

تذكر تلك الجبال ولا تمدحها، قال رسول الله ﷺ: «**لأعلمن أقوامًا من أمتي، يأتون يوم القيامة بحسنات، أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله هباء منثورا، أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها**»[(١)].

أوهممت بفعله إذا هممت أن تنتهك حرمات الله.. تخيل أن ملك الموت يشرف عليك من حيث لا تعلم .. وتخيل أنه نزع روحك وأنت في هذه الحال .. فبماذا ستقابل ربك؟! فحافظ على جبالك أن تنهدم!! وقد ختم لك بهتك الحرمات.. والإصرار على السيئات ..؟

وُقُوفًا مَعَ الْحَقِّ الأَصْبَحِ لاَ مَعَ البَاطِلِ الأَقْبَحِ

عود على بدء إلى موضوع الدكتور عادل الصبيح ... والذي لا يزال يتهادى بين أروقة مجلس الأمة .. تتناوله أيادي الأعضاء .. دفعًا وإيجابًا قبولاً ورفضًا..!

يهم بعضها بإيثار الحق على الخلق ويتخذ ذلك دينًا له ويقينًا، لينطلق عنه ويعمل بمقتضى عقيدته وديانته، وما يمليه عليه ضميره .. وما تركن إليه نفسه.

ويضرب البعض الآخر عن ذلك صفحًا إما خطأ أو جهلاً أو غير ذلك مما انطوت عليه النفوس ..

حتى غدا العراك عراك حق صريح.... وصدق وضيح... وبرهان صبيح... مع خطأ سامد وإصرار سافر ..

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥) عن ثوبان رضي الله عنه ، وصححه الألباني.

على أنهم قالوا قديمًا وصدقوا فيما قالوا: درب الحق أبلج، ودروب الباطل لجلج. . . !.

ويرحم الله الناصح القائل :

أَمَامَكَ فَانْظُرْ أَيَّ نَهْجَيْنِ تَنْهَجُ   طَرِيقَانِ شَتَّى مُسْتَقِيمٌ وأَعْوَجُ

والله الله فيمن أبصر مناداة الحق وأعمدته. . . وغشيته أنواره فكان وَقَّافًا معه. . . نصَّارًا له . . . قَوّالاً به . . . قصَّادًا لجنانه على أنه ثقيل على النفوس . . تعافه وتخافه وصدق رسول الله ﷺ لما قال: «**حُفّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات**»(١) وهكذا الحق دائمًا قليلة أنصاره . . قليل أتباعه . . .

وكأن هذا شأنه دائما على ما قال السموأل :

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا   فَقُلْتُ لَهَا: إنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ

وَمَا ضَرَّنَا أَنَّا قَلِيلٌ وَجَارُنَا   عَزِيزٌ وَجَارُ الأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ

وصدق الله إذ يقول: ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ (٢)، وقال سبحانه: ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ**﴾ (٣).

على أن الباطل بهرج كثير أتباعه. . . كثير أنصاره . . ؛ لأنه خفيف طريف . . لذته حاضرة. . وسرابُه لامع. . ومتعه على طرف ـ . . . !

رمضان يهتف بروحانياته أن يا ناصر الحق أقبل . .

إننا في شهر النور. . . شهر التراويح والتسامي عليا. . . إلى علام الملائك . . ورحاب الإيمان. . وقبلة السماء. . . إذ البطون خاوية. . والأرواح هافية. . والعقول صافية. . والأذهان متقدة. . . وتضيء ظلام الفكر تلاوة القرآن، - صلاة التراويح .

إِنَّ التَّرَاوِحَ رَاحَةٌ فِي لَيْلَةٍ   وَنَشَاطُ كُلِّ عُوَيْجزٍ كَسْلانِ

فيا طوبى لمن استروحت نفسه للقرآن . . . واستنامت للتوبة . . . واستضافت عن المعصية وراحت تسح عيناه عبرات الخشوع . . . راحت نفسه تكف عن غيها

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٢)، والترمذي (٢٥٥٩)، وأحمد (٣/ ١٥٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٢) سبأ: ١٣.   (٣) الواقعة: ١٣، ١٤.

وتقصر من لهوها . . . لتجني بشر وغنائم شهر الطاعة .

أَيَا مَعْشَرَ الصُّوَّامِ وَافَتْكُمُ الْبُشْرَى وَقَدْ نَشَرَ الْبَارِي بِمَدْحِكُمُ ذِكْرَى
خُصِصْتُمْ بِشَهْرٍ فِيهِ عِتْقٌ وَرَحْمَةٌ وَقَدْ أَجْزَلَ الرَّحْمَنُ لِلصَّائِمِ الأَجْرَا

ومن هنا فإني أجد المقام يسمح والفرصة تسنح؛ لأن تناول موضوع الاستجواب في ضوء رؤية شريعة مختصرة أشير إليها بهذه الحقائق التالية :

(أ) العدل أساس الملك :

العدل هو عمود الحياة . . . وطنب الاستقرار وهو غراس الأساس وهو سلطان الله في الأرض وبه قامت السموات والأرض . . . وهو الميزان القائم . . . والركن الدائم الذي لا يتغير، قال سبحانه: ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**﴾(١) .

وبالله . . . !! هذه الآيات المباركات الكريمات التى وطدت ومهدت وأصلت وقننت للمعمورة كلها أساس بنائها وقيامها، ومن ثم أساس استخلاف الإنسان عليها، وأن دوره الأول هو إقامة الميزان وألا يخسر فيه . . . ميزان الله . . . ميزان رحمة الخلق والخليقة . . ميزان العدل . . . !!

وأولى الناس بالعدل في الحكم . . . والنصفة في الرأي والتأييد هم أعضاء مجلس الأمة؛ لأنهم رموز الشعب والعدل، وهم في أعراف الناس وبحسب أنظمتهم (أهل الحل والعقد) بهم يقام الميزان . . وعنهم يصدق المقال . . وتدرك الحقوق فهم السراة الذين ينصلح بهم الحال ولله در القائل :

لاَ يَصْلُح النَّاسُ فَوْضَى لاَسَرَاةَ لَهُمْ وَلاَ سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

غير أنه من المفجع الموجع أن تبادر أصوات مأمونة . . وأركان ركينة إلى التصويت على طرح الثقة قبل أن يتم الاستجواب فكيف يأتي هذا . . وأنى لهم مصادرة المطلوب قبل سماع . . وأن يحكموا قبل وقوف لهم على المقدمات والحقائق .

(١) الرحمن: ٧ ـ ٩ .

هل من العدل أن يثبت البرهان بلا معطيات. . .؟! أو أن يطلب الجني قبل الغراس؟!

أترى أنهم من ذوي الفراسة الثاقبة . . . والحدسيات الملهمة . . التى لا تخيب وأنهم الواقع عليهم قول القائل عن نابغة زمانه :

الأَلْـمَعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ ... كَأَنْ قَدْ رأى وَقَدْ سَمِعَا

فلو كانوا هم كذلك. . . . لما جاز لهم أيضًا أن يقولوا بلا برهان أو أن يصدروا قبل ورد . . !

وأين هم من داود الذي احتكم إليه الخصوم فلامه الله عز وجل وهو النبي الملك . . الملهم المعلم إذ عاتبه، فقال سبحانه: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ**﴾ (١).

ثم أثنى الله على نبيه سليمان لفطنته وحنكته وتؤدته في الحكم، فقال سبحانه: ﴿**فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ**﴾(٢). وروي عنه أنه قال: «**أعطينا ما أعطى الناس وما لم يعطوا، وعلمنا ما علموا وما لم يعلموا، ولم نر شيئًا أفضل من العدل في الرضا والغضب**».

وقد جاء الإسلام بمنهج متكامل في نشر العدالة وتأسيسها في المخلوقات الجامدات والعاقلات بداية من خلق الكون وحتى قيام الساعة ووضع ميزان الحساب. . ويكفي أن نشير هنا إلى منهج الإسلام في العدل مع الأعداء إذ يقول سبحانه: ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ (٣).

فإن كان هذا الشأن مع الأعداء فكيف بمن معنا في خندق واحد ولهدف واحد أيصح الجور عليه . . والحيف معه . .؟!!

(ب) إيثار الحق على الخلق ضرورة شرعية وسياسية واجتماعية:

تلك حقيقة دل عليها كتاب الله وتواترت عليها سنة رسول الله ﷺ فالحق أحق أن يتبع والحق يعلو ولا يعلى عليه . . .

---

(١) ص: ٢٦. (٢) الأنبياء: ٧٩.

(٣) المائدة: ٨.

أما عن تعريف الحق فهو باختصار ما دل عليه صريح كتاب الله وصحيح سنة رسول اللهﷺ وما تواتر عليه الناس وأثبته العلم والعقل والحقائق والبراهين اليقينيات.

وقد أثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الحق وتعدد ذكره في القرآن كثيرًا، ومن أشد ثناء الله على الحق أنه سبحانه :

أ ـ وصف نفسه بالحق سبحانه، فقال: ﴿**ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ**﴾[١].

ب ـ وصف كتابه، فقال سبحانه: ﴿**وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ**﴾ [٢]. وقال سبحانه: ﴿**لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**﴾ [٣].

وعلى الحق وبالحق خلق الخلق، وقامت السموات والأرض، قال سبحانه: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾[٤]. وعليه تقوم الساعة وبه تنصب موازينها، قال تعالى: ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ**﴾[٥]. فواجب على العالمين التزامه والقول به. . . والدفاع عنه ومن قال به، فهو المهتدي، قال تعالى: ﴿**وممن خلقنا أمة يهدون بالحق**﴾ [٦]. وتوعد الله نصرة أهل الحق، فقال سبحانه: ﴿**وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾ [٧]. وقال سبحانه عن صراع الحق والباطل في الأمم السابقة ومع قلة أنصار وأتباع الحق ﴿**فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [٨]. وتأسيسًا على هذا فإنه ينبغي اتباع الحق والعمل بالحق وتقديم الحق وإيثاره على الخلق فالخلق زائلون . . ذاهبون . . إن آجلاً أو عاجلاً :

كُلُّ مَذْخُور سَيَفْنَى كُلُّ مَذْكُور سَيُنْسَى
لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ يَبْقَى مَنْ عَلا فَاللَّهُ أَعْلَى

وإذا صدقنا مع أنفسنا . . ومع مبادئنا وقيمنا، فإننا لن نعدل على الحق بديلاً ولو غضب الغاضبون. . انتسب المبطلون. . فالله الله في قول الحق والعمل بالحق

---

(١) الأنعام: ٦٢.
(٢) المائدة: ٤٨.
(٣) يونس: ٩٤.
(٤) الأنعام: ٧٣.
(٥) الأعراف: ٨.
(٦) الأعراف: ١٨١.
(٧) يونس: ٨٢.
(٨) الأعراف: ١١٨.

في شهر نزول الحق . . !!

٣. الظلم ظلمات :

الظلم ظلمات ولعنات ومهلكات وهو ضد الحق والعدل والخير وضد الفضائل أجمع . . وهو خبث ووبال وقد جعله الله تعالى أصلا للرذائل ومنتهى للكبائر جميعًا . . .

وقد حرم الإسلام الظلم بجميع أنواعه وصوره وأشكاله، وشدد في ذلك ما لم يشدد غيره من الأديان، ودونك كتاب الله طالعه، وانظر عقبى الظالمين . .

وعند تبصُّرِ آيات القرآن وتأملها نخلص إلى مهلكتين عظيمتين يورثهما الظلم وهما :

المهلكة الأولى: الحرمان من كل خير :

حيث تعهد الله ـ سبحانه ـ بحرمان الظالمين من منابع الخير ما داموا على ظلمهم وجورهم فحرمهم الله ـ تعالى ـ من :

أـ الشفيع والنصير، قال سبحانه : ﴿**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾(١) .

وقال سبحانه : ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾(٢) . حرمهم من المغدرة والاستقالة من الذنب مالم يتوبوا فقال سبحانه : ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ . .**﴾(٣) .

ب ـ حرمهم من الهداية، قال تعالى : ﴿**وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾(٤) .

جـ ـ وحرمهم من القرب منه ـ سبحانه ـ وكفى بذلك حرمانًا مبنيًا . . . وعقابًا مهنيًا لهم، فقال تعالى : ﴿**وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾(٥) . وهناك الكثير والكثير من الآيات المرهبات من الظلم وعاقبته . . .

المهلكة الثانية : العاقبة الخسرى :

وهذا نلتمسه في كثير من آيات القرآن الكريم وإنها لعواقب كثيرة ليست بعاقبة

---

(١) آل عمران: ١٩٢ .
(٢) غافر: ١٨ .
(٣) غافر: ٥٢ .
(٤) الجمعة: ٥ .
(٥) هود: ٤٤ .

خاسرة واحدة حيث توعد الله الظالمين بـ :

أ ـ الويل والثبور، قال تعالى عنهم: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[1].

ب ـ الخيبة والهزيمة، قال سبحانه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾[2].

جـ ـ الخزي، قال سبحانه : ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[3].

د ـ الهلكة، قال سبحانه: مخاطبًا أنبياءه ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [4]. وقال سبحانه: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا.. ﴾[5]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [6]. وقال أيضا ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [7].

---

(١) الأنبياء: ٩٧.
(٢) طه: ١١١.
(٣) آل عمران: ١٩٢.
(٤) إبراهيم: ١٣.
(٥) الأنعام: ١٦٥.
(٦) يونس: ١٣.
(٧) الأنعام: ٤٧.

المبحث الحادى عشر
جلسة تفكر واستذكار مع النفس

١ـ دموع معتمر:

للبكاء أسبــاب كثيــرة، ودوافع عديدة، وكلها ـ إلا في القليل النادر ـ تعــبر عن حالة من الحزن تأثرت بها نفس الإنسان فجاشت بانفعالاتها، وجرت منه الدموع على الخدود، إظهارا لما في المكنون، وتعبيرا عن ألم داخل النفس مكتوم.

وأعظم البكاء أجرًا، وأشده على النفس وقعًا البكاء من خشية الله حيث لا يصل امرؤ لهذه المرحلة إلا بعــد يقظة تامة، ومحاسبــة دقيقة، وندم على ما فــرط فيه من طاعات أو قصر، وربما على ما وقع فــيه من المعاصي، وهذا (البكاء) إعلان عن توبة صادقة، وأوبة متذللة أمام الله رب العــالمين، ورجاء بغفران الذنوب، واعتذار إلى الله بقلة الطاعة مع الطمع فــي الجنة، وعين هذا الدامع متعلقة بقــول رسول الله ﷺ: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**»[١]، إنه الأمل في رحمة الله الواسعة، مع الطاعة القليلة والطاقة المحدودة والعجز عن أداء ما يجب لله من شكر على نعمه التي لا تحصى.

نعم، لقد تحولت قدرة الشاب الفــتي، وأصابها شيء من الضعف والوَهْن عندما تجاوز مرحلة الكهولة، ودخل في مــرحلة عمرية جديدة، فيها ما فــيها مما لا يستطيع امرؤ أن يخفيه، لأنه يكسو حياته كلها، وفي مقدمة التحول والتغير عدم القدرة على الالتزام بما كان يــلتزم به أيام الشباب، فــيشعر بما لا بد أن يشعــر به من حزن وأسى فتجرى منه الدمــوع وهو يذكر وصية رسول الله ﷺ: «**اغتنم خمســا قبل خمس: حيــاتك قبل مــوتك، وصحتك قــبل سقــمك، وفراغك قبل شــغلك، وشبــابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك**»[٢] وقوله ﷺ: «**بادروا بالأعمال سبعًا: هل تنتظرون إلا فقــرا منسيــا، أو غنى مطغيــا، أو مرضا مــفسـدا، أو هرما مفندا، أو مــوتا مجــهزا، أو**

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٣٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال الترمذي: «حسن»، وصححه الألباني.

(٢) أخرجــه الحاكم (٤/٣٠٦)، والبيــهقى فى شعب الإيمان (١٠٢٤٨) عن ابن عــباس رضي الله عنهمــا، قال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر»[١].

وخفف من لوعة الحـزن، وكفكف من غرب البكاء توفيق الله ـ سبحـانه ـ عبده إلى جزء من الغنيمة، ومن فاتته الإحاطة بالطاعات كلها فإن من واجبه أن يديم شكر الله على أن وفقه إلى أجـزاء منها، وإذا كانت الدموع قـد سالت ممن فرط في بعض الطاعات وأحاطت به الأحزان فكيف يكون حال من فرط في الطاعات كلها؟ لابد أن تجري دموعـه وأن تعم وتدوم أحزانه إن لم يتدارك نفسه، ويدخل باب التـوبة راجيا من الله الرحمة والغفران.

ولقد رأيت هذا الحرم المكي ـ زاده الله تـشريفا وعزا ـ قبل خـمس وعشرين سنة في ثوب من العـوز والفقر، الظاهريـن فيه من خـلال الخدمـات الموجودة ـ آنذاك ـ ونظرت فيه اليوم فـقلت: أين ما هو فيه اليوم مما كان عليه بالأمس؟ لقـد تغيرت فيه الخدمات وتغيرت المرافق، واتسع المكان، إلى غير ذلك مما جد على الحرم، ووجدت نفسي أتمتم: جزى الله خـيرا كل من كانت له يد معمـرة تعمل على إظهار بيت الله بهذه الصورة الزاهية. .

وهنا لنا لفتة في أمور الحياة كلها التي تحتـاج إلى البداية الصحيحة والاستمرارية في العمل ليـتحقق النجاح، ولتظهر ثـمرة العمل، ولقد كنا نقـول عند بدء شركات النظافة عـملها،وعند انتشار فرق الـتنظيم الإداري في الحرم: هل يمكن أن تنفع هذه الجهود مع أناس ذوي مشـارب شتى، واتجاهات متعددة؟ ولكن التـصميم على البدء الصحيح والاستمرار فيه أدى إلى النجاح الذي نراه اليوم وننعم به، وهكذا كل عمل ينفع الأمة يحتاج إلى البداية الصحيحـة والاستمرارية التي لا تتوقف، ودمعت عيني شكرا لله أن سخر خلقا من خلقه لخدمة بيته الحرام فهنيئا لهم.

ووقفت مليا أتأمل التقنيات العـصرية، والابتكارات العقلية التي وفق الله المملكة العربيـة السعودية لأن تأخذ بهـا،وأن تسخر هذه الإمكانات البـشرية لخدمة الحـجاج والمعتمرين لتعمل على راحتهم في أداء مناسكهم، ودمعت عيني شكرا لله الذي أكرم عباده « **وحق على المزور أن يكرم زائره**»[٢].

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٣٠٦) عن أبى هريرة، وقال: «حسن غريب».

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان، (٢٦٨٢) وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥٧٥٨) واللفظ له.

المبحث الثاني عشر

المساهمة الحضارية للمرأة ... معايير وأصول

تلقيت دعوة كريمة من الأخت/ خولة عبداللطيف العتيقي رئيسة اللجنة المنظمة لمؤتمر (قنوان دانية) الذي تنظمه إدارة البرامج والمشاريع باللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية للكتابة حول: المساهمة الحضارية للمرأة: معايير وأصول لتكون ضمن البحوث المقدمة في هذا المؤتمر الذي يهتم بالمرأة ويبرز دورها في العطاء الإنساني، المتصل ما اتصلت الحياة. وحمدت الله أن مؤسساتنا الإسلامية تعمل بجد على مواكبة ـ بل مسابقة ـ الركب العصري ببيان كل ما هو نافع مفيد للإنسان ـ رجلا كان أم امرأة ـ ونشره وإعلانه بين الناس، ليعلم من لم يكن يعلم أن حضارة الإسلام ينصب اهتمامها على الإنسان الذي سخر الله له ما في السموات وما في الأرض.

واللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية إحدى مؤسساتنا الكويتية التي تعمل ـ بهمة ونشاط ـ على خدمة الإسلام والمسلمين، وتحاول ـ ما استطاعت ـ أن ترد عن المسلمين سهام الفكر الباغية التي تحاول أن تطمس محاسن الشريعة الإسلامية، أو أن تمحو أثرها. ولكن الله يقيض لدينه من يدافع عنه ويعمل على إظهار وبيان ما جاءت به شريعة الإسلام من الحق والعدل ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1] فللعاملين في اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وللقائمين على شأنها كذلك ـ كل الشكر والتقدير على جهودهم المتواصلة التي أسأل الله أن يتقبلها منهم، وأن يجزيهم عنها خير الجزاء.

واستجابة لهذه الدعوة الكريمة؛ كان بحث: (المساهمة الحضارية للمرأة معايير وأصول). الذي تعتبر هذه الصفحة جزءا منه أردنا أن ننشرها في موعد انعقاد المؤتمر مشاركة منا في بيان العطاء الإنساني للمرأة المسلمة وتقديرا لدورها في هذا المجال

(١) الصف: ٨.

الذي نرجو أن يستمر.

لقد ظهرت حضارات عديدة عبر القرون، سجل التاريخ بعضها، وسجل القرآن بعضا آخر غفل عنه التاريخ كحضارة عاد التي لم يُخلق مثلها في البلاد، ولم يبق من هذه الحضارات غير حضارتين اثنتين:

الحضارة المادية في الشرق والغرب التي جعلت همها الدنيا ـ وحدها ـ فقطعتها عن الآخرة، وملأتها بزينة الحياة من ابتكارات واختراعات ومظاهر العمران والترف والاستمتاع، وكأنهم يقولون بلسان الحال: ﴿**مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾[1].

والحضارة الإسلامية التي تجمع بين الدنيا والآخرة، وتعمل بقول الله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾[2].

وبديهي أن أي حضارة تقوم على جهود الإنسان، رجلا كان أو امرأة، فكلاهما له إسهام كبير في صنع الحضارة، وعمل النوعين (الذكر والأنثى) عمل متكامل غير متناقض ولا متضارب، بجهدهما تصنع الحضارة، وعلى أكتافهما معا تقوم الحياة وتنهض، وحين نذكر بعض الإسهامات الحضارية للمرأة في ثنايا هذا البحث فإننا فقط نميز جزءا من دورها في البناء الحضاري الذي تستمتع بثماره البشرية، وطالما بقيت الحياة فسوف يظل العطاء الإنساني يتواصل ليمدها بعناصر البقاء والنماء والراحة والرفاهية، وتخفيف الأعباء الإنسانية. وعند نقطة تخفيف المتاعب الإنسانية بالتخلص من التكالب على الحياة الدنيا، وعدم الغفلة عن الآخرة، تفترق الحضارتان القائمتان في الأرض الآن، مما يستدعي بيان المعايير والأصول التي تستند لها كل حضارة بحيث نبني على ذلك وضع المرأة في هذه الحضارة أو تلك، ومساهماتها التي تثري بها الحضارة بالمفهوم الإسلامي أو بالمفهوم المادي الحديث.

(١) مفهوم الحضارة:

يقال في اللغة: حضر: كنصر وعلم، حضورا وحضارة، والحضارة: الإقامة في

---

(١) الجاثية: ٢٤. (٢) القصص: ٧٧.

الحضر قال القطامي:

وَمَنْ تَكُنِ الْحَضَارَةُ أَعْجَبَتْهُ   فأَيُّ رِجَالِ بَادِيَةٍ تَرَانَا

والحضارة قالها أبو زيد بالكسر والأصمعي بالفتح، ومعنى أنه أقام في الحضر: أنه استقر. والتعريف الاصطلاحي الذي نختاره للحضارة هو: أن «الحضارة روح سام من الفضائل والخصال الأخلاقية الطيبة تجري في نفوس أبناء الأمة، وتزين سلوكهم وسائر نشاطهم، كما تتجسد في النظم السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية حتى تشمل جوانب الحياة كافة»[١].

فالإنسان في هذا التعريف هو غاية الحضارة، تعمل على رقيه وإعلاء شأنه بالمحافظة على الأسس التي تحقق له الحياة الكريمة في كل جوانبها، وتجعل كل شيء في صالحه. ويؤكد هذا المعنى د. شوقي أبو خليل في مقدمته لمجلد فهارس كتاب قصة الحضارة الذي بلغ اثنين وأربعين مجلدا بقوله: «الإنسان» في الحضارة المتوازنة أعز وأكرم من تملك.

وخلية المجتمع الأولى ألا وهي «الأسرة» تضمن الحضارة الحقةُ لها توازنها وحصانتها الأخلاقية والروحية، لأنها الحصن الذي يضمن للإنسان راحته النفسية وسعادته الروحية، وطمأنينته الحياتية، والرفاه للجميع في الحضارة الحقة والأخوة فيها طبيعة لا رغبة، والعدالة فريضة لا توصية، والطمأنينة منحة لا صفقة، والإنسانية سجية لا استثناء.

ثم يبين سقوط الحضارة الغربية بقوله: ولقد ترقت أدوات الإنسان وآلاته، ووسائل معيشته في حضارة القرن العشرين، ولكن هل سمت هذه الحضارة بإنسانيته في عصر التقدم العلمي؟ لقد كان هذا التقدم على حساب الجانب الأخلاقي والروحي حتى قال الفيلسوف الإنجليزي (جود) فَزِعًا: «إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة، ولكننا نستعملها بعقول الأطفال والوحوش»[٢].

فشتان شتان بين حضارة «الإنسان» وحضارة «الطين»، وويح الشعوب من ذاك

(١) سنن القرآن الكريم في قيام الحضارات وسقوطها ص ٦٢.

(٢) العرب والحضارة الحديثة: ١٣٠.

الوحش الذي لا يعرف قيما إلا قيم الكسب والمادة.

والفراغ الروحي ـ في حضارة الطين ـ والذي لازمه إغراق في المادية، وفقدان الأمن سمة من سمات حضارة الطين؛ لأنها حضارة تقدمت فيها التقنية، ولم تتقدم نظرتها إلى الإنسانية، إنها حضارة تطاولت مخالبها، وضمرت أخلاقها، وكأنها تكرار لحضارة روما، يوم جعلت الرومان سادة، وما حولهم عبيدا.

وحضارة الإسلام لا تغفل الجانب المادي من الحياة، بل تهتم به وتوليه من العناية ما يستحقه إلى جانب اهتمامها بل بنائها على الجانب الروحي، فهي لا تغفل جانب الروح ولا تهمل جانب المادة بل توازن بينهما في انسجام جميل بحيث تعطي كل جانب ما يستحقه.

(٢) عناصر الحضارة بين المسلمين وغيرهم:

يقول ول ديورانت ـ صاحب موسوعة قصة الحضارة: «الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي»، وقد جعل عناصرها أربعة هي:

ـ الموارد الاقتصادية. **ـ النظم السياسية.**

ـ التقاليد الأخلاقية. **ـ متابعة العلوم والفنون.**

ومعنى ذلك أن الحضارة لا تتناول من جوانب الإنسان شيئا اللهم إلا أن توفر له الرفاهة المطلوبة، واللذة الحاضرة، وقد تظهر في بعض نتاجه الثقافي الذي يتمثل في العلوم والفنون، ولا يغرنا العنصر الثالث في هذه الحضارة المادية الغربية الذي سجله تحت اسم: التقاليد الأخلاقية؛ لأن المقصود بالأخلاق اللذة أو المنفعة أو المصلحة كما يقول الأستاذ **أبو الحسن الندوي** في كتابه: **الدين والمدنية**: «ليست التقاليد الأخلاقية هي المعاني التي ترد إلى أذهان المسلمين مرادفة للفضائل والمكارم، وبناء على هذا تصبح الموارد الاقتصادية والنظم السياسية في خدمة الإشباع النَّهِم لحاجات الإنسان، وإرواء شهواته المتعطشة، مع إضفاء لمسة جمالية في الفنون والعمران والعمارة والمدن وغير ذلك من مظاهر العمران التي تجمل بها الحياة، وتحمل طابعا بعيدا عن البداوة والخشونة».

الحضارة المادية لا تهتم بتربية الإنسان على الفضائل ما لم تحقق له هذه الفضائل

منفعة أو مصلحة، ولا تتجاوز حدود الحياة الدنيا ولا تؤمن بالغيب، ولا تعتد بغير ما تراه، وليس لها من الطابع الإنساني شيء وإن ادعت ذلك وتمسحت به، وقد عرف ذلك واعترف به العالم الفرنسي «**أليكس كارليل**» سنة ١٩٤٤م فقال عن الحضارة الغربية: «إن هذه الحضارة سوف تنهار لأنها أشقت أصحابها، فالإنسان يجب أن يكون مقياسا لكل شيء ولكن الواقع هو عكس ذلك، فهو غريب في العالم الذي ابتدعه، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه، إن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية، إننا قوم تعساء ننحط أخلاقيا وعقليا»[١].

وقد وضع (جون فوستر دالاس) وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية حقبة طويلة من الزمن، وضع يده على الجرح وشخص الداء، داء الحضارة الغربية حين قال: إن الأمر لا يتعلق بالماديات فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية. إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوي فبدونه يكون كل ما لدينا قليلا، وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم، أو القنابل مهما بلغت قوتها. فمتى شعر الناس بالحاجة إلى الاعتماد على الأشياء المادية؛ فإن النتائج السيئة تصبح أمرا حتميا.. يجب ألا نخشى وضع الإيمان في مرتبة الصدارة بالنسبة للحرية الإنسانية، وأن نتمسك بالرأي الديني القائل: إن الله خلق الإنسان لكي يكون أكثر من منتج مادي، وأن غايته النهائية شيء آخر غير الأمن الجسماني[٢].

وهذه الأقوال وغيرها من منصفي الغرب ساسة أو علماء أو مفكرين تُدين حضارة الغرب المادية الحديثة وهي في أوجها، وتكاد هذه الأقوال الغربية ذاتها ترشح البديل النافع القادر ـ إن توفرت بعض الظروف ـ على أن يحل مشاكل الإنسان، ويقضي على شقائه ألا وهو الحضارة الإسلامية، وإذا كنا قد ذكرنا عناصر الحضارة المادية من وجهة نظر أحد مفكريها (ول ديورانت) فإننا نذكر عناصر الحضارة في رأي مفكر مسلم هو **أبو الأعلى المودودي** الذي يرى أن أي حضارة لا بد أن تتألف من

(١) نقلا عن: كتاب التراجع الحضاري للدكتور/ على عبد الحليم محمود ص ٦٧.
(٢) نفس المرجع السابق ص ٧١، نقلا عن: حرب أم سلام، لفستر دالاس.

هذه العناصر الخمسة يقول:

«ما يعبر عنه بالحضارة يتكون من العناصر الخمسة التالية:

ـ تصور الحياة الدنيا.

ـ غاية الحياة.

ـ العقائد والأفكار الأساسية.

ـ تربية الأفراد.

ـ النظام الاجتماعي.

وما من حضارة في الدنيا إلا وقد تكونت من هذه العناصر الخمسة ليس غير»[1].

وما دامت هذه العناصر هي عناصر كل حضارة فما الفرق بين الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات؟ الفرق هو:

١ـ أن جميع الحضارات نشأت بسبب الاحتكاك بين الناس أو الصراع بينهم، بينما نبعت أسس الحضارة الإسلامية من الوحي الإلهي، وجاءت مفصلة لكل نواحي الحياة.

٢ـ أن جميع الحضارات في بناء أسسها وقواعدها تعتمد المصالح الإقليمية أو الشعبية دون نظر إلى الآخرين، بينما حضارة الإسلام تنظر لصالح الإنسان في الأرض كل الأرض فلا تحقق نفعا لجهة على حساب أخرى.

٣ـ أن النظرة إلى الحياة في جميع الحضارات غير الإسلامية نظرة مادية تقوم على الجمع والتحصيل والتكديس؛ لأنها لا تؤمن بغير الأشياء المادية، على حين أن الحضارة الإسلامية يمثل فيها الإيمان أعظم الأسس التي تقوم عليها، بل إنها لا تقوم إذا لم يوجد هذا الإيمان بالغيب.

فليس طريق المعرفة فيها هو الحواس وحدها ولا القوة العقلية وحدها، ولكن قبل هذين تأتيها المعرفة والعلم والتوجيه والمنهج من خلال الوحي السماوي المتمثل في القرآن الكريم ثم السنة النبوية الشريفة.

---

(١) نقلا عن كتاب التراجع الحضاري للدكتور/ على عبد الحليم محمود ص ٤١.

(٣) الحضارة الإسلامية:

لا توصف الحضارة بأنها إسلامية إلا إذا انقادت تماما وفي كل ظروفها، ومختلف مظاهرها فضلا عن أصلها وجوهرها لله، ولمنهجه الذي لا يصلح للبشرية سواه.

وقام بهذا المنهج رجال مخلصون يعمرون الأرض، ويكونون فيها مستخلفين، ويقومون فيها بالعبادة، يعبدون الله بمفهوم العبادة الواسع ـ الذي يجعل إماطة الأذى عن الطريق صدقة، ويجعل الجنة جزاءً لسقاء كلب عطشان في صحراء موحشة، ويجعل إجادة العمل وبذل الجهد فيه وإتقانه إحدى علامات حب الله لعبده، ويحث على الإحسان في كل شيء حتى في القتل والذبح «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**»(١).

ويجعل الإنسان تتكامل فيه شعب الإيمان، فيشهد أن لا إله إلا الله.. ويميط الأذى عن الطريق،وبين هاتين الشعبتين سلسلة من الأعمال القلبية والسلوكية تقوم عليها الحياة الحقة التي يأمن فيها الناس على أنفسهم وأعراضهم وأملاكهم، فيستشعرون واجبهم نحو أنفسهم ونحو غيرهم، فيندفعون عاملين جادين، تحوطهم عناية الله، وتهديهم لأقوم سبيل، فيعمرون الأرض باسم الله، ويبتكرون العلم باسم الله، ويسخرون كل شيء لمرضاة الله.

حينئذ تقف الحضارة مسخرة لخدمة الإنسان، الذي سخر الله له ما في السموات وما في الأرض ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(٢) فلا يصبح الإنسان مسخرا للمادة، ولا مسخرا لغيره من البشر، لأن كل ما في الكون مسخر لخدمة هذا الإنسان المكرم، الذي خلقه الله حرا.

وحضارة الإسلام وهي تهتم بالجانب المادي في عمران الكون تهتم قبل ذلك بالإنسان صانع الحضارة فتصوغه صياغة ربانية يقدم الخير للفقراء، ويعين الضعفاء

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥)، وأبو داود (٢٨١٥) عن شداد بن أوس رضي الله عنه .

(٢) الجاثية:١٣.

ويواجه الأقوياء، ويرد الحقوق لأصحابها ويستخدم القوة في ضوء منهج إلهي فلا يظلم ولا يجور، وهذه هي الحضارة الحقة التي سيكتب لها ـ إن شاء الله ـ الازدهار والنماء، وإننا نسوق للمتشككين قصة واحدة تبين جوهر الحضارة الإسلامية أو الحضارة التي تقوم في الأرض باسم الله، إنها قصة ذي القرنين فهي نموذج حضاري رائد لمؤمن قوي عرف ربه، فعمر الحياة بحسب منهج الله، والقصة كلها مذكورة في سورة الكهف وتناولتها كل كتب التفسير بالإيجاز أو الإطناب، ونحن في هذه العجالة لا نتعرض لها وإنما نذكر بعض آيات مما ورد بشأنها في كتاب الله لتكون عظة وعبرة وذكرى لمن كان له قلب. قال تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً . قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا . قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا . فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا . قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي**﴾ [١] فلم يستغل حاجتهم للحماية ليحقق لنفسه أو لقومه غنما أو نفعا، ولم يأخذ منهم على حمايتهم ـ وهم المستضعفون ـ خرجا، وإنما أخذ بيدهم نحو العمل النافع والعلم المفيد، من غير أن يحرص على تخلفهم حتى يظلوا يسبحون بحمده، محتاجين لعونه.

(٤) الإنسان في حضارة الإسلام:

الحضارة الإسلامية من بين الحضارات هي التي تحترم حاضر الإنسان ومستقبله، وتفسر له قضايا معاشه ومعاده، وتقدر عقل الإنسان وفكره وثقافته، كما تقدر إيمانه بالغيب، بل ضرورة هذا الإيمان بالغيب.

إن الحضارة الإسلامية غايتها بعث وإحياء العزة في نفوس كل الناس الذين خلقهم الله أحرارا مكرمين ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ [٢]، إن حضارة الإسلام تأبى للإنسان أن يذل، بل تأبى ذلك للحيوان وقد أوصى رسول الله ﷺ خيرا بالناس، حتى بالدواب فقال: «**كلوها صالحة واركبوها صالحة**»[٣] فما بالك بالبشر الذين

---

(١) الكهف: ٩٣ ـ ٩٨. (٢) الإسراء: ٧.

(٣) صحيح ابن خزيمة (٢٥٤٥)، قال الألباني: إسناده صحيح.

يضطهـدون ويستـذلون في الأرض: «متى اسـتعـبدتم الناس وقـد ولدتهم أمهـاتهم أحرارا»[١]؟

إن حضـارة الإسلام تأبى الحجْـر على الإنسان ما دام سـوي السلوك، متـمسكا بالحق، قائمـا بالقسط غيـر باغ ولا عاد، ومن حق هذا الإنسان أن يأمن على نفـسه وماله وعرضه، فلا بغي إلا على المعتدين، ولا عدوان إلا على الظالمين، لا جور من الحاكم، لأن فوقـه حاكما أعلى منه «الله» يحـاسبه على كل أمر، ولا خـيانة في مال الأمة؛ لأن هناك يوما يرد فيه الناس إلى ربهم فيـحاسبهم على أعمالهم، لا أثرة في أمر من الأمور؛ لأن الإيمان لا يكتمل إلا إذا أحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه.

في حضارة الإسـلام تسقط الفوارق الأرضية بين الناس، فلا أفـضلية لعرق ولا لجنس ولا للون، والتفـاضل بين الناس إنما هو في اتباع هدي الدين القـويم، والسعي في الأرض بالخير والعمران، وبغير ذلك وحـده تسقط جميع الرايات المميزة، وتمحى الحواجز التي تفرق بين الناس ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[٢].

في حضارة الإسـلام يشيع العلم كالماء والهواء، لأن أول كلمـة نزلت في القرآن ﴿**اقرأ**﴾ ولأن الرسول ﷺ جعل طلب العلم فريـضة على كل مسلم[٣]، ولكن أي علم؟ إنه العلم الذي لا يحـصد أرواح مـئات الألوف من البـشر في غـداة واحدة، العلم الذي لا يجـعل الجراثيم وحـرب الكيـماويات في خـدمة الأغـراض البشـرية والمذاهب الأرضيـة، التي تأبى إلا أن تستـذل الإنسان، إن العلم في الإسلام لخـدمة الإنسان ييسـر له الحياة، ويساعـده في الانتفاع بما سخـره الله له في السماء والأرض والبر والبحر، ويهذب روحه ويقوي أخلاقه، فإن خرج العلم إلى دائرة تقتيل الإنسان أو تسخيره، من أجل الانتفاع بجهده، وحصاد ثمرة عمله دون أن يستفيد شيئا إلا أن يبقى حيا يسخر ويذلل فقد خرج هذا العلم عن دائرة الإسلام وسقط من حضارته.

إن حضارة الإسـلام تأبى ترويع الإنسان أي إنسان، بل هي تسعى لتـحقق له ما يكفيه ويغنيه؛ إذ من حق كل فرد في بلاد الإسلام أن يكون له مسكن يأويه، وعمل

---

(١) من كلمات الفاروق رضي الله عنه (ابن الجوزي مناقب عمر بن الخطاب).

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) ابن ماجه (٢٢٤)، المعجم الكبير (١٠٤٣٩) وغيرهما.

يؤديه، ورزق يأتيه، وكسوة تقيه، من حق كل واحد أن ينال ذلك دون منٍّ ولا أذى.

وبينما هذا الإنسان مقدر مكرم في حضارة الإسلام، تراه حيوانا ناطقا في حضارة اليونان الأقدمين وهي نفس المنزلة التي أنزله بها الماديون، ومنهم (ريدل) القائل في كتابه: «الإنسان في حكم العلم»: «إن الإنسان وإن كان قد أبان عن قوى عقلية نفسية تعلو كثيرا على كل قوة يبين عنها كائن حي سواه، لا يزال نوعا حيوانيا له قرابته بالخلائق السفلى، ولم ير الإغريق الأقدمون داعيا إلى فصل الإنسان عن جمهرة الكائنات الحية التي كانوا يشاهدونها حولهم، وقد أدخله «أرسطو» في نطاق برنامجه الحيوي مع سائر الحيوان والنبات».

❖ وقال «لينوس» وهو سويدي عاش من سنة (١٧٠٧ـ ١٧٧٨م) في كتابه عن «نظام الطبيعة» «إن الإنسان من أنواع الحيوان بين ذوات الأربع من القردة والدب..».

❖ وقال «بوفون» الفرنسي المعاصر لـ «لينوس» السابق ذكره: «إن الإنسان من المملكة الحيوانية، وهو والقرد ينتسبان إلى أصل واحد»[1].

(٥) الصراع الحضاري:

أصحاب الحضارة الغربية الحديثة يدركون أن أي حضارة أخرى غير قادرة على أن تقف في وجه سيادة مبادئهم، غير الحضارة الإسلامية التي لها من السمات والخصائص ما يجعلها قادرة على أن تحقق لنفسها مكانة كبيرة بين الناس في الأرض، وخاصة بين الذين أضناهم اللُّهاث[2] وراء المادة بالليل والنهار، وهؤلاء يكنون العداء للحضارة الإسلامية ويودون أن يتغلبوا عليها بما لديهم من أسلحة فاتكة، وقد عبروا عن ذلك على لسان بأقلام مفكريهم، فمن نماذج فكر «السياسية ـ الحربية» و«الحرب ـ السياسة» نختار كلمات «جياني ديميكليس» ـ عندما كان رئيسا للمجلس الوزاري الأوربي ـ فلقد سأله مراسل «النيوزويك» الأمريكية عن مبررات بقاء حلف الأطلنطي بعد زوال المواجهة بين الغرب الليبرالي والمعسكر الذي كان اشتراكيا؟ فأجاب:

(١) انظر كتاب: التراجع الحضاري في العالم الإسلامي، د. علي عبد الحليم محمود.

(٢) (لَهِثَ) الكلب وغيره ـ لَهَثًا ولُهَاثا: أعيا، واللُّهَاث: حر العطش فى الجوف وهو يقاس لُهاث الموت: أي شدته، المعجم الوسيط.

«صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تـعد قائمة، إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربي والعالم الإسلامي».

فلما عاد مراسل «النيوزويك» ليسأله:

وكيف يمكن تجنب تلك المواجهة المحتملة؟

قال: «ينبغي أن تحل أوربا مشاكلهـا ليصبح النموذج الغربي أكثر جـاذبية وقبولا من جانب الآخـرين في مختلف أنحاء العـالم، وإذا فشلنا في تعمـيم ذلك النموذج الغربي فإن العالم سيصبح مكانا في منتهى الخطورة».

فهنا إجابة تهدد بمحاربة مختلف أنـحاء العالم ـ وفي المقدمة «العالم الإسلامي»ـ إذا لم يتم «تعميم وقبول النموذج الغربي»!!

ويرى نيكسـون أحد الرؤساء الأسـبقين للولايات المتـحدة الأمـريكية في كـتابه (الفرصة السانحة): أن ردود فعل خطيرة سـتحدث ما لم يدفع الغربيون المسلمين نحو خيـار التقدم الذي تمثلـه تركيا العلمـانية في انحيـازها نحو الغـرب، وسعيـها لربط المسلمين بالعالم المتحضر ـ يقصد الغرب ـ من الناحية السياسية والاقتصادية.

ولا يخفي خبراء الفكر والثقافة في الغرب إعلانهم بوجوب محاربة الإسلام، لا لشيء إلا لتحديه الخضوع للنموذج الغربي، ورفضه التنازل عن خصوصيته المستعصية على العلمنة الغربـية، وتمييزه بين مـا لله وما لقيصـر، ولذا يجعلونه الهدف المبـاشر لحملتهم، لعل معتنقـيه يفرطون في تعاليمه فيفسح المجال أمـام سيادة القيم الغربية. «إن الإسلام هو الثقـافة الوحيدة القـادرة على توجيه تحد فعلـي وحقيقي لمجتـمعات الغرب، ولذلك فإنه من بين الثقافات الموجودة في الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة»[1].

(٦) نظرة المسلمين إلى حضارة الآخرين:

وإذا كانت هذه هي نظرة أصحاب الحضارة الحديثة للإسلام والمسلمين، فما نظرة الحضارة الإسلامية للآخرين؟

---

(١) انظر: عالمنا حضارة أم حضارات ـ د. محمد عمارة.

إن الآخرين ينظرون إلى وجوب سيادة حضارة واحدة هي الحضارة الغربية للعالم كله، بينما المسلمون يدركون أن الوحدانية خصيصة الخالق ـ سبحانه ـ وما عداه قائم على التعدد، فالقوميات والأجناس والشعوب والقبائل والشرائع والمناهج والملل والنحل والعقائد والحضارات والنظم كل هذا قائم على التعدد **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾** (١) وهذه الأشياء المتعددة تكون الصلة بينها قائمة على الدافع لا على الصراع.

ويرى د. محمد عمارة. أن التعددية «تجسدت في دولة الإسلام التي تعددت رعيتها في الديانات والمذاهب، وشعوبها في اللغات والقوميات، فتمثلت في واقع حضاري معيش، بينما كان الرفض الغربي للتعددية هو الآخر تاريخا حضاريا رفض التعددية حتى في المذاهب داخل النصرانية الواحدة، وليس فقط التعددية في الديانات»(٢).

إن الحضارة الإسلامية لم ترفض مطلقا في أي مرحلة التعامل مع العالم، والتفاعل معه حتى في وقتنا الحالي، وفي ظل الهجمة الغربية الواسعة لاستيعاب الحضارات كافة نجد أن الإسلام من خلال أبنائه ـ مفكرين ومثقفين ـ لا يزال يسلك سبيل التفاعل والحوار عملا بقوله تعالى: **﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾** (٣).

إذا كان هناك من صراع بين الحضارات، فلن يكون من قبل المسلمين، لأن إيمانهم بالتعدد في كل شيء سوى الله ـ سبحانه ـ إيمان عميق، يجعلهم يقبلون التعايش مع الأشكال الحضارية الأخرى، دون محاولة طمسها أو محوها من الوجود.

(٧) ثانيا: أصول ومعايير:

الأصول: هي الأسس التي لا بد من تواجدها ومراعاتها عند البناء الحضاري حتى يكون العطاء الإنساني قائما على قواعد راسخة، متصفا بالجودة والسلامة فلا يتعرض للانهيار أو الاضمحلال أو الزوال.

---

(١) هود: ١١٨، ١١٩.

(٢) انظر: عالمنا حضارة أم حضارات ـ د. محمد عمارة.

(٣) النحل: ١٢٥.

والمعايير: هي الأمور التي يُحتكم إليها عند الاختلاف لتكون فيصلا في النزاعات البشرية أو التوجهات الأساسية مادية كانت أو معنوية.

الأسس والأصول التي قامت عليها حضارة الإسلام هي:

١ـ الأسس الإيمانية ٢ـ الممارسات التعبدية.

٣ـ الفضائل الأخلاقية.

٤ـ الرعاية الإنسانية المتمثلة في الرحمة والعدل والأمانة . . إلخ.

هذه الأسس هي عماد كل نماء في حضارة الإسلام، ويوم تخلو حضارة الإسلام من بعض هذه الأسس، فإنها لا تختلف ـ في هذه الحالة ـ عن غيرها من الحضارات، وإن اختلف المظهر وتغير الشعار.

وعلى ما جاء بخصوص هذه الأصول في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يكون المعيار والاحتكام.

وشريعة الإسلام أفسحت أمام المرأة مجال الإسهام الحضاري الحقيقي بغير قيود ولا حدود، لأن «المرأة في الجانب الإنساني مخلوق كالرجال تماما لا يختلفان، ولا يُعْطي أحدهما حال إتيانه فعل الخير أكثر من سواه إلا بمقدار تقواه وعطائه وصلاحه، وليس لواحد منهما فضل على الآخر بداع من نوعه، أو وظيفته وموقعه في المجتمع فذلك أمر قدره الله تعالى، ولا دخل للبشر فيه»[1] والمجتمع الإنساني لا يقوم بغير رجل وامرأة يتكاملان ولا يتدابران، ويؤدي كل منهما واجبه ووظيفته في المجتمع ـ كما أراد الله ـ وكما هيأ هذا الإنسان لهذه الوظيفة حين خلقه، ومن الحيف والجور أن يحاول إنسان الخروج عن وظيفته وطبيعته التي خلقه الله عليها.

المرأة والرجل كلاهما مرهون بوظيفته، مرتبط بطبيعته التي أوجده الله عليها، وفي سبيل المحافظة على طبيعة النوع الإنساني «ألغى الإسلام فكرة الخطيئة الملحقة بحواء في الكتاب المقدس، وواجه بقوة النظام الجاهلي بوأد البنات أو التضايق عند ولادتهن»[2].

---

(١) المرأة فى التاريخ والشريعة ص ١١١.

(٢) نفس المصدر السابق ص١١٣.

إن الصلاح مطلوب من الرجل والمرأة معا، وعليهما الالتزام بالسيرة الحسنة التي يتسامى بهـا الفرد عن الميل إلى الشهوات، وأن العـقاب واحد لكل من الرجل والمرأة إذا ما قام أحدهما بأي فعل يستحق عقابا جزائيا أو سجنا أو غير ذلك، والحال نفسها ستكون لهم في اليوم الآخـر، فلن يعفى امرؤ من سوء قوله، كـما أنه لا يحرم من ثواب استقامته.

«الرجل والمرأة سـواء في الموقع الإنسـاني إسـلاميـا، فـلا هو مفـضل بسـبب ذكوريته، ولا هي أقل منه بسبب أنوثتها، بـل كل منهما مقدم عند الله ـ تعالى ـ في الآخرة، وفي الدنيا، بمقدار نجاحه في دوره وصدقه بما عاهد الله عليه، وحسن تأديته لما هو مطلوب منه»[١] .

وقد سبقت المرأة المسلمة غيرها في الإسهام الحضاري بمئات السنين، ففي الوقت الذي كـانت المرأة في بريطانيا تمنع فـيه من قـراءة الكتاب المقـدس في أواخر الـقرن السادس عشر الميـلادي كانت المرأة المسلمة منذ فجر الإسلام وبزوغه تشـارك مشاركة فعالة ومثمرة في العطاء الإسـلامي والدعوي أو قل إن شئت: كانت تشارك في صنع الشكل الحـضاري الإسلامي. وهل يُنكـر دور خديجة رضي اللـه عنها في الإسلام، وهل يُنكر دور سمـية؟، ألم تشارك المـرأة في بيعة العـقبة وهي مـحور الارتكاز في انتشار الإسـلام فيما بعد. ألم تقاتل دفـاعا عن رسول الله ﷺ يوم أحد؟ ألم تسق الظمأى في الحروب؟ وتداو الجـرحى في ميادين القتـال؟ ألم ترو الحديث عن رسول الله ﷺ؟ لكنها في كل ذلك لم تخرج عن وظيفتهـا ولا عن طبيعتها ولم تطلب أن تتشبه بالرجال أو تتساوى بهم في الطبيعة والوظيفة لأن ذلك غير مستطاع.

ما يطلبه الإسـلام في هذا الباب هو العدل لا المساواة، والعـدل في التعامل مع الذكر والأنثى يعني أن يـعامل كل واحد منهـما حقوقـا وواجبات انطلاقـا من نوعه والدور المنوط به، فالقاعـدة الإسلامية هي ﴿**لَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى**﴾[٢] لذلك من العقم في الفكر والحمق أن يفكر أحد بجعل الرجل والمرأة سواءً في وظيفتيهما وما ذلك إلا مكابرة وفكرًا أسطوريًا أمـلته على أصـحـابه ردّاتُ الفعل علـى ظلم لحق بالمرأة عند

---

(١) نفس المصدر، ص ١١٦.

(٢) آل عمران: ٣٦.

بعض الشعوب.

إن بناء المجتمع السليم يتطلب أن نعدل بين المرأة والرجل لا أن نساوي بينهما لأن العلاقة بين الرجل والمرأة ليست مما يمكن المساواة فيه في الوظيفة كما هي الحال في الجانب الإنساني بل تختلف أعمالهما، وأدوارهما والمطلوب هو العدل بينهما، أي أن يقوم كل زوج منهما بواجباته وأعماله المطلوبة منه، وينال حقوقه بحكم انتمائه عضوا في أسرته، أو مواطنا في مجتمعه[1].

إن الإسلام قد شرع حق «مشاركة المرأة للرجل في كيان الدولة والمجتمع سواء بسواء ـ عدا بعض استثناءات قليلة مختصة بخصوصياتها النوعية ـ ويجعل لها بالتالي الحق مثله في النشاط السياسي والاجتماعي على مختلف أشكاله وأنواعه، ومن جملة ذلك تعلم العلوم والفنون على أنواعها ودرجاتها؛ لاستكمال الاستعداد لممارسة الأهلية والصفة التي منحتها، والإشراف على الشؤون العامة التي تتصل بمصلحة الجميع، والجهود والدعوات والتنظيمات الوطنية والكفاحية والاجتماعية والإصلاحية المتنوعة، وممارسة الحقوق والأعمال والحريات المباحة كافة، للاستمتاع بزينة الله التي أخرجها لعباده والطيبات من الرزق ضمن نطاق الاقتصاد والاعتدال ومجانبة الإسراف والغلو والفواحش والآثام والبغي»[2].

فهل بقي أمام المرأة المسلمة شيء يمنعها من الإسهام الحضاري بحسب مقتضيات الإسلام وما يرتضيه؟

والمهم في كل عطاء للرجل أو للمرأة ألا يخرج عن ضوابط الشريعة وقواعدها المقررة، ليكون عملا وهذا هو المعيار الصحيح الذي لا يدخله تزوير ولا تدليس.

وكل معيار غير شريعة الله قابل للخطأ والصواب وقابل للحق وللباطل، وقد يأخذ من هذا ومن ذاك، وخير لنا ذكورا وإناثا أن نتخذ شرع الله منهجا ودستورا من أن نتخبط وراء هذا أو ذاك.

(١) المرأة فى التاريخ والشريعة ص: ١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) القرآن والمرأة ـ محمد عزة دروزة.

المبحث الثالث عشر
المخدرات والمسكرات والمُفْتِرَات والتبغ

(١) دور الإسلام والأسرة والمجتمع في مكافحتها:

لقد كثرت الأضرار الناجمة عن المخدرات والمفترات والمسكرات والتبغ (الدخان)، مما حدا بغير المسلمين أن يسعوا إلى تحريمها تحريما تاما، فعلت ذلك أمريكا، وفعلت ذلك الهند، وفشلت التجربة فيهما لأسباب من أهمها أنهم يقاومون ظاهر الجريمة بعد اقترافها، ويكتفون بالعقوبة وحدها، وهذا غير كاف لاستئصال شأفة هذه السموم من النفوس التي تسعى إليها وتبذل الأموال في سبيلها، وإنما المعوّلُ عليه في ذلك هو استثارة الإيمان في القلوب، وغرس التقوى فيها بحيث لا تقدم على الجريمة، فإن تمكن الشر من بعض النفوس فأقدمت على الجريمة في لحظات ضعف إيماني، وطمع مالي، ودافع شيطاني فإن في العقوبة زاجرا، وفي التعزير تأديبا وإصلاحا وتقويما ليعود هذا العضو (الفرد) إلى جسمه (المجتمع) بعد أن يكون قد برئ من الداء، وهذا ما فعله الإسلام.

والمسلمون يبحثون عن كل دواء لأمراضهم في غير دينهم، وهم مستعدون لتطبيق كل تجربة تمت في الشرق أو الغرب على أبنائهم وفي مجتمعاتهم، ولكنهم قد يحجمون أو يتباطؤون إن قدمت إليهم دواء جاء به الدين، وجربه السابقون فنجح كل النجاح وحقق للمجتمع الأمن والفلاح، مع أن تجارب الآخرين إن نفعت في الدنيا فهي غير نافعة في الآخرة، وعلاجات الدين لانحراف النفوس نافعة في الدنيا والآخرة.

ولسنا نتكلم عن أدواء جسدية، ولكننا نتحدث عن انحرافات نفسية وأمراض أخلاقية وأضرار اجتماعية، وهذه قد عالجها الدين خير علاج وما علينا إلا أن نعتصم بديننا ونطبق أمر ربنا، ونتبع منهج نبينا ﷺ لتسلم مجتمعاتنا، ونأمن على أنفسنا وأبنائنا، وندفع الشر والأشرار بعيدا عن طريقنا.

إن الدين عالج هذه السموم لا رغبة في إرضاء النفوس، وإنما صيانة للمجتمع

من البغضاء والعداوة، وحفظا للعقل من أن تعبث به الخمر والمسكرات، وهو مناط التكليف، وحماية للمسلمين من أن يغفلوا عن ذكر الله وعن الصلاة، وهذه أمور لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومجتمع المسلمين اليوم أحوج ما يكون إليها، ومقاومة هذه الآفات الضارة خطوة على طريق العودة إلى الدين الذي هو أساس التمكين.

(٢) تجميع الجهود:

ومن أجل السلامة من هذا الوباء لا بد أن تتضافر الجهود الحكومية والشعبية لحفظ البلاد من هذا الوباء، ولتنقية أرضها من ملوثاته وقاذوراته باستخدام المطهرات الدينية والعقلية والفكرية، وإحكام الرقابة الأسرية، والمحاولة الدائمة لكسر حلقة التباعد بين الآباء والأبناء حتى يظل الجو الأسري محيطا بالأبناء يحس بنبضهم، ويساعدهم على التخلص من مآزقهم، ويطرد من طريقهم الأوهام، ويحفظ عليهم عقولهم وشبابهم، ويقيهم من كل محاولة للاختراق من جانب شياطين الإنس.

(٣) الدين يسد كل منفذ أمام المسكرات:

لقد حرّم الإسلام الخمر تحريما قاطعا في قوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ..**﴾[١].

وحرم كل مسكر وجعله متصلا بالخمر، وقد جاء في الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل مسكر خمر، وكل خمر حرام**»[٢]، وحتى لا يترك الإسلام مجالا لنفوس الضعفاء كي تتأول الأقوال بحسب ما يشبع شيئا من رغبتها، ويحقق لها بعض هواها قال ﷺ: «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**»[٣]، وعن أم سلمة رضي الله عنها: نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر[٤]. فالخمر والمخدرات بجميع أنواعها وأشكالها وأسمائها محرمة شرعا، وليس يقتصر التحريم على شربها أو تعاطيها، وإنما يشمل تحضيرها وتصنيعها

(١) المائدة: ٩٠. (٢) أخرجه مسلم (٢٠٠٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٨١) والترمذي (١٨٦٥) من حديث جابر رضي الله عنها.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٨٦)، وضعفه الألباني، وأحمد (٦/٣٠٩)، وقال شعيب الأرناؤوط: «صحيح لغيره دون قوله: «مفتر»».

ونقلها وبيعها وشراءهـا وحملها، وقد جاء في الحديث: «**لعن الله الخمر، وشاربها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها والمحمولة إليه، وآكل ثمنها**»[١] .

(وقد أفتى فقهاء الإسلام بتحريم استخدام التبغ بطرق استعماله كافة منذ أن ظهر التبغ والتدخين فـي حدود الألف الهجرية وألف الشيخ إبراهيم الـلقاني شيخ الأزهر رسالة «تنبيه الإخوان في تحريم الدخان» سنة ١٠١٤هـ، كما حرمها مئات الفقهاء في رسائل متعددة وفتاوى مستقلة.

وقد أجـمع علماء المملكة العـربية السعـودية على تحريم التبـغ والزجر عنه، بل وعقـوبة متعـاطيه بالجلد تعـزيرا منذ أن أصدر الشيخ عـبد الله بن مـحمد بن عـبد الوهاب فتـواه بتحريم التتن «كلمة تعني التـبغ» إلى يومنا هذا، حيث أصدر سـماحة المفتي السـابق الشيخ **عبـد العزيز بن عـبد الله بن باز** العديد من الفـتاوى في تحريم التبغ، وكذلك فعل الشيخ محمد صالح بن عثيمين، والشيخ أبو بكر الجزائري وهيئة كبار العلماء.

كما أفتى المجتمعون في مؤتمر مكافحة المسكرات والمخدرات والتدخين المنعقد في المدينة المنورة عام ١٩٨٢م بتحـريم التدخين والتبغ وهم علماء من الأقطار الإسـلامية كافة.

ثم قام الأزهر الشـريف في مصر بإصـدار فتواه بتـحريم التدخين، وكـافة طرق استخـدام التبغ، وقامت منظمـة الصحة العالميـة بتوجيه سـؤال عن حرمة اسـتخدام التدخين إلى عشرة من كبار علماء مصر على رأسهم فضيلة الشيخ جاد الحق ـ رحمه الله تعالى ـ (شيخ الأزهر السابق)، وأصدرت المنظـمة كتابا بعنوان: «الحكم الشرعي في التدخين» عـام ١٩٨٨م، وقد أجمع هؤلاء العـلماء بعد ظهـور الحقائق العلمـية الواضحة، على تحريمه قولا واحدا).

فـ(مما لا شك فيـه أن المخدرات تنشئ أفرادا في المجـتمع غير صـالحين، وتهدم الأخلاق وتفسـدها، وتدفع إلى الإجرام . . . .، ويصبح مـتعاطيها خطرا عـلى نفسه وعلى المجتمع، ويزداد انحطاطه الخلقي والعـقلي) ويقل إحساسه بالمسؤوليـة فيضيع ويضيّع من خلفه أناسا كثيرين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٧٤)، وابن ماجه (٣٣٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أرقام مفزعة:

ولعل ذكر بعض الأرقام تبين مـدى الفاجعة التي تحيط بالإنسـانية إن لم تتدارك أمرها، وتحزم قرارها، وتحاصر هذه المهلكات وتقتـلها وتقضي عليها، ولا تسمح لها بالعودة من جديد، إن مستهلكي المخدرات في العالم يستهلكون سنويا ما قيمته ٣٠٠ مليار دولار من مختلف أنواع المخدرات بحسب سعرها في السوق الأمريكية.

وإن العالم يـنفق في استهـلاك التبغ سنويا مـا قيـمته ٢٢٥ ألـف مليون دولار أمريكي، وهذه أرقام مفزعة، تستدعي علاجا سريعا وحازما.

(٥) الوقاية قبل العقوبة:

والشـريعة الإسـلاميـة أنصفت الـناس حين حرمت كل مـا من شأنه الإضـرار بالصحة أو إتلاف المال، وعاقبت عليه عقوبة محـددة في الخمر، وعقوبة غير محددة هي التعـزير الذي يبدأ بالعتـاب وينتهي بالقـتل إن اقتضت المصلحـة ذلك، (ومعنى التعزير: التـأديب، وقد جرت الشريعـة على عدم تحديد عقوبة كـل جريمة تعزيرية، واكتفت بتـقرير مجمـوعة من العقوبات لهـذه الجرائم تبدأ بأخف العقـوبات وتنتهي بأشدها، وتركـت للقاضي أن يختـار العقـوبة أو العقوبات في كل جـريمة بما يلائم ظروف الجريمة وظروف المجـرم، فالعـقوبات في جرائم التـعزير غـير مقـدرة، وقد قصدت الشريعة من إعطاء أولي الأمر حق التشريع في هذه الجرائم تمكينهم من تنظيم الجماعة وتوجيـهها الوجهات الصحيحة، وتمكينهم من المحـافظة على صالح الجماعة والدفاع عنها ومعالجة الظروف الطارئة).

على أن الشريعة راعت أن العـقوبة هي نهاية المطاف «فآخـر الدواء الكيّ»، كما يقولون، إذ إن هناك مجمـوعة من القيود والسدود الإيمانية والتـربوية والسلوكية تحول بين المؤمن وبين الجريمـة وتمنعه من الإثم، وتصده عن المنكـرات، وهي بذاتها كافـية لردع الذين لم تتأصل الشرور في نفـوسهم فتمنعهم هذه التربيـة الإيمانية من اقتراف الكبائر والجرائم.

(٦) أهم عوامل القضاء على هذه الآفات:

أ- ضرورة تعميق الإيمان:

لم يترك الإسلام المجتمع نهبا لضعاف النفوس، يعيشون فيه فسادا، ويشيعون فيه

الفاحشة، وينشــرون بين الناس الأرجاس والخبائث، ويعملون على تدمير بنيــته الحية بالأراجيف التــي تهدم صرح الفكر، أو الســموم التي تهــدم بناء الجسم، أو العــقائد الضالة التي تحط من شأن النفوس أو القلوب، أو الغــش والخداع الذي يبتز الأموال، أو الفتن التي تقضي على البشر.. لم يترك الإسلام المجــتمع نهبا لهذا كله بل حافظ الإسلام على المسلــمين وحصنهم ضد الوقــوع في هذه الأخطار بالأمصــال الإيمانية، التي تُغرَسُ في الأفراد وهم لبنات طرية، حتى تشب معهم، فإذا ما اشتدَّ ساعدهم، وقوى كــاهلهم، كــانت القوة الإيمانيــة في قلوبهم صلبــة لا تنفك عنهم ولا ينفكون عنها. لأنها أصبحت تشكل تفكير المسلم، وتحرك أشواقه في الحياة، وتجعله موصولا بالله، مدفوعا نحو الخير، ممنوعا عن الشر، مأخوذا بقول الله: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ (١).

وبقوله: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾(٢) وبقوله: ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾(٣).

الإيمان هو طوق النجاة دائما، وبه يمكن تغيير الإنسان من داخله، وإصلاحه من باطنه، فالإنسان لا يقاد كما تقاد الأنعام، ولا يصنّع كما تصنّع الآلات من حديد أو نحاس أو معدن.

إنما يحرك من عــقله وقلبه، يقنع فيقــتنع، ويُهدى فيهــتدي، ويرغَّب ويرهَّب، فيرغب ويرهب، والإيمان هو الذي يحرك الإنسان ويوجــهه ويولّد فيه طاقات هائلة، لم تكن لتظهر بدونه، بل هو ينشئه خلقا جديدا، بروح جديدة، وعقل جديد، وعزم جديد، وفلســفة جديدة، كــما رأينا ذلك في ســحرة فرعــون حين آمنوا برب موسى وهارون، وتحدّوا جــبروت فرعون، وقــالوا له في شموخ واستــعلاء: ﴿**فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾(٤).

ورأيناه في أصــحاب رســول الله ﷺ، وقــد نقلهم إيمانهم من الجــاهليــة إلى الإسلام: من عــبادة الصنم، ورعــاية الغنم، إلى رعاية الأمم، وقــيادة البــشرية إلى

---

(١) الأنفال: ٢٤.
(٢) الأنعام: ١٢٢.
(٣) الملك: ٢٢.
(٤) طه: ٧٢.

هداية الله، وإخراجها من الظلمات إلى النور.

إن أهم ما ينبغي أن نشغل به اليوم إذا أردنا إصلاح حالنا: أن نبدأ البداية الصحيحة، وذلك ببناء الإنسان، بناء حقيقيا لا صوريا، نبني عقله وروحه وجسمه وخُلُقه، بناء متوازنا لا طغيان فيه ولا إخسار في الميزان، نبنيه عقليًا بالثقافة، وروحيًا بالعبادة، وجسميًا بالرياضة، وخلقيًا بالفضيلة، وعسكريًا بالخشونة، واجتماعيًا بالمشاركة، وسياسيًا بالتوعية، ونعده للدين وللدنيا والآخرة، وليكون صالحًا في نفسه مصلحًا لغيره حتى ينجو من خسر الدنيا والآخرة الذي ذكره الله في سورة العصر: **﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾**[1].

إن المؤمن الذي أحياه الله بالإيمان وجعل له القرآن نورا وبيانا، يأبى أن يكون في الظلمات، ويأبى أن يمشي مكبا على وجهه، ولا يقبل إلا أن يستجيب لله وللرسول، والله ـ سبحانه ـ أمر بالقسط والعدل والإصلاح والبر والخير، ونهى عن الجور والظلم والفساد والشر، قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾**[2].

وفي ضوء هذا الإطار العام يأتي الأمر للمسلمين: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾**[3] ويأتي الأمر بالابتعاد عن كل إثم: **﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾**[4] ويأتي النهي عن الفساد في الأرض حتى يظل الصلاح والإصلاح من سمات المسلمين: **﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾**[5]، ويبين الله أن بعض الناس ينشرون جميل الكلام وينشرون قبيح الفعال فيكتسبون عداوة الله لأنهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون، قال سبحانه: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾**[6]، وقص القرآن الكريم علينا قصة أحد المفسدين، قارون الذي بغى على قومه فقالوا

---

(١) العصر: ١-٣.
(٢) النحل: ٩٠.
(٣) المائدة: ٢.
(٤) الأنعام: ١٢٠.
(٥) الأعراف: ٥٦.
(٦) البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥.

له: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[1]، فكان جزاؤه حين تمادى في غيه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾[2]، وحكم الله بالخسران على المفسدين فقال: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3]، وكتب عليهم اللعنة وسوء الدار فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[4]، وأمر بمعاقبة المفسدين: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا . .﴾[5]. ﴿أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[6].

وبين الله ـ سبحانه ـ أن لا يصلح عمل المفسدين. . ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[7].

وكل ذلك يستلزم مقاومة المنحرفين والأخذ على يد المفسدين حتى لا تهلك الأمة وحتى يبقى جو الخير مشاعا في بلاد المسلمين.

ب ـ إدراك أن الصلاح والإصلاح أساس التمكين:

ولا يستوي في دنيا الناس ولا عند الله الصالحون والطالحون: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[8]. وقد كتب الله النجاة لمانعي الفساد ومقاوميه: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[9].

فالصالحون في منجاة من عذاب الله في الدنيا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[10].

---

(١) القصص: ٧٧.
(٢) القصص: ٨١
(٣) البقرة: ٢٧.
(٤) الرعد: ٢٥.
(٥) المائدة: ٣٣.
(٦، ٩) هود: ١١٦.
(٧) يونس: ٨١.
(٨) ص: ٢٨.
(١٠) هود: ١١٧.

والصالحون المصلحون على وعد مـن الله أن تكون حياتهم طيبة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (١)، وجعل الأرض ميراث الصالحين قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(٢). وجاء في القرآن الكريم أن الله يـتولى الصالحين فـقال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾(٣). وأمـر المرسلين بالعمل الصـالح فقـال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾(٤). ووعد الصالحين بالأجر غير الممنون فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(٥).

فمنهج الشريعة هو المسارعة إلى الخـيرات ونشر الإصلاح، والابتعاد عن الشرور وتركها ومقاومـتها وسد أي منفذ أمامها يلحق منه الضرر فـردا أو طائفة أو جماعة، ولذا جـاء في الحـديث: «**لا ضـرر ولا ضـرار**»(٦) ولما كـان ضـرر هذه المسكرات والمخدرات كبيرا حرمها الشـارع في كل شريعة أنزلها، فالمفاسد **ثلاثة أقسام: أحدها:** (ما يـجب درؤه، فإن عظمت مـفسـدته وجب درؤه في كل شريعـة وذلك كالكـفر والقتل والزنا والغصب وإفساد العقول).

(ومثل هذه الأشياء حرمت في كل شريعة **لأمرين**: إما لأنها تتنافى مع مصلحة الجمـاعة، كحـمل السلاح وتحريم الانتـقال من محـل موبوء إلى غيـره، ومثل هذه الأفعال تحـرم لصالح الجماعـة ودفع الضرر عنها...، ولما كانت العـقوبة هي أمثل الوسائل لحماية الجماعة من الجريمة والإجرام فإن العقوبة بهذا تصبح ضرورة اجتماعية لا مفر منها، وشريعة الإسلام التي حرمت هذه الأشياء وجعلت لها عقوبات معلومة وضعت أمام الناس سدودا وقيودا حـتى لا يصلوا إلى مرتبة الإجرام والمجرمين، وقد رأينا النظام العام للجماعة يحث على الصـلاح والإصلاح ويأخذ على يد المفسدين، ويجعل واجب الجماعة الحيلولة دون اقتراف الجريمة، فـإن اقترفوها لاحقتهم الجماعة وأصلحت فسادهم، وردتهم إلى طريـق التهذيب، وقد راعت الشريعة الإسـلامية أن يكون (ابتعاد الناس عن الجريمة ناتجا عن وازع ديني، ودافع نفـسي ليس مبعثه الخوف

(١) النحل: ٩٧. (٢) الأنبياء: ١٠٨.
(٣) الأعراف: ١٩٦. (٤) المؤمنون: ٥١.
(٥) فصلت: ٨.
(٦) أخرجه أحمد (٢٨٦٧) من حديث ابن عباس، والطبراني في الأوسط (٣٧٧٧).

من العقاب، بل ابتغاء رضى الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. . حتى يقوم مجتمع صالح تسود فيه نية المحبة ولا مجال فيه للجريمة. . .، وقد قررت الشريعة نظام العقوبات غير المحددة المدة حتى يكون حد العقوبة هو توبة الجاني أو إصلاح حاله . . .، وهذا النظام هو بحق من مفاخر هذه الشريعة؛إذ إنه يقوم على الردع والزجر دون أن يغفل الناحية الشخصية لدى الجاني وملاءمة العقوبة لإصلاحه، فتحققت للمجتمع بذلك الحماية الكافية).

جـ ـ الحجر على السفهاء:

ولم تترك الشريعة أرباب المال يتصرفون في أموالهم بحسب أهوائهم، فمن أتجر في الخمر أهرقت خمره وضاعت عليه أمواله؛ لأنه ظلم نفسه بتعدي حدود الله، ومن فعل ذلك فلا عوض لماله، ولا تخفيف للعقوبة عليه؛ إلا إن تاب وأناب، وإذا كان السفيه يحجر على ماله، وقد لا يستخدمه في الحرام بل إنه لا يحسن التصرف فيه فيما هو مباح، فكيف يستسيغ المجتمع أن تترك الأموال في أيدي السفهاء الذين ينشرون الفاحشة في الذين آمنوا، ويدفعون الناس بالترغيب ثم بالترهيب نحوها؟! أليس هؤلاء أحق من السفهاء بأخذ أموالهم من أيديهم إلى أن يثبتوا رشدهم بالتوبة النصوح؟

د ـ ضرورة تنفيذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

والمعروف هو ما أمر به الشرع على سبيل الوجوب أو الندب، والمنكر هو ما نهى عنه الشرع على سبيل التحريم أو الكراهة، والمؤمنون جميعهم مطالبون ـ كل بحسب قدرته ـ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخمر والمخدرات رجس ومنكر: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ**. .﴾(١) فأوجب على المسلمين الابتعاد عن هذه السموم واجتنابها، ولعن كل من له صلة بها، وأوجب مقاومتها باللسان عن طريق بيان الأضرار، وبالقلب عن طريق النفور من سماع حديثها وصفاتها أو من رؤيتها أو غير ذلك، وباليد عن طريق منعها، وإهراق آنيتها وتكسيرها، ومعاقبة المتجرئين على جلبها أو تصنيعها.

(١) المائدة: ٩٠.

والأمة المسلمة بجميع أفرادها سياج حارس يحمي ويصون ويحافظ، فما يكاد إنسان يرى شيئا مرفوضًا شرعًا حتى يبادر إلى إصلاحه، ومنع شَرِّه، وإبعاده عن المسلمين ما استطاع إلى ذلك سبيلا، إنها حراسة متضامنة يقدمها المجتمع المسلم لجميع أبنائه «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**»(١)، فلا يجوز لمسلم أن يرى أخاه يتردى في هاوية الخبال، ثم يتركه يلقى مصيره، ولا يمد له يد العون، وصادق النصيحة ويحميه من هذه السيئة «**المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه**»(٢) .

في سبيل هذا التعاون والتناصر في إقامة أوامر الدين جاء الأمر من الله: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾(٣)، وجعل الله من لوازم الإيمان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ (٤). فالسلبية أمام المنكرات مهلكة للمجتمع كله، والإيجابية في مقاومتها ومنعها أساس لابد منه في مجتمع مسلم، وهذا ما ينبغي أن يقوم به المؤمنون، حتى يكونوا قائمين بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي هي لازمة من لوازم الإيمان.

هـ. التربية الصحيحة:

وهي التربية التي تستقي روح الشرع في كل ما تقدمه للصغار وتأخذهم بتعاليم الإسلام بالوسيلة المناسبة، التي أشار إليها النبي ﷺ في قوله: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع**»(٥). وهذه التربية تأخذ بيد الطفل المسلم من صغره نحو الخير يمارسه سلوكا عمليا، فيعرف من خلال الممارسة ما هو واجب يعمله وما هو محرم يتركه، وما هو مباح يجوز له أخذه أو تركه، ولابد أن تكون هذه التربية: (تربية إسلامية متكاملة معاصرة تتابع الطفل المسلم من سن الحضانة، وتستمر معه، حتى يتخرج في

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١) ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .
(٢) أخرجه أبو داود (٤٩١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وحسنه الألباني.
(٣) آل عمران: ١٠٤. (٤) التوبة: ٧١.
(٥) أخرجه أبو داود (٤٩٥) ، وقال الألباني: «حسن صحيح». .

الجامعة، مستخدمة المناهج الملائمة، والأساليب المشوقة، والوسائل السمعية والبصرية، والتكنولوجيا المتطورة، بما يحقق ضرورة الدين للحياة، ويؤكد كمال الإسلام وعدالة أحكامه، وإعجاز كتابه، وعظمة رسوله، وتوازن حضارته، وخلود أمته).

وليست هذه التربية مطلوبة في درس الدين أو التربية الإسلامية فحسب، بل هي مطلوبة في كل الدروس والمواد العلمية والأدبية، دون افتعال.

فلتلتمس في العلوم والمواد الاجتماعية واللغة والأدب، وتلتمس في الأنشطة المدرسية، وفي الجو العام، حتى يساعد على تنشئة جيل مسلم مؤمن بالله معتز بدينه وأمته، متكامل النماء بروحه وعقله وجسمه ووجدانه، مخلص لربه، خادم لوطنه، متسامح مع غيره، عامل لخير الإنسانية جمعاء.

ولابد من الوقوف في وجه الفلسفات والمناهج المادية واللادينية المستوردة، الفارغة من روح الدين، والمناقضة لفلسفة الإسلام عن الله وعن الإنسان، وعن الحياة والعالم، وعن الدين والدنيا.

و- قيام الأسرة بواجباتها نحو أبنائها:

وإذا قلنا: إن هذه الأشياء السابقة من أهم معالم الحصانة الدينية في المجتمع، وأن المجتمع يجب عليه إقامتها وتحقيقها فإن الأسرة ـ باعتبارها اللبنة الأولى في المجتمع ـ يقع عليها العبء الأكبر والأوفى في غرس هذه الأشياء في نفوس الصغار، وفي العمل على مراقبة تنفيذ أوامر الدين، باعتبار الأسرة من الرعاة الذين قال عنهم رسول ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» إلى أن قال: «**والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها ..**»[1].

وحين نطالب الأسرة برعاية الأبناء ومراقبتهم وتوجيههم وتربيتهم فإنما نطالبها لأننا نعتقد أنها تقوم على المودة والرحمة التي جعلها الله بين الزوج وزوجه فقال: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[2]. لأن هذه المودة والرحمة تفيض على الصغار فيعرفون أن الأسرة هي كل شيء في حياتهم يشبون على احترامها وتحقيق رغبتها، ومحاولة

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣) ومسلم (١٨٢٩). .

(٢) الروم: ٢١.

إرضائها والابتعاد عن إغضابها، ولذا يلتزمون ما توصيهم به الأسرة، ويشبون وقد تعودوا كثيرا من الأخلاق الفاضلة كالصبر والإيثار والعفة والشرف والصدق، وكلها تجعل الصغار في حصانة ضد كل المغريات والمنكرات.

(٧) الأسرة المفككة .. ماذا تنتظر من أبنائها؟!

إن التفكك الأسري يخلف في البيت شقوقًا وندوبًا ظاهرة يراها الصغار والشباب فتمتلئ أنفسهم بالقلق والضيق والحرمان، ويودون أن يجدوا خارج البيت متنفسا للأحزان والآلام، وقد يدفعهم ذلك لأن يرتكبوا الحماقات ويقعوا في الموبقات ويصبحوا أسرى المخدرات.. لأنهم فقدوا اليد الحانية، والنصيحة الصادقة، والمودة الجاذبة والرحمة الهادية المرشدة. وأين يجدونها وسط جو الخلاف القائم في البيت الذي يشيع فيه الضباب والظلام؟ وقد صدق من قال واصفا مثل هذا البيت:

البَيْتُ أَصْبَحَ تَائِهًا ... وَيَكَادُ يَطْوِيه الدَّمَارْ
لاَ الْأُمَّهَاتُ لَهَا بِه ... عَطْفٌ وَلَيْسَ لَهَا قَرَارْ
وَالْبَيْتُ فِي أَيْدِي الْغَرِيبْ ... يُدِيرُهُ فِيمَا يُدَارْ
أَطْفَالُنَا مُتَغَرِّبُونْ ... فَلاَ حَنَانَ وَلاَ اعْتِبَارْ

إن الأسرة المفككة محتاجة لمن يصلح عوجها، ويسد خللها، فهل تصلح الأبناء؟ وكيف..؟ وهل يستقيم الظل والعود أعوج؟!

ولذا فإن على الأب والأم دورا كبيرا في قيام الأسرة على الأسس السليمة حتى يكون نتاجها سليما قويا غير قابل للاختراق من هواة الشر.

ثم يكون التدرج التربوي السلوكي، وتشجيع الأبناء على كل خير مناسب لهم، وبيان الأخطاء التي يمكن أن يقعوا فيها حتى يحذروا منها، مع ضرورة مراقبة أصدقائهم ومعرفتهم بأماكن تواجدهم وماذا يفعلون؟ ومن يصاحبون؟ هل يصاحبون الأخيار أم يصاحبون الفجار؟ وماذا يشاهدون في أجهزة الإعلام؟

وَتَدَخُّلُ الأسرة في مثل هذه الأمور لا يمكن إغفاله في وقت تكالبت فيه الفتن، وزادت الشهوات، وكثرت المغريات، وفعلت أجهزة الإعلام بالناس الأفاعيل.

فإن لـم تكن الأسرة خط دفـاع قوي انهـار الشبـاب وسقط فـريسة في شـباك المهربين، فلا يتركونه إلا بعد الهلاك والضياع وخراب النفس والمال.

إن مسؤولية الأسرة في العصر الحاضر عظيمة فإن وفقت في القيام بها كانت نعم العـون للأبناء، وإن لم تقم بهـا عرضت نبـتـها الغض للـرياح الهوج والعـواصف المدمرة.

وبرقابة الأسرة واستقامتها على منهج الله، وبتـحقيق المجتمع للسمات الإسلامية فيه، بغرس الفضائل ومقاومة الرذائل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون خط الدفاع القوي الذي يـصد كل الشرور والآثام، فإن تسرب ـ بعـد وجود هذه الموانع ـ شيء من السموم فالعقوبة الرادعة كفيلة باجتثاثه والقضاء على المفسدين.

المبحث الرابع عشر
المرأة بين الإبداع والتهميش[١]

التـهمـيش والإبداع فعـلان إراديان، ولو أننا اعـتدنا أن ننسب الإبداع لأنفـسنا ونرمي بالتـهميش علـى الظروف والعوامل الخارجـية، إلا أنه لا يمكن أن نـتقل من التهمـيش إلى الإبداع إلا إذا اعترفنا بأن التهمـيش بنسبة كبيـرة منه يعود إلينا ونحن نتحمل مسؤوليته قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[٢].

الواقع أن الأمة بأسرها مهمشـة في هذه المرحلة الزمنية، الممتدة منذ بزوغ القرن الميلادي العشرين، الأمة بأسرها ـ رجالاً ونساءً ـ تتقطعها السبل، ويغرف من خيراتها الطامعون، لتـصبح كمًا مـهملاً لا حول ولا قوة له، فـيصدق فيهـا قول رسول الله ﷺ: «**يوشك أن تتــداعى عليكـم الأمم من كل أفق، كـمــا تتـداعـى الأكلة إلى قصعتها**»، قيل: يا رسول الله فمن قلة يومئذ؟ قال: «**لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم، لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت**»[٣].

فالإسلام منذ انطلاقته تعامل مع الإنسان من خلال الدور المعطى له، ولم يعف أي إنسان من التكليف، قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[٤] وارتبطت هذه العبادة الـتي حددها رسول الله ﷺ لكل فرد من أفـراد الأمة، مهمـا تعاظم أو صغـر دوره ومكانته الاجـتماعـية أو الاقتـصادية: «**كلكم راع، وكلكم مـسؤول عن رعيـته، فـالإمام راع، ومسـؤول عن رعيـته، والرجل راع في أهله، وهو مـسؤول عن رعيته، والمرأة راعـية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيتـها، والخادم راع في مال سيـده، وهو مسؤول عن رعيـته، والرجل راع في مال أبيـه، وهو مسؤول عن رعيـته، فكلكم راع، وكلكم مـسـؤول عن رعـيتـه**»[٥]. من هذه الرؤية تعـامل الإسلام مع الجنس الإنساني فأحدث التغيير الكبير، وبشكل خاص فيما يتعلق بالمرأة، هذا الكائن الذي كان الأكثر تهميشًا في المجتمع الجاهلي.

---

(١) الأمم بين الاقتصاد والأخلاق. (٢) الرعد: ١١.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/٢٧٨)، عن ثوبان رضي الله عنه ، وصححه الألباني.

(٤) الذاريات: ٥٦. (٥) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩) عن ابن عمر رضي الله عنه.

لقد أعلن الإسلام الحرب على القيم الجاهلية عامة، وكانت أقسى المعارك فيما يتعلق بالمرأة؛ لأنها كانت الأكثر قهرًا لدرجة أنها تدفن حية: ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾ (١).

لقد أخرج الإسلام المرأة من واقعها المهمَّش بعدة إجراءات، بداية بالمساواة وصولاً إلى الحقوق والواجبات، والقدرة على الإبداع، وفعاليته في تحقيق هذا التحول إنه كان دائمًا يربطه بالإيمان، وهذه الإجراءات جاءت كالآتي:

ـ كسر الحاجز بين الرجل والمرأة، وإجهاض النظرة الدونية التي يحملها الرجل وما يترتب عليها من معاملة، وذلك من خلال إقرار وحدة النوع والخَلْق، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ (٢).

ـ محاربة ازدراء الأنثى، وقتلها، والبؤس من قدومها، من خلال التهديد والوعيد قال تعالى: ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾ (٣)، ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ (٤)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ (٥).

وهنا يسجل القرآن الكريم قفزة نوعية في فكر الإنسان العربي، وارتقاء بإنزال المرأة مكانتها، وبالتأكيد على أن الله ـ تعالى ـ جعل فيها الخير الكثير، وإيمان الفرد المسلم بخيرية المرأة أصبح معلومًا للرجل، بل يجب أن يكون مرتبطًا بإيمانه بالله؛ لأنه تقرر بذلك قرآنًا يتلى.

بعد تلك الإجراءات، وبعد أن فهمت المرأة طبيعة نفسها، وطُرح على الرجل حقيقة وضع المرأة الذي يراه الإسلام، هذا الدين الذي غير النفوس من الجاهلية إلى مدارج الرقي والحضارة، بعد ذلك جاءت جملة الحقوق والواجبات والتشريعات التي تنظم العلاقة بين جنسين من أصل واحد، فجاءت تلك الحقوق مدعِّمة لحقيقة التحول الجديد، ومنها: الحق في الحياة وفى التعلم، والحق في العمل، والحق في المشاركة

(١، ٣) التكوير: ٨، ٩. (٢) النساء: ١.

(٤) النحل: ٨٥، ٥٩. (٥) النساء: ١٩.

بالحيـاة العامة، بصورة تجـعل كلا من الذكر والأنثى مكمـلاً للآخر ومتكاملاً مـعه، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١]، إنه بلا شك تساوي المرأة مع الرجل في التكليف والحقوق والواجـبات إلا فيما خص الله به الرجال أو النساء لأسباب خاصة تتعلق بطبيعة كل منهما.

لقد حقق الإسلام في مـجتمع الجاهلية ـ مجتمع وأد البنات ـ قـفزة إبداعية لم يكن يتصورها إنسان فكانت سابقة لعصرها، وكانت أبعد من طموح المرأة نفسها التي كانت وما زالت في غالب الأحـيان لا تعرف مدى حقوقهـا في الإسلام، إضافة إلى عدم معرفتها التعامل مع هذه الحقوق والاستفادة منها.

إن الإبداع الذي حققتـه المرأة في الفترة الإسلامية الأولى، لم يـكن نتاج حركة نسوية طالبت بحـقوق المرأة، بل كان نتاج التـحول والتغير الـذي أحدثه الإسلام في النفوس، في الأفكار وفي السلوكيـات، عندها أصبحنا نجد المرأة المجاهدة المسـتشهدة «كزوجة ياسـر في بداية الدعوة»، والمرأة العاملة كأم المؤمنين عـائشة$ التي: «كان الأكابر من الصـحابة إذا أشكل عليهم الأمـر في الدين يستفتـونها، فيجـدون علمه عندها»[٢]، لكنه وعندما ضـعف أثر الدين في النفوس خـفتت معه أنفـاس التغيـير وحركة الإبداع، وعادت المرأة من جديد إلى المرتبة الثانية دون الرجال، على مستوى التعامل والحقوق والإنجازات.

وهذا ليس على مستوى العالم الإسلامي فـحسب، بل على صعيد العالم بأسره «فإن أكثر الناس في القرن العـشرين لا يزالون يرتكبون هذا الخطأ الفادح في نظرتهم إلى الأنثى، إنهم يرونها جنـسًا تابعًا للرجل في كل شيء، ثانوي الدور في المجـتمع البشري، مع أنها مـثله إنسان كامل قبل أن تكون أنثى»[٣]، وعادت تخيم من جديد نزعات الجاهليـة تجاه المرأة، وبدأ يسود تراكم هائل من العادات والتقـاليد الناتجة عن

(١) التوبة: ٧١.

(٢) طهماز عبد الحميد، السيدة عائشة ص ١٧٤، دمشق دار القلم، ١٩٨٨، ط٤ .

(٣) صبحي الصالح، المرأة في الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط١، ١٩٨٠، ص ١٢

انحدار الدولة الإسلاميــة ودخول عادات غربية وحضارات مخــتلفة إلى عقول الناس في ظل غياب السلطة الإســلامية المراقبة والمنظمــة، أضف إلى ذلك التراكم التاريخي الهائل على الصعيد العالمي، ذا النظرة الدونية للمرأة، الذي أدى حكمًا إلى مزيد من معاناة المرأة، في كل المجتمعات والعهود كافة.

إن واقع المرأة المسلمة في هذا العــصر متأثــر سلبًا بكل التراكمــات التي ذكرت، والخطأ الذي تحاول بعض النساء، أو بعض الجمعــيات النسائية، وحتى بعض الرجال ارتكابه عن عمد أو عن جهل، هو ربط تخلف وانعــزال المرأة في المجتمع الإسلامي بالإسلام، وهذا الربط مخالف للحقيــقة وللتاريخ إذ إن: «واقع المرأة المسلمة متخلف عن النظرة الإسلامية، والواقع الحالي لها ليس نتاج النظرة الإسلامية، باعتبار أن كل الواقع الاجتماعي المعاصر متخلف عن الإسلام، وهو ليس نتاج الإسلام»[1].

هذا الواقع الصــعب رمى بثقله على كــاهل المرأة، وحال دونهــا ودون دورها، وأصاب المرأة التقليدية والحــركية على سواء فالمرأة الحركيــة لم تأخذ بعد دورها على صعيد قيادة الحركة النسائيــة ولا على صعيد إعادة الدور والاعتبارات للذات: «والمرأة المسلمة لم تأخذ دورها حتى الآن في العمل الإسلامي المعاصر، ولا تزال مع الأسف في كل بلاد المسلمين، وفي كل الحركات الإسلامية تقريبًا ذات دور هامشي جدًا»[2]، فالساحــة شبه خالية من نساء مــسلمات يقدن العمل النسوي في المجــتمع الإسلامي وهذا ما يفسح المجال أمام غيرهن ذوات التوجهات غير الأصيلة، مما يُغَيِّب دور المرأة المسلمة في هذه المرحلــة الحساسة، ويعــيقهــا عن إعادة تكوين ذاتها بقــالب إسلامي يمسح عنها جو البؤس والظلم والتمايز: «فــالعمل الإسلامي النسوي إنما ينجح ويثبت وجوده في الساحة يوم يفرز زعامات نسائية إسلامية في ميادين الدعوة والفكر والعلم والتربية»[3].

لقد عادت المرأة اليــوم إلى واقع التهميش، ورغم اختلاف الرؤية حــول أسباب هذا التهميش من وقت لآخر، وظرف وآخر، إلا أنه يمكن أن تنحصر في نقاط أساسية

---

(١) محمد عبد الجبار، موقع المرأة ودورها، مجلة المنطق، بيروت، العدد ٦٠، ص ٤٤

(٢) فيصل مولوي، دور المرأة في العمل الإسلامي، دار الرشاد، بيروت ط١، ١٩٩٠، ص ٥

(٣) يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية، ص٧١، مؤسسة الرسالة ١٩٩٣م، ط١٣

أربع: الرجل، التقاليد، الغزو، المرأة.

ـ فالرجل بصفتـه الجهة المقابلة للمرأة، وبعد توقفـه عن تأدية حقوق المرأة وعدم التزامـه بها، بات يبـحث عن فرض نفـسه، وسلطتـه، أمام الجنس الآخر، الـعنصر الأضعف في المجتـمع، فأصبح يَتَعَـسَّفُ باستعمال حـقه وقوامتـه بعيدًا عن الأسس والأهداف السليمـة التى وجدت لأجلهـا، ووصل البعض من الرجـال إلى إلغاء دور المرأة إلغاءً كليًا، مع العـودة إلى بعض التعاليم الجاهلية المعادية للإسـلام قلبًا وقالبًا، ومعها أصبح تركيب المجتمع تركيبًـا ذكوريًا بطريركيًا، تُنتهك فيه أبسط قواعد المساواة بين الجنسين لصـالح الرجل، الذي حـاول احـتكار العلم والعـمل والثـروة والحـرية والسلطة والمراكز، والحياة العامة بأسرها.

ـ مع ابتعاد الإسلام عن واقع حياة الأمة، عـادت وتكونت تقاليد مختلفة، منها ما هـو موروث عن فـترات الجـاهلية، ومنهـا ما هو مكتـسب من فتـرات الوهن ثم الاحتـلال، ولعبت هذه التـقاليـد الدور الأساسي في تكوين ذهنيـة أفراد المجـتمع، وأثرت تأثيرًا كبيرًا في تهميش دور المرأة وتحـويله إلى الأمور البسيطة غير الفاعلة التي أكثر ما تُعني بالمظهر على حساب الجـوهر، وعادت النظرة الجاهلية وما قبل الإسلام، وعاد البؤس من المولود الأنثى الذي عاد ليواجه المصير الصعب في الحياة.

ـ مما لا شك فيه أن حـال المرأة اليوم ليس نتيجـة انبعاث القيم الجاهـلية القديمة فحسب، بل هو أيضًا وليد الغزو والاحتلال العسكري الأجنبي لبلاد المسلمين، الذي خلَّف بعده غـزوًا فكريًا وثقافـيًا زعزع أسس المجـتمع الإسلامي وقـيمه، فـالعادات والتقاليـد الغربية على وجه الخـصوص تغزو البيوت والأسـواق والأفكار، وتُـمَارَس كعادات لها حصانتهـا في المجتمع، هذا الغزو الفكري أخرج المرأة من الإطار الإسلامي المرسوم لها، وأصبحت بسبب دعوات غـربية تفتش لها عن دور على الطريقة الغربية دون الأخذ بعين الاعـتبار خـاصية وجذور المـنطقة وأبنائها، فـأضحت المرأة في هذه الحالة مشتتة مقلِّدة ليس إلا، والتقليد ما كان يومًا ليؤدي إلى التحرر والإبداع.

ـ إن دور الرجل، والتقاليد، والغزو الخارجي مـا كان ليؤدي إلى النتيجة المرجوة لولا تعاطف المرأة نفسهـا صاحبة العلاقة مع تلك التـغيرات، إن المرأة ساهمت بوعي

أو بغير وعي في تهميش دورها وذلك باستكانتها المعهودة على الغالب، ورضوخها لتناقص حقوقها وإبطال دورها الذي رضيه الله ـ تعالى ـ لها، فكانت هي الفريسة العاجزة عن المقاومة، فحالها أنها تشهد انتقاص الدور والمسؤولية والحقوق، ولا تحرك ساكنًا في هذا الاتجاه إلا ما ندر، بل على العكس أخذت تتحرك باتجاه معاكس يحاكي المرأة الغربية التي يختلف وضعها كليًا عن وضع المرأة في بلادنا من حيث المنطلقات والأهداف والقيم.

إن هذه الأسباب الرئيسة الأربع التي ذكرت والتي يرجع إليها تهميش المرأة، لابد من معالجتها، ولابد لذلك من تضافر الجهود، فليست عملية تصحيح وضع المرأة مهمة أنثوية فقط، إنما هي بجذورها مهمة اجتماعية، تقع على عاتق الرجل والمرأة على السواء؛ لان تهميش دور المرأة في مجتمعنا رافقه تهميش لدور الرجل أيضًا وللأمة كذلك.

فالمرأة التي انكفأت إلى قدراتها الجسدية الإغوائية على الطريقة الغربية، تاركة باب الفضيلة ومسار الإبداع، لابد لها من وقفة تدبر تعيد المجد لذاتها، وذلك لا يتحقق إلا بالعلم والعمل واستنهاض الذات، وربط هذا كله بالقيم الخاصة بمجتمعنا، والنهضة التي سَطَّرَت لهذه الأمة أيام مجد وعز.

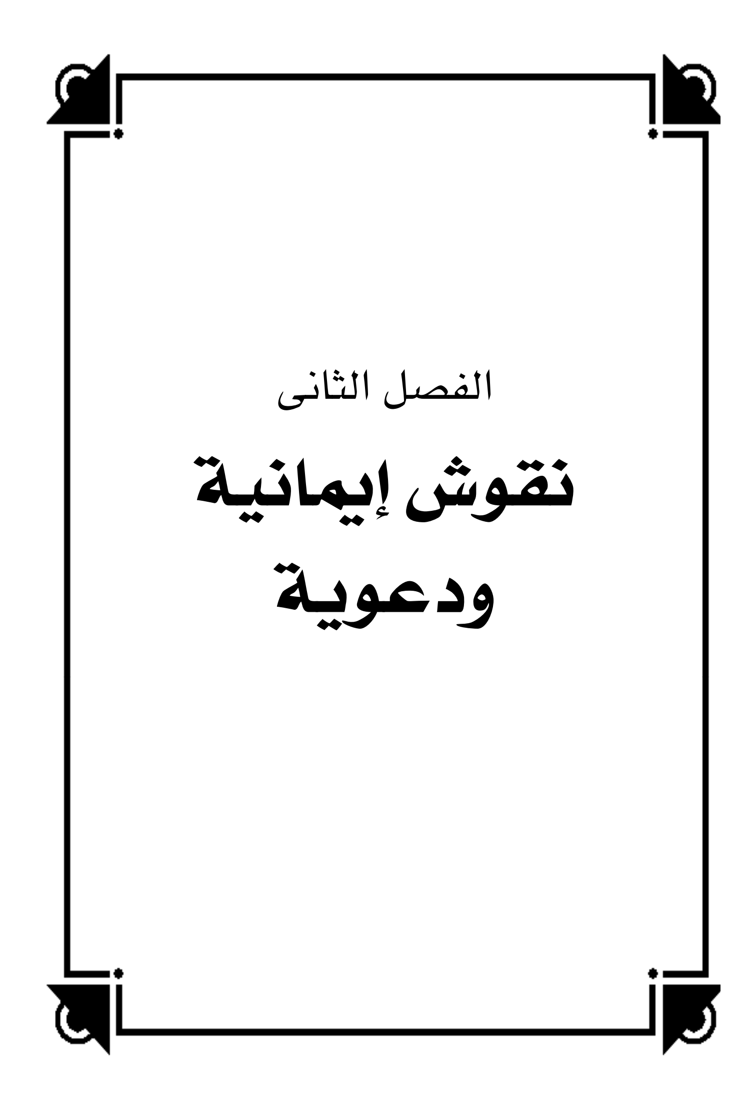
ذلك أن العلم المنفصل عن هذه الرؤية لا يؤدي إلى النتيجة المرجوة «فقد جاء في آخر تقرير للأمم المتحدة عن التنمية البشرية فيما يخص العالم العربي أنه قد زاد الإجمالي في التعليم الابتدائي والثانوي معًا من ٨ ملايين إلى ٤٦ مليونًا خلال الفترة من ١٩٦٠م إلى عام ١٩٩١م، وفيما يخص القطاع الأنثوي جاء أنه خلال الفترة من عام ١٩٧٠م إلى عام ١٩٩١م انخفضت الفجوة بين الجنسين في القيد في المرحلة الثانوية من ٥٤٪ إلى ٣٢٪ »[1].

هذا التزايد في نسبة المتعلمين والمتعلمات هو بادرة خير، لكنه لن يؤتي أكله إذا لم يرتبط بالمشروع الحضاري الإسلامي العام الذي على ضوئه تستنهض الأمة، وتبرز وتبدع في المجالات كافة، كما كانت في العصور الإسلامية المشرقة، فالمشروع

(١) مجلة المستقبل العربي، تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٥، العدد ٢٠٣، ص ١٣٤ .

الحضاري الإسلامي وحده المؤهل لتحرير جميع النساء والرجال؛ لأن هذا المشروع هو من صميم الأمة ويحاكي رغباتها وأشواقها.

فـالحقـوق والدور الذي أعطاه الإسلام للـمرأة، والتي أبدعت من خـلاله، لم يتحقق في السابق إلا بعدما ارتبط بالانقـلاب الجذري في المجتمع الجاهلي من خلال الرسالة الإسلامـية، وما أحدثتـه في الأنفس والأفكار والمعتقدات والسلـوكيات، إننا اليوم بحاجـة لمثل ذلك الانقلاب الذي يحقق فينا الأهليـة لنيل حقوقنا، والإبداع في عالمنا، ومن هنا يُطْوى زمن التهميش وتنطلق مسيرة الإبداع.



الفصل الثانى

نقوش إيمانية ودعوية

مدخل
حضـارة الإســلام

إشراقات وعبر:

كلمة ذات وقع خاص هي كلمة (حضارة) أتحسس فيها الفخامة والجزالة والبهاء، وأستشعر العزة والنصر والكينونة...، وأستشعر أيضاً عند سماعها أو ترددادها أو الهمس والجهر بها بالحسرة والخذلان والضعة...؟! ولك أن تسأل أخي القارئ، ما هذان النقيضان، وما دوافع كل من الشعورين؟!

أقول: أما الشعور الأول: فهو شعور يعتريني عند استرجاع المواقف، وإنشاط الذاكرة...، والسبح في أعماق الماضي المجيد ماضي المسلمين المشرق أهل الحضارة والريادة والقيادة والسيادة والسؤدد...، فيالها من حضارة كانت ويا لها من أيام غبرت...، غير أن البكاء على الأطلال لا يجدي والعيش في الأوهام لا يغني...، وصدق القائل :

سَبِيلُ الْعِزِّ أَنْ تَبْنِي وَتُعْلِي ... فَلاَ تَقْنَعْ بِأَنَّ سِوَاكَ يَبْنِي
وَلاَ تَكُ عَالَةً فِي عُنْقِ جَدٍّ ... رَمِيمِ الْعَظْمِ أَوْ عبئاً عَلَى ابنِ

وأما شعور الأسى والضعة والخذلان فهو ذلك الشعور الجارف الذي يحتويني ويعتريني فهو شعور يستشعره كل مسلم غيور على دينه، وكل الآمرين بالمعروف والنَّاهين عن المنكر...، وهو شعور نابع من ذلك الخذلان الذي نحياه...، وتلك المتاهة التي نعيشها...، وهذا البؤس والشقاء والخلاف والشقاق الذي يعمنا أقطاراً واتجاهات وجنسيات ومدناً وقرى وضواحي ونواحي خلاف في خلاف في خلاف في خلاف...!!

انظر حولك... تأمل واقعك... افتح مذياعاً واسمع نشرة أخبار... أو طالع مشهداً في التلفاز... ماذا ترى...؟ ترى الأمم تتربص بنا، والهلاك يحيق بأمتنا، والذلة قد تربعت واسترخت وتمددت على أمتنا وترى الأمم والأجناس تنهش فينا.

فاليهود... يدمرون ويقتلون ويستبيحون.

والسيخ المتعصبون... يحرقون المصاحف عياناً جهاراً... ويهدمون مساجد المسلمين

والهندوس... يضطهدون في مسلمي كشمير من زمان بعيد.

والروس... سحقوا المسلمين في الشيشان ولا يزالون يتتبعون فلول المجاهدين ليقضوا على البقية الباقية... . !

والمتعصبون الأرثوذكس... يتتبعون المسلمين في أرمينيا ومقدونيا... في أرزاقهم ومعاشهم وأموالهم... ، والصرب السفاحون... هدموا البوسنة والهرسك على المسلمين... ، وهاهم قد توجهوا إلى المسلمين الألبان في كوسوفو وفي مقدونيا وفي غيرها... والكروات... ، يحتقرون المسلمين ويطهرون كرواتيا منهم ومطارات أوربا وأمريكا وكل دول العالم تستوقفك وتفتشك في معظم الأحيان إن عرفت أنك مسلم مؤمن من أمة محمد... ، ولله أنت إن عرفت أنك متدين أو صاحب فكر حرٍ أو مجاهد... ولا نبتعد بعيداً... ، فهذه معظم الحكومات العربية تتتبع شباب الصحوة وتحاول وقف مسيرتهم... وبعضها يضطهدهم... والبعض الآخر يضيق عليهم في معاشهم وحلّهم وترحالهم... .

وقد ابتدعت بعض الحكومات مذهباً جديداً في الاضطهاد اسمه (تجفيف المنابع)، أي تجفيف مصدر الإمداد الروحي لشباب الصحوة المتدينين... أي منابع قصدوا، وأي شيء سيجففوا، وما البديل والحل ولله در القائل عنهم: «إن كنّا خوارج كما تزعمون... !! فهل أنتم أتباع عليّ؟!»

بلاء في بلاء في شقاء في شقاء... . !! صورة مظلمة وما خفي أظلم، وما تحت الدهاليز أعظم وأعظم؟ فكيف لا يعتصرني الأسى وكيف لا أحزن فالله الله.

وفي خضم هذا الشعور المتنوع بل والمتباين بين الهم والغم والأسى وبين الاعتزاز والافتخار والابتهاج... . أثوب إلى عقلي وأرجع إلى رشدي وصوابي داعياً إخواني جميعاً ألا تعميهم الصورة المعتمة عن الوجوه المشرقة... وألا تصدهم العقبات عن سبيل الفتوحات... . وألا يلحظوا الهزيمة ويغفلوا عن بريق النصر... وأقول لهم قولة المجد: «الصخور تسد الطريق أمام الضعفاء بينما يرتكز عليها الأقوياء ليصلوا إلى القمة».

ولله در هذه الأبيـات الكريمات التي قـالتهـا أم ملك بني الأحمـر في الأندلس عندمـا أوشك نجم المسلمين على الأفـول وضاع ملكه وهاهو ذا يـبكي وينعي ويشكو حاله لأمه فصاحت في وجهه وقالت مقالة خالدة عظيمة :

ابْكِ مِثْلَ النِّسَاءِ مُلْكاً مُضَاعَا　　　لَمْ تُحَافِظْ عَلَيْهِ مِثْلَ الرِّجَالِ

نعم والله صدقت فيـما نطقت وبلغت كلمتهـا الآفاق وبلغت... علامَ البكاء... أنبكي ما أضعناه بأيدينا... أنبكي ما جنيناه... أنفر مما زرعناه... كيف ذلك هل يجني شوكاً من يزرع تفاحاً وعنباً، وهل يجني ثمـراً يانعاً من غرس شوكاً وحنظلاً... كيف هذا...؟!

ومـا دمنا نجني الأسى ونحصـد الحنظل ونقـتطف المصائب ونحـصد البـلاء تلو البلاء، فلنرجع من قريب ولنثوب ونتـوب ولنراجع أنفسنا ونحلل وضعنا... ونتريث وليكن شعارنا (العـود من قريب... ومراجعة النفس ووضع العـقل مكان العاطفة... ومنهج الـله مكان منهج الإنـسـان... والرســول هو القــدوة... والشـريعــة هي البـهجـة...)، وأذكر هذا الدعـاء الذي كان يردده رسـول الله ﷺ صبـاح كل يوم «**رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً**»[(١)].

وهذه مـواقف وعبـر أذكرهـا من حضـارات المسلمين عـساها تبـعث الأمل في النفوس، وتمهد للمراجعة وتنبه على الأصول التي بها ننال السبق ونستعيد المسيرة.

المفتاح الأول : الاعتصام بالله يفتح قلوب العباد ويفتح البلاد :

الاعتـصام بالله ليس مجرد كلمـة تقال ولا قاعـدة تردد إنها معنى كبـير، يعني الإسلام لله والإيمان به والاسـتقامـة على منهجه من وفىّ بذلك وفـىّ الله له بالنصر والسبق قـال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾[(٢)] وقال سبـحانه: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٧٢) عن رجل، وضعفه الألباني.

(٢) البقرة: ٤٠ .　　　(٣) آل عمران: ١٠٣ .

وهذا هو معنى الاعتصام بالله ـ سبحانه ـ من خلال الآيات، أما عن عاقبته وجزائه فإنه تبدو لنا في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، وهذا الصراط المستقيم هو سعادة الدنيا وظفر الآخرة وهو ما ندعو به في كل صلاة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[2] ولله در القائل :

فَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِحَبْلِ اللَّهِ مُعْتَصِماً ... فَإِنَّهُ الرُّكْنُ إِنْ خَانَتْكَ أُرْكَانُ

١ ـ أثر الاعتصام بالله في استعادة حضارة المسلمين :

الاعتصام بالله يقوي قلب المؤمن ويجعله جريئاً في الحق لا يتهيب أحداً إلا الله، ويجعله يؤثر الله على كل شيء وهذه صفة الجندي المخلص لله ـ سبحانه وتعالى... وهذه صفة امتدحها الله بل وحث المسلمين عليها فقال يصف المجاهدين: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3] وهكذا يجعل الاعتصام بالله المسلم في رغد النصر وسعة الفتح وقوة البأس... ومكان الأمن من الله وفي رضوان الله إن قاتل فقَتَل وانتصر أو قُتِل وهزم .

٢ ـ الاعتصام بالله يفتح البلاد للمسلمين :

كان المسلمون قلة مستضعفة غير أن اعتصامهم بالله ملأهم قوة وبأساً، ولما كتب عليهم القتال هبوا كالأسود الضواري بأساً وصلابة يجاهدون في سبيل الله، وانظر كيف نصرهم الله بالإيمان وبالاعتصام به في معركة (بدر الكبرى) ثم في (الأحزاب)، ثم في (حنين) اعتصموا بكثرتهم وأعجبوا بقوتهم فخابوا وخسروا ولما اعتصموا بالله ووثقوا به حلّ بهم النصر قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ..﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[5] .

---

(١) آل عمران: ١٠١ .
(٢) الفاتحة: ٦ .
(٣) التوبة: ١١١ .
(٤) آل عمران: ١٢٣ .
(٥) التوبة: ٢٥ .

٣. الاعتصام بالله يفتح الإمبراطورية الفارسية :

ثم هاهم المسلمون بعد وفاة النبيﷺ يحاربون أعظم إمبراطورية في العالم من أقصاه إلى أدناه حينئذ إنهما إمبراطوريتا الفرس والروم .

فهـؤلاء الفرس كـانوا قوة ضـاربة في الأرض، ومجـاورين للمسلمـين، وكانوا يحتقرون العرب ولا يعـبئون بهم، حتى بعث النبي ﷺ وأسلم العربي لله رب العالمين فقاتلوهم بسلاح الاعتـصام بالله على أن سيوفهم كانت منتصلة (مـتكسرة) فهزموهم بإذن الله في موقعة القادسية، وبلغوا المدائن وأسسوا على شط العرب مدينة البصرة، وبالغرب من الحيرة أسسوا مدينة الكوفة بأمر سعد بن أبي وقاص# في عهد عمر.

وبالاعتصام بالله ذهبوا إلى قلب الإمبراطورية الفارسية فأسقطوا أهم مدنها مثل: خورستان، والموصل، ونهاوند في موقعة نهاوند الشهيرة، وفتحوا مناطق الساحل من بلوخـستان سنـة ٦٤٣هـ ،وفتـحـوا أضـخم وأعظم مـدن فارس؛وبهـذا سـقطت الإمبراطورية الفارسية في أيديهم نهائيـاً، وقسموها إلى ولايات تابعة لهم، بل ولقبوا الفرس بالموالي وامتلأت أيديهم بالغنائم والخيرات حتى إن عمر لينادي على سراقة بن مالك ليلبسه سوارى كسرى وهو المعدم الفقير الذي كان يطلب موت النبي ﷺ ـ قبل إسلامه ـ ببعض الجمال التي وعدته قريش بها...!!

وهكذا كان الاعتصام بالله هو السلاح وهو المفتـاح لفتح البلاد... ،فمتى نعتصم بالله،ونرجع إلى الله لكي نعيد مـسيرة المجد،ونجدد عهداً كان وضاءً وعلـياء وسامقاً بالاعتصام بالله...

٤ . الاعتصام بالله يفتح قلوب العباد :

فتح المسلمـون بلاد الفرس وأزالوا إمـبراطوريتهـا ولم يكتفـوا بهذا، بل فتـحوا القلوب باعتصامهم بالله ـ سبحـانه ـ فأسلم معظم الناس في البلاد التي فتحوها... ، وأقـبلوا على الإسلام لا خـوف السـيف، وإنما حـباً وتعـقلاً وتـبصـراً بالدين الحق فأصبحوا عبدة لله وجنوداً لله، ومع اختلاف الألسن والألوان إلا أن القلوب توافقت وانسجمت فيما بينها وحل الإيمان فيها،وأصبح الفرس على دين الله عوناً... .

وهكذا يصـدق قول القائل: مـن اعتصم بمالـه قل،ومن اعتصم بـعزه ذل،ومن

اعتصم بعلمــه ضل، ومن اعتصم بعقله اختل، ومن اعـتصم بالله فلا قلّ ولا ذلّ ولا ضلّ ولا اختلّ!!

المفتاح الثاني : الإيمان بالله والإخلاص له:

هذا هو المفتــاح الثاني الذي نورده لكي نلتزمــه ونحتذيه، ونفتح به أبواب الخـير ونسد به أبواب الذلة والضعة والتي فتحت علينا... .

إنه مفـتاح الإيمان بالله والإخــلاص له، ولعمـري إنه لمفتــاح ليس بالهين...، إنه الإيمان إنه الإخلاص إنه أمانة الله التى حـملتها السموات والأرض والجـبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها...

ونعني بالإيمان هنا الإيمان الحق القائم على الاعـتقاد الصحيح والتوحـيد الخالص لله فـذلك هو الإيمان... وللإيمان شـعب وعـرى، وقد أوصل بعض العـلماء شـعب الإيمان إلى أكثر من مائة شعبة كالإمام البيهقي وغيره في كتاب شعب الإيمان. . .

١ ـ آثــار الإيمــان بالله :

للإيمان بالله آثار كثيرة أهمها :

أ ـ تحرير القلوب من أسر الشهوات والشبهات وإعتاقها لله سبحانه:

وما أجل هذا الأثر وأعظمــه إنه الفكاك والخلاص من رق الطينية إلى مـقام النور والرقي لله ـ سبـحانه، وتلك غايات المسلمين الكبرى التـي هتفوا بها في فتـوحاتهم فقالوا: «جئنا لنحـرر العباد من عبادة العباد إلى عبـادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة».

وفي الحديث أن رجــلاً سأل النبي ﷺ بقولـه: دلّني على عمل لا أســأل أحداً بعدك! قال: «**قل آمنت بالله ثم اسـتقم**»[1]، نعم هذا هو الإيمان اعـتقاداً وعــملاً يزيد وينقص ولله القائل :

إِيمَانُنَـــا باللَّـــه بـــَـيْنَ ثَـــلاثَة	**قَـوْل وفعْــل واعْـتقَاد جنَان**
ويَزِيد بِالتَّقْوَى ويَنْقُصُ بِالرَّدَى	**وكِلاهُمَا فِي الْقَلْبِ يَعْتَلِجَانِ**

(١) أخرجه مسلم (٣٨)، وأحمد (٣/ ٤١٣)، عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه .

فالإيمان هو مـا وقر في القلب وصـدقه العـمل، والإيمان هو الهدى قـال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى﴾[1].

ب ـ الإيمان بالله يبني حضارة الإسلام:

بنى الإيمان بالله ـ سبحـانه تعالى ـ حضارة مجيدة تليـدة نعم المسلمون في ظلها، ونعمت البشرية جميعاً بهـا... كيف لا، وقد كانت هي حلقة الوصل بين الحضارات القديمة والحـضارة الأوربية الحـديثة، وكانت هي أصل ومنشـأ الحضارة الحـديثة، لأن الغرب مـا تحضروا ولا عـرفوا عـمراناً ولا تمدناً إلا بها والشـواهد على ذلك كثـيرة ووفيرة... سلوا عنهـا المستشرقين والمنصـفين من أبناء الحضارة الأوربية فـهم يشهدون بذلك في كل مصنفـاتهم ومؤتمراتهم... ، ويكفي هنا أن أسوق مثـالاً واحداً أن ملوك أسبانيا بعدما هزمـوا المسلمين فيها، طفقوا يفتخرون بحضارتهـا الإسلامية، ويحتذون حذو الملوك المسلمين فيـها فهذا بدرو الأول ملك أراغون لا يحـسن الكتابة إلا باللغة العربية؛ لأنه تعلم في معاهد ومدارس وجـامعات الأندلس المسلمة وفي ربوع حضارة الإيمان التي وسـعـته ولم تضـق عنه ولا عن أمثـاله، وهذا ألفـونس السـادس ملك الأندلس يتسمى بإمبـراطور العقيدتين الإسلامية والنـصرانية... ،وها هو ذا يجعل من طليطلة المسلمة بعدما سقطت في يده منارة معـارف، وفي عهد سلفه ألفونسو السابع كانت كذلك أيضاً، وقـد احتفظ خلفهم ألفونسو الثامن بالكتـابة العربية على نقوده، وكانت المسكوكـات الإسلامية والفـرنسية عـملة مملكة النصارى في أسبـانيا وجنوب فرنسا طوال أربعمائة عام، وهناك العديد والعديد من الشواهد غير هذا .

وأفـاد الأوربيون مـن النظام الإسلامـي في القضـاء، وفي الإدارة وفي الأحـوال الشـخصـية والاجـتمـاعيـة... ، وهناك تفاصـيل كـثيـرة على ذلك لو يتسع المقـام لذكرناها... ، وكيف لا وحضارتنا حضارة الدين والدنيا حضارة الروح والبدن حضارة التواؤم بين العلم والإيمان... والسماء والأرض.

المفتاح الثالث: من مفاتيح الحضارة ألا وهو مفـتاح الأخلاق والقيم الإسلامية وهو مفتاح له مكانته وله بالغ الأثر في انتشار الإسلام وفتح قلوب العباد ومغلق البلاد لهـم.

---

(١) طه: ٢٣.

كيف لا ورسالة الإسلام تصب كلها في مـجرى الأخلاق والقيم وهذا رسول الله ﷺ يعبر عن ذلك بقوله: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[١]، ولله در القائل:

وَإِنَّمَا ٱلأُمَمُ ٱلأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُو ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

ومفتـاح الأخلاق كان له أثر السحر في النفوس وفي الـقلوب كأنه عصى نبي الله موسى، حين اسـتمالت معـه أعتى الشعوب إلـى شعوب رفيـقة رقيقـة مندهشة من أخلاق المسلمين وقيـمهم، تحذو حذوهم وتتلقف مقـالهم، وتتبع خطاهم، ولم لا؟! وهي أخلاق ربانية أصلها ثابت وفرعها في السماء وهي أخلاق عملية معيارية وسطية نورانية شمولية... . إلى غير ذلك من المزايا التي لا ينتهي حسنها ولا يقع تحت الحصر فضلها وهذا التاريخ بين أيدينا لا يسعنا إلا أن نسأله عن أخلاق المسلمين وكيف كانت وكيف أنها كـانت أمضى من السيف في نشـر دعوة الإسلام، ودعونا نتـساءل ونقول ماذا كان سلاح رسول الله ﷺ في فتح قلوب العباد وفتح أقاصي البلاد... أهي عدة الحرب... من الخيل والركاب... أم من المال والزاد؟

لا هذا ولا ذاك إنما كانت عدته هي قيم الإسلام التي تمثلها خير تمثيل،حيث كانت (أخلاقه القرآن)،فكان قرآناً يمشي على الأرض وقرآناً يمشي بين الناس،وهاهو ذا يعود يهودياً في حال مرضه وما أدراك ما اليهـود؟ وكان اليهودي أوشك على مباشرة الموت فيـقول أمامـه لابنه،قل لا إله إلا الله فينظر الغـلام إلى والده مندهشاً،فمـا كان من اليهودي إلا أن لهجت شفـتاه لابنه قائلاً « أطع أبا القاسم»[٢]...!! كيف بالله قالها اليهودي... وأنى له أن ينخلع من عقله ونهجه ويشير على ابنه بالإسلام، لا شيء إنما هو سلاح الأخلاق الذي لا يقاوم؛ لأن رسول الله ﷺ غمره بخلقه وتمثيل الإسلام بقيمه فعاده وهو مريض على رغم إيذائه المتـواصل له؛ فما استطاع اليهودي فراراً ولا استطاع نكوصاً،وإنما باح بما يقتضيه الحال وبما يرد عليه ماء وجهه،وهناك من المواقف الكثير والكـثير وهذه كتب السيـرة ملأى، وهذه سير السلف مكتظة بـالروائع والعبر والدروب الأخلاقية التي أثمرت إسلام الناس لربهم ودخولهم في الإسلام طوعاً .

المفتاح الثالث: الأخلاق رأس مالنا لنشر الإسلام :

نعم هذه ملحـوظة ينبغي أن توضع في الحـسبان وأن تؤخـذ مأخـذ الجد... ؛لأن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٦)، وأبو داود (٣٠٩٥)، وأحمد (٣/ ٢٢٧)،عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

الغرب فاقنا حضـارة مادية وفاقنا في دروب كثيرة مدنية على أننا نملـك مفاتح التمدن وأصول الإنسانيات... .؟!

وأظن من وجهـة نظري متفقـاً مع كثيـر من العلماء المحدثين أن غـير المسلمين لا سـبيل لنا لقـرع أبوابهم إلا من بوابة الأخـلاق فتلك أفـضل بضـاعتنا،وتلك عـدتنا وعتادنا في زمن المادة وزمن الانهزامية وانحسار المجد المادي والعمراني عنا... .

وهؤلاء هم البـوذيون يجتـذبون الغـرب بطقوسـهم الروحانـية الزائفـة والغريبـة فأصبحت تقليعة اعتناق البوذية رائجة لدى نجومهم وممثليهم وعليتهم،ونحن أولى بأن نقتحم قلوبهم بسلاحنا الماضي الذي لا يفلُّ ألا وهو سلاح الأخلاق والقيم... !!

مع التنبيه على أن الأخـلاق ليست مفهوماً نظرياً مـحضاً أجوفاً أو فلسفـياً جدلياً عقيـماً، وإنما هي تلك الأخلاق الإسلاميـة التي مصدرها الكتاب والسنة الصحـيحة فـهي النبع والأساس والمنهج والـعتـاد بلا غلو فيـها ولا تـقاصـر عنها،ودعـونا من الفلسفات والتعـقيدات التي شققت المعاني وتقعـرت الدلالات فحولت الأخلاق إلى جدليات أرسطية، وتهـويمات أفلاطونية أو مغلقات ومرقعـات سيناوية أو فارابية وإنما الأخلاق المقـصورة هنا هي تلك الأخـلاق الإسلامية الـربانية التي يفهـمها الخـاصة والعامة وتتقبلها النفس وتركن إليها.

١ ـ الإسلام ينتشر في آسيا بأخلاق وقيم التجار المسلمين:

انطلق الإسـلام من أم القرى مكة ثم المدينة ثم مـن جزيرة العـرب،وأخذ يصـعد ويصوب ميمنة ومشأمة حتى استـتم له كسر وهزيمة أقوى إمبراطوريتين حينئذ (الفرس والروم)، ثم ساد البـلاد والعبـاد بقيم الصحـابة ومن بعدهم من سلفـنا المجاهدين ـ رحمهم الله.

وتمثل الدول الإسلامية في آسيا (٢٦) دولة وهذه الدول هي :

١ـ السعودية	٢ـ الكويت	٣ـ الإمارات
٤ـ قطر	٥ـ عمان	٦ـ البحرين
٧ـ العراق	٨ـ اليمن	٩ـ إيران

١٠ـ إندونيسيا	١١ـ ماليزيا	١٢ ـ أذربيجان
١٣ـ سوريا	١٤ـ فلسطين	١٥ـ الأردن
١٦ـ لبنان	١٧ـ طاجكستان	١٨ـ باكستان
١٩ـ بنجلاديش	٢٠ـ بروناي	٢١ ـ تركيا
٢٢ـ تركمستان	٢٣ـ قرغيزستان	٢٤ـ كزاخستان
٢٥ـ المالديف	٢٦ـ أوزبكستان	

٢ ـ دور الأخلاق والقيم الإسلامية في انتشار الإسلام في آسيا :

فتح المسلمون الشرق الأقصى بعدما قوضوا الإمبراطورية الفارسية في القادسية (٦٣٧م)، وواصلوا فتوحاتهم فاستولوا على خراسان (٦٧١م) ونهر جيحون (٦٧٤م) وبلخ (٧٠٥م) وبخارى (٧٠٩م) والسند وسمرقند وفرغانة وخوارزم (٧١٢م)، وحيدر آباد وملقان (٧١٣م) وجورجيا (٣٣٧ م)، وكاشغر (٧٤٠م) وطخارستان (٧٤٩م)، وطشقند (٧٥١م) وغيرهم...

ثم فتح المسلمون الهند على يد محمود الغزنوي (٩٩٧-١٠٣٠م) فقد غزاها من دويلته غزنة في شرق أفغانستان سبع عشرة غزوة، ثم استولى الغوريون على دلهي سنة ١١٨٦م، ونزلوا بشمال الهند ثلاثة قرون .

ثم بلغ كاشغر أطراف الصين (٧١٤ـ٧١٥م)... ، وهكذا تتابع الفتح على يد المسلمين.

٣ ـ أخلاق المسلمين تفتح قلوب العباد قبل البلاد :

نزل المسلمون في أصقاع آسيا للتجارة، ولنشر الإسلام بين أهلها، وقد تعرف أهل هذه البلدان على المسلمين عن طريق المعاملات والاحتكاكات التجارية؛ إذ عرف المسلمون عنهم صناعات وعرفوا عن المسلمين صناعات واستورد المسلمون منهم، وصدروا إليهم محاصيل كثيرة... .

ثم أعجب أهل هذه البلدان بأخلاق المسلمين مثل:

١ ـ الصدق في الحديث .

٢ ـ الوفاء بالعهد .

٣ ـ وفاء الميزان والكيل .

٤ ـ الموالاة والتقارب والوحدة بين التجار المسلمين .

٥ ـ قيم الإسلام الأسرية .

٦ ـ أخلاق الإسلام الفكرية من ناحية بساطتها وواقعيتها وسموها في أهدافها (وغير ذلك الكثير من خلال تعاملات التجار المسلمين واحتكاكاتهم في السند ومليبار، وسيلان وجاوه والصين ...).

وكان أول من استوطن هذه البلاد من العرب شرف بن مالك، ومالك بن دينار ومالك بن حبيب بعياله فدعوا إلى الإسلام، واستقرت جماعة من تجار العرب في سيلان سنة ٧٠٠م فتعرف أهل سيلان على أخلاقهم واعتنقوا الإسلام على أيديهم.

ولما فتح طريق التجارة إلى الصين استورد المسلمون منها الحرير والخز والورق، وتوسعوا في تجارتهم وكثرت جاليتهم هناك،وتأثر كثير من السكان بأخلاق المسلمين ودخلوا في الإسلام .

ثم تعددت السفارات بين الصين ودمشق في عهد خلافة الوليد بن عبدالملك وعمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، ثم تحولت السفارة إلى بغداد في عصر الدولة العباسية وتعرف الصينيون على أخلاق المسلمين ودينهم في سفاراتهم من وإلى البلاد الإسلامية وتتابعت وفود المسلمين حتى بلغت ٧٦ وفداً سنة ٧١٦ هـ ـ١٢٠٧م، وأشهر تجار المسلمين ومؤرخيهم الذين تحدثوا عن الصين كان ابن بطوطة الرحالة الشهير، وسليمان التاجر من العراق ...،وبلغ من ثقة بعض الصينيين بالمسلمين أن ملك الصين (سونسرغ) استنجد بالعباسيين على الثائر شي حول سنة ٧٦٢م .

وهكذا كانت الأخلاق والسفارات الإسلامية هي المهد الأول في انتشار الإسلام.

٤ ـ الإسلام يدخل قارة أفريقيا بالأخلاق والقيم الإسلامية :

نعم دخل قارة أفريقيا على أسنة القيم، ورماح الصدق، وسيوف العدالة ... ، فكان العدل قبل السيف والصدق قبل الرمح، وروح الإيمان قبل حد السنان ... ،

وهكذا فتح قلوب العباد، واستوطن ربوع البلاد بأخلاقــه العليا وقيمه الربانية السامية توكيدا لما سبق ذكره من أهميــة الأخلاق في بلوغ المسلمين للآفاق،وتوسع حضارتهم وانتشار ديانتهم...

٥ ـ دول أفريقيا الإسلامية :

بدأت الفتوحات الإسلامــية لإفريقيا مبكراً في عهد الخليفــة الراشد الفاروق عمر رضي الله عنه سنة ٦٣٩م حيث فتحت مصر،ثم تلتها الدول الأخرى،حتى أصبحت عدد الدول الإسلامية ٢٥ دولة هي :

١ـ مصر	٢ـ تونس	٣ـ الجزائر
٤ـ المغرب	٥ـ ليبيا	٦ـ موريتانيا
٧ـ الصومال	٨ـ السودان	٩ـ أوغندا
١٠ـ بنين	١١ـ بوركينافاسو	١٢ـ جزر القمر
١٣ـ جيبوتي	١٤ـ السنغال	١٥ـ سيراليون
١٦ـ توجو	١٧ـ الغابون	١٨ـ غامبيا
١٩ـ غينيا	٢٠ـ غينيا بيساو	٢١ـ الكاميرون
٢٢ـ مالي	٢٣ـ موزمبيق	٢٤ـ النيجر
٢٥ـ نيجيريا		

٦ ـ أخلاق المسلمين تفتح بلاد وقلوب المصريين :

في عهد الخليفة عمــر بن الخطاب #، تم فتح مصر، لا بالسيف والعنوة وإنما بالمحبة والأخــلاق، حيث أذن عمر بن الخطاب لقائد الجــيوش الإسلامية في أفــريقيا عمــرو بن العــاص بالزحف إلى مصــر سنة ٦٣٩م فأول مــا تم له هو فتح العــريش (٦٩٣م) ثم تابع عــمــرو بن العــاص زحــفــه من سنة (٦٤٠م ـ ٦٤٢م) وحــاصــر الإسكندرية ثم استلمها من بطريرك الأقباط (المقوقس) .

٧ ـ الأثر الأخلاقي في فتح البلاد وقلوب العباد :

كان المصريون قد عانوا الأمرين من الاحتلال البيزنطي لمصر حيث كان البيزنطيون

يفرضون الضرائب المثقلة، بل تجاوز الأمر إلى فرضها على الأموات قبل دفنهم، وعلى عبور الطريق... مع الاضطهاد الديني للمصريين على أن البيزنطيين والمصريين مدينيون بالمسيحية على حد سواء معاً... . فاستغاث المصريون بالمسلمين الفاتحين ورحبوا بهم، بل وأعانوهم على هزيمة البيزنطيين.

ثم رأى المصريون الأقباط أخلاق المسلمين في تعاملهم وسماحتهم وحسن مقاضاتهم وعفتهم وقيم العدل والإخاء والمساواة مما لم يبصروه من المسيحيين أمثالهم فانشرحت صدورهم للإسلام، وراحوا يتوافدون على دين الله طوعاً لا كرهاً... ، وتحولوا عن المسيحية إلى الإسلام، وعن اللغة القبطية... إلى لغة القرآن... ، وهكذا استتم الفتح بالأخلاق والقيم .

٨ـ الإسلام يفتح غربي أفريقيا بقيمه الأخلاقية :

اشتهر غرب أفريقيا بثرائه ورخائه وخاصة في غانا فتوافد المسلمون من الشمال عليها للتجارة فيها كما استطونها بعضهم، ومن خلال التعاملات التجارية، واستكشاف أهالي غانا لأخلاق التجار المسلمين وقيمهم السامية ودينهم العظيم اعتنقت قبيلتان من البربر الإسلام وهما قبيلتا لمتونة وجودلة فعملوا على نشر الإسلام في ربوع غرب أفريقيا، واعتنقت قبائل ساراكولا الإسلام كذلك، وتم فتح غانا سنة ١٠٧٦م... ثم راحت بعض القبائل الإسلامية من غانا إلى بلدة (والاتا) في السودان الغربي، وأنشأوا فيها مركزاً تجارياً فتعرف أهلوها على الإسلام، ودخلوا فيه طوعاً .

وكذلك اعتنق ملك غينيا الإسلام وكثير من رعاه سنة ١٢٠٤م طوعاً وحباً في الإسلام، واعتنق سونديتاكيتا خليفة أمير قبائل الماندابخ الإسلام وأسس إمبراطورية مالي، وتأثر أحد حفدة دولة سنغاي الإسلام سنة ١٠٠٩م طوعاً وتأثراً بأخلاق وقيم التجار المسلمين... ، واعتنق كذلك أحد سلاطين مملكة برنور شمال بحيرة تشاد الإسلام وتسمى باسم عين محمد بن جبل بن عبد الله كما ذكر المقريزي، وذكر أنه حكمها سنة ١٨٠٦م، وتوفي بمصر في طريقه إلى الحج.

وهكذا يدخل السوقة والعامة، والخاصة والنبلاء من السلاطين، والملوك والخلفاء في الإسلام طوعاً لا كرهاً؛ إعجاباً منهم بأخلاق التجار المسلمين، وقيمهم الإسلامية في الأعم الغالب .

المبحث الأول
الاختراق الفكري
(إشكاليات .. وحلول... وعلاجات)

الاختراق الفكري :

معناه:

يعني الاختراق الفكري، أن يهاجم فكر ما، فكرا آخر بدليل أو بغير دليل، ويقصد المهاجمة لذات المهاجمة سعيا لتبديل هذا الفكر ومحوه والتشكيك في ثوابته.

أهدافه:

يهدف الاختراق الفكري إلى «تصفية حسابات» فردية مثلا، أو جماعية، أو هي نزوة تصيب بعض الاتجاهات والحركات، فتظن نفسها الممثل الوحيد لفكرة ما، أو هي الوريث الوحيد لحزب وتنظيم ما، ومن ثم تسعى لفرض ذلك على الآخرين، إما بالأوامر المباشرة والدعاوي العريضة، أو بالاختراق الفكري والتشكيك في ثوابت الآخرين.

أنواعه:

يتنوع الاختراق الفكري إلى أنواع:

أولا: اختراق محلي:

وهو أيضا يتنوع إلى:

أ ـ (اختراق إسلامي ـ إسلامي):

بمعنى أن تتوجه حركة، أو اتجاه أو جماعة إسلامية بآلياتها وقدراتها لكي تشكك في ثوابت وأصول لاتجاه أو جماعة أو حركة إسلامية أخرى. .مع فرض رؤاها الاجتهادية، والمبالغة في تصحيح منظورها، ومباركة خطواتها الحركية على حساب مبادئ وأسس وفكر الاتجاه الإسلامي الآخر.

ب ـ اختراق (علماني ـ إسلامي):

وهذا النوع من الاختراق يكمن في أن يسعى العلمانيون أو التنويريون كما يزعمون إلى تشويه صورة الآخر بالتشكيك في ثوابته وفرضياته. . .، والطعن في رؤاه وقواعده وغاياته ووسائله، ولا يكتفوا بذلك بل يسعوا لاختراق الفكر الإسلامي ومحاصرته في المنتديات ووسائل الإعلام، وتشويه رموزه وأقطابه، بل قد يسعى بعض العلمانيين إلى تجفيف منابع الإسلاميين، ومصادرة كتبهم، وتتبع عناصرهم، فيخرج بذلك الاختراق من مقارعة الحجة بالحجة، والفكرة بالفكرة إلى تصفية الأبدان واضطهاد الأشخاص.

ثانيا: الاختراق الخارجي:

ويطلق عليه في الفكر الإسلامي اسم «الغزو الفكري» أو «الاستلاب الفكري» ويعد هو الأقوى والأخطر في مجال الاختراق الفكري . .!

وهو يتنوع ويتعدد إلى: أ ـ غزو فكري وضعي. ب ـ غزو فكري ديني:

ونقصد بالغزو الفكري الوضعي، تلك المذاهب الوضعية كالعلمانية، والماركسية، والإلحاد. . .، وغير هاتيك من الأفكار والمذاهب التي وضعها البشر.

أما الغزو الديني فنعني به ذلك الكيد اليهودي والمسيحي على وجه الخصوص. . .، وذلك لأنهما ديانتان سماويتان في الأصل، وإن أصابهما التحريف والتبديل بعد. . .، ولكلٍ مسالك وتشعبات، وآليات معينة في الغزو الفكري، وخاصة تلك الموجات التي عرفها العالم الإسلامي قبل منتصف القرن الماضي من:

١- موجات التبشير.

٢- موجات الاستشراق.

٣- موجات الاستعمار العسكري والفكري معا.

ولهذا مقام آخر نخصه بحديث مستقل موسع.

ويهمنا في هذا المقام أن نتحدث عن النوع الأول:

(أ) الاختراق المحلي وهو ما أسميناه بـ(الاختراق الإسلامي ـ الإسلامي).

ظاهرة الاختراق الإسلامي ـ الإسلامي:

سبق أن عرفنا في صدر الموضوع معنى الاختراق وأهدافه، وهذه التعاريف السابقة تنطبق على ما سميناه بـ «الاختراق الإسلامي ـ الإسلامي» في الأساس. . ؛ لأنه أصبح للأسف يمثل ظاهرة منتشرة بين الحركات والاتجاهات الإسلامية. . على مستوى الأفراد، وعلى مستوى التنظيمات بل والمؤسسات أيضا.

حتى إن بعض الاتجاهات الإسلامية المحترمة تصرف جهدا غير قليل من وقتها وطاقاتها في التربص بالاتجاهات الإسلامية الأخرى من غيرها. . نقدا، وتشكيكا، وطعنا. . وتتبعا للعثرات والزلات . . !!

أما على مستوى الأفراد فحدث ولا حرج. . . ، لأنه أصبح ركيزة راسخة عند كثير من البارزين في الاتجاهات الأخرى فضلا عن أشبال الدعوة وشبابها منهم، بل أصبح البعض متخصصا ورمزا في نقد الاتجاهات الإسلامية الأخرى، كأنما هو موكل بها، وكأن هذه هي رسالته. . !! التشكيك والنقد والطعن، وتتبع الزلات والعثرات. . والأدهى من ذلك أنه قد يُساعَدُ على ذلك من اتجاهه، أو جماعته، أو حزبه فيلقى التأييد، والتصفيف منهم . . !!

موقفنا من تلك الظاهرة:

إننا نقف مذهولين أمام تلك الظاهرة الخطيرة من حيثيات عدة إسلامية وواقعية، وهذا ذكر لأهم تلك الحيثيات:

أولا: الحيثيات الدينية:

قد علمنا أن الإسلام نهى عن الغيبة والنميمة، وتتبع العورات والزلات والمثالب، وتلك من مكارم أخلاق الإسلام، بل ومن أوثق عراه.

حيث نهى الإسلام عن الغيبة صراحة فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾**[1].

---

(١) الحجرات: ١٢.

وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة قتات**»[(١)]، وقال أيضا: «**من ستر أخاه المسلم في الدنيا ستره الله يوم القيامة**»[(٢)]، وقال أيضا: «**ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فضحه ولو كان في جوف رحله**»[(٣)] أو كما قال ﷺ.

وهذا ما درج عليه الراشدون والأئمة المهديون من سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم جميعا ـ من كف اللسان وكف الأذى وستر المسلمين والنصح بالتي هي أحسن.

ولله در الإمام الشافعي لما قال:

إِذَا شئْتَ أَنْ تَحْيَا مَصُوناً منَ الأَذَى ... وَحَظُّكَ مَوْفُور وَعرْضُكَ صَيِّنُ

لسَانَكَ لاَ تَذْكُرْ به عَورَةَ امْرِئٍ ... فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ وَللنَّاس أَلْسُنُ

وَعْيَنَاكَ إنْ أَبْدَتْ إلَيْكَ مَسَاوئاً ... فَصنْهَا وَقُلْ يَا عَيْنُ للنَّاس أَعْيُنُ

وَعَاشِرْ بمَعْرُوف وَسَامحْ مَنِ اعْتَدَى ... وَخَاصمْ ولكنْ بالَّتي هيَ أَحْسَنُ

وعليه فإننا نرى أن ما سبق ذكره من الوشاية والطعن والهمز من المنهيات شرعا والمحرمات التي ينبغي أن يعف عنها عامة الناس فضلا عن خاصتهم من أصحاب الاتجاهات الإسلامية ورموز العمل الإسلامي ومؤسساته..

ثانيا: الحيثيات الواقعية:

وهذه الحيثيات تمليها ظروف الواقع وتشهد بها وهي تكمن في:

١ـ اجتماع الأحزاب جميعا على ضرب الحركة الإسلامية محليا وعالميا.

وهذا الاجتماع الآثم ظاهر للعيان في كل المحافل الدولية والعالمية بل والقطرية والإقليمية.. فالإسلام في بؤرة الاصطياد، وقادة الغرب يقولون «دمروا الإسلام أبيدوا أهله» وناهيك عن مظاهر الطعن في الإسلام والإسلاميين.

وهذا يدعو للتكاتف والتعاضد على مواجهة ذلك العدو المشترك.

٢ـ تراجع دور الحركة الإسلامية نسبيا في العقد الأخير .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) عن حذيفة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٦٢، ٥/ ٣٧٥) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٣٢) عن ابن عمر، وقال الترمذي: «حسن غريب»، وقال الألباني: «حسن صحيح».

مما يدعونا لمراجعة أنفسنا ومواقفنا وأن نتساند في إسداء النصح والتذكير والمراجعة بالتي هي أحسن قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (١).

٣ـ التأكيد على حقيقة أنه لن يقوم بالإسلام كله فصيل واحد، ولن تنهض بكافة أعبائه مطلقا حركة واحدة، وإن تفاوتت الحركات في مساحة الممارسة العملية للإسلام.

وعلى ذلك فإننا نعلن عن منهجنا مع الآخرين بأنهم إخواننا، وهم على ثغر من ثغور الدعوة ونحن على ثغر منها فكل يعمل في ثغره ويجد فيما بين يديه "ولنتعاون فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه».

٤ـ الاعتراف بحقيقة سعة مجالات الدعوة وتنوع ميادينها وتعدد أساليبها.. مع الالتزام بأصولها الرئيسة في الاستمداد والإخلاص واعتماد البصيرة ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾(٢) والتزام روح الحكمة والموعظة الحسنة ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾(٣)، واتخاذ الجدال ـ عند الضرورة ـ بالتي هي أحسن ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٤) مع الارتقاء إلى مقام الإحسان والعفو ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ..﴾(٥) وقال سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ..﴾(٦).

٥ـ الاعتراف بقصورنا جميعا حركات ومؤسسات واتجاهات.. إذ لا نزال نرسف في عوالم الأوهام والتخيلات والطموح دون أن نبذل من الجهد ما تقتضيه التبعة والأمانة العظمى في الدعوة إلى الله.

وإلا لما كان هذا حالنا.. وإلا لرزقنا التمكين في الأرض ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا..﴾(٧).

وأخيرا فإنني أدعو الاتجاهات الإسلامية كافة للتناصح والتشاور دون تجريح، ولا تحقير، ولا إغماض لحقوق الآخرين.. وحبذا أن تؤلف الكتب في المراجعات والمناصحات مع طرح البديل العملي والواقعي الصحيح، مع التزام حق الغير من ستره

(١) العصر: ٣.
(٢) يوسف: ١٠٨.
(٣، ٤) النحل: ١٢٥.
(٥) المؤمنون: ٩٦.
(٦) الشورى: ٤٠.
(٧) النور: ٥٥.

والإحسان في وعظه، ولله در الشافعي لما قال:

تَغمَّدْنــي النَّصيحَــةَ بِانْفـرَادِ وَجَنِّبْني النَّصيحَةَ فِي الْجَمَــاعَهْ
فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّــاسِ شَــيْءٌ مِنَ التَّوْبِيـخِ لاَ أَرْضَـى اسْتِمَاعَــهْ

وفي الختام جدير بي أن أنوه بالعاصم من شرور القواصم سواء كانت قواصم فكرية من الشبهات، أو قواصم مادية من الشهوات ألا وهي التربية، إنها الحرز الأمين والأساس المتين الذي يعصم شبابنا وأبناءنا وذوينا ومن ثم أمتنا عن كل غزو فكري، واستلاب ذهني. . .، نعم إنها التربية بمعناها الواسع ومفهومها الواعي سواء كانت فردية أو مؤسسية.

وقبل البدء في العلاج التربوي ينبغي الوقوف على النقاط الآتية حتى تتكشف لنا أركان تلك القضية التربوية، وهذه النقاط كالتالي:

أولا: ضرورة التربية مطلقا:

نعم التربية ضرورية مطلقا على مستوى القادة فمن دونهم؛ لأنه بالتربية وحدها. . يتورث المنهج ويتصل السند الفكري والروحي في العمل الإسلامي، ولذلك كان أول ما ابتدأ به رسول الله ﷺ في مكة هو التربية؛ وما ذلك إلا لجلالتها وعظم أثرها.

ثانيا: أنواع التربية:

لأن إسلامنا دين أخلاقي في المقام الأول على ما صرح به رسول الله محمد ﷺ «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(١)؛ فإن البعد التربوي الأخلاقي يرتبط بكل عناصر الإسلام، ولذلك يمكن تعديد أنواع التربية إلى:

١. تربية عقدية:

وهذه تربية للضمير الخلقي، وتطهير الوجدان القلبي، والفكر العقلي عن أدران الوثنية ولوث الشرك، والرقي بها جميعا في نظم توحيد الله وتنزيهه وإفراده الكامل بالعبادة، والالتجاء والطاعة بما يتحقق معه توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

---

(١) سبق تخريجه.

٢. تربية شرعية:

وتلك لعمري ميزة من مزايا التشـريع الإسلامي عن التشريع الوضعي، حيث إنه متشبع بروح الأخلاق، ومـلتزم بغرسها وحمايتها في كل ربـوع الحياة، ولا يخفى ما لهذا من الأثر العظيم في التزام الناس، وامتثالهم للأحكام والتشريعات الإلهية، حيث أوجدت القيم الأخلاقية وازعا قويا في دفعـهم لاحترام تلك التشريعات، وتقبلها دون النفور منها، أو التحايل عليها.

٣. تربية أخلاقية:

وهي تلك التربية الإسلامية القائمة على التحلي والتخلي، حيث التحلي بالفضائل جمعاء، والتخلي عن الرذائل جمعاء، وقد تميـزت شريعتنا الغراء بإيجاد أحكام مثالية معيارية ثابتة لا تتـغير بتغير الزمان ولا المكان على شاكلة الأخلاق الوضـعية الغربية، وإنما هي أخلاق ربانية ثابتة تكفل للنفس تزكيـتها وتطهر الروح وترفع مكانتها، وهي ميسورة وعملية، بحيث تتهيأ لها النفـوس وتستقبلها عن رضا ورغبة راجية المثوبة من الله والنجاة من عقابه.. وجماع هذه التربية الأخلاقية في اتباع سلوك النبي المعصوم محمد ﷺ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ..﴾ (١).

التربية الفردية والجماعية والمؤسسية:

أولا: التربية الفردية:

هي تلك التربية التي يلتزمها المربي مع أحـد من تلامذته أو بنيه أو ذويه.. وفيها يتابع المربي من هو تحت يده ويلازمه بالتذكير والإفهام والوعظ، وأبلغ آثار هذه التربية هو في امتثال التلميذ لسلوك مربيه، ومن ثم يلزم على المربي أن يعي تلك الحقيقة بأنه لا يستقيم الظل والعود أعوج، وصدق الشاعر في قوله:

لاَ تُصْلِـحِ النَّاسَ وَأَنْتَ فَاسِـدْ ... هَيْهَـاتَ مَـا أَبْعَـدَ مَا تُكَابِـدْ

وقول الآخر:

تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السِّقَامِ وَذِي الضَّنَى ... كَيْـمَا يَصِحّ بِـهِ وَأَنْـتَ سَقِيمُ!

---

(١) الأحزاب: ٢١.

ابْدَأْ بِـنَـفْسِـكَ فَانْهَـهَـا عَـنْ غَـيِّـهَا ... فَـإِذَا انْتَـهَتْ عَنْـهُ فَأَنْـتَ حَكِيمُ
لاَ تَـنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وتَـأْتِـيَ مِثْلَـهُ ... عَـارٌ عَلَيْـكَ إِذَا فَعَـلْتَ عَظِـيمُ

ومن هنا فإنه ينبغي على المربي أن يكون قدوة ومثالا حيا لمن يربيه، لأن ملاحظة السلوك هي ذات الأثر البليغ في التأثير في المتربي.

وأهمية هذه التربية أنها تمثل المرحلة الأولى لأية دعوة، وفيها تنشئ الكوادر الدعوية ويستتم البناء القاعدي لمن سيخرج حاملا لواء الدعوة وقيادها من شباب وأشبال الدعوة، الذين هم أمل الغد، وعدة المستقبل الدعوي.

ثانيا: التربية الجماعية:

وهي تلك التربية الجماعية التي ينتظم في سلكها أكثر من فرد واحد، مع اختلاف الميول الفكرية والأطباع والأمزجة وهنا ينبغي أن تكون المادة التربوية موجهة وهادفة، وفيها بعد فكري واضح في إعدادها وصياغتها حتى تبلغ الهدف المرجو منها، وهي مرحلة تالية للتربية الفردية . . . ، وطالما يخرج منها المنتظمون فيها ذوي أفكار وثابة، وأصحاب روح عمل جماعية عالية، وهذا مطلوب جدّ الطلب في ركب الدعوة إلى الله.

ولأن الإسلام يخاطب الجموع، ويقود الأفراد والشعوب والأمم والأجناس جميعا ويتسع لكافة الطباع ومختلف البيئات ـ لأنه خاتم الأديان وهو الباقي إلى يوم الدين ـ فإن عوامل السعة والمرونة والتنوع والتعدد تتسع وتتمدد بحسب أصول عقدية ثابتة، وتمثل الركيزة والمنطلق لحيويته وديمومته.

ثالثا: التربية المؤسسية:

ويقصد بها تلك التربية الممنهجة المبرمجة التي تقودها مؤسسة ما. . سواء كانت مؤسسة إسلامية أو حكومية أو أهلية عامة.

وأهم ركائز هذه التربية أن يوجد منهج تربوي وبرنامج عملي مؤصل تقوم عليه جهة (مؤسسية)، وهذا النوع من التربية ليس بجديد كل الجدة على الأمة؛ لأنه امتداد لتلك المؤسسات التربوية العتيقة في الإسلام، والتي قادت الجموع الإسلامية نحو الوعي الإسلامي، والإشباع الفكري بقيم وروح الإسلام الاجتماعية والفكرية والسياسية.

ويأتي على رأسها مـؤسسة المسجد والأربطة والزوايا والمدارس والمعـاهد العلمية والمؤسسات الوقفـية، وقد خرجت الكثيرين ممن حملـوا مشاعل العلم والهدى. . . ، وينبغي علينا الإفادة من التنظيـمات المؤسسية الحديثـة وابتناء المناهج التربوية الفاعلة، وبثها في تلك المؤسسات، وأخذ الأمور بحزم وجد. . . ، لأن الأمة تتهاوى أخلاقيا، وتتناقض عراها التربوية وأصولهـا القيمية الإسلاميـة تحت رزح الغزو التربوي الغربي من قيم وتقـاليد دخيلة. . . ، وتحت وطأة المغـريات والماديات التي جففت كثـيرا من ينابيع الأصول والقيم الإسلامية الرفيعة.

ثم إن هذا النوع من التـربية يعـد فرض كـفاية على الجـميع،وفـرض عين على المقتدرين على قـياد زمام التربية المؤسـسية لتوعية الأمـة بمختلف شرائحها وطبـقاتها الاجتـماعية، فـهكذا كان النبي ﷺ يبعث السفـراء كمربين وينشئ المساجـد،ويعقد الألوية ويبثـها في كل البقاع حـوله لينشر الوعي الإسلامي؛ويبشـر بقيمه الأخـلاقية الراقية.

فعلينا أن نَجد في الأخـذ بصيغة التربية المؤسـسية المتأنية لإشاعـة، ونشر وإفشاء الوعي التربوي الإسـلامي العام، ولإحـسار المد العلماني والغـربي في ألفيـة العولمة هذه.

المبحث الثاني

عثرات أمة الإسلام

بين المحب الوامق.. وبين الشامت الحانق

مفارقات .. للمعتبرين :

نعم والله إنها لمفارقـات تلو مفارقات تستـدعي العجب العجاب، وتستـثير أولى الألباب.

ليل مدلهم،ونهار يهم.. وظلام يدبر.. وشموس تقبـل، عبرة حارقة.. وبسمة مشرقة..وجه عابس، ووجه عن السعادة سافر.. نعمة تحل مغنية...، ونقمة تقض كاوية.. وحاصد يزرع ويجني...، وحاقد على الإسلام يجني.. وحزين لما يصيب المسلمين من الهـموم والغـموم.. وجذلان شـامت يوقد لهم نار السـموم.. مـجرم عاتي.. وتقي زاكي.. مجاهد سبـاق للشهادة.. ومنافق بلغ في نفاقه الريادة. هكذا هي أحوال بني البشر وتلك هي دروبهم...!!

وقد سبق إلى ذهني قول ذلك الأعرابي.. وقد كـان متحنفًا حيث صاح في أهل زمـانه، قائلاً: «ياأيهـا الناس، من عـاش مات، ومن مـات فات، وكل مـا هو آت آت، سماء ذات أبراج، وأرض ذات فـجاج، وبحار ذات أمواج، ثم أخـذ يترنم بهذه الأبيات:

في الذَّاهبـــينَ الأَوَّلـــينَ ... منَ الْقُـــرُون لَنَا بَصَـــائرْ
لَمَّـــا رَأَيْـــتُ مَـــوَارداً ... للْقَـــوْمِ لَيْسَ لَهَا مَصَـــادرْ
ورَأَيْـــتُ قَـومِـي نَحْوَهَا ... يَمْضـي الأَصَـــاغرُ وَالأَكَابرْ
أَدْرَكْـــتُ أَنِّـي لا مَحَـــالَهْ ... حَيْثُ صَـــارَ الْقَـــوْمُ صَـــائرْ

وتلك نفثات.. ولوعات أخطها في شهر الطاعة البدنية.. وشهر العبادة الذهنية.. إذ على المسلم أن يراجع أوراق نفسه مع ربه، ويخطط لها.. واضعاً استراتيجية قويمة بعيدة المدى قوامها تجديد العهد مع الله، والتزام طريق التقوى، وتجنب مسالك الضلال.

ولا ينسى في تلك الاستـراتيجية أن يجدد فكرته، ويصـقل قريحته بتـعمق حال المسلمين، وما يمرون به من محنة طاحنة تتداعى فيهـا عليهم الأمم، وتشحذ أسلحتها المادية بداية من النووية والكيماوية وما دونها وتحدّ أسلحتها المعنوية ضد المسلمين بداية من الحرب الإعلامـية الشرسة، وإلصـاق تهمة الإرهاب بكل تنظيم إسـلامي فما دون ذلك، ولله نحن في تلك الظروف العـصيبة والأوقـات المهيبـة؛ إذ لا يخلو حالنا من مـحب للإسلام وامق، وشـامت في مـصابه حـانق، وليت ذلك ينسـحب على غيـر المسلمين فحسب، وإنما تعـدت الشماتة أعداء الدين من غيـر المسلمين إلى من يحسب على الإسلام، وينعم بمسـميات أهليـة ويعيش على تراب أرضه، وهذه مفـارقة، وأي مفارقـة؟!! أرجو أن نبين عنها، وعن جوانبـها في ذلك المقال الذي حري أن يعـتصر قلوب الغيورين أسى على دينهم، وعلى إخوانهم الرابضين على ثغور الدعوة وجبهات المقاومـة وميادين العـمل الإسلامي في كل بقاع الأرض، فـهلموا نتـعرف على تلك المفارقات. .

بين المؤمنين.. والمجرمين:

تلك مـفارقـة صارخـة بين فريق المؤمـنين الصادقين، والمجـرمين العاتين، لهـا وجهان: وجه دنيوي ووجه أخروي أمـا وجه الدنيا فهو ما بادرت به الآيات الكريمات في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ . وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ**﴾[(١)].

وتلك صـورة فنية بارعـة يصورها القـرآن الكريم في أسمق صـور البيـان حيث استبطن حال المجرمين ومواقفهم العاتية من المؤمنين الصادقين:

١ـ فهم دائمو الـضحك والفكاهة والتندر على زمرة المؤمنين العابديـن، فإما تراهم ساخرين على حالهم، أو على سيماهم، أو على ركوعهم وسجودهم، وحراكهم في سبيل الله.

٢ ـ ثم تستطرد الآيات راسـمة صورة هـؤلاء المجرمين في التغـامز، والتهـامز، والتلامز من المؤمنين، فهم لا يكتفـون بالضحك عليهم، وعلى مظاهر صلاحهم، وإنما

(١) المطففين: ٢٩ ـ ٣٢.

يعدون ذلك إلى التغامز وهي تلك الإشارات العينية والحـركية في السخرية، وغالباً ما تكون بحضرة المغموز من حيث لا يدري.

٣ ـ تبين الآيات عن حال أولئك المجـرمين وموقفهم من المؤمنين عندمـا ينقلبون لأهلهم فهم لا يكفون عنهم ولا يرحمون ضعفهم أو يتركونهم وشأنهم، وإنما سمرهم وتفكههم، وحبورهم وجلساتهم العائلية بين الأهل والولد والزمرة والعشيرة تكون في التندر والتنكيت على فـئة المؤمنين الصادقين، فـلا يخرج ضحكهم عن (فـلان العابد فلان المجاهد.. فـلان الذي تنقبت امرأته أو فلان الذي هاجـر لله مجاهداً في وطن إسـلامي ما..وفـلان هذا الذي لا يبـرح عن مناصرة قـضـايا المسلمين..)، وهكذا دواليك..!!

٤ـ ثم تأتي المرحلة الأخيرة، وهي قمة الإجرام، ومنتهى العتو في سلوك أولئك المجرمين من إزاء الفئة المؤمنة حيث يبلغون غـاية الإجرام بأن يقلبوا الحقائق، ويغيروا المفاهيم، ويلبسوا على القاصي والداني فيتـهمون فئات المؤمنين الصادقين الذين نالتهم السخرية من المجرمين بسبب مواقفهم الصادقة، ودربهم المستقيم في التمسك بقيمهم ـ بأن يصـفهم هؤلاء المجـرمين «بالضـلال» وأشدد بهـا من صـفة صـارخة.. وفـرية ظاهرة.. على قول القائل:

وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارهَا

وقد قال الله ـ تعـالى ـ واصفاً حال من وصلت به ضلالتـه إلى هذا الحد بقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ**﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً**﴾[2] وهذه الحفنة من المجرمين ﴿**الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**﴾[3] ثم يعقب الله بعد ذلك بمن يحيق بهم هذا الجـزاء وأنهم الشامتون الساخرون المستهـزئون فيقول سبحانه: ﴿**ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا**﴾[4].

---

(١) البقرة: ١١، ١٢.
(٢) الكهف: ١٠٣.
(٣) الكهف: ١٠٤، ١٠٥.
(٤) الكهف: ١٠٦.

فضح القرآن لأغوار وبواطن الشامتين الساخرين..!

لأن الله خالق عباده وهو أعلم بهم ـ سبحانه ـ فقد ذكر القرآن أدق مشاعر تلك الفئة العاتية العادية وفضحهم وأخرج مكنون بواطنهم جلية بينة وصدق الله إذ يقول: ﴿**أَلا يَعْلَم مَنْ خَلَقَ وَهُو اللَّطِيف الْخَبِير**﴾(١) ولذلك نجد طبائع ودقائق بواطن هذه الحفنة الشامتة تلوح من بين سورة لأخرى وهذا موجز سريع بأهم صفاتهم النفسية :

١ ـ أنهم متكبرون متعاظمون في بواطنهم :

وهذه صفة لازمة لهؤلاء المبطلين حيث يرون ذواتهم الدنية في غير محلها فيحسبونها ذاتاً رافعة عالية كأنما خلقوا من فضة ولم يخلقوا من طين وقد توعد الله هؤلاء بالتمادي في الباطل والانصراف عن الحق.. حتى يقذف بهم فعلهم إلى قعر الجحيم قال تعالى: ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً..** ﴾(٢) وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»(٣) ثم نفى النبي أن يكون كبراً ما يلبس من جديد الثياب والنعل وعرف الكبر بأنه بطر الحق وغمط الناس .

٢ـ أنهم مرضى النفوس والقلوب :

كما قال تعالى: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً**﴾(٤) ومرضهم هو في الأساس مرض اعتقاد بالله فلو صحت بواطنهم لصحت ظواهرهم.. وهؤلاء يصدق عليهم قول المتنبي : **وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحاً وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ**

وَقَالَ : **وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِد مُرّاً بِهِ الْمَاءَ الزُّلالا**

إذ يجدون كل ظاهر حسن سيئاً خبيثاً فيظنون الناس على شاكلتهم وعلى دربهم.. وهيهات .

٣ ـ أنهم مردوا على القبيح ودرجوا على السخرية..

فلا يأبهون لأحد ولا يأبهون لكبير إذ تطال سخريتهم كتاب الله ورسول الله

---

(١) العنكبوت: ٦١. (٢) الأعراف: ١٤٦.

(٣) أخرجه مسلم (٩١)، والترمذي (١٩٩٩)، وأحمد (٤١٦/١)، عن عبد الله بن مسعود #.

(٤) البقرة: ١٠.

وصفـوة عباد الله مـن الصديقين والشهـداء فما دونهم. . وهـذا وسم من مرد على القبيح وفـقد الحياء من الله وصـدق الله إذ يصور حال سخريتـهم فيقول سـبحانه: ﴿**يُخَـادِعُـونَ اللَّهَ وَهُوَ خَـادِعُـهُمْ**﴾(١) وقال: ﴿**يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُـرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيـلاً**﴾ (٢) ويسخرون من الرسول كما يحكي الله تعالى عن كبارهم فيقول: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّـدَقَاتِ**﴾ (٣) وقال سـبحـانه: ﴿**يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَـوْتِ**﴾ (٤) وقال سبـحانه: ﴿**الَّذِينَ يَلْمِـزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ فِي الصَّـدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُـهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾(٥).

وهذه مقطوعة أذكـرها لأحد البلغاء في وصف زمرة الحاسدين والشـامتين حيث قال: «الحسد ـ أبقاك الـله ـ داء ينهك الجسد، علاجه عسير، وصـاحبه ضجر، وهو باب غامض، وما ظهر منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداويه في عناء. . الحسد عقيد الكفر، وحـليف الباطل، وضـد الحق، منه تتولد العـداوة، وهو سبب كل قطيـعة، ومفـرق كل جماعـة، وقاطع كل رحم من الأقرباء، ومـحدث للتفـرق بين القرناء، وملقح للشر بين الحلفاء.

وهناك من الوصف الكثير الكثير مما يطول بنا المقال أن نأتي عن بعض منه .

همس في أذن الشامتين... واللامزين.. والهامزين :

وإني لأهمس من مـقامي هذا إلى زمـرة الشـامتين أن (قـد كم اتئدوا أربيـتم في الغلواء). . تمهلوا، وانظروا كيف تسير سنن الله وكيـف يجري قضاؤه، وكيف تحول الدهور وتتقلب الأمور: **وكل شامت لابد أن مشموت فيه يشمت**. .

وياويل من كانت شماتته بعابد أو مجاهد أو فاضل نقي على وجه خير مع ربه، تلك هي القارعـة وتلك أعظم الواقعـة لأن من لا نصير له إلا الله تكـون له الغلبة والظفر وإن بعد أحيان، وليس حينا وصدق الله إذ يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ**﴾(٦) وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**من عادى لي ولياً فقد**

(١، ٢) النساء: ١٤٢.
(٣) التوبة: ٥٨.
(٤) محمد: ٢٠.
(٥) التوبة: ٧٩.
(٦) الحج: ٣٨.

آذنته بالحرب»[(١)]، وإني لأذكر لهم بعض تلك النصائح عساهم أن يرجعوا من قريب وأن يثوبوا إلى رشدهم، فالعود إلى حق خير من التمادي في الباطل.

١ـ التدخل فيما لا يعني.. يضني ويكدي

فأولى بكل شامت أن يلزم خاصة نفسه وهذا الله موصياً في كتابه الكريم إذ يقول: ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾[(٢)] ﴿**لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾[(٣)] وقال سبحانه: ﴿**فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾[(٤)] وقال سبحانه: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾[(٥)].

٢ـ وجوب النصفة قبل ترويج الشائعات على المشموت :

وهذا واجب على كل عاقل أن يتقي الله ويتكفف عن نقل ما لا صحة ولا صدق عنه إذ يقول النبي ﷺ: «**أتدرون ما الغيبة؟** قالوا: الله ورسوله أعلم؟ قال: **ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول، فقال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته**»[(٦)]، وقال ـ سبحانه ـ ناهياً عن اتهام البرئ ووجوب التحري والتثبت: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾[(٧)] وقال سبحانه: ﴿**وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾[(٨)] وقال سبحانه: ﴿**وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[(٩)] وقال سبحانه: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ**﴾[(١٠)] وقال: ﴿**وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا**﴾[(١١)] وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾[(١٢)].

ولله درالقائل :

اسْمَعْ أَخِي وَصِيَّةً مِنْ ناصِحٍ ... مَا شَابَ مَحْضُ النُّصْحِ مِنْهُ بِغِشِّهِ
لاَ تَعْجَلَنْ بِقَضِيَّةٍ مَبْتُوتَةٍ ... فِي مَدْحِ مَنْ لَمْ تبلهُ أَوْ خَدْشِهِ
وَقِفِ الْقَضِيَّةَ فِيهِ حَتَّى تَجْتَلِي ... وَصْفَيْهِ فِي حَالِي رِضَاهُ وَبَطْشِهِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) الإسراء: ٣٦. (٣) المائدة: ١٠١ .
(٤) هود: ٤٦ . (٥) آل عمران: ١٢٨ .
(٦) أخرجه مسلم (٢٥٨٩). (٧) الحجرات: ٦.
(٨) النساء: ١١٢ . (٩) البقرة: ٤٢ .
(١٠) النجم: ٢٣ . (١١) يونس: ٣٦.
(١٢) الحجرات: ١٢ .

وَمنَ ٱلْغَبَاوَة أَنْ تُعَظِّمَ جَاهِـلاً لصقَـال مَلْبَسِـه وَرَوْنَـق رَقْشه
أوْ أَنْ تهينَ مُهَـذَّباً في نَفْسه لـدُرُوس بَزَّتِـه وَرَثَّـة فَرْشِـه

٣ـ الحذر من عثار اللسان فهو مكبّ الناس في النار :

وبما أن الشامت متقحم بلسانه ومتقعر في بيانه عن المشموت فيه فهذا مدعاة إلى ورود الهاوية ،وكيف لا وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «**أمسك عليك هذا**» قال: أو إنا لمؤاخذون بما نتكلم يا رسول الله؟! قال: «**ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكبّ الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم؟!**»[1].

ولله درالقائل :

احْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الإنْسَانُ لاَ يَلْدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ

٤ـ كل بني آدم ... رهين بلاء وأسير قضاء:

قد تغيب هذه الحقيـقة عن كثير من الشامتين فيأنس بحـاله ويغفل عن ماله وليته عرف أن تلك من حكم الله تعـالى أن يقض البلاء مضاجع العبـاد، وأن تطرق خفايا الأقدار ومستور الأكدار كل باب قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[2] فهذا هو حال الإنسان من بلاء إلـى بلاء لا يكاد يستقر في تلك الحـياة. . ولله در ابن الجوزي لما أتى على صورة من ذلك فقـال: «وهكذا لا ترى المتمتع بالمستـحسنات إن وجدهن لم يجد مالاً يبلغ به المراد وإن اشتغل بجـمع المال ضاع زمان تمتعه، وإذا تم المطلوب فالشيب أقـبح قذى وأعظم مبغض، ثم إن صاحب المال خائف على مـاله، محاسب لمعـامليه، مـذموم إن أسرف وإن قـتر، ولده يرصـد موته، وجـاريته قـد لا ترضى بشخصه، وهـو مشغول بحفظ حواشيـه، فقد مضى زمانه في محن، والـلذات فيها خلسى لا لذة فيها، ثم في القيامة يحشـر الأمير والتاجر خزايا إلا من عصم. . فإياك إياك أن تنظر إلى صورة نعيمهم فإنك تستطيبـه لبعده عنك، ولو قد بلغته كرهته، ثم إن في ضمنه من محن الدنيا والآخـرة ما لا يوصف، فعليك بالقناعة مهما أمكن فـفيها

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١)، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه وقال الترمذي: «حسن صحيح».
(٢) البلد: ٤.

سلامة الدنيا والدين».

إذ ينبغي على الشـامتين الحاقدين أن يـلتفتوا إلى خـاصة أنفسهم، فـإن كانوا في نعـمـة فليـحـمـدوا الله ويسـألوه المزيد، وإلا فـهم أولى وأجـدى بأن يكفـوا عن شماتتهم، وأن يقطعوا بغيض الأدواء عنهم قبل أن تقطعهم .

٥ـ الجزاء من جنس العمل :

وبهذا قضى الـله ـ سبحانه ـ فمن شـمت من أخيه دالته الأيام واعـتقبتـه الشماتة نفسها ولله القائل : «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك».

وهذا الله يوم القيـامة يقـول للساخرين المتكبـرين من الشامتـين وهم يعذبون في جهنم: ﴿**ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ**﴾[١] .

رفعت الأقلام... وجفت الصحائف على ما قدره الله :

نعم تلك من مسلمات عقيدة المسلم أن قدر الله نافذ، ومـشيئته ماضية على الخلق بما شاءوا وبما لم يشـاءوا، وصدق الله إذ يقول: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾[٢] ومما قدر الله ـ سبحانه ـ أن الزرع الأخضـر يكبر ويكبـر ويهيج ثم تراه مـصفراً ثم يعـود حطاماً قـال تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا**﴾[٣] ومما قدره ـ سبحانه ـ أن كل رفيع الشأن سـوف يوضع وكل نسيب حسيب سوف يخـفض وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه كانت له ناقـة تسمى القصـواء وكانت لا تسـبق فأتى أعرابي فـسابق النبي فسبقه فشق ذلك على الصحابة فقال ﷺ: « **ما من شيء رفعه الله في الدنيا إلا كان حقاً على الله أن يخفضه**»[٤] وهذا حديث بيّن في حال الخلق وتحولهم من الرفعة إلى الخفض ومن الصعود إلى الهبوط فلا باق إلا الله سبحانه.

وقد أدرك ذلك السابقون من ملوك وسوقة فـهذا مروان بن محمد آخر ملوك بني

---

(١) الدخان: ٤٩، ٥٠. (٢) الحديد: ٢٢.

(٣) الحديد: ٢٠.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٥١)، وأحمد (٣/١٠٣) عن أنس رضي الله عنه .

أمية وكان يدعى مروان الحمار لكثرة الحروب التي خاضها دفاعاً عن مملكته وسقطت حتف أنفه ورغم براعته وحنكته ولله در لما قال لمن تمنى موته وزوال ملكه:

تَمَنَّى رِجَال أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَد

لَعَلَّ الَّذِي يَرْجُو فَنَائِي وَيَرْتَجِي بِهِ قَبْلَ مَوْتِي أَنْ يَكُونَ هُوَ الرَّدَى

وهذا أحد ملوك الأقدمين يصيح في التعبير عن العسرة بعد اليسرة وعن الضعة بعد الرفعة، فيقول :

أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ مِنْ شَامِخٍ عالٍ عَلَى خَفْضِ

وهذا آخر ينعى قوماً كان يحبهم، ويجلهم، وحتى سبقه الظن أنهم من الخالدين فصفعهم الدهر فيمن يصفع وصبحهم بالتراب بعد العزة والتلاد فقال :

رُبَّ قَوْمٍ قَدْ أَنَاخُوا عِيسَهُمْ فِي ذُرَى مَجْدِهِمْ حِيَن بَسَقْ

سَكَتَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ حِقْبَةً ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَماً حِينَ نَطَقْ

وإني لألتفت إلى هذه الحفنة العاتبة فأقول اضحكوا ما تضحكون، واعلموا أن الحق باق، والباطل إلى انمحاق، وكم من ضاحك سيبكي، وكم من آمن سيفزع وأهمس في أذنهم بقول القائل :

وَإِنَّ امْرَأً لَمْ يَصْفُ لِلَّهِ قَلْبُهُ نَعَى وحْشَتَهُ مِنْ كُلِّ نَظْرَة نَاظِر

وَإِنَّ امْرَأً لَمْ يَرْتَحِلْ بِبِضَاعَة إِلَى دَارِه الأُخْرَى فَلَيْس بِتَاجِر

وَإِنَّ امْرَأً يَبْتَاعُ دُنْيَا بِدِينِهِ لَمُنقَلِبٌ مِنْهَا بِصَفْقَةِ خَاسِرِ

والعاقبة .. للمتقين :

وإني لألتفت من مقامي هذا إلى تلك الفئة المؤمنة التي عانت، ولا تزال تعاني من سخرية واستهزاء جموع الشامتين: أن اصبروا وصابروا ورابطوا على ثغوركم في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله، وأن العاقبة لكم والظفر نوالكم، وأذكرهم بهذه القبسات الموجزات :

أولاً : البلاء والعناء هو دأب النبيين فالصالحين فالأمثل ثم الأمثل :

وقد مضت سنة الله بذلك حيث يمحص الله القلوب ويبتلي خبايا النفوس حتى

ينصهر دهنها ويبقى نفعها ونقاؤها كما ورد في الحديث: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل.. فيبتلى الرجل على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**»[(١)].

وهذا رسول الله ﷺ قدوتنا وإمامنا يتغلب من بلاء إلى بلاء ومن جوع إلى اضطهاد إلى سب في عرضه إلى أن تدمى جبهته ويسيل دمه ويطرد من بلده، وتقتل ابنته زينب، وتؤكل كبد عمه.. ولا تزال قريش تصعد ضده كل قاص ودان حتى منّ الله عليه بالصبر والجبر وآجل الخير.. وكذلك عقبى الصابرين.

وهؤلاء هم أنبياء الله يعذبون من أقوامهم ويضطهدون في أوطانهم ويشمت منهم كل شامت ولا يفت ذلك في عضدهم، وليكن لنا اعتبار بنبي الله نوح الذي مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ولم يؤمن به إلا القليل ولم ينج من ألسنة الشامتين ولا سخرية الساخرين وهذا الله يذكرنا بحاله في قوله عن قومه وشكواه لربه: ﴿**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا**﴾[(٢)] ثم يحكي الله عنهم سخريتهم من نبيه فيقول: ﴿**كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ**﴾[(٣)] وقال عن زمرة الساخرين ممن تمرد على اتباع الحق لأن فقراء المؤمنين اتبعوه: ﴿**مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**﴾[(٤)] وقال عن كبر قريش وسخريتهم من فقر النبي ﷺ وحاله: ﴿**لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾[(٥)].

ثانياً: أن العاقبة والنصر للمؤمنين:

نعم والله طال الأمد أم قصر استطال ليل السخرية أم انحسر فإن نصر الله آت في الدنيا عاجلاً أو في الآخرة آجلاً وصدق الله ـ تعالى ـ إذ يقول: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ**﴾[(٦)] وقال سبحانه: ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا**

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وقال الألباني: «حسن صحيح».
(٢) نوح: ٧ ـ ٩. (٣) هود: ٣٨.
(٤) هود: ٢٧. (٥) الزخرف: ٣١.
(٦) يوسف: ١١٠.

تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾[1] وقال ـ سبحانه ـ يطيب خواطر المؤمنين: **﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾**[2] وهذا نبي الله نوح عندما سخر منه قومه رد عليهم قائلاً: **﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾**[3].

ثالثاً: أن جزاء الساخرين من جنس ما اقترفوا:

وهذا القرآن يشهد بذلك حيث تتبدل الأحوال وتتغير المواقف وتنقلب الأمور ويوضع ميزان الخلق وينصب ميزان الحق وتقطع أنساب الدنيا ويرفع نسب الله ويؤمئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

فهؤلاء هم المؤمنون المظلومون في كنف الله ورحمته وفضله يرون حال الساخرين فيسخرون منهم جزاء وفاقاً قال تعالى تعقيباً على مشهد سخرية الشامتين اللامزين من المؤمنين كما سبق ذكره: **﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ . هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾**[4].

وهذا مشهد جليل في محاورة الكافرين للمؤمنين **﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** [5].

وهذا آخر صادق صابر يتذكر قريناً له كاد أن يرديه إلى الجحيم فيقول: **﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ . أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ . قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ . فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ . قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ . وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾**[6].

رابعاً: لا تحزن ولا تحزني إنما قتلكم شهادة ودماؤكم مسك ونور يهدي الثائرين:

وهذه كلمة أتوجه بها إلى كل شهيد ثابت على درب الحق وماض في سبيل الله وإلى كل أم أو أخت أو ابنة شهيد يعز عليها فراقه وفقده أهتف بها وأهتف بشهيدها أن أبشروا إنما موتكم شهادة وخلد في كنف الله العظيم قال تعالى: **﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ**

---

(١) آل عمران: ١٣٩.
(٢) النساء: ١٠٤.
(٣) هود: ٣٨.
(٤) المطففين: ٣٤ـ٣٦.
(٥) الأعراف: ٥٠.
(٦) الصافات: ٥١ـ٥٧.

بالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [(١)] وقال سبحانه: **﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾** [(٢)] وقال سبحانه مخاطباً روح الشهيد: **﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾** [(٣)] ، ذكر ﷺ: «**يعطى للشهيد ست خصال: عند أول قطرة من دمه يكفر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويؤمن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويُحلى حلة الإيمان**»[(٤)].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**لما أُصيب إخوانكم بأُحُد جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش...**»[(٥)].

وماذا بعد ؟

بعد الانتهاء المقرر من حرب القرن الجديدة كما أسموها، لابد بدلاً من أن ندفن رؤوسنا في الرمال أن نصارح أنفسنا،ونقف وقفة جادة يقوم بها أهل الدعوة والحركة الإسلامية على مستوى العالم الإسلامي ليراجعوا كشف حساب الدعوة،ويتأملوا الخسائر والأرباح، وليقوموا بتقويم الماضي تقويماً أساسه الصدق والصراحة والشفافية بعيداً عن إلقاء التبعات على الظروف والواقع، وإلقاء تبعات المسئوولية على الغير، فالمجاملة في هذا الأمر،وفي تلك الظروف لم تعد أبداً مقبولة، ممن يجب أن يكونوا هم التيار الإيجابي الذي تؤمل عليه الأمة لينتشلها من هذا الضياع وتلك الفرقة والتشتت، فهل يقوم الرجال الكبار بمثل هذه الوقفة ليضعوا الأصابع على الجروح، والنقاط على الحروف، ويستشرفوا المستقبل..

لقد حان الوقت وأزف لأن ينتشل الكبار أنفسهم من الاستغراق في تفاصيل العمل اليومي، والذي قد يستطيع من هم دونهم في المسؤولية القيام به بشيء من التوجيه، وأن يفرغوا أنفسهم ليلقوا نظرة على الدائرة من فوق بدلاً أن يكونوا هم أحد

---

(١) آل عمران: ١٦٩، ١٧٠. (٢) النساء: ١٠٠.

(٣) يس: ٢٦، ٢٧.

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٠)، وقال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن».

(٥) أخرجه أبو داود (٢٥٢٠)، وحسنه الألباني.

حلقاتهـا، وأن يتحولوا من الهم التكتـيكي الذي أكل أوقاتهم ويبذلوا جـهدهم على الهم الاستراتيـجي والاستشراف المستـقبلي الذي يخلط الاستيعـاب لسنن الله الكونية والشرعية في عـمليات الهدم والبناء للأمم مع الحقائق والدراسات الـتي تعدها مراكز الأبحاث المتخصصة في دراسات المسـتقبل حتى لا يكون البناء القادم تكراراً فاشلاً لما سبق من تجارب قامت على الأمنيات والأحلام البشرية فقط؟ إن أسئلة كثيرة وبالحجم الثقـيل أصبحت ملحـة وضرورية وتبحث عن إجـابات لا تقبل الانتظار والتـسويف وتنتظر من يقوم بالإجابة عليها:

١ـ هل آن الأوان للحركة الإسـلامية أن تجتمع وبشكل جـاد وصادق على نقاط استراتيجية واضحة، حتى لا تتكرر المأساة في كل فـترة حياة من الدعوة، فتعالج قضايا مصيرية مـثل وحدة العمل الإسلامي بأي صورة من الصـور التي تحقق أهداف العمل ونتائجه، وعدم الاستطراد كثيراً والمماحكة على شكل واحد من أشكال الاتحاد .

٢ـ كيف يمكن تحـديد طبيعة المعـركة الدعوية القـادمة؟ وكيف ستكون آليـاتها، وعناصرها ومناهجها التربوية وفهومها الإسلامية؟

٣ـ مدى القـدرة على تحديد الأولويات بوضوح كـامل مع تحديد للمسئـووليات والتبعات؟

٤ـ كيف نتمكن من التعـامل الذكي والخلاق مع المستجدات المتلاحـقة والسريعة على الساحتين الفكرية والسـياسية دون أن تضطرب الصفوف، وتنقـسم الأفكار وتتيه البوصلة من التيار الإسلامي؟

ترتيب البيت العالمي :

من يقرأ التـاريخ يدرك أن القوى العالمية التـقليدية التي سادت في منتـصف القرن الماضي، فقد احتـاجت إلى حربين عالميتين وإلى ثلاثة عقود منذ بـداية الحرب العالمية الأولى، وإلى نهـاية الحرب الثـانية لكـي ترتب البيت العـالمي؛ تم إسقـاط الخلافـة الإسلامية، تم توزيع الغنائم على القوى التقليـدية في معاهدات سايكس بيكو وقبلها وعد بلفور ثم إعلان الصـهاينة قيام دولة إسرائيل وكان من نتيـجة الحربين، مما جعل المنطقة رهينة لهذه النتـائج المرة التي عانى، ومازال يعاني منها العـالم الإسلامي، وما

زالت تبعا لها مستمرْ ويلاتها .

واليوم نجد أمريكا بعد أن استطاعت أن تحسم الحرب الباردة لصالحها،وتسقط الندية التي كان يتعامل بهـا الاتحاد السوفيتي معها سابقـاً، وبعد أن انتهت من ترتيب البيت الأمريكي الداخل منذ زمن بعيـد، وبعد أن حجمت الدول الأوروبية وجـعلتها تدور في فلكها، يصبح السؤال المطروح مشـروعاً: ماذا سيكون في أجندة الولايات المتحدة الأمريكية لإعادة ترتيب البيت العالمي بشكل يضمن تفوقهـا ومصالحها؟ وهل ستستمر أمريكا فـي لعبة تهـيئـة الفرص لتنفـيذ مخططـاتها بشكل يضـمن استمـرار سيـاسة الاستعمار والعولمة الاقـتصادية والسياسية بعد أن انتهى دور الاستـعمار المباشر والغزو الثقافي الذي لبس رداء العولمة وحقوق الأقليات وصراع الحضارات؟

أسئلة نـطرحها للمـعنيين بالأمر، ونرى أن الأيام الـقادمة حـبلى، ولكن لمن لديه الصبر لكي يرى كيف سيكون السيناريو؟

خـاتـمة:

قد تكون هذه الكلمات ورقة من أوراق التاريخ التي لا يلتفت إليها إلا بعد حين، أو مجرد بطاقة اجـتهد كاتبها على أن تكون من بطاقـات الخير، التي ترفع الميزان يوم القيامة، حيث إنني وغيري كتبـنا كثيراً في عملية تطوير العمل الإسلامي، وكنا نأمل أن يكون هناك استجابات تدفع بهذا العمل لكي يحقق أهدافه المرصودة، ولكن أرض الواقع لم تعطينا مـا كنا نؤمل، وهذا لا يدفعنا لليـأس أبداً، بل إلى المزيد من العطاء والتصبـر، ولعل ما نقوله لا يقبل اليوم ويقبل فـي الغد، أو لعل الفكرة لا تقبل من صاحبها إذا جاءت ابتداءً من مقولة ومنطوقة، ويتقبل إذا جاء بها الإنسان من منقولة، ولكنها في النهاية تقبل، لأننا لسنا ممن يحتكر الأفكار والعقائد، بل إن الفرح الصافي هو الثمرة الطبيعية، لأن نرى أفكارنا وعقائدنا ملكاً لآخرين .

المبحث الثالث

برقيات عديدة... في السنة الجديدة

رغم أننا مهتمـون بترتيب أوراق البيت الإسلامي ومراجعـة حصاد الأحداث مع بداية كل عام هجـري، إلا أن هذا لا يمنعنا من إرسال بعض الـبرقيـات المحدودة إلى جهات وفئات مختارة في بداية السنة الميلاديـة وخصوصاً أننا لانزال قريبي عهد بشهر الاجتهاد والطاعة شهر رمضان المبارك أعاده الله علينا باليمن والبركات.

برقية إلى المحتفلين برأس السنة:

قد يبدو للوهلة الأولى لمن يقرأ عنوان هذه البرقية أننا سنشهر في وجوههم فتاوى حرمة الاحتفال برأس السنة، وأنها بدعة لم تـصح سواء كان الاحتفال بالسنة الهجرية أو الميلادية، والميلادية أشـد طبعاً؛ لأنها ليست من أعـياد المسلمين ولا دينهم، ولكننا سنتجاوز هذه النقـطة، لأن هذا الحكم أصبح معلوماً من الدين بالضـرورة تقريباً لدى العامة والخـاصة، ولكن ما يهـمنا بالموضوع هو الإجابة على السؤال التـالي: ما هي الأسبـاب الداعيـة للاحتـفال؟ وهل الأمة الإسـلاميـة تعيش أزهى عـصورها وأروع انتصاراتها، وفتوحاتها التي تتوالى، بحـيث أصبحنا لا نجد ما يشغلنا إلا مشاركة أهل الكتاب أفراحهم هذا إذا سلمنا جدلاً بجواز ذلك؟

نحن نفـهم أن يحتـفل الأمريكيـون برأس السنة الميلادية الجـديدة وهم يواصلون مخططاتهم بنجـاح للسيطرة على العالم وتحقـيق أهدافهم المعلنة والمخفـية، ونفهم أن يحتفل الأوروبيون بالسنة الجديدة وهم يدشنون عـهد العملة الموحدة (اليورو)، ويمكن أن نفهم كذلك احتفال اليهود وقد كـسروا شوكة عرفات وأذلوه، ووضعوه في الإقامة الجبرية ومنعوه من الوصول إلى بيت لحم للاحتفال بعيد الميلاد، خاصة بعد أن دعمهم الفيتو الأمريكي ضد دول وشعوب الأرض قاطبة في الأمم المتحدة.

ولكن الذي لا نفهمه ولا نستطيع تفسـيره هذا الاحتفال الأبله الذي يقوم به بعض أبناء جلدتنا في الشرق، وقـد أصبحت بيـضة الإسلام مسـتباحة، وأعـداؤه متكالبين عليه، وأراضيه تنقص يوماً بعد يوم، وقافلة الشهداء لا تتوقف لا في فلسطين ولا في

الشيشان ولا في أفغانستان، ولا في كشـمير ولا في أي مكان يوجد فيه مسلم موحد يتعـرض للاضطهاد والتـضييق بسـبب هويته ودينه،ولقد مـر عيد الـفطر المبارك وفي النفس غصة تجاه ما يحدث للإسـلام والمسلمين، ولولا سنة نبينا في الاحتفال وإظهار الفرح، ولولا أن هذا الاحـتفال بما يحـوي من تكبير وتهليل وتحـميد فيـه عز للدين والإسلام، وكيد بعدونا لما وجدنا طعمـاً للعيد، أما رأس السنة الميلادية فهي إعانة لمن يعادوننا على الاحتفال بالتنكيل بنا، وتحقيق أهدافهم في تفريق هذه الأمة وإضعافها، فاحتفال الفريق المنتصر برأس السنة أمر طبيعي، أما احتفال الفريق المهزوم المنكسر فهو والله العجب العجاب!!

برقية إلى رؤساء دول مجلس التعاون الخليجي:

القمة الأخيرة التي عقدت في مسقط أحيت في النفوس إمكانية تحويل الحلم إلى حقيقة، ونحن وإذ كنا نريد أن تحقق شعوب المنطقة حلمها بأسرع وقت ممكن، إلا أننا نتفهم الـترتيبات والآليات المطلوبـة لتحقيق هذه الطمـوحات والآمال، وأن الخطوات البطيئة الثـابتة الراسخة خير من الخطوات السـريعة المرتجلة التي قد تأتي على الحلم، وإن قرار تطبـيق الاتحاد الجمركي في العـالم القادم، قرار نشد عليـه ونرجو أن يكون خطوة تتبعها خطوات حتى نصل إلى العملة الخليـجية الموحدة في عام ٢٠١٠م، فمثلما هناك الدولار، واليورو والين والشيكل، نريد أن يكون هناك (الخليجي) وكلنا ننتظر!

برقية إلى اليهود من اليهود:

إن لنا عما نجد من غلظة وصلف عزاء في إيماننا بالقـدر الكوني والقضاء الحتمي في أننا منصورون عليكم ـ بـإذن الله ـ تـعالى ـ وذلك مصداق قرآننا وأحـاديث نبينا الصحيحة الصريحة: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختـبئ اليهودي من وراء الحجر والشجـر، فيقول الحجر أو الشـجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود**»[١] .

وإن لله في خلقه لشئونـا وسننا مطردة لا تتغير ﴿**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾[٢] ومن

(١) أخرجه البخاري (٢٩٢٦)، ومسلم (٢٩٢٢) عن أبي هريرة #.
(٢) الفتح: ٢٣.

سنن الله العظيم أنكم إذا طغيتم دمّركم. . وأن دماركم في طغيانكم لا بقوة أعدائكم.

فـهذا هو بخـتنصر ملك بابل. . وهـذا جالوت. . وهذا سنحـاريب... وهذا هتلر النازي. . كلهم دمروا بني إسرائيل لما طغوا وبغوا وأسرفوا وغالوا في الفساد، وقريباً تكون نهـايتكم على يد المسلمين أو يد غـير المسلمين وليس ببـعيـد أن تضيـق الأمة الأمريكية بكـم فتسحقكم سـحقاً إذ بعيـد أن يدينوا بالذلة لبضعة مـلايين من اليهود وهكذا دواليك، كما استفاقت الأمة الألمانية بعد إذلالكم لها في الحرب العالمية الأولى بتحكمكم في مـقدرات ومدخرات وأموال الشـعب الألماني حتى بعتمـوهم للحلفاء، فاستفاقوا لكم واجتثكم هتلر من ألمانيا كلها.

وها أنتم ذا تفرحون وتمرحون وتستبدون وعقباكم كما قال القائل :

رُبَّ قَوْمٍ قَدْ أَنَاخُـوا عيسَهُـمْ ... في ذُرَى مَجْدهمْ حينَ بَسَقْ
سَكَتَ الدَّهْرُ عَلَيْهِـمْ حِقْبَـةً ... ثُـمَّ أَبْكَـاهُمْ دَماً حِينَ نَطَقَ

نعم لقـد جاوزتم المدى، وصدق القـائل: «البغي يصـرع أهله، والظلم مـرتعه وخيم».

ومن صور بغيكم وظلمكم :

أولاً : إذلال أمة الإسلام ومقدساتها :

وقد بلـغ هذا الإذلال غايته، ولـست أفصل القـول فيمـا تصنعونه فـي أطفال الحـجارة العـزل، وفي أرامل ونساء المسلمـين المستـضعـفين، فضـلاً عمـا يدور في سجونكم ومعتقلاتكم.

ومن صور إذلال الأمة البلـيغة أنكم تختلفون على مـساحات صغـيرة جداً على الأرض لا تمثل بالنسـبـة لما تحتلونه إلا أبعـاض صـغـيـرة ١٪ أو ٢٪ لكنكم تصـرون وتتعنتون إذلالاً لأمتنا وإمعاناً في احتقارها .

فضلاً عن:

ـ إهانتكم للنبي محمد ﷺ .

ـ إهانتكم للقرآن الكريم.

ـ حرقكم المسجد الأقصى وحفركم تحته استعداداً لهدمه.

ـ استباحة المصلين فيه .

ثانياً : إذلال الأمة الأمريكية ورموزها :

وهذا بيّن من خلال ما تتناقله التقارير ووكالات الأنباء خفية وجهرة عن تحكمكم في رؤساء أمريكا جميعاً... إذ لم ينج منهم أحد، وبالفعل فإنَّ اللوبي اليهودي هو الحاكم الأوحد المؤثر المطلق على قلة عدده .

مهما طال ليلكم... وعلوتم في الأرض علواً كبيراً... فما هي العقبى؟ وما هو المآل؟؟

وعد القرآن بإهلاككم:

ليس من مرية أو ريبة أن ما قاله القرآن عنكم هو قضاء حتم وحكم جزم ﴿**إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ**﴾ وقد أخبر القرآن عن عاقبة بني إسرائيل في سورة كريمة سميت باسمكم وهذه إشارات دلالية على سبيل التنبيه في وعد القرآن بأهلاككم ونوجزها في تلك الحقائق والثوابت التالية :

١ـ إن إهلاككم سيكون بسبب فسادكم :

قال تعالى: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ**﴾[1] فهنا العلاقة مباشرة بين مصارع الأمم وفشو الفساد فيها[2] وهذا إخبار من الله بما سيكون حسب ما وقع في علمه الإلهي من مآلكم .

وقوله تعالى: ﴿**وَقَضَيْنَا**﴾ يعني أنفذنا في القضاء المحتوم المثبوت كما يقول صاحب المحيط[3]، وأما عن فسادكم وعلوكم فقد تواترت صورة منكم بالماضي وكان ذروته في قتل أنبياء الله حيث قتلتم نبي الله زكريا وشعيباً، وقتلتم نبي الله يحي وهممتم بقتل المسيح عليه السلام، وها أنتم ذا تقتلون أطفال الحجارة وتدنسون معالم الإسلام وتذلون أمته والأمم الأخرى كذلك .

---

(١) الإسراء: ٤.

(٢) انظر الظلال للأستاذ سيد قطب ٢ / ٤ طبعة دار الشروق بالقاهرة.

(٣) انظر التفسير المحيط ٦ / ٧ـ ٩ ط. دار الفكر ببيروت ١٩٨٣م.

٢ـ إن قضاء الله بإهلاككم إنما هو قضاء قدري وقوله عز وجل: ﴿**بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ**﴾(١) هو بعث قدري كوني جزائي لكم ... لابد من وقوعه كما يقول سبحانه: ﴿**وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً**﴾ (٢) .

٣ـ إن أصل معادلة إهلاككم هي إفسادكم في المرة الأولى أو الثانية أو الثالثة أو غيرها لقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا**﴾ فهذه سنة الله فيكم وفي غيركم حتى قالوا: «إن الله لينصر الدولة العادلة ولو كافرة، ويهلك الدولة الظالمة الفاسدة ولو كانت مؤمنة» فهذه من سنن الله في ابتداء الأمم وفي انتهائها وأن النهاية هي في الطغيان .

٤ـ أن إهلاككم مؤكد وكائن بقضاء الله الكوني، وهو واقع بأيدينا أو بيد غيرنا، وأن الله سيسير إليكم من يجتثكم ويأتي على بيضتكم ويدمر بنيانكم ﴿**وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً**﴾(١) ولا يشترط أن يكون دماركم بداية خلافة وريادة للمسلمين أم لا، فهذا يعتمد على جهد المسلمين أنفسهم والمبادرة بأيديهم.

برقية إلى الأيدي المتوضئة:

لم يعد من الفائدة المكابرة بأن المرشح الوحيد ليلعب دوراً رئيسياً في تحرير الأراضي المغتصبة، وإعادة كافة الحقوق السليبة وتحرير المقدسات في فلسطين هو التيار الإسلامي، الذي أثبتت الأحداث مدى صواب تحليله ومنظوره لمجريات الأحداث، وأن الشعارات الشيوعية والعلمانية والقومية والاشتراكية والبعثية،وكل ألوان الطيف السياسي والفكري والتغريبي التي استلمت دفة الحكم في العالم العربي لم تستطع أن تؤدي إلى تنفيذ وعودها وشعاراتها البراقة التي جاءت بها على ظهر دبابة إلى سدة الحكم، بل وتم في عهد هذه الأنظمة ضياع المزيد من الأراضي العربية،وتفكك وتفسخ العلاقات العربية، وطغيان القهر السياسي، وضياع الثروات الوطنية، وتراكم الديون وارتفاع نسبة البطالة، وتخلف التنمية، وخلخلة البنية التحتية، وتراجع في وظيفة الدولة، حتى أصبح الوضع سيئاً ومحزناً بعد أكثر من نصف قرن من الزمان على نكبة فلسطين.

---

(١) الإسراء: ٥.

(٢) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدى ٤ / ٢٦٠ ـ ٢٦٣ ط. الرئاسة العامة للبحوث العلمية: السعودية ١٤١٠هـ.

إن التيار الإسلامي دفع الكثير من التضحيات، وكان القربان الذي تقدمه الأنظمة في كل تسوية قادمة أو سابقة، فالوثائق البريطانية تشهد أن الإخوان المسلمين في فلسطين قد أبلوا بلاء حسناً في وقت عشش فيه الفساد في الأنظمة الحاكمة في ذلك الوقت ما بين أسلحة فاسدة، وكيد متبادل للتنافس على إدارة الأماكن المقدسة، واستعمار قطع أوصال المنطقة، واستحقاقات سقوط دولة الخلافة الإسلامية، فكان جزاؤهم أن اغتيل المرشد الأول للجماعة في ١٢/ ٢/ ١٩٤٩م بعد أن رأى الغرب مدى خطورة هؤلاء على اليهود ثم تم ضرب الحركة مرة أخرى عام ١٩٥٦م لتسقط قناة السويس في يد إسرائيل، ثم تم إعدام كبار مفكري الحركة في عام ١٩٦٦ لنشهد بعد شهور هزيمة نكراء لثلاث دول عربية، وسقوط القدس وسيناء والجولان، ثم الضربات المتتالية للحركة تمهيداً لكامب ديفيد الأول، حتى قال بيغن في تصريح له عام ١٩٨١م: «إنني لن أطمئن على مستقبل معاهدة كامب ديفيد إلا بعد أن يتم القضاء على الحركات الإسلامية في مصر بشكل خاص».

إن إقصاء الإسلام والتيار الإسلامي عن المعركة مخطط يهودي قديم منذ أن صرح هرتزل: «أن أبواب الشرق لليهود في فلسطين لتتوقف بالدرجة الأولى على تدمير الخلافة العثمانية»، فالمجاهدون المسلمون مشهود لهم بالإخلاص والشدة في الحرب، ففي سنة ١٩٤٨م كاد المجاهدون أن ينهوا ما يسمى بالعصابات الصهيونية، بل إن مدينة القدس كانت مسرحاً لمعارك ضارية في عام ١٩٤٧م و١٩٤٨م، وتمكن العرب من محاصرة الأحياء اليهودية، ومنع الإمدادات عنها وكان اليهود على وشك الرحيل إلى أن جاء قرار الهدنة، وتمكن اليهود من إعادة تسليح وتنظيم قواتهم المحاصرة والاحتفاظ بالقسم الغربي من القدس، وتكررت الصورة مرة أخرى، فبعد القمع التي تعرضت له الحركة الإسلامية في الدول العربية تفاجأ اليهود بالحركة الإسلامية وجهاً لوجه تقود الانتفاضة المباركة في ديسمبر عام ١٩٨٧م، فكان لا بد من وجود نظام فلسطيني يقوم بما تقوم به الأنظمة العربية من قمع تجاه الحركة الإسلامية فكانت مختارية غزة وأريحا للمناضل السابق ياسر عرفات.

إن الحركة الإسلامية وهي تعمل للتغيير وتستشعر أمانة المسجد الأقصى، لتعلم أنها تعمل وفق نظرية التدافع بين الحق والباطل، مع يقينها أن النصر قدر محتوم للأمة

الإسلامية، وأن لحظات الاستضعاف التي تمر بالأمة يجب ألا تجعلها تسلم لعدوها بمقدساتها، فمئات السنين من الحروب الصليبية لم تستطع نزع الأقصى من المسلمين، ولن يستطيع شراذمة اليهود أن تنزعه ولو بقيت خمسين سنة أخرى، ولقد أثبتت الأحداث مدى هشاشة اليهود، فعندما قامت حركة المقاومة الإسلامية حماس بسلسلة عملياتها الاستشهادية في عام ١٩٩٦م بدأت القلاقل والاضطرابات تدب في صفوف اليهود، وبدأ التفكير جدياً في الهجرة وترك فلسطين، ولقد أثبتت حادثة أبي هنود الأخيرة سقوط نظرية الجيش الذي لا يقهر، وخاصة بعد انكساراته المتكررة في جنوب لبنان، وانكسارات مخابراته وفشل اغتيال المجاهد خالد مشعل.

إن اليهود غربان حرب جبناء وليسوا دعاة سلام شجعان، فحاخامات اليهود يحرمون أي تنازل للسيادة الفلسطينية، ويعتبرون العرب أفاعي وحيوانات، بل حتى الذين يصفون أنفسهم بالمعتدلين، لا يؤمنون بالسلام، فهذه أرملة رابين تصرح أن زوجها يتقلب في قبره ضيقاً بسبب تنازلات باراك، بينما نحن نهرول للقاء اليهود حتى لو فشلت المفاوضات معهم، وحتى لو رفضوا مطالبنا الخائبة القليلة.

إن الحركة الإسلامية ـ وقد تمايزت الصفوف بين الثابتين والخانعين ـ هي وحدها ومن خلفها الجماهير المسلمة المعنية بتحرير فلسطين، وأن الحلول الاستسلامية للتنازل عن القدس لن تتم إلا على جماجمنا وأرواحنا ودمائنا، حتى يأتي اليوم الذي يكتمل فيه الإعداد وتتهيأ الأمة للتحرير، وتتخلص من قيودها وطغاتها، وينادي ساعتها الشجر والحجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي تعال فاقتله.

برقية إلى المخدوعين:

قطار السلام المزعوم الذي توقف في آخر محطاته وعلاه الصدأ والخراب، ولم يستطع أن يصل إلى محطته الأخيرة، ولا يبدو أنه في المستقبل المنظور سيعود إلى الخدمة مجدداً، هذا القطار خدع ركابه الذين لا يزالون مخدوعين بأكذوبة السلام الكبرى، وهم يدركون وربما لا يدركون أن الصراع مع اليهود صراع عقيدي ذو أبعاد حضارية شاملة، وأن حبال المفاوضات حبال واهنة ومتقطعة، ولن توصلهم إلى شيء، ولازلنا نتعجب كل يوم من المقالب التي يصنعها اليهود بشركائهم بالسلام،

وآخرها كـان احتجـاز رئيس السلطة الفلسطينية بـشكل مذل ومهين، ووضـعه تحت الإقامة الجـبرية بعد أن وضعها هو على أبطال المـقاومة، ولا نعلم الذي يؤمله هؤلاء في يهود، وهم الذين يعتقدون أن اللّه يلعب مع الحـوت، وأن غير اليهود كالكلاب، وأن السرقة جائزة من غير اليهودي، وأن الربا محرم بين اليهود مباح مع غيرهم، وأن حيـاة غير اليـهودي ملك لليـهودي، وأن الزنى بغيـر اليهـود مباح، وأن غش غـير اليهودي واجب، هؤلاء هم اليهود وهذه بعض تعاليم عقيدتهم، وقد مارسوا الفجور والفسق، وقـتلوا الأنبياء في الماضي، وتآمـروا على شعوب الأرض في الحاضـر، ما الذي ينتظره المخدوعون فيهم، وهم يصرحون ليلا ونهارا، بأن القدس عاصمة موحدة لهم، ولا عودة للاجئين الفلسطينيين، وأن كبار المجـازر التي ارتكبوها ويرتكبونها ما هي إلا دفـاع عادل عن النـفس، فبـأي حـديث يضحك به هـؤلاء المخدوعـون على أنفسهم، وقد تبينت لهم الحقائق، كضوء الشمس، أم أن العمى في القلوب؟!

إن الصحوة الإسـلامية لا تقتصر على مكان من بلاد المسلمين دون غـيره؛ لأن لها في كل بلد تقريباً فتية آمنوا بربهم، ومن الخـير أن تتعدد أوجه الربط بين هذه الفئات بحيث يتناصـحون ويتـعاونون، وأظن أن الروابط في الثمـانينات، وبداية التسـعينات كانت أقوى وأعـمق مما هي عليه الآن، مما يوحي بأن شيئاً ما قـد حال دون أن تنمو الحركـة الإسلامية في أمـاكن جديدة، ومن واجب قادة الحـركة الإسلامـية أن يزيلوا العوائق التي بينهم، ويرفعوا الحواجـز التي تحول دون ترابطهم بإخوانهم، وأن يعملوا جميعاً في تآلف وتوادّ حتى يكونوا كالبنيان المرصوص. فهل وصلت الرسالة؟

وأخـيرا فـإنني أحب لكل المسلمين، بل لـكل البشـر الخـير والهـداية، وأود لنا ـ المسلمين ـ أن نعرف طبـيعة العصـر ومشاكله العـديدة، ومغرياته التي تفوق الحـصر والعدد، وأن نحدد موقفنا بوضوح أمـام التيارات التي لا تتوقف عن الحركة في ليل أو نهار، أو شرق أو غرب، وأن ندرك عِظَم المهمة التي نتحملها فنعمل على:

١ـ الاستفادة من كل الطاقات الموجودة في جسم الحركة الإسلامية.

٢ـ تحديد قضية الولاء والبراء وفق قواعد الشرع وأدلته.

٣ـ مسـابقـة الأحـداث والتواجـد الدائـم بالرأي، والموقف الإسـلامي في كل

مستجدات الحياة.

٤ـ الجدية في كل الأعمال التي تقوم بها الحركة.

٥ـ الاعتناء بالقيادات الشابة، وإعطائهم الثقة في التكليف وتحمل المسئولية.

٦ـ التنمية العلمية لكل الأفراد المنتمين للحركة.

٧ـ الابتعاد عن التعميم في مخاطبة الناس، سواء أكانوا في الحركة أم كانوا بعيدين عنها.

برقية إلى قادة العمل الإسلامي :

العمل للإسلام له ضريبته التي يعرفها العاملون، من تضحيتهم بالمال والوقت والجهد في سبيل نشر الدعوة على وجهها الصحيح، ومحاولة رد الناس إليها رداً جميلاً، بعد أن تسربت إلى كثير منهم مفاهيم خاطئة نتيجة عوامل كثيرة.

وهذه الغاية (نشر الدعوة، ومحاولة رد الناس إليها بالحسنى) تتطلب جهود كثيرين، ومن الصعب إن لم يكن من المستحيل في الوقت الراهن أن يقوم فصيل واحد من فصائل الحركة الإسلامية بالمهمة الإسلامية.

فساحة المسلمين تحتاج إلى جهود جميع الفصائل الموجودة، التي قد لا تكفي إلا لتغطية جزء صغير من هذه الساحة المديدة المعبأة بأكثر من مليار وثلاثمائة ألف مسلم، إن الجهود المبعثرة لا تغني فتيلاً، ولا تروي ظمأ المتعطشين لثقافة الإسلام الصحيحة في هذه الساحة الفسيحة، وتكتل جهود العاملين ـ اليوم قبل الغد ـ أمر لا محيص عنه، إن أردنا أن نخطو خطوة على الطريق الصحيح، وأنتم أيها الإخوة الكرام الكبار تعرفون ـ جميعكم ـ ما أقول فلماذا لا تتغير صورة الجهود المبعثرة ؟ وإلى متى يظل هذا الوضع ؟ إننا ما لم نستفد من تجربتنا في السنوات الماضيات، ونتقارب بل نتلاحم فإن العوادي ستعدو علينا وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية .

ونحن لا نعرف عن أحد تقصيراً في مهمته التي نذر لها نفسه، ولا تراجعاً في جهده الذي يقدمه أو ماله الذي لا يضن به، أو وقته الذي يحجزه عن أولاده وأسرته لعمله في نطاق الدعوة والحركة، ومن ثم فإن النتائج الكثيرة التي يجنيها كل فصيل

على حدة تظل في حيـزها الضيق المحدود فتكون أشبه بمجـموعة من الينابيع التي لا تصب مياهها في مجرى واحد، فهي وإن روت بعض المخلوقات فإن مياهها لا تتدفق باستمرار، ولا تمتد إلا إلى مدىً محدود، فإلى أي مدى يظل هذا الأمر؟

إننا بحاجـة إلى جهد يبـذله أي مسلم في أقاصي الأرض، ونحن بحـاجة إلى أن تتسع الصـدور لكثيـر من التوجهـات التي لا تخالف روح الإسـلام، ولو أننا مددنا أيدينا لهؤلاء فلربما كانت لنا اليوم صورة أفضل وأحسن مما هي عليه الآن .

المبحث الرابع
معايير منهجية في الدعوة الإسلامية

هذه معاييـر شرعية نقدمـها للداعية لتكون عـونا له ونبراسا مضـيئا على طريق الدعوة، وأداء لحق الأمـانة العلمية، واتباعـا لسنة رسول الله ﷺ في كيفـية دعوته الناس. وأول هذه المعايير هو:

١ـ تقييد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمصلحة:

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[١] يقول الإمـام القرطبي فـي تفسيـرها: (جعل اللـه تعالى الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر فارقـا بين المؤمنين والمنافقين) ودل ذلك على أن من أخص صـفات المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي اكتسبـت به الأمة الإسلامية الخيرية. قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٢] ووظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي وظيفـة المرسلين، ولا يستطيعها إلا الفطن الذي يملك القدرة على التبليغ والتأثير بعد فقـهه لعملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول القاضي أبو يعلى: «لا يأمـر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهـا فيما يأمر به، فقيها فيما ينهى عنه، رفيقا فيمـا يأمر به، رفيقا فيما ينهى عنه، حليما فيما يأمر به، حليما فيما ينهى عنه».

والنظر إلى المصلـحة في الأمـر بالمعـروف والنهـي عن المنكر لا غنى عنه، فـإن تعارضت المصالح مع المفاسد فما غلبت مصلحته وجب اتباعه، والواجبات والمستحبات يكثر صـلاحها، ولذا يجب الأمر بهـا والنهي عن أضدادها، وما غلب عليه الـفساد ينظر فيه فلو ترتب على النهي عنه مفسدة أكـبر ترك من غير نهي، فلو كان قوم على بدعة وفـجور بحـيث لو نهوا عن ذلك وقعـت فتنة أعظم لم ينهـوا، ومن جمع بين معروف ومنكر لا يمكن الـتفريق بينهما لا يؤمـر بمعروف ولا ينهى عن منكر إن غلب جانب المعـروف، وأما إن غلب جانب المنكر نهي عنه وإن استلزم فـوات ما دونه من

---

(١) التوبة: ٧١. (٢) آل عمران: ١١٠.

المعروف، والمهم النظر إلى المصلحة فتارة يصلح الأمر بالمعروف، وأخرى يصلح النهي عن المنكر، وثالثة لا يصلح أمر ولا نهي حيث كان المنكر والمعروف متلازمين، والواجب ألا يتضمن الأمر بالمعروف فوات أكثر منه أو حصول منكر فوقه وألا يتضمن النهي عن المنكر حصول ما هو أشد منه نكرا، أو فوات معروف أرجح منه، والمصالح هنا تقدر بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها إن اشتبه عليه الأمر فعليه أن يتريث حتى يتبين له الحق، وينبغي على الداعية أن يكون عارفا بمراتب الأعمال، وما اشتملت عليه من المصالح أو المفاسد، بحيث يقدم الأهم منها فالمهم عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يقدم أهمها عند المزاحمة، وعلى كل داعية أن يفقه هذه الأمور حتى يكون دوره مؤثرا فيمن حوله، وتكون نتائج عمله بارزة في المجتمع.

وثاني هذه المعايير:

٢ ـ الحكم بالأظهر واتباع النسبية:

يقول ابن القيم[(١)]: «وهديه ﷺ تولية الأنفع للمسلمين، وإن كان غيره أفضل منه، والحكم بما يظهر الحق ويوضحه إذ لم يكن هناك أقوى منه يعارضه، فسيرته تولية الأنفع والحكم بالأظهر»، فعلى من ولي أمرا من أمور المسلمين أن يأخذ بالحكم بما يظهر له أن فيه مصلحة للمسلمين، فعلى ولي أمر المسلمين أن يولي على كل عمل أصلح من يجده لذلك العمل، وفي الحديث: «**من ولي من أمر المسلمين شيئا، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح له منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين**»[(٢)] ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنهم : «من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين» ويجب على ولي أمر المسلمين أن يستعمل الأصلح فالأصلح، فإذا لم يتيسر ذلك فعليه اختيار الأمثل فالأمثل في كل منصب بحسبه، وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام، وإعطائه الولاية حقها فقد أدى الأمانة وقام بالواجب، وصار في هذا الموضع من أئمة العدل والمقسطين عند الله.

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٠٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١١٤)، (٦/ ١١٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١١٨)، عن ابن عباس، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢١١، ٢١٢): «رواه الطبراني وفيه أبو محمد الجزري حمزة ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح».

ركنا الولاية: وللولاية ركنان رئيسان هما القوة والأمانة، والقوة في كل ولاية بحسبها، فهي في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب والخبر، والأمانة ترجع إلى خشية الله والمحافظة على ما أؤتمن عليه ونادرا ما تجتمع في رجل واحد القوة والأمانة، ولذا قال عمر بن الخطاب: «اللهم أشكو إليك جلد الفاجر، وعجز الثقة» فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما ضررا، فإن كانت الحاجة إلى فضل الشجاعة أدعى لانتشار الثغور وظهور البغاة كان الأشجع أحق بالولاية، وإن كانت الحاجة إلى فضل العلم لظهور البدع كان الأعلم أحق، ولهذا كان النبي ﷺ يستعمل خالد بن الوليد على الحرب، مع أنه أحيانا كان يفعل ما ينكره النبي حتى إنه رفع يديه ذات مرة وقال «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**»[1] ولم يولّ رسول الله ﷺ أبا ذر مع أنه قال له: «**ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء من ذى لهجة من أبي ذر**»[2] وأمر الرسول ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل على من هم أفضل منه، فإن كانت الحاجة إلى حفظ الأموال واستخراجها وحفظها كان الأمين أولى بالتقديم، وفي ولاية القضاء يقدم الأورع فيما يظهر حكمه ويخاف فيه الهوى، ويقدم الأعلم فيما يدق حكمه، ويخاف فيه الاشتباه، ويقدم الأكفأ إن كان القضاء يحتاج إلى قوة وإعانة للقاضي أكثر من حاجته إلى مزيد العلم والورع.

وخلاصة هذا الأمر إنما تنحصر في تولية الأصلح والأنفع للمسلمين، وذلك يعرف بحسب مقصود الولاية، فإذا عرفت المقاصد والوسائل تم الأمر، ومن هديه كذلك تولية الأنفع للمسلمين وإن كان غيره أفضل منه، والحكم بما يظهر الحق ويوضحه إذا لم يكن هناك أقوى منه يعارضه، فسيرته ﷺ: تولية الأنفع والحكم بالأظهر.

٣ ـ اعتبار ما لم يكن عليه رسول الله :

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ**﴾ [3] أي

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٠٢) وحسنه، وابن ماجه (١٥٦)، وأحمد (٢/ ١٧٥)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وصححه الألباني.

(٣) محمد: ٣٣.

بمخالفتكم لسنته، وارتكابكم المعاصي، وقال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[١] وفي حديث الثلاثة الذين ذهبوا إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته أن رسول الله ﷺ قال لهم: «**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[٢] وأصحاب رسول الله ﷺ كانوا أشد الناس تمسكا بكتاب الله وأكثرهم حرصا على سنته، وهذا أبو بكر يقول بعد توليه الخلافة: «إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوموني» ويقول ابن مسعود: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم» وقال ابن عباس لسائل عن الوصية: «عليك بتقوى الله والاستقامة، واتبع ولا تبتدع» وقال ابن عمر: «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة» وقال أبو حنيفة: «عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة» وقال الإمام مالك: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمدا خان الرسالة لأن الله يقول: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾[٣]، فما لم يكن حينئذ دينا لا يكون اليوم دينا» يقصد في الأمور التعبدية المنصوص عليها.

وكما أن حديث: «**إنما الأعمال بالنيات**»[٤] ميزان للأعمال في باطنها، فكذلك حديث: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**»[٥] ميزان للأعمال في ظاهرها، فمن أحدث من الدين ما لم يأذن به الله - تعالى - ورسوله، فليس من الدين في شيء وليس لصاحبه أجر، بل قد يكون عليه وزر، ومعنى ذلك أن أعمال العاملين ينبغي الحكم عليها بميزان الشريعة، فمن كان عمله جاريا تحت أحكام الشريعة موافقا لها فهو مقبول، ومن كان خارجا عن ذلك فهو مردود، يقول الإمام ابن رجب: الأعمال قسمان: عبادات ومعاملات، فأما العبادات فما كان منها خارجا عن حكم الله ورسوله بالكلية فهو مردود على عامله، يدخل تحت قوله تعالى: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ**﴾ [٦]، فمن تقرب بعمل لم يجعله الله ورسوله

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) عن أنس بن مالك رضي الله عنهم .

(٣) المائدة: ٣.

(٤) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٥) سبق تخريجه. (٦) الشورى: ٢١.

قربة إلى الله فعمله باطل مردود عليه، وهو شبيه بحال الذين كانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية، وهذا كمن تقرب إلى الله بسماع الملاهي أو الرقص وما أشبه ذلك من المحدثات، ومن زاد في العمل المشروع ما ليس بمشروع فزيادته مردودة عليه، وقد تبطل العمل كله كمن زاد ركعة عمدا في صلاته، وتارة لا ترده من أصله كمن توضأ أربعا أربعا. . أما المعاملات فما كان منها تغيرا للأوضاع الشرعية كجعل حد الزنا عقوبة مالية وما أشبه ذلك فإنه مردود من أصله، يدل على ذلك أن النبي ﷺ قال للذي سأله: إن ابني كان عسيفا على هذا فزنى بامرأته، وإني أخبرت أن على ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني إنما على ابني جلد مائة وتغريب عام وإن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم رد، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام**»[1] وما كان من الأعمال منهيا عنه في الشرع، فهل هو مردود أو لا؟ في بعض الصور أنه مردود، وفي بعضها الآخر أنه لا يبطل العمل بالكلية.

وأما البدع والإحداث في المصالح والمنافع الدنيوية المعاشية فلا حرج فيها ما دامت نافعة غير ضارة ولا جارة لشر يعود على الناس، ولا تؤدي إلى ارتكاب محرم، أو هدم أصل من أصول الدين فالله ـ سبحانه ـ يبيح لعباده أن يخترعوا لشئون دنياهم ومعاشهم ما شاءوا، قال تعالى: ﴿**وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[2]وقال: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾[3].

٤ . الابتعاد عن الشبهات:

قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾[4]، وقال ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ**﴾[5]، وقال ﷺ: «**تركتم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك**»[6] فكل أمور الدين مبينة واضحة لكن بعضها أظهر من بعض، فهناك أمور اشتهرت وعلمت من الدين بالضرورة وهذه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٥)، ومسلم (١٦٩٧) عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما .

(٢) الحج: ٧٧ . (٣) المائدة: ٢ .

(٤) النحل: ٤٤ . (٥) التوبة: ١١٥ .

(٦) أخرجه أحمد (١٢٦/٤)، وابن ماجه (٤٣) عن العرباض بن سارية، وصححه الألباني.

لا خلاف فيها بين جميع المسلمين، ولا يعذر أحد بجهلها، وهناك أمور لا يعلمها إلا حملة الشريعة من العلماء، وهناك أمور أخرى يختلف فيها العلماء أنفسهم، وفي الحديث عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «**الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[1] .

يقول الإمام ابن رجب الحنبلي: «الحلال المحض بين لا اشتباه فيه، وكذلك الحرام المحض، ولكن بين الأمرين أمور تشتبه على كثير من الناس، هل هي من الحلال أم من الحرام، وأما الراسخون في العلم فلا يشتبه عليهم ذلك ويعلمون من أي القسمين هي، وقد أكد هذا المعنى نفسه الإمام الخطابي في قوله: إن الله ـ سبحانه ـ لم يترك شيئا يجب له فيه حكم إلا وقد جعل فيه له بيانا، ونصب عليه دليلا، ولكن البيان ضربان: بيان جلي يعرفه عامة الناس، وخفي لا يعرفه إلا الخاص من العلماء، قال: والدليل على صحة ما قلنا قوله ﷺ: «**لا يعلمها كثير**» وقد عقل بيان فحواه أن بعض الناس يعرفونها، وإن كانوا قليلي العدد، وإذ صار معلوما عند بعضهم فليس بمشتبه في نفسه.

والناس أمام هذه المشتبهات قسمان ـ كما يقول ابن رجب: «أحدهما من يتقي الشبهات لاشتباهها عليه، فهذا قد استبرأ لدينه وعرضه أي طلب البراءة لدينه وعرضه من النقص والشين. والثاني: من يقع في الشبهات مع كونها مشتبهة، فهم قسمان أيضا: من أتى شيئا مما يظنه الناس شبهة لعلمه أنه حلال في نفس الأمر فلا حرج عليه من الله في ذلك، فإذا خشي من طعن الناس عليه بذلك كان تركها حينئذ استبراء لعرضه فيكون حسنا، ومن أتى شيئا من الشبهات لاعتقاده أنه حلال بناء على اجتهاد مقبول أو تقليد مقبول، وكان مخطئا في اعتقاده فلا حرج عليه عند الله كذلك، ومن أتى شيئا من ذلك متبعا هواه فقد وقع في الحرام، ومثل هذه الأقسام الراعي يرعى

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

حـول الحـمى يوشك أن يرتع فـيـه، ألا وإن لكل ملك حـمى، ألا وإن حـمى الله محارمـه» وهو مثل ضربه النبي ﷺ لمن وقع في الشبهـات، وأنه يقرب وقوعه في الحرام المحض، وينبغي التباعد عن المحرمات وأن يجعل الإنسان بينه وبينها حاجزا.

ويستدل بهذا الحديث من يذهب إلى سد الذرائع إلى المحرمات وتحريم الوسائل المؤدية إليها، وصلاح حركات العبد بجوارحـه واجتنابه للمحرمات، واتقائه للشبهات بحسب صلاح حركة قلبه، فإن كان قلبه سليما ليس فيه إلا محبة الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صـلحت حركات الجوارح كلها، واتقى الإنسان المحـرمات،وابتعد عن الشبهـات حذرا من الوقوع فيما هو مـحرم، وإن كان القلب فاسدا قد اسـتولى عليه اتباع هواه وطلب ما يحبه هو ولو كرهه الله فسـدت حركات الجوارح كلها، وانبعثت إلى كل المعاصي والشبـهات، ولهذا قيل: القلب ملك الأعضـاء تأتمر بأمره، وتنزجر بزجره، فإن كـان الملك صالحا صلحت جنوده، وإن كان فاسـدا فسدت جنوده، ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ . إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[1].

٥ـ التبصر والتثبت قبل إنكار المنكر:

قضية إنكار المنكر قـضية لا يزال اللجاج فيهـا قائماً، ولا تزال بعض الاتجاهات الإسلاميـة تروح وتغدو على غير بينة فـيها، وكم سالت دمـوع وكم ضاعت حرم، وهتكت أستار، وضُيع صـبية، وقوضت أركان دعوة قائمـة من جراء تسرع أو تعجل في دفع منكور فعاد من دفعه ما هو أشد منه .

والشواهد مـتوافرة ومتكاثرة على ذلك، وكـثير من شبـاب الصحوة الإسلامـية ينزلق بحميـته ويتبع عاطفتـه فتستثار ويغـيب عنه العقل فيقدم على إنكار فـاحشة أو إبداء اعتراض على باطل فيتولد من تعجله ما هو أشد نكراً وأعظم فاحشة.

ولست أصادر على المطلـوب، أو أزعم أن القضيـة من المحكمات المطلقة البـيان بحسب المنهج الرياضي الذي لا يجـاوز الصواب،وإنما أقول إن قضيـة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من القضايا التي فـيها ثوابت لا ينبغي أن نحيد عنهـا من مثل عقد النية الصحيحة لله وذلك عمـود الإخلاص... . وأن يكون الفعل المؤتى منكراً مجمعاً

(١) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

على نكارته وأن يكون صاحبه مجاهراً به يستحق التغيير وكلها دليل على الشريعة وسماحتها إلى غير ذلك من الأمور الثوابت.

وهناك أيضاً أمور نسبية تقدر بحسب الحال والوضع، وهذه جولة سريعة نطوف فيها على مأساة التثبت والتبصر قبل إنكار المنكر.

إذ هذه قضية جليلة على درجة كبيرة من الخطورة لا ينبغي لعالم ولا لجاهل أن يقدم عليهما متهجماً دون تثبت وتبصر، وإلا فإن المآل وخيم والعاقبة تعم الخاص والعام، ومن غير السهل رأب الصدع وجبر الكسر، وطالما أظلمت السماء على الأمة بسبب ذلك .

وحسبنا أن نقتبس هنا لمحات من سيرة رسول الله ﷺ في التعامل مع هذه القضية :

❖ استأذن الصحابة الرسول ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها وقالوا: «أفلا نقاتلهم»، فقال: «**لا، ما أقاموا الصلاة**»[١].

❖ وقال ﷺ: «**من رأى من أمير ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يداً من طاعته**»[٢].

❖ ولله در ابن القيم في تعليقه على هذه الأحاديث وغيرها حيث قال: «ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل، وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته، فتولد منه ما هو أكبر منه»[٣].

ولذلك فقد صبر النبي ﷺ على كبائر المنكرات في مكة قبل هجرته، ولم يستطع تغييرها فكف عنها، بل لما فتح مكة وصارت دار إسلام تكفكف عن تغيير البيت ورده إلى قواعد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومنعه من ذلك مع قدرته عليه، ووفرة المكنة والعتاد وعصمة الوحي خشية وقوع ما هو أعظم منه نكراً، ومن احتمال عدم صبر قريش وكانوا حينئذ قريبي عهد بالإسلام، عتيقي عهد بكفر، ولا تزال حساكاته وفوراته قريبة الجيشان، سريعة الفوران فوعى النبي ﷺ ذلك الأصل، وكان دائماً له

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٤) عن أم سلمة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٥) عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه .

(٣) إعلام الموقعين: ٢/ ٤ .

في ترك ذلك المنكر اتقاءً لأنكر منه .

ومن ذلك أيضاً أن النبي ﷺ كان يخص عدم قطع الأيدي في الغـزو فيما رواه أبو داود في سننه[١] خشية أن يترتب على ذلك ما هو أبغض إلى الله من تعطيله أو تأخيره؛ إذ إقامة الحد على هذه الحال مظنة لأن يكشف جيش المسلمين وينفض الغزو بظفر جيش الكافرين، حيث يخشى من لحوق صاحب الحد بالمشركين حمية وغضباً، ثم ذكر ابن القيم أن علماء الإسلام كأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهويه ذهبوا إلى أن الحدود لا تقام في أرض العدو[٢].

روى سعيد بن منصور في سننه بإسناده عن الأحوص عن حكيم عن أبيه أن عمر كتب إلى الناس: «لا يجلدن أمـير جيش ولا رجل من المسلمين حداً وهـو غاز حتى يقطع الدرب قافلاً لئلا تلحقه حمية الشيطان فيلحق بالكفار»[٣].

وعن علقمة أنهم كانوا في جيش بأرض الروم ومعـهم حذيفة بن اليمان صاحب رسول الله ﷺ وعليهم الوليد بن عقبة أميراً، فشرب الخمر فأرادوا أن يحدوه، فقال حذيفة: «أتحدون أميركم، وقد دنوتم من عدوكم فيطمعوا فيكم؟!»[٤].

ومن ذلك أيضاً مـا كان من سعـد بن أبي وقاص مع أبي مـحجن الثقـفي وقد شرب الخـمر، فقيـده سعدٌ وحـبسه، وكـانت الحرب ضد الفرس قـائمة في معـركة القادسية فتاق أبو محجن إلى الجهاد، وكتب قائلاً :

كَفَى حَزَناً أَنْ تُطْرَدَ الْخَيْلُ بِالْقَنَا ... وَأُتْـرَكَ مَشْـدُودًا عَلَيَّ وثـَـاقِيا

فرأته ابنة سعد بن أبي وقاص فعاهدها على أن يجاهد في سبيل الله ويرجع إلى قيده وحبسه بعد انتهاء الجهاد، فأطلقته وأخذ فرساً لسعد كانت تدعى البلقاء، وجعل يحمل على الفرس في نواح متعددة فيـهزمهم، حتى ظن الناس أنه ملك من شدة ما رأوا من شجاعته واختراقه لصفوف العدو، وجعل سعد يقول : «الصبر صبر البلقاء،

---

(١) أخرجـه أبو داود (٤٤٠٨)، والترمـذي (١٤٥) عن بسر بن أرطأة رضي الله عنه، وقـال الترمـذي: «غريب» وصححه الألباني.

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ٦٠٥).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٥٠٠).

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٣٢٤).

والظفر ظفر أبي محجن»، فلما أخبـرت بنت سعد أباها الخبر قال: «والله لا أضرب اليوم رجلاً أبلى المسلمين ما أبلاهم فخلى سبيله» .

فقال أبومحجن عن الخمر «قد كنت أشربها إذ يقام عليّ الحد وأطمر منها فأما إذا بهرجقني ـ أي أسقطت عني الحد ـ فوالله لا أشربها أبداً»[١].

قال ابن القيم معلقاً على الحادثة: «وليس في هذا مـا يخالف نصاً ولا قياساً ولا قاعدة من قواعد الشرع ولا إجماعاً، بل لو ادعى أنه إجماع الصحابة لكان أصوب».

ثم قال: «وأكثر ما فيه تأخير الحد لمصلحة راجحة»، إما من حاجة المسلمين إليه، أو من خوف ارتداده ولحوقه بالكفار»[٢].

وتأخير الحد لعارض أمر وردت به الشريعة، كما يؤخر عن الحامل والمرضع، وعن وقت الحر والبرد والمرض فهذا تأخير لمصلحة المحدود، فتأخيره لمصلحة الإسلام أولى.

وإذا كان الله لا يعذب تائباً فـهكذا الحدود لا تقام على تائب وقد نص الله على سقوط الحـد عن المحاربين بالتوبة التي وقـعت قبل القدرة عليهم مع عظيـم جرمهم، وذلك تنبيها على سقوط ما دون الحرابة بالتوبة الصحيحة بطريق الأولى[٣].

ومن مظاهر يسر الشريعة أيضـاً، ما ذكره الفقهاء من قاعـدة عظيمة الشأن تنبني عليها سمـاحة الإسلام قوامها (أحكام الدنيـا تبنى على الإسلام وأحكام الآخرة تبنى على الإيمان) .

ومعنى هذه القاعدة أن الإسلام هـو دين النزاهة والحرية إذ لم يأمر بالتنقيب عن القلوب، ولا شق بطون الناس لنتـعرف مخـابئهم وما يضـمرون في نفـوسهم... بل يجرى عليـهم أحكام الله في الدنيـا إذا دخلوا في دينه، ويجري أحكامـه في الآخرة على قلوبهم ونياتهم.

ولهذا قبل النبي ﷺ إسلام الأعراب ... وقبل إسلام المنافقين ظاهراً وأخبر أنه لا ينفعهم يوم القيامة شيئاً، وأنهم في الدرك الأسفل من النار[٤] .

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور فى سننه (٢٥٠٢).

(٢) السابق: (٣/ ٧٠٦). (٣) السابق: (٣/ ٨٠٧).

(٤) إعلام الموقعين : (٣/ ١٢٦، ١٢٧).

وقال لأسامة بن زيد لما قتل من ألقى عليه السلام متأولاً: أنه إنما فعل ذلك خوف السيف، قال له: «**هلا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا؟ من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة**»(١).

إذن أحكام الرب ـ سبحانه وتعالى ـ قائمة على ما يظهر للعباد ما لم يقم دليل على أن ما أظهروه خلاف ما أبطنوه .

ولذلك فإن الله ـ سبحانه ـ لم يجر أحكام الدنيا على علمه في عباده، وإنما أجراها على الأسباب التي نصبها أدلة عليها، وإن علم ـ سبحانه وتعالى ـ أنهم مبطلون فيها مظهرون لخلاف ما يبطنون، وهذا ما جرى عليه رسول الله ﷺ حتى مع اطلاع الله له على بواطن بعض المنافقين في عصره ممن خالف قولهم اعتقادهم، وقد أصّل النبي لهذا المبدأ بقوله ﷺ: «**إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا، فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار**»(٢).

ومن سماحة الدين أن المفتي إذا منع المستفتي من محظور ندب له أن يوجه المستفتي إلى بديل حلال .

وقد علق ابن القيم على هذا الأصل بقوله: «من فقه المفتي ونصحه أن إذا سأله المستفتي عن شيء فمنعه منه وكانت حاجته تدعوه إليه أن يدله على ما هو عوض منه، فيسد عليه باب المحظور ويفتح له باب المباح وهذا لا يتأتى إلا من عالم ناصح مشفق قد تاجر مع الله وعامله بعلمه، فمثال العالم مثال الطبيب الناصح في الأطباء يحمي العليل عما يضره، ويصف له ما ينفعه، فهذا شأن أطباء الأديان والأبدان»(٣).

وقد صنع هذا نبي الهدى محمد ﷺ حيثما :

١ـ منع بلالاً من أن يشتري صاعاً من التمر الجيد بصاعين من التمر الرديء ثم دله على طريق الحلال فقال: «بع الجميع بالدراهم ثم اشتر بالدراهم جنيباً» فمنعه من الطريق المحرم وأرشده إلى الطريق المباح.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٤٣)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣) عن أم سلمة رضي الله عنها .
(٣) إعلام الموقعين: ٣/ ١٣١ .

٢ـ ولما سأله عبدالمطلب بن ربيعة بن الحارث والفضل بن عباس أن يستعملهما في جباية الزكاة ليصيبا ما يتزوجان به منعهما من الطريق المحرم وفتح لهما الطريق المباح، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يسأله عبده الحاجة فيمنعه إياها، ويعطيه ما أصلح له وأنفع منها وهذا غاية الكرم والحكمة[١].

وهكذا هي شريعة الإسلام ليست رسوماً مسطورة، ولا نقوشاً مبهرجة ولا قوالب، يتحتم الركض خلفها، وحملها دون وعي بها كما قال تعالى: ﴿**كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**. . .﴾[٢]، وصدق القائل عن بعض الجامدين الذين لا يعون ما يحملون.

نخلص من تلك الشواهد الماضية إلى توكيد أن شريعة الإسلام هي شريعة المقاصد والمعاني، وليست شريعة الطلاسم والحروف والجمود، ولذلك فقد سمي العالم بها فقيهاً، وتلك لعمري هي الخصيصة الغراء بل والفريدة العصماء التي يطنطن بها أدعياء القوانين الوضعية وفقهاء النصوص البشرية الوضعية، والذين لا يألون أصحابها جهداً في تغييرها، والسعي لسد ثغورها... .

حيث يعتريها التغيير ويعتريها النقص في كل وقت، لأنها نتاج فكر بشري محدود ومقيد بحدود الزمان، وحدود المكان وحدود المعرفة ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[٣].

وهيهات لشريعة بشرية بلغت ما بلغت من الرقي والتنقيح والمراجعة أن تستمر حقباً وأن تسد خلالاً وإن بدا ذلك من ظاهرها؛ إذ شتان بين الوحي الإلهي الرباني المعصوم وبين فكر عارض هو نتاج مفرزات بيئية معينة فيها ما هو متغاير متعارض، متناقض وإنما شريعة الله خالدة باقية نامية حية متقدة وإن تقصدها الآثمون، ولغى فيها العابثون، وسبها العلمانيون ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[٤].

وهكذا هي شريعة الإسلام، شريعة الهدى وقنديل الدجى في ليل العولمة المدلهم، وهي شمس السعادة والرفاه للبشر في ألفيتهم الثالثة الثرية في عالم المادة، والقاحلة في عالم الروح .

---

(١) إعلام الموقعين: ٤/ ١٥٩، ١٦٠.
(٢) الجمعة: ٥.
(٣) الإسراء: ٨٥.
(٤) الصف: ٨.

المبحث الخامس
وقفات جادة... في مسيرة الدعوة
الدعاة بين صهوة الجياد وترف النساء

يروي لنا التاريخ أن رجالاً خرجوا من الكوفة، ونزلوا قريباً يتعبدون، فبلغ ذلك الصحابي عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم ، فأتاهم، ففرحوا بمجيئه إليهم، فقال لهم: ما حملكم على ما صنعتم؟ قالوا: أحببنا أن نخرج من غمار الناس نتعبد، فقال عبد الله: لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم فمن كان يقاتل العدو؟ وما أنا ببارح حتى ترجعوا، وقد أثرت هذه القصة في العالم المجاهد عبدالله بن المبارك الذي أورد هذه القصة في كتابه (الزهد) فكان رحمه الله يحج سنة ويجاهد سنة، وفي بعض الروايات كان يغزو كل سنة بلاد الروم، ويتخذ من طرطوس مقراً لرباطه في سبيل الله (تقع طرطوس في جنوب تركيا الآن)، ولم يمنعه علمه وروايته للحديث وطلب العلم من القيام بالجهاد، بل إن ابن خلكان يصف هذا الإمام الجليل فيقول :«هو الحافظ شيخ الإسلام المجاهد، التاجر، صاحب التصانيف والرحلات، وقد جمع الحديث والفقه والعربية والشجاعة والسخاء، وله كتاب في الجهاد وهو أول من صنف فيه» ولأن عبدالله بن المبارك يدرك قيمة الجهاد وأثره وهو الذي اتخذ رباطاً في كل عام، يرى أن العالم يجب ألا تشغله عبادته وتنسكه عن الجهاد في سبيل الله، ولذلك نراه ينكر على رفيقه الزاهد العابد الثقة الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ اعتزاله ومجاورته في مكة وتركه الجهاد وأرسل له رسالة هي من عيون الشعر يقول فيها :

يَا عَابِدَ ٱلْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا ... لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي ٱلْعِبَادَةِ تَلْعَبُ

مَنْ كَانَ يَخْضِبُ جِيدَهُ بِدُمُوعِهِ ... فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ

أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ ... فَخُيُولُنَا يَوْمَ ٱلْكَرِيهَةِ تَتْعَبُ

رِيحُ ٱلْعَبِيرِ لَكُمْ، وَنَحْنُ عَبِيرُنَا ... رَهَجُ السَّنَابِلِ وَٱلْغُبَارُ ٱلأَطْيَبُ

وَلَقَدْ أَتَانَا عَنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا ... قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لاَ يَكْذِبُ

لاَ يَسْتَوِي غُبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي ... أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانِ نَارٍ تَلْهَبُ

هذَا كِـتَـابُ الـلَّهِ يَـنْطِـقُ بَيْـنَـنَـا لَيْسَ الشَّهِـيـدُ بَمَيِّتٍ لاَ يَكْذِبُ

وقد وجه ابن المبارك هذه الرسالة إلى الفضيل بن عياض الذي كان يلقب بعابد الحرمين، فماذا نقول اليوم لمن انصرف عن الجهاد والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا إلى كثرة العبادة، بل إلى الراحة وترف النساء وجمع الأموال والحرص على إرضاء الزوجات والتبسط مع العيال وترك أمور المسلمين كالشياه الضائعة في الليلة الشاتية، على الرغم مما أتاه الله من سعة علم واتساع معرفة في الشريعة وأصولها.

إن من علماء المسلمين اليوم للأسف من قد أصبح بوقاً للتخذيل، وجسراً لتكبيل معاني الدعوة إلى هذا الدين والجهاد في سبيل تبليغه إلى الناس كافة، واتخذوا من العبادة وحلقات العلم على الرغم من جلالها وقدرها وسيلة لإماتة واجبات الدعوة والجهاد الحقة، وقد أصبح تخريج هذه الطائفة من العلماء للتخذيل وتقديم الأعذار محفوظة ومعلومة، فهم يدعون تارة أن اللعبة السياسية تتطلب حفظ الموازنات، وأن التعقل مطلوب، والرفق والحنو واللين أمر مرغوب، وأن دفع المفاسد أولى من جلب المصالح، وهي بلا شك كلها معاني صحيحة لا نختلف عليها، ولكنها للأسف استعملت في المواقع الخاطئة والظروف الخاطئة، فجعلوا منها أعذاراً وستاراً يسترون بها تقصيرهم في واجب الدعوة والجهاد في سبيل الله.

المنهج الصحيح:

لقد أصبحت «المصالح الشرعية» كقميص عثمان هذا الزمان، يستخدمه كل من يشاء ليفلت من واجب الدعوة والجهاد في سبيل الله، وكأن المصالح الشرعية لا أصول ولا ضوابط لها، فترى الفريق الذي يعتدي على الأبرياء ويقتل الأطفال والشيوخ يضع اجتهاده على شماعة (المصالح الشرعية) وترى الفريق المقابل يستخدم نفس الشماعة ليجلس آمناً في سربه بعد أن تملص من واجب الدعوة والجهاد، وكأنه يود أن يكون بادياً في الأعراب يسأل عن أخبار المسلمين.

إن الهجمة على الإسلام وأمته، والعقيدة الإسلامية أصبحت واضحة لا تحتاج إلى طول نظر لكي يدرك حتى بادي الرأي أن الإسلام وقيمه هي التي باتت مستهدفة،

وأن زلات الألسن تكشف ما في صدور أعداء هذه الأمة، وأن شعارات القيم الإنسانية، وحقوق الإنسان سقطت أمام الممارسات اليومية التي تنقلها وسائل الإعلام بدءاً من كابول وانتهاء بكوبا، حيث المعاملة اللاإنسانية التي يتم التعامل بها مع أسرى المعارك.

كما يمكن تفسير هذا الهجوم على المدارس والمعاهد الدينية والعمل الخيري والرموز الإسلامية والتضييق عليهم، وتوزيع الاتهامات بالجملة على المؤسسة الإسلامية ضمن سياق النظرة العامة بالشك لكل من يرفع هوية لا ترضى عنها مؤسسات العولمة التي تريد القضاء مبكراً على كل معاقل المقاومة الفكرية في هذه الأمة، وفي الوقت الذي تتعرض فيه حلقات القرآن الكريم لتشكيلة واسعة من تهم الإرهاب، نجد الدعوات تنطلق عالياً للدفاع عن الشواذ التي يتعرضون للمحاكمة في مصر العزيزة!!

وها هي الهجمات تتوالى لا تفرق بين مختلف الدعوات الإسلامية، فتارة ما يلعبون بالورقة الطائفية للهجوم على مصر، وتارة يلعبون بالورقة الإنسانية للهجوم على الشقيقة الكبرى السعودية.

إن علماء الإسلام مطالبون اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، لأخذ الكتاب بقوة، والثبات على المنهج الصحيح والدفاع عن قيم الأمة وهويتها، بلا مداهنة زائفة، ولا مجاملات كاذبة، وليبتعدوا عن فقه (المعاذير) فالتخاذل لا يصنع تاريخاً، واستنساخ الإسلام كما يريد الأعداء لا يعفي علماء الإسلام من المساءلة أمام الله ـ سبحانه وتعالى ـ في يوم الحشر العظيم.

وليثق العلماء أنه لا يقع إلا ما يريده الله، فالآجال مكتوبة، والأرزاق محدودة، والنصر لهذا الدين في مرتبة اليقين، فبأي حديث بعد هذا يتخاذلون عن واجب الدعوة والجهاد، وإرشاد الأمة، وتوضيح الحقائق وجعلها واضحة شفافة على هدًى من الكتاب الكريم وصحيح السنة .

هل يودون أن نذكر سادتنا العلماء بقول سيد البشر في الحديث المتفق عليه: **«والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده**

لوددت أني أقتل في سبيـل الله ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتـل ثم أحيا، ثم أقتل»[١] وقوله عليـه الصلاة والسلام: «**من سأل اللـه تعالى الشهـادة بصدق بلّغـه الله منازل الشـهـداء وإن مات على فـراشـه**»[٢]، وقوله ﷺ الصـريح في الحكم على من لم يجاهد أو يحدث نفـسه بالجهاد عندما قـال في الحديث الذي رواه مسلم: «**من مات ولم يغز ولـم يحدث به نفسـه مات على شـعبة مـن النفاق**»[٣] ، وكمـا نود أن نذكر علماءنا الأفاضل أن العين التي باتت تحرس في سبـيل الله مثلها مثل العين التي بكت من خشية الله لا تمسها النار.

فقه الجهاد :

إن الجهـاد في سبيل الله مـاض إلى يوم القيـامة، لا يضره تشـويه من أساء إلى قيـمته وقام به دون أن يفـهم ضوابطه وأصوله وأحكامـه، ولا من تخاذل عنه ولبس رداء العافيـة وانشغل مع امرأته بلون الستائر في المنزل ونوع الهـاتف النقال في الجيب وكمية الذهب والمال في البنوك!!

لقد أصبح من الواجب إعادة إحياء فقه (الجهاد) في النفوس، فأخطر ما يمكن أن يفعله العدو أن يصيبنا بالهـزيمة النفسية، فبعدها لا محالة الهـزيمة الميدانية قادمة، ولنا في سلفنا وعلمائنا السـابقين خير معين، فـقد فصلوا في هذه المسألة تفـصيلاً لم يبق لسائل سـؤال، ولا لكاتب مقال، ففي المغـني «لابن قدامة الحنبلي» قال : «والجـهاد فرض على الكفـاية إذا قام به قوم سـقط عن الباقين، ويتـعين في ثلاثة مواضع: إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان حرم على من حضر الانصراف ويتعين عليه المقام، وإذا نزل الكفار ببلدة تعين على أهله قتالهم ودفعهم، وإذا استنفر الإمام قوماً لزمهم النفير معه، وأقل ما يفعل مرة كل عام».

أما الإمـام أحمد بن حنـبل فقد قـال: «لا أعلم شيئـاً من العمل بعـد الفرائض أفضل من الجـهاد» كما أن الإمـام ابن حزم ذكر في (المحلى): «والجهـاد فرض على

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦)، ومسلم (١٨٧٦) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٩)، وأبو داود (١٥٢٠) والترمذي (١٦٥٣)، والنسائي (٣١٦٢)، وابن ماجه (٢٧٩٧)، عن سهل بن حنيف رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم (١٩١٠)، وأبو داود (٢٥٠٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

المسلمين فإذا قام به مـن يدفع العدو ويغزوهم في عقر دارهم ويحـمي ثغور المسلمين سقط فـرضه عن الباقين، وإلا فلا، بل إن اللـه ـ سبحانه وتعـالى ـ يرفع الحرج عن المسلمين وهم يجاهدون في سـبيله، فعندما قطع المسلمون بعـض(نخل) بني النضير، بعد أن حـاصروهم في حصنهم، أشاع اليـهود أن المسلمين يقطعون الزرع، فـتحرج المسلمون حيث كانوا منهيين قبل هذا الحـادث وبعده عن مثل هذا الاتجاه في التخريب والتحريق، فاحـتاج هذا الاستثناء إلى بيان خاص يطمئن القلوب فـجاءهم هذا البيان الذي يربط الفعل والتـرك بإذن الله قال تعالى: ﴿**مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ**﴾[1] فأمر الجهاد قـائم ومن يرغب في النصرة بالجهاد بالنفس وهو في بلد بعيد، فلابد أن يعلم أولاً أن الجهاد بالنفس ليس مطلوباً منه؛ لأن الجهاد بالنسبة له فرض كفاية وليس فـرض عين، فالمجاهدون ليسوا بحاجة إليه، وإذا دعت حاجتـهم إلى الرجال، فيلزم أقرب البلاد إليهم وهم أهل الـبلاد المجاورة، فإن انضموا للجهاد واحتاجوا إلى مدد من الرجال فيلزم من يلي بلادهم وهكذا، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾[2].

ويقول الإمام ابن تيـمية: «إذا دخل العدو بلاد الإسلام فـلا ريب أنه يجب دفعه على الأقـرب فالأقرب» ويقـول الإمام ابن عـابدين: «إن هجم العـدو بلاد الإسلام فلاريب أنه يجب دفـعه على الأقرب من قرب مـنه، فأما من وراءهم يبعـد عن العد فهو فرض كفاية، إذا لم يحتج إليهم، فإن عجز من كان بقرب عن مقاومة العدو، أو لم يعجزوا عنها ولكنهم تكاسلوا ولم يجاهدوا فإنه يتعين على من يليهم، لكونه صار فرض عين كـالصلاة والصـوم لا يسعهم تركـه، وهكذا إلى أن يتعـدى الوجوب إلى جميع أهل الإسـلام شرقاً و غرباً على هذا التدريج» وقد أفـتى بهذا الحكم الكاساني وابن نجيم وابن الهمام.

وإذا سقط الجـهاد بالنفس عن أهل البلاد البـعيدة، فإن نصـرتهم بالمال لا تسقط ماداموا قادرين على البذل، فالجهاد بالمال لا يتقيد ببعد البلاد وقربها وإنما بالقدرة على البذل، وهذا ما يسع المسلمين وغـيرهم من الميسورين في شتى البـلاد، والجهاد بالمال

(١) الحشر: ٥. (٢) التوبة: ١٢٣.

من أبلغ الجهاد وأعظمه إذا كانت الحاجة له، ولذا قدمه الله ـ تعالى ـ على بذل النفس في جميع المواضع فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[(١)]، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[(٢)]، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[(٤)]، ومن لا يتيسر له المال فيدعو لهم وهو من أعظم العبادات .

وإذا كان الجهاد بالنفس فرض كفاية على البعيد، فلا يخرج للجهاد إلا بإذن الوالدين لأن بر الوالدين مقدم على الجهاد حينئذ لما روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد فقال عليه الصلاة والسلام: «**أحي والداك؟**» قال: نعم . قال: «**ففيهما فجاهد**»[(٥)]: ولأن الأصل في الجهاد أنه فرض على الكفاية ينوب عنه غيره فيه، وبر الوالدين والعناية بهما فرض متعين.

صعوبة التغيير:

نعم إن التغيير صعب على النفس البشرية، والتحول من حال الترف إلى صهوات الجياد تتطلب مكابدة النفس، وتدريبها على خشونة العيش، وإعداد البيت المسلم للجهاد وحياة الجهاد، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «فإن من أدرك أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديباج، ويتحلون بالذهب في السلام والمراكب، ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات، فلا يمكن مخالفة سلفه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والزي والاختلاط بالناس؛ إذ العوائد حينئذ تمنعه وتفضح عليه ما ارتكبه» أما الأسرة التي تربي وليدها على التوسط في المعيشة، والبعد عن الترف والكسل، فهي

(١) الصف: ١٠-١٣.　(٢) الأنفال: ٧٢.
(٣) التوبة: ٢٠.　(٤) التوبة: ٨٨
(٥) أخرجه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

التي تنشئ جيلاً قـادراً على حماية الأمة وحـفظ فريضة الجهاد ولذلك كـان التابعون يعلمـون أبناءهم المعارك التي خـاضها رسـول الله ﷺ كمـا يعلمونهم الـسورة من القرآن.

ويروى عن إسماعيل بن محمـد بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم قال: كان أبي يعلمنا المغازي والسرايا، وكان يقول: «يا بني هذه شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها» لذا وجدنا كيف كان كتائب الجهاد تغـدو شرقاً وغرباً لنشر الدعوة الإسلامية، حتى غـدا البيت المسلم بيتـاً مجاهداً، ويروى في ذلك أن تقـدم المسلمون في أواسط آسيا فاتحين مبشرين بقيادة حبيب بن مسلم الفهري، الذي خرج ذات يوم للجهاد قائلاً لزوجته: إلى اللقاء، وهو يودعـها، فقالت: أين؟ قال: في خيمـة قائد جيش العدو، أو في الجنة ـ إن شـاء الله ـ ونشـبت المعركـة، وحـمى وطيسـهـا، ونصر الله جـيش المسلمين، وما إن وصل حبيب إلى خيمة قـائد جيش العدو حتى فوجئ بزوجته تقف في وسطها وبادرته: ألم تقل عند خروجك: إلى اللقاء في هذه الخيمة أو في الجنة؟.

فمـا بال نسائنا اليوم مـشغولات بالتنقل بالأسـواق والاهتمام بالغـيبة والنميـمة وبرامج الريجـيم ودورات الطبخ، والتنقل بالأولاد من مـطعم إلى آخر، وإذا كـانت نساء المسلمين في السابق على هذا القدر من الفهم لمسـتوياتهم فأين علماء الأمة اليوم من تحمل هذه التـبعـات والمسئوليـات في هذه الأوقات العصـيبة والفـتن التي تمر بها الأمة؟

أولا يذكـرون مقـولـة خالد بن الوليـد الرائعـة رضي الله عنهم: «ومـا من عمل أرجى عندي بعد لا إله إلا الله من ليلة شديدة الجليد، في سـرية من المهاجرين، بتّها وأنا متترس والسـماء تنهل عليّ، وأنا أنتظر الصبح حتى أغيـر على الكفار، فعليكم بالجهاد».

العلماء المجاهدون:

ولذلك ضرب علماء الأمة من السلف الصـالح أروع الأمثلة في الجمع بين العلم والعمل، والدعوة والجـهاد ومجالس العلم وسـاحات الوغى، ودروس العلم وبوارق السيوف فكان البـدر العيني شارح البخـاري الفقيه المحدث يغـزو سنة ويحدث العلم سنة، ويحج سنة، وكان القاضي أسد بن الفرات المالكي أميـراً للبحر في وقته، وكان

الإمام الشافعي يرمي عشرة أسهم ولا يخطئ، وكان نور الدين محمود زنكي يحضر مجالس العلم، ولم ير مبتسماً قط، وكان يقول: «إني لأستحي من الله أن يراني مبتسماً، والمسلمون يحاصرهم عباد الصليب»، وكان الإمام ابن تيمية يواجه التتار بعد أن أخذ دعاة الهزيمة والتردد ينشرون الفزع في القلوب، فطلب ابن تيمية من الجند والأمراء أن يفطروا وكان شهر رمضان، فاستمرت المعركة مع التتار طوال اليوم الرابع من رمضان حتى أذن الله بالنصر مع وقت العصر.

وهكذا استمر العلماء يقودون الجهاد في كل عصر ومصر لا يتوانون عن واجبهم، ولا يتعذرون بالتفرغ لنشر العلم ورعاية طلبة العلم، عن الدعوة للجهاد ونصرة الإسلام، حتى قال أحد الأمراء عندما وجد سبابة أحد العلماء في جيشه وهي مرفوعة تدعو بالنصر للمسلمين: إن هذه السبابة أحب إلي من مائة ألف مقاتل" ، وصدق الإمام البنا عندما قال : «إن الأمة التي تحسن صناعة الموت، وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة، يهب لها الله الحياة العزيزة في الدنيا والنعيم الخالد في الآخرة، وما الوهن الذي أذلنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت».. فلا نامت أعين الجبناء.

المبحث السادس
وقفات جادة... في مسيرة الدعوة
إصلاح ذات البين

على الصحوة الإسلامية سواء على مستوى القيادة أو الأفراد أن تعترف أنها اليوم بحاجة ماسة لوقفات جادة لمراجعة العمل الإسلامي والدعوي ومراجعة كشف حساب الخسائر والأرباح، ومقدار النجاحات التي حققتها الصحوة لصالح هذا الدين، ونقد الرؤى الاستراتيجية وآليات العمل والمصارحة مع الذات والمحبين، وخصوصاً بعد الأحداث المتلاحقة الذي افتتح بها هذا القرن، بحيث استجدت تحديات جديدة، واختلفت أولويات العمل وأساليبه وميادينه، وحتى بعض التصورات التي كانت من مسلمات العمل في القرن الماضي أصبحت بحاجة للمراجعة والتقويم، وإعادة إطلاقها بما يناسب طبيعة التحديات المفروضة في المرحلة القادمة، ولابد من التأكيد على أن إصلاح ذات البين أصبح من الضرورات القصوى للبيت الإسلامي بعد الأحداث الأخيرة، فلا يمكن النجاح في مواجهة التحديات القادمة دون إنجاز هذه المهمة، فمهمة الإصلاح مهمة عظيمة، ولها شروط وضوابط وطرق وآليات لحل الخلافات وتكييف واقع الخلاف، مع الحرص على الحصول على حلاوة ثمار الإصلاح قال تعالى: ﴿**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾[١] .

أولاً: فضل الإصلاح وعظم أمره:

❖ في السنن عنه ﷺ قال: «**ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**»[٢] .

---

(١) النساء: ١١٤ .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩١٩)، والترمذي (٢٥٠٩)، عن أبي الدرداء وقال: «صحيح».

❖ عن عبدالله بن عـمرو رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصدقة إصلاح ذات البين**»[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي أيوب: «**ألا أدلك على تجارة**»، قـال: بلى يا رسـول الله، قـال: «**صل بين الناس إذا تـفـاسـدوا، وقـرّب بينهم إذا تباعدوا**»[(٢)]. وفي لفظ: « **تصلح بين الناس إذا تباغضوا وتفاسدوا**»[(٣)].

ولعظم أمره: جاز الكذب فيه قال ﷺ: «**ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، فيـنمي خيـراً، أو يقول خـيراً**»[(٤)]. بل قال العـز بن عبـد السلام ـ رحمـه الله ـ في القواعد: يجب الكذب حفظاً للدماء والأمانات والأبضاع.

وكذلك: جاز أخذ الزكاة وسؤال الناس بسببه ولو كان غنياً.

قال شيخ الإسلام ابن تيـمية ـ رحمه الله[(٥)]: «فيجوز أن يتـحمل الرجل حمالة يؤديها لصـلاح ذات البين وله أن يأخذها بعد ذلك من زكـاة المسلمين، ويسأل الناس في إعانته على هذه الحالة وإن كان غنياً» ا.هـ

وقد ذكره بعض العلماء بأنه من أفضل أنواع الجهاد في سبيل الله ـ تعالى.

ثانياً: حكم إصلاح ذات البين:

الوجوب لقول الله تعالى: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾[(٦)]،

---

(١) أخرجه البـيهقي في شعب الإيمان (١١٠٩٢) عن عبد الله بن عـمرو رضي الله عنهما ، وعزاه الهـيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٨٠) للطبراني، والبزار عن عبد الله بن عـمرو، وقال: «وفيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وهو ضعيف»، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٢).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٨٥) وعزاه للبزار عـن أنس، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٧٩، ٨٠): «رواه البزار، وفيه عبد الرحمن بن عبد الله العمـري، وهو متروك» وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨١٨): «حسن لغيره».

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٥٧) (٧٩٩٩)، عن أبي أمامة، وأبو داود الطيالسي في مسنده (٥٩٨)، عن أبي أيوب، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٨٠): «رواه الطبراني وعبد الله بن حفص صاحب أبي أمامة لم أعرفه وبقية رجاله ثقات».

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥) عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنهما .

(٥) الفتاوى: ٣٥ / ٨١ .

(٦) انظر كتاب: حول تفسير سورة الحجرات لعبد الله سراج الدين: ص١٤٤، ١٤٥ .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [(١)]، قال المفسرون: جيء بإن الدالة على أنه لا ينبغي أن يقع بين المؤمنين قتال، ولكن إن حصل شيء من ذلك فلتبادر طائفة من المؤمنين إلى الإصلاح فوراً.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[(٢)] في هذا أنواع من التأكيد والحض على إصلاح ذات البين فأتى بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا﴾ للإعلام بأن الأخوة الدينية الإيمانية هي موجبة للإصلاح بين المؤمنين، وأتى بالاسم الظاهر موضع الضمير مضافاً للمأمورين، فقال سبحانه: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، ولم يقل فأصلحوا بينهم، وذلك لتقوية التأكيد الموجب للإصلاح والتحضيض على المبادرة للإصلاح بين الإخوة، وفيه وجوب الإصلاح بين الاثنين وما فوق ذلك بطريق الأولوية [(٣)].

وقد قال ابن تيمية ـ رحمه الله: «والواجب على كل مسلم قادر أن يسعى في الإصلاح بينهم ويأمرهم بما أمر الله به مهما أمكن»[(٤)] .

والنبي ﷺ يحب هذا العمل ويحث عليه ويبادر إليه عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني عمرو بن عوف كان بينهم شر فخرج رسول الله ﷺ يصلح بينهم في أناس معه[(٥)] .

وقال ﷺ: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**»، قيل: أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: «**تحجزه من الظلم، فإن ذلك نصره**»[(٦)].

شروطه وما ينبغي مراعاته:

١ ـ الإخلاص لوجه الله ـ تعالى. **٢** ـ العلم بالوقائع.

---

(١) جاء في كتاب الفتوحات الربانية: محمد عبد العزيز ص ٣١١ حول هذه الآية: (فيجب على أهل الصفاء بمقتضى الرحمة والرأفة والشفقة اللازمة).

(٢) الأخوة الحقيقية فى الإصلاح بين إخوانهم المؤمنين، وردهم إلى الصفاء (واتقوا الله).

(٣) في كل ما يقع منكم من الأفعال التي من جملتها وما أمرتم به من الإصلاح ولا تهملوا فيما يرشدكم إليه ربكم فتكدروا نور إيمانكم برضاكم بالمفسدة بين إخوانكم وترك الإصلاح. المرجع السابق: ٣٠٩ .

(٤) الفتاوى ٣٥ / ٨١ .

(٥) أخرجه البخاري (١٢١٨)، ومسلم (٤٢١) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه .

(٦) أخرجه البخاري (٦٩٥٢)، وأحمد (٣/٩٩)، عن أنس رضي الله عنه .

٣ ـ قصد العدل وتحريه. ٤ ـ بذل الجهد واستفراغ الوسع.

٥ ـ المواصلة وعدم اليأس.

٦ ـ المبادرة: فقد تستجد ظروف أو يتسع الخلاف مما يعسر معه حصول المقصود، والأيام فرص.

٧ ـ أن يضمن المصلح ويتحمل ما يكون سبباً في تمام الصلح، قال رسولا الصلح للحسن: فإن معاوية رضي الله عنهم يعرض عليك كذا وكذا ويطلب إليك ويسألك، قال رضي الله عنه: فمن لي بهذا، قال ابن حجر: أي من يضمن لي الوفاء من معاوية: قالا: نحن لك به، فما سألهما شيئاً إلا قالا: نحن لك به فصالحه» ا.هـ.

وهذا أمر مهم من أول خطوة في الموضوع.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى الإعلام: «فيكون المصلح عالماً بالوقائع، عازماً بالواجب، قاصداً للعدل، فدرجة هذا أفضل من درجة الصائم القائم ... وقد جاء في الأثر: أصلحوا بين الناس فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة»[1] ا.هـ

ثالثاً: حال المختلفين:

وأكثر الاختلاف الذي يؤول إلى الأهواء بين الأمة، وكذلك إلى سفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء، أن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق ولا تنصفها، بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل، والأخرى كذلك، ولذلك جعل الله مصدره البغي في قوله تعالى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**. .﴾[2].

طرق حل الاختلاف في الفتنة:

الإصلاح، أو الحكم، ثم القوة لمن لم يستجب للآية ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا**. .﴾[3] سواء كان المقتتلان ظالمين أو أحدهما ظالماً أو كانا غير ظالمين ولكن

---

(١) إعلام الموقعين: ١/١٠٧. (٢) البقرة: ٢١٣.

(٣) مجموعة الفتاوى ٣٥/ ٨٥ ـ ٨٦، ٢٨/ ٣٢٧ـ ٣٢٨.

لشبهة أو تأويل أو غلط وقع فيما بينهما، هذا هو الطريق الشرعي لإنهاء القضية بالحكمة واللين والشدة إن لزم الأمر «فإن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ما نحمد معه ذلك التخشين»[١] .

وينبغي تذكير الطرفين حال السعي بينهما بمسائل أهمها:

المسألة الأولى: وجوب الوحدة والاجتماع وفضلها وثمارها:

تذكيرهم بالنصوص الشرعية الآمرة بتطبيق هذا الأصل العظيم، قال ابن تيمية رحمه الله :«وهذا الأصل العظيم وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً وألا يتفرق هو من أعظم أصول الإسلام،ومما عظمت وصية الله ـ تعالى ـ به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم ومما عظمت به وصية النبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة»[٢] ا.هـ. وقال البغوي ـ رحمه الله: «بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين والألفة والجماعة وترك الفرقة والمخالفة»[٣] وقال ابن تيمية أيضاً : «من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب واجتماع الكلمة وإصلاح ذات البين فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ**﴾[٤]، ويقول: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾[٥] ويقول: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا . .**﴾[٦]، وأمثال ذلك من النصوص وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة»[٧] ا.هـ .

وتذكيرهم بثمار الاجتماع من القوة والنصر على الأعداء وتحصيل الخير والبركة قال ﷺ: «**البركة في ثلاثة ذكر منها: الجماعة**»[٧].

قال ابن تيمية ـ رحمه الله: «ونتيجة الجماعة: رحمة الله ورضوانه وصلواته وسعادة الدنيا والآخرة وبياض الوجوه» ويذكرون بما قاله بعض السلف: «ما يكرهون

(١) انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٧/٢٨ .
(٢، ٧) مجموع الفتاوى: ٣٥٩/٢٢. (٣) معالم التنزيل: ١٢٢/٤ .
(٤) الأنفال:١ . (٥) آل عمران: ١٠٣ .
(٦) آل عمران: ٥
(٨) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٥١) (٦١٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٥٢٠) عن سلمان الفارسي وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٥١): «رواه الطبراني في الكبير وفيه أبو عبد الله البصري، قال الذهبي: لا يعرف، وبقية رجاله ثقات»، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٨٢).

في الجماعة خير مما يجمعون من الفرقة»، «وأن بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر»[١].

المسألة الثانية: خطر الاختلاف والفرقة وما يترتب عليها: لا سيما خلاف الإمامة إذا ما سلّ سيف الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة في كل زمان.

تذكيرهم بالنصوص الشرعية المحذّرة من هذا الداء، وأن النبي ﷺ يكره الاختلاف كراهية شديدة، وقد اختلف بعض الصحابة رضي الله عنه في مسألة عنده ﷺ في مرضه فقال: «**قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع**»[٢].

ومن نتائج الاختلاف:

١ـ هلاك النفوس وإراقة الدماء من الطرفين. قال معاوية رضي الله عنه: على رسلك يا أبا عبد الله لا تخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتل عددهم من أهل الشام فما خير الحياة بعد ذلك[٣].

٢ ـ إضعاف الأمة. **٣ ـ** تسلط الأعداء وتحقيق أمانيهم.

٤ ـ سخط الله ـ تعالى.

٥ ـ عدم رفع الأعمال الصالحة للمتشاحنين حتى يصطلحا، وغير ذلك.

المسألة الثالثة: أن من أصول أهل السنة والجماعة ترك القتال في الفتنة[٤].

المسألة الرابعة: التوبة والاستغفار، فهذه الفتن سببها الذنوب والخطايا، فعلى كل من الطائفتين أن يستغفر الله ويتوب إليه، فإن ذلك يرفع العذاب وينزل الرحمة قال الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[٥].

المسألة الخامسة: قال ابن العربي: «لا نقاتل إلا مع إمام عادل يقدمه أهل الحق لأنفسهم ولا يكون إلا قرشياً وغيره لا حكم له إلا أن يدعو إلى الإمام القرشي قاله مالك لأن الإمامة لا تكون إلا للقرشي»[٦] ا.هـ

---

(١) المرجع السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٣)، ومسلم (١٦٣٧) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٣) فتح البارى: ١٣/ ٦٩.

(٤) الفتاوى: ٢٨/ ١٢٨.

(٥) الأنفال: ٣٣.

(٦) أحكام القرآن ٤/ ١٥٣.

المسألة السادسة: وجوب التحاكم إلى الكتاب والسنة والاستسلام لأمر الله.

وتذكيرهم بالنصوص الشرعية في هذا، قال الطحاوي ـ رحمه الله: «ولا تثبت قدم الإسلام إلاّ على ظهر التسليم والاستسلام» وفي شرح الطحاوية: «فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والانقياد لأمره. فهذان توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول فلا نحاكم إلى غيره ولا نرضى بحكم غيره، ولا نوقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على شيخه..» إلخ.

المسألة السابعة: حرمة دم المسلم وتذكيرهم بأهم النصوص في هذا.

المسألة الثامنة: قوله ﷺ: «**إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة**»[١].

المسألة التاسعة: وجوب التجرد طلباً لمرضاة الله ـ تعالى ـ والتحذير من فتنة الدنيا وبعض النصوص في هذا.

رابعاً: صلح الحسن ﷺ وما فيه من الفوائد:

رواه البخاري في كتاب الصلح وكتاب الفتن وبوّب له: (باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما : «**ابني هذا سيّد ولعل اللـه أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**» قوله ـ جل ذكره: ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾ [٢] وهذا حدث عظيم استبشرت به الأمة واجتمع به الشمل وسمي (عام الجماعة) تم هذا بفضل الله تعالى؛ ثم بتنازل الحسن رضي الله عنه خوفاً من الفتنة وكراهية لإراقة الدماء. قال رضي الله عنه: «**قد كانت جماجم العرب في يدي يحاربون من حاربت ويسالمون من سالمت تركتها ابتغاء ـ وجه الله تعالى ـ وحقنت دماء أمة محمد ﷺ**»، رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين[٣]، ولذا أثنى النبي ﷺ على الحسن بهذا الصلح الذي كان على يديه وسماه سيّداً بذلك لأجل أن ما فعله الحسن رضي الله عنه يحبه الله ورسوله ويرضاه الله ورسوله. وقد أشار بعض العلماء إلى أن ما وقع

(١) أخرجه البخاري (٧١٤٨)، والنسائي (٤٢١١، ٥٣٨٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٠٤)، وأبو داود (٤٦٦٢)، والترمذي (٣٧٧٣)، والنسائي (١٤١٠)، وأحمد (٥/٣٧) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٧٠) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

بين الصحابة رضي الله عنه من مواقف الخلاف والقتال والصلح درس لمن بعدهم للإفادة منه.

ومن فوائد هذا الصلح: «فضيلة الإصلاح بين الناس، ولا سيما في حقن دماء المسلمين، وفيه ولاية المفضول الخلافة مع وجود الأفضل، وفيه جواز خلع الخليفة نفسه إذا رأى في ذلك صلاحاً للمسلمين»(١).

ومن فوائده: أنه ينبغي سلوك الطريق المختصرة لطلب الصلح، فمعاوية رضي الله عنه أرسل اثنين فقط لمفاوضة من يعنيه الأمر ويصدر القرار وهو الحسن رضي الله عنه فتم المقصود.

ومن فوائده: تسخير المال لتأليف القلوب من اتباع الطرفين لقبول الصلح قال ابن حجر: «وأراد الحسن رضي الله عنه بذلك كله تسكين الفتنة، وتفرقة المال على من لا يرضيه إلا المال»(٢) ا.هـ

خامساً: ثمار الإصلاح وعاقبة تركه:

١ـ رحمة الله ـ تعالى ـ للمصلحين، قال الله تعالى: ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾(٣) قال ابن عباس رضي الله عنه: «(لعل) من الله فيها إطماع وإن الكريم إذا أطمع لا يمنع» ا.هـ

٢ـ تحصيل الثواب العظيم. فكما تقدم أنه أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة. وقد روى البخاري عنه ﷺ أنه قال: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله**...»(٤)، فكيف بالساعي في هذا الأمر العظيم الذي يشمل ويثمر أبواباً من الخير عظيمة منها رعاية المساكين والأرملة واليتامى.. إلخ

٣ ـ حقن الدماء. **٤ ـ** قوة وتماسك الأمة.

٥ ـ غيظ الأعداء وما يترتب عليه من الأجر قال الله تعالى: ﴿**وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾(٥).

---

(١) فتح الباري ١٣ / ٧٢ . (٢) فتح البارى ١٣/ ٧٠.

(٣) الحجرات: ١٠.

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٥٣)، ومسلم (٢٩٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) التوبة: ١٢٠.

٦ـ وقف زحف الأعداء وإفشال مخططهم.

٧ـ كل ما يتوقف من شر ويحدث من خير بعد الصلح فللمصلح أجر عليه بإذن الله ـ تعالى ـ سواء في نشر الدعوة أو إعمار المساجد أو الإغاثة للفقراء أو تمام تطبيق الشريعة ... إلخ، وهذه والله من أعظم التجارات الرابحة لمن وفقه الله ـ تعالى ـ وقبله.

٨ ـ إدخال السرور على كل مسلم ومسلمة وتحصيل ما يترتب على هذا من الأجر.

أما في حالة الترك والتخلي:

فالعكس يتحقق، لا سيما والصيف قد حلّ، وكل ما سيحصل ـ لا قدر الله ـ من سفك الدماء فالذمة لا تبرأ منه بالسكوت والقعود. قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية: «روى مالك بإسناده عن عائشة $ أنها كانت تقول: ترك الناس العمل بهذه الآية يعني قوله تعالى: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** ...﴾[١] فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية وهكذا تسلسل النزاع»[٢] ا.هـ .

بشرى للمصلحين:

« بشرى لمن سلك هذا الطريق بهداية الله تعالى وتأييده ونصره قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**﴾[٣] وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٤] والجهاد يوجب هداية السبيل إليه. وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٥]، فكل من اتبع الرسول ﷺ فإن الله حسبه أي: كافيه وهاديه وناصره، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾[٦] وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[٧]، وكل ما وافق الرسول ﷺ في أمر خالف فيه غيره فهو من الذين اتبعوه في ذلك وله نصيب من قوله: ﴿**لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ [٨]،

---

(١) الحجرات: ٩.
(٢) شرح الطحاوية: ص ٣٣٢.
(٣) محمد ١٧.
(٤) العنكبوت: ٦٩.
(٥) الأنفال: ٦٤.
(٦) النحل: ١٢٨.
(٧) البقرة: ١٥٣.
(٨) التوبة: ٤٠.

فإن المعـية الإلهية المتـضمنة للنصر هي لما جـاء به إلى يوم القيامة وهذا قـد دلّ عليه القرآن»[١].

ومع كل مـا تقدم لابـد من التوكل على الـله ـ تعالى ـ بعـد فـعل الأسبـاب، والدعاء بـإلحاح واضطرار في كل مـراحل الموضوع وفـضل الله عظيم والله على كل شيء قدير.

(١) الفتاوى: ٢٨/ ٣٧.

المبحث السابع
الحركة الإسلامية... ضوابط في الفكر والممارسة

هناك أهمية كبيرة للحديث عن منهج الحركة الإسلامية سواء من حيث جملة علاقاتها مع محيطها المحلي أو الدولي أو من حيث خطابها وآلياتها، وهو حديث جدير أن تنصب عليه جهود العلماء والمفكرين المسلمين، كما أنها ممكن أن تكون مادة خصبة للباحثين وطلبة الدراسات العليا بدل الاشتغال بجزئيات الفقه والتراث وترك هذه المهمة للتجربة والخطأ والارتجال والرأي العجول للواقع الميداني المحكوم بضوابط الزمان والمكان والظرف، وخصوصاً أن الاجتهاد في هذا الحقل هو في النهاية تصرف في مصائر البلاد والعباد، والأرواح والأموال والأعراض والدماء، وفي الدين والدنيا على حد سواء.

أولا: قواعد المنهج الإسلامي:

لعل أهم من أجلى منهاج الحركة الإسلامية وتوسع في القول فيه وفصل في بيان مشرق أخاذ، فاعلاً في الأذهان فعل السحر... هو الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ لقد كان منهاج الحركة الإسلامية خطاباً وعلائق ووسائل عمل وطرائق في التقدير هو شاغله الشاغل في كل ما كتب...، وإن عدم التعرض بالتقويم لميراث الرجل والاكتفاء بالنقد الجزئي أو التعريض لا يتفق مع الالتزام بمقتضيات الروح العلمية والنزاهة والشجاعة، ولا يمكن من جهة أخرى أن ينتج ثقافة إسلامية متحررة من الأصنام، ومن التقليد والأوهام، فلقد مثل سيد قطب بأدبه الإسلامي الرفيع الذي كتبه بدمه وبجحيم من المعاناة الشديدة سلطة مرجعية ـ ولا يزال ـ في التعامل مع النص الإسلامي ومع واقع المسلمين وتاريخهم ومحيطهم.

وهناك محاولات مستمرة منذ بضع عشرة سنة تحاول جاهدة أن تقصي المرحوم سيد قطب عن مكانته وأن توجه طعناً إلى فكره، وأن تحمله تبعة المكفرين الذين ظهروا من بعده، وقد وجدت هذه الدعوة غير الراشدة أعواناً لها وأنصاراً حتى من

بعض الذين لهم باع في التيـار الإسلامي، وليس معنى ذلك أن فكر الرجل مـعصوم من أن تكون به أخطاء منهجية أو فكرية أو مثالية طوباوية، ولكنه يكفيه أنه ترك تراثاً ضخـماً يؤخذ منه ويرد، وأنه ينبـغي معاملة هذا التـراث من خلال المفهـوم المعروف «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب»، ولكن أناساً جعلوا كل همهم مهاجمة هذا الفكر، وأحياناً مهاجمة الشخص نفسه.

ولو أنصف القوم وتحـرروا من الموروث في التعامل مع الشـيوخ، ومع الموروث السياسي الاستـبدادي لأجروا على تراثه وتراث غيره قواعـد المنهج الإسلامي في نقد الرجال كـقاعدة كل ابـن آدم خطاء، وكل راد مردود عليه إلا المعـصوم عليـه الصلاة والسلام.

وإن الحق أحق أن يتبع، وأن مرجـعية الحق في الشئون العامة بعـد الوحي «كتاباً وسنة» إجمـاع الأمة وصورته التطبـيقيـة في عهدنا يجـليها الانتـخاب الكاشف عن اتجاهات الرأي العـام، وفي هذا الصدد لا قيمـة لأي تراث يمكن أن يستمد مـن جهة أخرى غـير السوق الحـرة. . .، سوق الأفكار والأخذ والـرد والتجربة، فـما أثبتـته التجـربة نافعـاً للمسلمين ناهضاً بـالتقدم بهم نحـو تحقيق الـعدل والتحـرر والوحدة واستـعادة العـز السليب في إطار تعـاليم الإسلام. . .، فـهو الأجدر بالاتـباع وافق وخالف هذا المذهب أو ذاك.

غربلة تراث الحركة:

ويجب أن نقر هنا أن فكر قـادة الحركة الإسلامـية مثل قفـزة مهمة في الانتـقال بالإسلام، فإن فكر (البنا وقطب) ومعهما فكر المودودي أتاح للإسلام أن يتبلور لأول مرة في التاريخ كحـركة معارضة منظمة، فـبرزت فكرة (التنظيم،وطرائقه، وأدواته، ونمط القيادة، واتخاذ القرار، وعوائقه الداخلية والخارجية وذلك لأول مرة)، لكن هذا الفكر لا يمنع من اسـتمرار الاجـتهاد في غـربلته،وأخذ مـا يناسب المستـجدات التي طرأت على الحياة بعد رحيل أصـحاب هذا الفكر، ولا يمنع من محاولة الإبداع الفكري الذي يستند على الصالـح من التراث للتطبيق في العصر وإضـافة ما يلزم من الأسس الفكرية للحركة الإسلامـية، حتى تظل في كامل نشاطها وديناميكيتـها، فلا تقعد عن مسايرة العصر، بل لا تقعد عن مسابقته، ووضع البينات في طريقه؛ ليهلك من هلك

عن بينة ويحيا من حيي عن بينة، وليس ذنباً لهـؤلاء الأعلام أن قعد من جاء بعدهم عن الاجتهاد، وانهمك في البحث عن أفكارهم؛ ليلبس كل حدث من الأحداث الجارية قطعـة من الثياب الـفكرية لهؤلاء، وقـد لا تكون مناسبـة في مقـاسها وفي طـولها وقصرها.

إن كثـيراً من أصحـاب الفكر الإسلامي اليوم لا يضـيفون جـديداً لأفكار القادة السابقين، ولا حـتى للحركـة ذاتها إلا في القليل النادر، إن اجـتهاد منظري الحـركة والقائمـين بأمرها واستـحداث أسـاليب جديدة مبـتكرة ـ ولو خالفت رأي الـسابقين وناقضته ـ أمر لا مناص منه أمام أعـداء تتفتح أنظارهم وتتفق أفكارهم عن جديد من الحركة والفكر في كل يوم لضرب الإسلاميين أو تهميشهم أو القضاء عليهم وإسكاتهم.

والناظر المتأمل في حيـاة هؤلاء الأعلام يجد أنهم كانوا يستلهمـون الإسلام غير غافـلين عن الواقع في كثـير من الأحـوال، فلنعمل كـما عـملوا، ولنبن كمـا بنوا، ولنجتهد كما اجتهدوا وإلا فلا بكاء على الغافلين ولا عزاء للجاهلين.

المنهج المتجدد يحتاج عقولاً متجددة:

من المهم هنا التأكد بأن المكتبة الإسلامية وهي مادة التثقيف لأبناء الحركة الإسلامية خاصة وللمسلمين عـامة لا تزال تنمو نحو التقليد للماضي وتقـديسه واتخاذه حكماً مفصلا على الواقع، حتى إن كثيراً من المنافسات تنحسم بمجرد إيراد جملة أو جملتين لبعض الأعلام من الذين يتـبعهم تيار إسلامـي معين، ومثلهم أتباع المذاهب الفقـهية التي تنتمي إلى مالك وأبي حنيـفة وأحمد والشافعي وغيـرهم، وجرى على طريقتهم أبناء الحركة الإسـلامية الذين كثيـراً ما ينحسم الخلاف بينهم بإيراد جـملة أو جملتين لأحد أعلامهم، فينتهي النقاش ويزول الخلاف، وقد يكون النقاش في قضية مستجدة لم تحدث إلا بعد رحيل هؤلاء الأعلام الذين لا نبخسهم حقهم إن قلنا ذلك، ولكننا نحفز الأتباع أن ينهضوا بالتبعة، وأن يجدوا في الابتكار كما جد السابقون.

إنه لا سـبيل للانتـقـال بالحركـة الإسـلاميـة من هذا الطور السكوني الاتبـاعي التقليدي الذي يتعامل مع المشكلات المستجدة بحلول جاهزة دون ثورة على المرجعية، على المكتبة الإسلامـية، ونزع صفة القداسة عن مـحتوياتها بالتعامل مـعها على أنها

تراث واجتهاد بشري يؤخذ منه ويرد، وإن الثابت فقط نصوص الوحي أما كل التأويلات الواردة على تلك النصوص فاجتهادات قد تعين على الفهم، وقد تصرف عنه وإذا كان الانتقال من بغداد إلى القاهرة في زمن واحد كان موصوفاً بالاستقرار قد حمل مجتهداً كالشافعي إلى أن يغير معظم مذهبه فلا مناص لمنهاج حركي متجدد من عقل اجتهادي متجدد يستوعب تجارب الماضي والحاضر لدى المسلمين وغير المسلمين، ويستوعب الواقع المتجدد المعقد، ويوفق إلى إدارة الحوار الرشيد معه وعلى سبيل المثال: هل يصلح لنا مرشدًا في منهاجنا الحركي لإقامة النموذج الإسلامي المعاصر فِقْهٌ نشأ والأمة تمثل سيادة العالم وتقول للسحابة العابرة: صبي حيث شئت فخراجك سيأتيني، وتجرد الجيش العرمرم لتأديب الروم وحاكمهم تلبية لاستغاثة امرأة مسلمة؟ هل يصلح لنا ذلك الفقه ونحن في حال من الضعف على أوجه من الشبه بحال الأقلية المسلمة في مكة... بل كان حالها أفضل من حالنا بكثير من حيث تمنعها بحماية العصبية القبلية وغياب الدولة القاهرة.. وغياب مثل التسلط الدولي المعاصر... وحضور القائد الذي تجتمع عليه كل الجماعة يومئذ.. وإمكانيات المناورة والاستفادة من التناقضات والعصبيات القبلية غير غائبة.. إن الفقه الإسلامي الذي تزخر به المكتبة الإسلامية لم يستمد مراجعه من حالة الاستضعاف في مكة أو في الأندلس أو في البوسنة المعاصرة أو في أشباهها من بلاد الإسلام الأخرى، وإنما استمدتها من عصر الهيمنة والعملقة والسيادة الدولية.

وعلى سبيل المثال: إن الاحتفاظ حتى اليوم بمفهوم دار الإسلام ودار الكفر وترديده واعتبار أنه من خلال الثنائية وهذا التقابل يمكن أن نتعامل مع العالم في غير محله، وبالتالي فالمفهوم هو اليوم بلا مناط بلا أرضية، وخير لنا أن ننظم علاقتنا بالعالم على أنه كله أرض دعوة... لا سيما بعد أن سقطت الأنظمة الدينية الغربية التي كانت في القرون الوسطى تمنع حريات الفكر، والتعبير والعقيدة والتنظيم والانتقال.

وانفتحت معظم بلاد العالم لاستقبال وإيواء مراكز الدعوة والدعاة، فازدهر الإسلام في زمن وجيز جداً في أقطار شتى لم يدخلها مسلم قط محارباً أو مسالماً أو تاجراً طوال العصور التي كانت لنا السيادة العالمية، وتواصل اندماج الحدود، وسقوط

السدود أمام الإسلام بسقوط أنظمة الدين العلماني ـ الشيوعية ـ فزحفت دعوة الإسلام بمساجدها وإغاثاتها ومؤتمراتها تجدد ما اندرس وتحتضن الجديد، فأي دار حرب يتحدثون عنها في هذا العصر اللهم إلا أن يكون المقصود بمقياس حرية الدعوة ـ عدداً من الأوطان الإسلامية التي حظرت فيها دعوة الإسلام وطورد الدعاة، ولكنها أوضاع مؤقتة. . لن تدوم وكذا الشأن في العلاقة مع الكافرين.

إن الأدبيات السائدة التي تكاد تشملهم بحكم واحد هي العداوة والبغضاء إنما هي تبسيط معيق محبط للدعوة، لا يتمشى مع تعقد الواقع ومع الحقيقة القرآنية التي جاءت لتتعامل مع الواقع المتطور في أشد حالات تعقيده، والتي فصلت القول في شأن غير المؤمنين انطلاقاً من قاعدة واضحة «ليسوا سواء» فمنهم الأعداء وهم الداخلون معنا في حرب معلنة سافرة كالصهاينة، ومنهم الأصدقاء الذين لم يدخلوا معنا في حرب، والذين يمكن معاشرتهم، والتعاون معهم، ومنهم المحايد الذي لم يكد يسمع شيئاً عن الإسلام ولا هو مشغول بأمره عداوة أو صداقة، بل هو منهمك في دنياه وشهواته، لا يكاد يبصر شيئاً خارج هذا الإطار: ﴿ **يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ** ﴾[1].

لا وصاية على الأمة:

وقد يشوش الذهن الإسلامي المعاصر في شأن حرية العمل والتعدد الحزبي وتداول السلطة والاحتكام إلى الجماهير في اقتراع مباشر، وقد يكون سبب التشويش ناتجاً عن تنزيل الواقع التاريخي للدولة الإسلامية على الواقع المعاصر، ذاهلاً هذا الذهن عن التحولات المعاصرة الحاصلة، وإن الدولة الإسلامية استمدت شرعيتها من الفتح، واستحق بذلك المسلمون أن يحكموا وأن يطبقوا الشريعة بغض النظر عن كونهم أقلية أم أغلبية ما داموا مع غير المسلمين الخاضعين للدولة المسلمة، بل ـ أيضاً ـ مع المسلمين المنتمين إليها فأصبح السيف مصدراً لشريعة الحكم، يورث تلك الشريعة لأبنائه، فتصبح الحقوق هنا كالجنسية والمشاركة في السلطة والثروة منحاً ومكرمات، ولم ينتبه المسلمون إلى أن تلك الشرعية قد قادت المسلمين إلى ضعف شديد عبر التنازع الذي لا ينتهي على السلطة، وأداته السيف وإزهاق الدماء. . . وتهميش الأمة

---

(١) محمد: ١٢.

وإقصاؤها عن حقها باعتبارها هي المستخلفة عن الله.

لقد ذهل المسلمون المعاصرون عن أن دولة الفتح أطاح بها الاحتلال، وبعد لأيٍ شاء الله للأمة أن تنهض ببرها وفاجرها، مسلمين وعلمانيين يناوشون المستعمر مطالبين بالاستقلال حتى حصلوا عليه وانتصب منهم حكام ـ منهم التقي ومنهم الشقي ـ وأصبحت الدولة ـ نظرياً على الأقل ـ تقوم لا على الفتح كما كانت سابقاً ـ وإنما على مشروعية التحرير أي مشروعية المشاركة العامة في الكفاح بالتساوي بين الساكنين، وفي المشاركة في امتلاك الوطن، وفي الحقوق والواجبات، ومنها واجبات الدفاع عنه، والمشاركة في تسييره وحكمه وتنميته وازدهاره، ومن ذلك حقوق التفكير والتعبير وتكوين الجمعيات والأحزاب للمشاركة في الشئون العامة والتنافس بين أصحاب المشاريع الفكرية والسياسية المختلفة على خدمة الشعب من خلال أحقية أصحاب المشروع الفائز بالقبول الأوسع لمشروعية الحكم غير سالبين غيرهم حق المعارضة والنقد من أجل الإقناع، إقناع الشعب بتزكيتهم في الدورة اللاحقة بما يحقق تداول السلطة سلمياً، كتداول الثروة حسب مقتضيات القانون، وفي هذا الإطار لا مجال لأحد لادعاء الوصاية على الشعب وحكمه طوعاً أو كرهاً، يستوي في ذلك أصحاب كل المشاريع بقطع النظر عن نوع مرجعيتها أرضية أم سماوية.

إن الجميع يمتلكون نفس الحقوق، ويخضعون لنفس المقاييس في الحكم على مشاريعهم، إن سبيلهم إلى الحكم واحد هو التفويض الشعبي عبر الانتخابات الحرة النزيهة لا يمنع منها أحد.

والشريعة ذاتها والتي كان مصدرها إلهياً فإن سبيلها إلى التطبيق يمر حتماً عبر التفويض الشعبي، لا سيما وأن المشروع المجتمعي الإسلامي إن كانت أصوله العامة سماوية فتفاصيله أرضية اجتهادية، الأمر الذي يسمح بتنافس وتعدد المشاريع الإسلامية فضلاً عن تنافسها مع غيرها، وماذا تفعل إذا تعددت الاجتهادات الإسلامية عبر الاحتكام إلى الرأي العام لقبول هذا المشروع ورفض ذلك.

إن أهم الضوابط التي تفرض على الحرية في هذه الحالة إنما تتعلق بحماية الآداب العامة والمصالح العامة، ومنها الهوية الوطنية واستقلال وعزة الأمة، إن بعض

الإسلاميين لم يشعروا بعد بهذه النقلة من شرعية الفتح إلى شرعية التحرير والمواطنة، وذلك بسبب استمرار فقه المرحلة السابقة على التعددية الفكرية والسياسية، والتنافس أمام صناديق الاقتراع حتى في الإطار الإسلامي ذاته هو الفيصل فضلاً عن قابلية التنافس مع أصحاب المذاهب الأخرى.

إن توجس بعض الإسلاميين من الحرية والديمقراطية مرجعه إلى استمرار فقه مرحلة الفتح، وغلبة فقه سد الذرائع، وهو توجس في غير محله ولا مبرر له، بل وإنه لمحزن حقاً أن يخشى الحرية من يرددون في غير فقه ما يصرح به كتابهم من تحديات للخصوم **﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾**[١]، **﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾**[٢]، **﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾**[٣]، فضلاً عن الزواجر القاطعة، المانعة الإكراه في الدين: **﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾**[٤]، **﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾**[٥]، **﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾**[٦]، **﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾**[٧]، إن هذا الخوف من الحرية يكشف عن أزمة في ضمير المسلم تجاه عالم لم يساهم في صنعه فهو يتوجس منه لا سيما وأن هذا العالم طافح بالفساد والمنكرات، والمسلم لو صح نظره لعلم أن الإسلام دين الفطرة ودين الفطرة لا يخشى الحرية، وهو دين العقل ولم يسجل التاريخ أنه انهزم في مناظرة، بل هو ثورة تحررية شاملة لا سيما وأن هذه الأمة على ما أصابها من فساد لا يزال الإسلام أعرق مكون لشخصياتها الفردية والجماعية إضافة إلى أن كل المذاهب المادية تعيش حالة من الارتكاس والانحسار والتراجع، فماذا يخيف هذا المسلم من الحرية والتنافس الحر مع أصحاب المذاهب الأخرى غير انفصاله عن الواقع بما يشبه الغيبوبة، وخوفه من عالم قاهر متقلب لم يساهم في صنعه، ولم تتح له فرصة التعرف عليه من قرب، اللهم إلا من خلال الجيوش الغازية والقنوات الطافحة بالشرور، والأنظمة المستبدة المدعومة من سادة العصر.

---

(١) البقرة: ١١١. (٢) سبأ: ٢٤.

(٣) القصص: ٤٩. (٤) يونس: ٩٩.

(٥) ق: ٤٥. (٦) الغاشية: ٢٢.

(٧) الكهف: ٢٩.

إن المسلم لو تأمل في حصيلة تجربة الدعوة الإسلامية المعاصرة لأدرك في يقين أن الحرية أعظم الخيرات بعد الإيمان، بل هي طريقه، وإنه حيث توفر للدعوة الإسلامية مجال ولو محدوداً من التنافس مع الدعوات الأخرى فإنها تسبق غيرها من الدعوات، أو المذاهب المعاصرة مهمشة في زمن قياسي دعوات حاكمة منذ عشرات السنين، كما حصل في بلاد إسلامية في قلب العالم الإسلامي، الأمر الذي يثبت معه أن رصيد العلمانية في البقاء يستند إلى امتلاكها سلطة القمع، ويكون في هذه الحالة خوف المسلم من الحرية هو خوفه من المستقبل بل تنكب عن المستقبل؟ إنه يكاد يستوي في المعنى القول بأن المستقبل للحرية مع القول بأن المستقبل للإسلام.

خوف المسلم من الحرية شبيه بخوف المريض من الدواء، ذلك أن الدكتاتورية هي العلة الكبرى والعقبة الكؤود أمام أمم كثيرة وأمام بشرية متعطشة للإسلام، ألم تثبت التجربة المتكررة في السنوات الأخيرة أنه لا منافس حقيقياً للإسلام أمام صناديق الاقتراع حيثما كان ذلك ممكناً وحتى والعلمانية حاكمة فكيف لو حكم الإسلام واشتعلت كل آلياته العقدية والتربوية والتشريعية والاقتصادية؟ هل يبقى من شيء إلا يسبح بحمد الله؟ ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾[١]، ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾[٢].

ولو أننا افترضنا جدلاً ـ وجود المنافس الحقيقي للمشروع الإسلامي؛ فإن المفترض على حامل دعوة العلم والإيمان أن يقبل المنافسة، وألا يفر منها، وأن يرحب بصناديق الانتخاب، ويقبل بنتائجها غالباً أو مغلوباً، موقناً أن العاقبة للمتقين، مع أنه من الجدير بالملاحظة التذكير بأن رسالة الإسلام لا تستهدف محو الشر من العالم جملة، فليس ذلك مقصوداً في الخلق القائم على تواصل التدافع أبداً بين الحق والباطل، وإنما هدفها إظهار الحق على الباطل، وإفساح مجال حرية الاختيار أمام البشر ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [٣]، واعتراف الإسلام بوجود التعدد الديني ومنعه الإكراه هو الذي أتاح لأصحاب العقائد الأخرى أن يستمر بقاؤها في أرض يسودها الإسلام حتى يومنا هذا، وهو الذي أبعد شبح حروب إبادة ضد

---

(١) الإسراء: ٤٤. (٢) الإسراء: ٨١.

(٣) البقرة: ٢٥٦.

أصحـاب العقـائد الآخرى، عكس ما فـعله الآخرون في الأندلس والبـوسنة والهند وغيرها من البلاد.

ثانياً: الحركة الإسلامية ضوابط في الفكر والممارسة.. الإفراط والتفريط:

إن قصر النظرة إلى الغـرب على أنه تحلل وإلحاد واستعمار فـقط خطأ كبير، وإن قصر النظرة على أن النفع الذي يمكن تعلمـه منه لا يتجاوز استيراد تقنيـاته خطأ كبير كذلك، إذ الغـرب واحد، فيـبدو لبـعضنا على أنه النموذج الأمـثل للمدنيـة، ويبدو للبعض الآخر على أنه الشر، وكل ذلك من بادئ الرأي وقلة الـتعمق، فالغرب ليس واحداً، وليس جوهراً بسيطاً، بل هو بنية معقدة مـتراكبة بل متناقضة، ليس هو بالعدو ولا هو بالصديق، ليس هو الخـير ولا هو الشر بل فيه كل ذلـك، ويكفي قيام آلاف المؤسسات الإسـلامية والندوات والمؤتمرات الإسلامية التـي يستحيل عقد مـعظمها في بلاد الإسـلام وكـذلك تنامي هروب المسلمين، ومـنهم الدعـاة والمفكرون من «الدول الإسلاميـة» إلى دول الغرب وقيام الآلاف من الجمعـيات الإنسانية والحقوقـية للدفاع عنهم والتشنيع بالمظالم الحاصلة في العـالم الإسلامي والضغط على الحكام العلمانيين للحد من أذاهم وفـسادهم، يكفي أن تنظر في إعـلامهم وما يـتوفر عليـه من صدع بالنقـد الذي كثـيراً مـا أسقط حكومـات، يكفي النظر في أساليـبهم الـراقية لحـسم خـلافـاتهم دون أن تراق قطرة دم يكفـي تداول أحزابـهم على السلطة دون إقـصـاء لصاحب فكرة، أو اتهام أحد المتنافسين خصومـه بالتزييف، وإتقانهم أعمالهم وجدهم فيها واحترامهم للنظام والقانون لنضع أيدينا على بعض أسرار تقدمهم.

إن سر تقدم الغـرب هنا وليس في مجرد تقدم تقنيـاته بل إن تلك هي ثمرة من ثمار هذا التقدم الإنساني المفقود عندنا، ليس الآن بل منذ القرون الطوال، منذ الخلافة الراشدة، إنها السنن كما قال النبي ﷺ من اتبعها وإن كان كافراً تقدم، ومن تنكب عنها تخلف وإن يكن مؤمناً، ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ**﴾[1]، إن الخطاب الإسلامي المعاصر بل قل العقل الإسلامي المعـاصر لا يزال دون مستوى فهم معـاصر للإسلام، أي فهم

(١) هود: ١٥.

يستوعب مكاسب العصر ومشكلاته من منظور إسلامي، الأمر الذي يجعل القطيعة متواصلة بين الخطاب الإسلامي ومشكلات العصر، ويجعلنا نبرمج غالباً لواقع هو غير واقعنا ولمشكلات هي غير مشكلاتنا، قد تكون في أفضل الأحوال مشكلات لأجدادنا في القرون الخالية.

طريق الحركة:

إن الذين يجعلون مشكلتهم مع الحرية والديمقراطية، وكأنهم يقولون: إن كان باب الحرية سيدخل منه الشيوعي والعلماني فليوصد وكأنهم شمشون الجبار في مقالته الانتحارية وهو يرج عمود البيت: علي وعلى أعدائي يا رب، إن هؤلاء مخطئون وقد بينا من قبل أنه لا خوف على الإسلام من الحرية التي هي مبدأ أصيل من مبادئه، بل إن الذين يخافون من الحرية هم أعداء الإسلام، ولذا فهم الذين يوصدون كل باب أمامها، ويبغونها عوجاً بالاستبداد وتزوير الاقتراع وغير ذلك من الأساليب التي هي حجر على الحرية التي ينادون بها، وهم يتهمون الحركة الإسلامية بأنها لا تنظر إلا إلى نفسها ولا تعنى بغير أمرها، وتظن أنها وحدها هي الجماعة الإسلامية وغيرها ليس من الإسلام في شيء، وهذا وهم منهم فإن الجماعة الإسلامية ليست سوى فصيل من المسلمين يقوم على اجتهاد في الإسلام وطرائق للعمل تقابلها اجتهادات أخرى وأساليب أخرى للعمل، وهو اجتهاد لا يحمل قداسة،ولا إلزاما باتباعه ولا إثماً من الانصراف عنه، وقد يبدو في فكر بعض الجماعات جفوة عن المحيط الشعبي حولها، وعن العصر مما يسر سبيل الأنظمة المتمرنة على القمع والمواجهة استدراج تلك الحركات إلى المواجهة لبعثرة جهودها والإطاحة بمشاريعها، وقد دفعت الأنظمة القهرية بعض الجماعات إلى مناخات السرية في الفكرة والتنظيم والجفوة مع المجتمع وكثيراً ما قادت هذه الكوارث أكثر من حركة إسلامية إلى التورط في ازدواجيات أخرى «ازدواج بين السر والعلنية ـ ازدواج بين الخطاب والممارسة ـ ازدواج بين تنظيم سلمي وأجنحة عنيفة..»، وكان من الطبيعي أن تسرع هذه الازدواجيات بالحركات المتورطة فيها إلى الوقوع في شباك تلك الأنظمة المدربة، وسرعان ما تؤثر أدوات القمع في تفكيك هذه الازدواجيات،والوصول إلى عمق العمق وعندئذ تفاجأ الجماهير بالمشكلات التي تجري في المجتمع وتأخذ البريء مع المسيء.

غير أن الحركة الإسلامية، أو على الأقل قطاعات منها قد تعلمت بعد أن تجرعت كأس المحنة، تعلمت فن الصمود أمام استدراج الحكومات الطاغية، ودفعها للحركة إلى خنادق السرية... تعلمت فن رفض إغراء الاستدراج إلى السرية، والإمعان فيها، والتورط في الازدواجية ولا سيما الازدواجية القاتلة الانتحارية بالجمع في تنظيم واحد وتحت القيادة الواحدة بين أساليب العمل السلمي والعمل العنيف، فطردت في غير هوادة من صفوفها كل من أصر على ممارسة الأساليب العنيفة، كما مالت إلى ترجيح العلنية، والحرص على العمل الإصلاحي من خلال مؤسسات المجتمع، وما يتيحه القانون من فسحة مثل: النقابات والجمعيات الخيرية والصحافة والعمل السياسي العلني في أي شكل متاح وإن كان بسيطاً، غير أن الصراع اليوم جلي في إرادة الحركة الإسلامية في الإصرار على العمل العلني ضمن الأطر القانونية، ورفض الاستدراج صوب حمأة العنف مهما بلغ حجم الاستفزاز.

وكان ذلك هو الدرس الذي تعلمته الحركة الإسلامية من محنتها الطويلة، أن يصبروا، وأن يحتفظوا بثقتهم في الله أنه ناصرهم يوماً ما، وأن يجدوا باحثين عن كل سبيل لتوعية الشعب وخدمته وإصلاحه، مهما بدت تلك الوسيلة ضئيلة، غير أن استمرار تراكم جهود الإصلاح تنتج في النهاية تحولاً نوعياً في ظروف مناسبة فالمهم تجنب عمليات الإجهاض، قد تتقدم عمليات الإصلاح ببطء ولكن المهم ألا نتقهقر إلى الصفر لننتظر زمناً طويلاً للانطلاق مجدداً حتى إذا سمق البناء لم نعرف كيف نحافظ عليه واستدراجنا هنا إلى المواجهة في غياب القوى يؤدي إلى هدم البناء، فإلى متى تستمر عملية البناء والهدم؟

غير أنه ما ينبغي أن تفوتنا ملاحظة أن هذا التطور الحاصل في الحركة الإسلامية وهو تطور محمود مشهود معظمه قد تم على صعيد الممارسة العملية أكثر منه على الصعيد النظري الثقافي المؤصل، الأمر الذي ينذر بالخطر؛ لأنه مع استمرار القمع والحيلولة بين القادة كبار السن المجربين، وبين الشباب المتحمس يمكن أن ينفرط الزمام وينفجر المخزون، وهو مخزون الثقافة الأصلية معبراً التعبير المناسب على غرار الجماعات الإسلامية التي تختلف في مسائل كثيرة لعل أهمها. . درجة التسامح. . . ، وليست الإيمان المطلق بأن الآخر إسلامي أو غير إسلامي، مواطن مساو لي في

الحقوق والواجبات والمشاركة في الوطن. . . ، وإن ما معه أم ما معي من الدين هو مجرد اجتهاد يقابل بمثله، وإن الجميع يحتكمون فيما يتعلق بإدارة شؤون الناس إلى صناديق الاقتراع وسلطة الرأي العام بدون وصاية من أحد.

إن مفهوم التعددية اكتسب على صعيد الحركة الإسلامية تقدماً مشهوداً لكنه ما يزال إلى حد بعيد قشرياً بفعل غلبة ثقافة الوصاية على الناس وادعاء كل فريق أنه الناطق باسم الحقيقة الإسلامية وأنه الفرقة الناجية، وإن ما يعرضه ليس مجرد مشروع اجتماعي سياسي استند إلى مرجعية دينية... إنه مجرد بضاعة تعرض نفسها كغيرها على السوق. . وتخضع لآلياته وليست ديناً ملزماً لا يجوز فيه الاختلاف ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾[1].

إن أدبيات الجهاد وآلياته جاهزة للاستعمال عندما يتصاعد الغضب وتنسد الأبواب، لا سيما وإن هذه الأدبيات هي من العمومية على نحو يجعلها قابلة لتنزل في مكانها وفي غير مكانها، ومكانها في الأصل هو الدفاع عن النفس ومواجهة القوى المعتدية على أرض الإسلام وليس الجهاد أداة لفرض الإسلام أو فرض الشريعة، إن الحرية هي الأصل، ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[2]، وإن تحول الجهاد أداة لحسم النزاعات داخل المجتمع الإسلامي كثيراً ما يتحول إلى فتن، ولذلك صرف جمهور علماء المسلمين الأمة عن استعمال هذه الأداة في حسم الصراعات الداخلية مهما بلغ حجم الظلم إيثاراً للوحدة والتضامن، وتعويلاً على سلطان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي أساليب العمل السلمية، وتعويلاً على أن الشر يتآكل من داخله، وتعين عليه المقاومة السلمية.

ورغم أنهم لم يغلقوا الباب جملة، ولم يحرموا المظلوم من حق دفاعه عن نفسه، ويقدموا صكاً أبيض يفرح الطغاة: افعلوا ما شئتم فحرام على مؤمن أن يرفع عصا في وجوهكم، ولا سيما في هذا العصر الذي اشتد طغيان الأنظمة الثورية وفسقوا على أمر الله جملة فقطعوا الشرائع ووالوا أعداء الإسلام وناصبوا الإسلام وأهله العداء، ومع ذلك فإن علماء الإسلام لا يزالون يوصون الدعاة بالالتزام المطلق بأساليب العمل السلمي واقتناص كل فرصة لإنكار المنكر بشكل علني سلمي

(١) الأنعام: ١٥٩.
(٢) البقرة: ٢٥٦.

ومحاصرة أهل الباطل بأغلظ وأحوج مقال احتجاج واستنكار، فضلاً عن التذرع بالصبر والشجاعة واحتساب ما عساه ينالهم من أذى «**سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى أميره فأمره ونهاه فقتله**»[1]، وإن من شأن هذه الجرأة على الطغاة أن تكسر هيبتهم، وإن تجريء الجماهير عليهم وتنقل مستوى الإنكار من الحالة الفردية إلى الحالة الجماعية في حين أن أساليب العنف كثيراً ما تفضي إلى عزل الدعاة عن الجماهير وتخويفهم في الاقتراب منهم والتعاون معهم وأيما عمل تجرد من الدعم الجماهيري مآله الموات والكوارث لأن التنظيم مهما كان واسعاً لا يقدر على مواجهة وإسقاط دولة مهما كانت ضعيفة لا سيما والدول مدعومة اليوم من الخارج وجزء من بنيان دولي تحتكر في يدها أسباب القوة والبطش .

إن المنهج الأوفق لحركة الإسلام أن تصبر على توعية الجماهير وأن لا تستهين بوعيها وإلا تستعجل لها الخطر، وأن تضبط الحركة سرعة سيرها وفق تقدم الجماهير واستعداداتها وكل خطأ على هذا الصعيد قاتل، وأن يكون وعي النظام الدولي القائم ومحاوره وتحولاته في الحسبان، وأن تسعى الحركة في كل الأحوال وعلى كل الجبهات لكسر شوكة العداء ضدها، والبحث عن الأصدقاء في كل المعسكرات. . . ، وأن ترفض التعميم والحكم بالجملة على الآخرين، وشعارها «**ليسوا سواء**».

إن الزمن يتطور لصالح الحركة الإسلامية ولكن ليس على المستوى القريب في المستوى المتوسط «٢٠سنة»، وفي المستوى الأبعد «قرن» فلنصبر،ولنجعل شعارنا الأعظم «إصلاح المجتمعات» فيكون عملنا مركزاً على التثقيف والتربية والإعلام والاقتصاد وكسب الأصدقاء على كل صعيد، وعقد التحالفات على أرضية الحريات والتضامن الوطني،وحقوق الإنسان، وتجنب المواجهة مع الدول واقتناص كل مساحة للحرية وتوسيعها بيسر واستغلالها في رفق، والعمل في غير كثرة ضجيج وتجمهر مع تصغير الإعلان وتكبير العمل، والاهتمام بالأمومة والطفولة، وتأصيل قيم الحرية والديمقراطية الشورية، ومرجعية الأمة والإحساس بآلام المساكين وتنمية العمل الاقتصادي والحسي الجمالي،والروح الإسلامية والإنسانية وذلك استعدادا للمستقبل الإسلامي الزاهر.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٩٥)، عن جابر #، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي بقوله: «الصفار لا يدرى من هو»،وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٧٥).

المبحث الثامن
الخـواء الـروحي
أسبابه وعلاجه من السنة النبوية

تعريف الخواء الروحي :

أولاً : التعريف اللغوي :

أ. الخـواء

مصدر من خوى، وخـوى بمعنى خلا فيقال خوى الجـوف من الطعام: أي خلا عنه (فهو فارغ لا شيء فيه.

ويقال: خويت الأرض خواءً : أي خلت من أهلها.

ويقال خوت النجوم خيّاً : أمحلت فلم تمطر [(١)] .

ونستنتج مما سبق أن الخواء له معان هي :

١ـ الاختلاء والفراغ عن الشيء .

٢ ـ الإمحال والجدب .

كما جاء أيضاً أن الخواء بمعنى السقوط كما في قوله تعالى: ﴿**خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا**﴾ أي ساقطة حيطانها على سقوفها)[(٢)].

هو ما به حـياة الأنفس، والروح تطلق على القرآن أحـياناً وعلى سيدنا جـبريل وعلى سيدنا عيسى وعلى حكم الله وأمر النبوة، وقد تطلق على وجه الإنسان وجسده.

ثانياً : التعريف الاصطلاحي :

يمكن التماس التعريف الاصطلاحي في ضوء مـا سبق ذكره من التعريف اللغوي

---

(١) انظر: القاموس المحيط للفيروز آبادي ص: ١٦٥٢، ١٦٥٣ ،ط١ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٨٦م.

(٢) انظر: الكليات لأبى البـقاء العكبري ٢ / ٣١٨ تحقيق د/ عـدنان درويش ومحمد المصري، ط. وزارة الثـقافة ـ دمشق ١٩٧٥م.

بأن خواء الروح: «إمحالها وإجدابها وخلاؤها عما يسعدها ويطمئنها ويسكنها».

وهو مرض نفسي يصيب فئات كثيرة من الناس وخاصة غير ذوي العقيدة الراسخة من الماديين وأهل الدنيا ممن أعرضوا عن الله ونسوه قال تعالى: ﴿**نَسوا اللَّه فَأنساهم أَنْفُسَهُم**﴾(١).

وذلك عقاب الصد عن الله ـ سبحانه، حيث من كان مع الله كان في أمن ورغد وسعة وسعادة ومن أعرض عن الله لاقى الجوى وتخطفته الشياطين حيران في الأرض قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكى وَنَحْشُره يَوْمَ الْقِيامةِ أَعْمَى**﴾(٢).

وهذا المرض قد أصاب كثيراً من الشباب والشيوخ في عالمنا الإسلامي عالم الروح والقرآن والإيمان، وهذا داع من دواعي العجب، وجدير بنا أن نبحث في أسباب هذا الخواء الروحي ومظاهره، وأن نتلمس سبيلاً لعلاجه من السنة النبوية، إذ الرسول ﷺ هو القدوة العليا والأسوة المثلى التي ينبغي الاقتداء بها ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُم فِى رَسُولِ اللَّه أُسْوةٌ حَسَنَةٌ**﴾(٣).

أسباب الخواء الروحي ومظاهره:

أولاً: فساد العقيدة:

أرى أهم سبب من أسباب خواء الروح وفساد النفس هو خلل العقيدة؛ إذ العقيدة هي العقد الوثيق بين العبد وربه، وهي الميثاق الذي يدخل به المرء المسلم في الإسلام، فيعقد على ذلك قلبه، وتأنس بها روحه وتطمئن بذلك نفسه، ومعقد أصول عقيدة الإسلام هو (لا إله إلا الله محمد رسول الله) أي لا معبود بحق إلا الله، وهو مقتضى توحيد الألوهية والذي يعدّ أهم نوع من أنواع التوحيد، ثم يليه توحيد الربوبية، فتوحيد الأسماء والصفات، ولا يعني ذلك أن يفرق بين أنواع التوحيد، بل ينبغي للعبد أن يوقن ويعتقد في توحيد الله مطلقاً.

وصدق القائل:

أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى ٱلعَبِيدِ مَعْرِفَةُ الرَّحْمَنِ بِالتَّوْحِيدِ

---

(١) الحشر: ١٩. (٢) طه: ١٢٤.

(٣) الأحزاب: ٢١.

وإذا أيقنت النفس بالله، وبوجود الله ووحـدانيته واقتـداره، ولاحظت عظمته، تطمئـن وتسكن وتركن لربها، ويذهب عنهـا حزنهـا وهمها، وبالتـالي تأنس الروح وتتشبع بحب ربها، ويذهب عنها خواؤها، وصدق الله إذ يقول في وصف المؤمنين: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[(١)] .

فساد الاعتقاد يفضي إلى خواء الروح :

ومن جهـة أخرى فإن قلق العـقيدة، ودخول الشك إليـها، يفضي إلى زعـزعة النفس والروح معاً، ويحدث الشتات والانفصام البغيض، ويغدو المرء صاحب بالين، يعتقد خلاف ما يظهر، ويظهر خلاف ما يبطن، وهذا هو النفاق الذميم الذي جاء فيه الوعيد الشديد من الله .

ويؤدي الانفصـام الناتج عن زعزعة العـقيدة وضـعف اليقين بالله إلى كثـير من الأمراض النفسية والعصبية، ويقع صاحبه فريسة سهلة للمرض العضوي بعد ذلك .

حتى إن كثـيراً من المجتمعات العلمـانية التي لا تدين باعتقاد صـحيح، وضعف فيـها الوازع الديـني عمومـاً تعاني كـأشد مـا يكون من الخواء الروحـي بين شبابـها وشيوخها، حتى إنهم لا يجـدون ملاذاً وراحة من خوائهم الروحي إلا في الانتحار[(٢)]، حيث كشفت دراسة أمريكية أن انتحار الشباب في الولايات المتحدة الأمريكية بين سن ١٥ ـ ٢٤ قد ارتفع بمعدل ٣٠٠ ¥ منذ عام ١٩٦٠م حيث هناك شاب يحاول الانتحار كل ٣٧ دقيقة[(٣)] .

ثانياً : "wUF*' "

من أسباب الخواء الروحي ارتكاب المـعاصي، حيث إن العقيدة الصحـيحة تبرمج النفس وتهيئها للطاعة وتجنب المعـصية، فإذا ضعف الوازع الديني عند المرء، وأقدمت نفسـه على تشهي المعـاصي واقتراف الملذات من أي بـاب كان دون رادع من عقـيدة صحيحة أو فكر ديني سديد فإن ذلك يفضي إلى:

---

(١) الأنعام: ٨٢.

(٢) انظر: مشكلات الشباب. د/ أحمد جمال ظاهر ص٧١، ٧٢ ،ط مكتبة المنار: الكويت ١٩٨٥م.

(٣) انظر: جريدة الأهرام المصرية ٥ / ٦ / ١٩٨٨م.

١ـ ألم نفسي :

وهذا الألم يصيب من كان ذا عقيدة صحيحة غير أن وازعه الديني ضعيف أو عرض عليه عارض فصرفه عن ممارسة كامل الطاعة إلى دروب المعصية.

وهو ألم يحدث له من ضميره الخلقي، وقد يعبر عن هؤلاء الفئة من الناس بفئة ذوي النفس اللوامة، وهي تلك التي تلوم صاحبها على فعل المعصية، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾[1].

وإذا أهمل المرء داعي ضميره، ولوم نفسه له فإنه يقع في دائرة الخواء الروحي، والفراغ النفسي ويشعر بموت ضميره الخلقي .

″ wIK)˙ f(˙Ł dOLC ˙ ˚u †

وهؤلاء هم من أدمنوا المعاصي، وواظبوا على ممارستها فإنهم يدخلون تحت قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانوا يَكْسِبُون**﴾، نسأل الله الستر والعافية .

وهذا الران هو الحائل بينهم وبين تشبعهم الروحي واستئناسهم بالله ـ سبحانه وتعالى.

المعاصي مراحل تتبع بعضها بعضاً :

وهذه حقيقة اجتماعية أثبتها العلماء حيث إن الإنسان إذا ارتكب ذنباً ولد ذلك ذنباً آخر، وصدق النبي ﷺ إذ يقول: « ... **وإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة**»[2].

ويماثل ذلك الكذب حيث يقول ﷺ: «**وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار**»، وهكذا هي مراحل المعصية من ظلام لظلام حتى يصبح القلب أسوداً (كالكوز مجخيا) من كثرة الران عليه .

وصدق القائل :

رَأَيْتُ الذُّنوبَ تُميتُ الْقُلُوبَ	وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَـانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنوبِ حَيَـاةُ الْقُلُوبِ	وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَـا

(١) القيامة: ١، ٢.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ثالثاً : الفساد الاجتماعي :

إذا كان السببان الأوليان هما من الأسـباب الدينية والروحية في الخواء الروحي، فإن هناك سبباً لا يقل عنهما خطورة ألا وهو سبب اجتماعي، يكمن بالدرجة الأولى في (الفساد الاجتماعي) بمظاهره المختلفة :

١ـ الفساد الخلقي . ٢ـ البطالة .

٣ ـ فساد المؤسسات الاجتماعية والتربوية .

٤ . فساد النظام السياسي .

أما عن أهم مؤثرات هذه المظاهر في الخـواء الروحي فيمكن استعراضـها بإيجاز شديد كالتالي :

١ ـ الفسـاد الخلقـي :

الإنسان كائن خلقي، وله شعور وضمير وعاطفة ولا بد من ضبط مشاعره، وأن يتبع حـالة من التوازن في إشـباع لذته، وإشبـاع روحه، وإشبـاع عقله وفكره مـعاً، والخلق القويم هو الذي يحث صاحـبه لأن يعتدل في اكتساب لذاته، وإشـباع رغباته الحسيـة والمعنوية معاً، ولا يكون ذلك إلا بسلوك ديني صحـيح، يهدف النظام الديني إلى ضمان السعادة لمعتنقيه والعاملين بأوامره وتهذيب سلوكهم[١]، وعند غياب النظام فإن الاعتدال يتحول إلى إفـراط وحيوانية محضة تفضي بصاحبـها إلى الفساد وتوليد الشرور التي تؤدي إلى ما بين جسـمية ونفسية وإحبـاط ثم إلى أمراض عضوية، وكل هذا يؤدي بدوره إلى الخواء الروحي[٢].

٢ ـ البطالـة :

تؤدي البطالة إلى الخواء الروحي، وذلك بأنهـا تولد عند فئة الشبـاب ـ خاصة ـ الفراغ، وهو من أعضل المشاكل التي تواجـه المجتمعات النامية والمتقـدمة معاً، وعدم استغـلال الفراغ يؤدي إلى مشـاكل اجتماعـية عدة، ويقيناً فـإنه يؤدي إلى الانحراف والشذوذ ويتولد عن ذلك الضيق والضجر ومن ثم الخواء الروحي .

(١، ٢) مشكلات الشباب ص ٥٣ .

وصدق القائل :

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَةْ ... مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيَّ مَفْسَدَةْ

٣ ـ فساد المؤسسات الاجتماعية :

يؤدي فساد المؤسسات الاجتماعية من إعلام مسموع ومقروء ومنظور، إضافة إلى المؤسسات التربوية في المجتمع إلى انحلال عام بين طبقات المجتمع مما يفضي به إلى الاضطراب والقلق ومن ثم :

❖ **انتشار الفواحش والرذائل .**

❖ **انتشار المخدرات .**

❖ **انتشار الجرائم بكل أنواعها .**

ويؤدي هذا جميعاً إلى الانهيار الاجتماعي والنفسي متمثلاً في الخواء الروحي وما يتبعه من اضطراب عام في السلوك وفقدان للهوية والغاية وانفصام واغتراب وأمراض نفسية وعضوية كثيرة !!

٤ ـ فساد النظام السياسي :

يؤدي فساد النظام السياسي إلى اضطراب عام في جميع المجالات، وهو بالتالي ينعكس على المجتمع، فيؤدي إلى حالة إحباط عامة بين مختلف الفئات العمرية، فيعزف البعض عن السياسة إلى الملذات والبعض الآخر يثور ويتطرف إذ يجد في ذلك تعبيراً عن كيانه ورأيه، وفي كل الحالات فإن الخواء الروحي هو القدر المشترك بين أفراد المجتمع الذي اضطرب سياسياً وانتفض نظامه المؤسس وغدا ألعوبة بيد أولياء الأمر من الصفوة والنخبة الفاسدة .

علاج الخواء الروحي.. من السنة النبوية:

أولاً : اكتساب العلم :

تعد الأسباب التي سبق ذكرها في المقال السابق من أهم الأسباب الرئيسة في الخواء الروحي، ومن ثم القلق والاضطراب النفسي، وهي جديرة بأن يلتفت إليها وأن تحلل تحليلاً علمياً دقيقاً وتلك هي مرحلة التشخيص والتي ذكرتها مجملة .

وحيث تم ذلك فـلابد من الخطوة الثانية بعـد التشخـيص ألا وهي العلاج، ولا أنجع، ولا أنجح في علاج خـواء الروح، وفسـاد النفس من كتاب اللـه وسنة رسوله محمد ﷺ وهذه بعض الوصفات الربانية من كتاب الله وهدي رسوله ﷺ نلتمس فيها الدواء الشافي لمن سأل عن الجواب الكافي.

دفع الجهل:

من أسبـاب الخواء الروحي الجهل؛ إذ الإنسان الجـاهل يخبط ويتخبط علـى غير هدى، ولا يدري غايته ولا وجهته؛ فـتراه ذا خواء وفراغ لا يسده إلا أن يتعلم أو أن يقود نفسه إلى المهالك .

وصدق ابن حزم لما قال:

إِنَّمَـــا ٱلـعِـــلْـمُ أَسَـــاسٌ فَوْقَهُ ٱلأَخْلاَقُ سُـــورْ
فَتَحَـــلَّى ٱلعِـلْـمُ بِٱلعَـــقْلِ وَإِلاَّ فَـــهُـــوَ بُـــورْ
جَاهِـــلُ ٱلأَشْيَـــاءِ أَعْمَـــى لاَ يَـــرَى أَيْـنَ يَـدُورْ

وقال رحمه الله تعالى: «**لو لم يكن في العلم إلا دفع ألم الجهل لكفى**».

لأن الإنسان العالم يكون مطمئناً منسجماً مع نفسه وواقعه، خفيف الظل، وبهيج النفس غير ذي خواء .

وتلك من فضائل العلم، حتى إن نبي الله يوسف لما كان عالماً كاد الله له، ودفع سيدنا يوسف عن نفـسه بعلمه ألم فراق أخيـه، وامتدح الله له حيلته في أخـذ أخيه بقوله تعالى ـ بعد أن ذكر وضع السقاية في رحل أخيه: ﴿**كَذَلك كِدنَا لِيُوسفَ فِي الأَرْضِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم**﴾[1].

وقد حث الإسلام في آيات كـثيرات على العلم وجاءت السنة النـبوية حاثةً على العلم في جل مواقفها ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَقُلْ ربِّ زدني عِلْماً**﴾[2].

وقوله سبحانه: ﴿**يَرْفعُ اللَّه الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم والَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْم دَرَجَات**﴾[3].

(١) يوسف: ٧٦. (٢) طه: ١١٤.
(٣) المجادلة: ١١.

وقال النبي ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[(١)].

وقال أيضاً: «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له طريقاً إلى الجنة**»[(٢)].

وقال: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاءً بما يصنع**»[(٣)].

وجاءت آثار السلف كذلك تحض على العلم في مواقف كثيرة .

والحاصل أن العلم من أهم الأسباب في علاج الفراغ الروحي عن طريق :

الإشباع الفكري :

بما يفيد العلم حيث يملأ فراغ الفكر ويهديه إلى الصواب، فيقر الإنسان العالم وينسجم مع نفسه .

دفع الوسواس وألم الجهل :

وهذا بدوره يؤدي إلى الراحة والسكون والطمأنينة والأمن بما يؤدي إلى زيادة حالة الإشباع والامتلاء الروحي .

إقناع النفس وتهدئتها بالمنطق والتأمل :

وهذه من أدوار العلم الكبيرة؛ حيث إنه يولد لدى الفرد قناعات ويقيناً راسخاً يفضي إلى الهدوء والسكينة والإشباع الروحي، سواء كان ذلك عن طريق الإقناع العقلي بالحجة والبرهان، أو عن طريق إثارة حاسة التأمل والتفكر، ومن ثم الانسجام والإقناع النفسي .

ثانياً : الاستعداد للآخرة:

مما يملأ الروح ويشبعها ويؤنسها الانشغال بالآخرة والاستعداد لها، وقد جاءت أحاديث النبي كالعقود والنضيدات، لا تعلق على صدر إلا وأذهبت خواءه الروحي وأحلت محله الأنس بالله والامتلاء بنوره سبحانه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤) عن أنس بن مالك، وتمام الحديث: «وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب»، وفي الزوائد: «إسناده ضعيف»، وصححه الألباني دون جملة «واضع العلم».

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأحمد (٢/٢٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٣٥)، وأحمد (٤/٢٣٩)، عن صفوان بن عسال، قال الترمذي: «حسن صحيح».

ومن هذه الآثار التي نذكرها في الاستعداد للآخرة :

❖ عن ابن عمـر رضي الله عنه قال: أخـذ رسول الله بمنكبي فـقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»(١).

❖ وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»(٢).

❖ وكان النبي ﷺ يقول: «**ما لي وللدنيـا، إنما مثلي ومثل الدنيا كـمثل راكب قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها**»(٣).

ومن وصايا المسيح ـ عليه السلام ـ لأصحابه أنه قال لهم: «**من ذا الذي يبني على موج البحر داراً، تلكم الدنيا، فلا تتخذوها قراراً**»(٤).

❖ وكان سـيدنا عـلي بن أبي طالب يقول: «إن الدنيـا قد ارتحلت مـدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكـل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل» .

❖ وقال عمر بن عـبد العزيز في خطبته: «إن الدنيا ليـست بدار قراركم، كتب الله عليها الفناء وكتب على أهلها منها الظعن، فأحسنوا ـ رحمكم الله ـ منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى»(٥).

اغتنام الأوقات في الباقيات الصالحات :

سبق أن ذكرنا أن هنـاك ارتباطا وطيدا بين الخواء الروحي وسـعة الوقت، وعدم الحكمة في تصريفه والاستفادة منه، وصدق القائل :

(١، ٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، والترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أحمد في الزهد ص (٥٨، ٩٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧/ ٤٣٠)، وذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٨٩)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٠٤).

(٥) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٢٩٢)، وذكره عبد الحق الإشبيلي في العاقبة في ذكر الموت ص (٨٥) ط دار الأقصى ـ الكويت.

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَهْ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيَّ مَفْسَدَهْ

وقال أيضاً :

تَحَرَّ فِيمَا تَطْلُبُ وَالْبَلاَغَا وَاغْتَنِم الصِّحَّةَ وَالْفَرَاغَا

وعليه فقد حث النبي ﷺ على الإفادة من الوقت، واستنفاده في طاعة الله، وإشباع الروح بحبه والأنس به، فقال ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»(١).

وقد جاءت الآثار عن السلف كثيرة في الحث على اغتنام الأوقات، فهذا الحسن البصري يقول: «إنما أنت أيام مجموعة، كلما مضى يوم مضى بعضك، يا ابن آدم إنما أنت بين مطيتين يوضعانك: يوضعك النهار إلى الليل، والليل إلى النهار، حتى يسلمناك إلى الآخرة».

وقال داود الطائي: «إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل فإن انقطاع السفر عن قريب ما هو، والأمر أعجل من ذلك فتزود لسفرك، واقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك»(٢).

وكتب بعض السلف إلى أخ له: «يا أخي يخيل لك أنك مقيم، بل أنت دائب السير، تساق مع ذلك سوقاً حثيثاً، الموت موجه إليك والدنيا تطوى من ورائك، وما مضى من عمرك فليس بكار عليك».

سَبِيلُكَ فِي الدُّنْيَا سَبِيلُ مُسَافِرٍ وَلاَبُدَّ مِنْ زَادٍ لِكُلِّ مُسَافِرِ
وَلاَبُدَّ لِلإِنْسَانِ مِنْ حَمْلِ عُدَّةٍ وَلاَ سِيَّمَا إِنْ خَافَ صَوْلَةَ قَاهِرِ

وقال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، وكيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله، وتقوده حياته إلى موته .

وقال الفضيل بن عياض لرجل: «كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة، قال: فأنت

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢)، وأحمد (١/ ٣٤٤) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.
(٢) انظر الحث على اغتنام الأوقات بالأعمال الصالحات لابن رجب الحنبلي ص ٤.

منذ ستين سنة تسير إلى ربك، يوشك أن تبلغ، فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال الفضيل: أتعرف تفسيره؟ تقول: أنا لله عبد وإليه راجع فمن علم أنه لله عبد، وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول فليعد للسؤال جواباً، فقال الرجل: فما الحيلة؟ قال: يسيرة، قال: ما هي، قال: تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي، أخذت بما مضى وبما بقي»[(١)].

ثالثاً: الإيمان القوي بالله (اليقين):

وهذا سبيل مكين من سبل الإشباع الروحي؛ لأن الروح لا تأنس ولا تقر ولا تتشبع إلا بأن تؤمن بالله، حتى إن الأديان الباطلة تفيد أصحابها في إشباع حاجاتهم الروحية، والقضاء على الخواء الروحي لديهم، فما بالنا إذن بالدين الحق والإيمان الصادق والصحيح .

وقد فطر الله النفوس على الإيمان والاعتقاد به ـ سبحانه ـ كما قال النبي ﷺ حاكياً عن رب العزة: «**خلقت عبادي كلهم حنفاء...**»[(٢)] وقال النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يمجسانه أو يهودانه أو ينصرانه**»[(٣)].

ولذلك فإن أهل الإلحاد لا يقر لهم قرار ولا تتشبع أرواحهم ولا تأنس ولا تركن إلى الراحة، وإن أحاطتهم النعم من كل مكان، وذلك لأن غذاء البدن وكساءه لا يغني شيئاً لأنه ظل زائل وإلى فناء، بينما قوت الأرواح هو الباقي وهو الدائم، وصدق الله إذ يقول: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾[(٤)].

أثر الإيمان في الإشباع الروحي:

الإيمان من أهم مصادر الإشباع الروحي عن طريق: بث الطمأنينة في النفس، وإشباعها بحب خالقها والاعتقاد الصحيح فيه، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾[(٥)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ١١٣)، والحث على اغتنام الأوقات ص ٤ .

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) البقرة: ١٩٧ .

(٥) مريم: ٩٦ .

تأمين الروح من المفازع والمؤرقات، وذلك سبيل لا يستطيعه الشعر ولا الغناء ولا شيء من عالـم المادة، وإنما هو قوت رباني إيماني يتـصل بالملأ الأعلى يلائم الروح، قوت قوامه حب الله الباقي ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾(١).

وإذا بلغت الروح منازل الحب لله والاعتقاد فيه ـ سبحانه، فإنها تتحلى بالأمان وتكتسي ثوب الطمأنينة كما قال تعالى: ﴿**يا يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿ **تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ...**﴾(٣).

رابعاً: اللجوء دائماً إلى الله:

لا شك أن البشر محكومون بقوانين اللذة والألم، وقد يضعفون مع المتاعب إلى حد الهوان ... وقد يشتدون مع المنافع إلى حد الطغيان ...

وفي كل فهناك فراغ وخواء روحي جاثم على نفوسهم يزيد الهوان هواناً، أو يزيد الطغيان طغياناً، ولا يندفع هذا الخواء والفراغ إلا باللجوء إلى الله والوقوف ببابه .

وقد ركز الله في طبيعتنا ضعفاً فطرياً مهما حاولنا أن نستره فهو لا يزال يظهر بين الحين والآخر قال تعالى: ﴿**وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا**﴾(٤).

كما أن الآلام تكشف الضعف الإنساني وتدفع بالبعيد عن الله إلى مزيد من الهاوية، وفيض من الخواء يغدو معه حيران يتخطفه الشيطان .

بينما تدفع بالمؤمن العاقل إلى الوقوف بباب الله وحسن اللجوء إليه ـ سبحانه، وله في رسول الله خير أسوة وأفضل قدوة، فينهج نهجه ويسلك دربه .

اللجوء إلى الله يدفع الخواء النفسي:

نعم إذا وقف المسلم على باب ربه وأذعن له ورغب إليه أورثه الله أنساً به، وتلذذا بعبادته، واستغناء به عن غيره سبحانه، وهؤلاء الصالحون والعابدون كانوا يقولون: « إنا لفي لذة لو عرفها الملوك، وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسهام » .

---

(١) القصص: ٨٨.
(٢) الزخرف: ٦٨.
(٣) فصلت: ٣٠، ٣١.
(٤) النساء: ٢٨.

وكانوا يقولون: «من ذاق عرف، ومن حُرم تلف ».

وقال أحدهم:

يا مؤنسي بذكره

ومن فؤادي موكل

لأمره ونهيه.

وقال الآخر :

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي صِرْتُ فِي سَعَةٍ ... أَرْضَى الْقَلِيلَ وَلاَ أَهْتَمُّ بِالْقُوتِ

وَشَاهِدٌ خَالِقِي أَنَّ الصَّلاَةَ لَهُ ... أَحَبُّ عِنْدِيَ مِنْ دُرٍّ وَيَاقُوتِ

الاقتداء برسول الله في اللجوء إلى الله يدفع خواء الروح :

هذا رسول الله ﷺ كان إذا عظم عليه خطب واشتد به فزع لجأ إلى الله، وطالت ضراعته، واتصلت وقفته بباب ربه، فكيف بخواء أو فراغ روحي أن يتسرب إلى من يتبع رسول الله في اللجوء إلى الله؟

وعن ثوبان أن النبي ﷺ كان إذا راعه شيء قال: «**هو الله، الله ربي لا شريك له**»[(١)]، وكان ﷺ يعلم أصحابه عند الفزع، وبداية دبيب الخواء إلى نفوسهم أن يقولوا: «**أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون**»[(٢)].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: شكوت إلى رسول ﷺ أرقاً أصابني فقال: «**قل اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون، وأنت حيّ قيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم ... يا حي يا قيوم اهدئ ليلي وأنم عيني**» قال زيد: فقلتها فأذهب الله ـ عز وجل ـ عنّي ما كنت أجد[(٣)].

وهكذا كان حال رسول الله مع أصحابه معلماً ومرشداً، أو آخذاً بيدهم إلى الله

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠٤٩٣) عن ثوبان رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٩٣)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/ ١٢٤) (١٧/ ٤٨) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٢٨): «رواه الطبراني وفيه عمرو بن الحصين وهو متروك»، وقال الألباني في الضعيفة (١٣٢٨): «ضعيف جداً».

ليدفع عنهم خواءهم وأرقهم، ويداوي علاجات نفوسهم وعلل أرواحهم[١].

تعليم الرسول لأصحابه دفع خواء الروح بالدعاء واللجوء إلى الله:

علم رسول الله أصـحابه ـ كمـا سبق ـ أن يدفعـوا أرقهم وفزعـهم باللجوء إلى الله، وهذه نماذج من تلك الدعوات الرقيقات المشعـات حباً، والمعبقات حنيناً وإذعاناً لله تدفع خواء الخاوين، وتلهب مشاعر المطيعين :

«اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي»[٢].

«اللهم اهدني وسددني»[٣].

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات[٤]**، «وضلع الدين، وغلبة الرجال»**[٥].

«اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»[٦].

«اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك»[٧].

«اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليّها ومولاها»[٨].

«اللهم إني أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة، والنجاة من النار»[٩، ١٠].

---

(١) انظر: فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، للشيخ محمد الغزالي ص: ٧٧، ٧٨، ٨١ .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٨٣) عن عمران بن حصين #، وقال: «هذا حديث غريب»، وضعفه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٢٥)، وأبو داود (٤٢٢٥)، والنسائي (٥٢١٢)، وأحمد (١/ ١٥٤)، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٢٣)، ومسلم (٢٧٠٦)،عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٢٨٩٣) ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٦) أخرجه مسلم (٢٧٢٢)، والنسائي (٥٥٣٨)،عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٧) أخرجه مسلم (٢٧٣٩)، وأبو داود (١٥٤٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٨٥)،عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٨) جزء من الحديث المتقدم.

(٩) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٥) عن عبد الله بن مسعود وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٨٤).

(١٠) انظر: فن الذكر والدعاء ص: ٨١ .

العبادات ودورها فى الإشباع الروحى:

إن مـشكلة الخـواء الـروحي لا تقل خطورة على المجـتـمـعـات من المشـاكل الاقتصادية؛ لأن الاقتصاد يعالج بوضع الخطط الصحيحة، وضبط الهيكلة الاقتصادية إلى غير ذلك مما يعرفه أهل هذا الشأن.

بينما خواء الروح لا يزال يشكل «معضلة عصرية» حار الناس في دفعها والتغلب عليها، ولا تزال البحوث تلو البحوث تخطّ وتملأ أرفف المكتبات بلا جدوى كبيرة من ورائها.. ترى لماذا؟!

والإجابة تكمن بالـطبع في أن علاج الروح يختلف عن عـلاج الجسد، فـها هو الطب قـد تقدم،وبلغ الآفـاق في تشخـيص أمراضـه ومعـرفة علله، وطـرح أحدث الأساليب للعلاج.

بينما هو في مـجال علاج الروح لا يزال قـاصراً متـعثراً، ولا يزال عليـه القوم وخاصـتهم ومـثقفـوهم يلجئـون إلى الدجل والشعـوذة، وبعضهم يلجـأ إلى السكر والمخـدرات...؛لكي يفـروا من خوائهم الروحـي،وليدفـعـوا عنهم علل الأرواح، وأمراض النفوس.

ولا مفـر، ولا مناص إلا أن نعـود في علاج الروح إلى خـالقهـا وواهبهـا قال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[1]، وهذا بيان قـرآني ثابت أن الروح من أمر الله وأنه لا يزال العلم بهـا والتعرف على كنهـها علماً من علوم اللّه الذي لم يأذن لخلقه بالاطلاع عليـه إلا بالقدر اليسير ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾.

ولذلك فـإن طب الروح هو طب رباني إلهي، يطلب من صـيـدلية رسـول اللّه محمد ﷺ، فهو رسول الإيمان،وهو ترجمان القرآن، وسيرته بإذن اللّه طب القلوب وشفاؤها، وفي منهجـه إطفاء ظمأ الأرواح وإشباعها، فهـا نحن ذا على باب صيدلية نبينا محمد ﷺ نغترف منها مضادات اليأس والخواء، ونلتمس فيها مقويات الروح، وفيتامينات النفوس.

---

(١) الإسراء: ٨٥.

ودواء اليوم هو التأمل والتفكر في العبادات، فالتأمل والتفكر عمل عقلي روحي له دور عظيم في رد الشرود الذهني، والخواء الروحي إلى الهدوء والحكمة والطمأنينة.

ومن وظائف التأمل في العبادات وثماره:

حب ممارستها والإقبال بالقلب والعقل والبدن على أدائها في غير ضجر ولا ملل:

ولذلك كان الصحابة يستريحون ويفرحون في مواسم الطاعات كشهر رمضان والأشهر الحرم وموسم الحج إلى غير ذلك.. حتى إنهم أحبوا الجهاد في سبيل اللّه ولم يلاحظوا فيه المشقة بل لاحظوا فيه الثواب والنصر والظفر والحسنى والخلود عند اللّه، خلافا للمنافقين الذين لا يفقهون معاني العبادة ولا يتأملونها، ولذلك لا يقبلون عليها قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[1].

بينما وصف المؤمنين أنهم ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[2].

ولو تتبعنا الآيات والمقارنات بين المؤمنين الصادقين أهل الامتلاء الروحي، والتشبع النفسي وبين المنافقين وأصحاب الخواء الروحي لوجدناها كثيرة وفيرة في كل أصناف العبادات جميعاً.

ممارسة العبادة وتأملها وملاحظة معناها:

نعم هذا مسلك عظيم من مسالك دفع الخواء الروحي، حيث ينبغي للعاقل أن يقبل على اللّه عند ممارسة طقوس العبادة بقلبه وعقله وخاطره، لا أن يمارس العبادة بجسده وحركاته وسكناته، فاللّه لا تناله الحركات أو السكنات، وإنما يناله التقوى سبحانه، والتقوى مكانه القلب والقلب يحرك العقل، وعبادة دون عقل وقلب لا تساوي شيئاً «**وليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها**»[3].

---

(١) النساء: ١٤٢. (٢) آل عمران: ١٩١.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٦١) من قول سفيان الثوري، وأخرجه أبو داود (٧٩٦) عن عمار بن ياسر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عُشر صلاته، تُسعها، ثمنها، سدسها، خمسها، ربعها، نصفها**»، والحديث حسنه الألباني.

رسول الله يعلمنا الإشباع الروحي في ممارسة العبادة:

نعم بما أن رسـول اللّه قدوتنا، وهـو إمامنا وقـائد دربنا، فلنلتـمس من سيـرته خيوطاً تهدي إلى دفع خواء الروح:

تأمل الصلاة يدفع خواء الروح:

كان النبي ﷺ إذا وقف في الصـلاة استكان لربه، وتـوجه إليـه بقلبه وعـقله وروحه ومشاعره وخواطره وبكينونته كلها، فكان يجـعلها ميداناً للسياحة الروحية مع اللّه، ولذلك جعلها النبي شـارة التقوى ومظهر الخضوع والتـودد، وشعار الولاء لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين.

وكان يقول ـ أيضا: «**لبيك وسـعديك، والخير في يـديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك**»[(١)].

وهكذا كان مفتتحاً للصلاة بمثل هذه الدعوات المنيرات التي تشبع الروح، وتفتح مغالق حجبـها عن الله، وتدفع الوحشة عن القلب، وتدفع بالأنس والدفء والسكينة إليه.

وتأمل معي حاله حين سجوده حيث ربما يقول: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة..**»[(٢)].

وهكذا كانـت صلاته ﷺ دائماً، وقـد حث المؤمنين على الاقـتداء به فـقال: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[(٣)].

بل كانت الصلاة تشبع حاجات الأجسام مع إشباعات الروح إذ من يلجأ إلى اللّه بروحه يقضي اللّه له حـاجة روحه وجسمه مـعاً، وقد علَّم النبي ﷺ أصحابه ذلك حيث وجـههم عنـد حلول عسرة أو اضـطراب أمر واختـلاطه أن يفزع أحـدهم إلى الصلاة يستفتي ربه، ويحط برحاله الروحية عنده «**وتلك هي صلاة الاستخارة**».

فعن جابر بن عبد الله قال: كان رسول اللّه ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢٢)، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٨٧٣) عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣١) عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن يقــول: إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فـضلك العظيم، فـإنك تقدر ولا أقـدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت عـلام الغيـوب.. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري.. فاقدره لي ويسـره لي، ثم بارك لي فيـه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شـر لي في ديني ومعـاشي وعاقبة أمري.. فاصرفه عنـي واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به، ويسمي حاجته**»[١].

وهكذا تغدو الصــلاة ميداناً لإشــباع الروح، وإشبــاع حاجات النفــوس، وبهذا يندفع خواء الأرواح وتحل محله الأفراح.

الصيام «ميدان لإشباع الروح وتطهير النفس»:

الصيام عبادة قلبية وروحية في المقــام الأول، وإن بدت للعيان أنها عبادة جسدية حيث ينقطع الإنسان عن الطعام والشراب والجماع منذ أذان الفجر، وحتى حلول أذان المغرب.

وسيــرة رسول اللّه تبــين تلك المسألة أن الصــيام مــيدان لإشبــاع الروح وتطهــير النفس، وهذا القرآن يوثق هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[٢].

ولذلك فقــد حث النبي ﷺ المسلمين على تجنب الرفث والــفسوق والمعــاصي حال الصيام خــاصة، لأن المقصود بالصوم معناه لا مــبناه وصورته فقال: «.. **الصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصــخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم**»[٣].

وقال أيضاً: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٦٢، ٧٣٩٠)، عن جابر رضي الله عنه.
(٢) البقرة: ١٨٣.
(٣) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وكان يقول إذا رأى هلال رمضان: «**اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك اللّه هلال رشد وخير**»[١].

وقال أيضا: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس للّه حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»[٢].

وهكذا تدور هذه الأحاديث وغيرها في سياق غاية الصوم، وهدفه، ومعناه، وفحواه، بأن يطهر الروح ويشبعها، ويورثها التقوى؛ إذ الإنسان الصائم قليل التعلق بالجسد، يخلص لروحه وعقله، ويرقى مراقي الملائكة إذ شابههم في علوه عن اللذات والماديات، وإذا خلصت الروح وصفت وتفكرت في ربها فإنه يندفع عنها خواؤها، ويزول ما بها من مؤرقات، واضطرابات فتسكن بالطاعة وتستريح بها.

ولذلك أخبر النبي ﷺ عن الصائم أن الملائكة تصلي عليه، فعن أم عمارة الأنصارية أنها كانت صائمة فقال النبي: «**إن الصائم تصلي عليه الملائكة إذا أكل عنده حتى يفرغوا**»[٣].

الحج رحلة لتطهير الروح وإشباعها:

الحج ليس جامداً أو هو مجرد طقوس يؤديها المرء وهو في خواء وفراغ منها، وإنما هو مشاعر ذات دلالات ولفتات روحانية، ومفاتح لخزائن من العواطف الدينية الدافعة والجياشة، ومن ثم كان الارتباط بها ركناً في الدين.

إذ تنطلق قوافل الحجيج براً وبحراً وجواً صوب البيت العتيق مقبلة من القارات الخمس، وفي الأفئدة شوق وفي العيون بريق وفي النفوس تعظيم ومهانة وهنا يتحقق قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾[٤].

وقد يظن بعض الحمقى من المبشرين وغيرهم أن شعيرة الحج جامدة غير معقولة، وأن الكعبة والحجر الأسود أحجار صماء لا دلالة وراءها كذبوا، وإنما الحج

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٥١)، وأحمد (١/١٦٢)، عن طلحة بن عبيد الله، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٣، ٦٠٥٧)، وأبو داود (٢٣٦٢)، والترمذي (٧٠٧)، وأحمد (٢/٤٥٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٧٨٥)، عن أم عمارة بنت كعب الأنصارية رضي الله عنهما وقال: «حسن صحيح».

(٤) الحج: ٣٢.

توحيد وعواطف من الحب لله، والسياحة في عالم الآخرة، وتطهير للروح، وتنقية للنفس، وما أروع ما يظهر ذلك في التلبية التي هي معان مفعمة بالإخلاص والتوحيد والمحبة لله «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**»(١).

وهذا هتاف إيماني يزداد هديره كلما علا الحاج ربوة أو هبط واديا، وكلما أظلتهم هدأة الليل، أو سكينة السحر فليشعر الملبي أن الكون كله يتجاوب معه مصداق ما ورد في الحديث: «**إذا لبى الحاج لبى ما عن يمينه ويساره من شجر وحجر ومدر حتى منقطع الأرض من ها هنا وها هنا**»(٢).

وهكذا يملأ الروح الإيمان، وتغشاها الطمأنينة فتسكن وتتشبع وتركن إلى ربها، ويندفع عنها خواؤها، وتأمن خير أمن.

وصدق الله إذ يقول عن روح مشاعر الحج: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**﴾(٣).

الخلاصة:

١ـ إن الخواء الروحي مشكلة عصرية حقيقية عمّت الغرب خاصة، ثم ها هي ذا تعم العالم الإسلامي على رغم أنه عالم الروح والفضيلة.

٢ـ إن من أهم أسباب الخواء الروحي فساد العقيدة، وقد نص الله على ذلك بقوله: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾(٤).

٣ـ إن فساد الحياة الاجتماعية بمؤسساتها السياسة والتربوية يفضي إلى مجتمع تسوده الرذيلة وتكسوه المعصية، ومن ثم يكون مجتمعاً خاويا روحياً، ومدمراً نفسياً وتسقط عنه أثوبة (٥) الأمن والراحة والطمأنينة.

٤ـ أن أهم سبب من أسباب التشبع الروحي هو العلم الشرعي حيث إنه يدفع

---

(١) انظر فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء ص:١٠٦،١٠٧ .

(٢) أخرجه الترمذي (٨٢٨)، وابن ماجه (٢٩٢١)، عن سهل بن سعد الساعدي، وصححه الألباني.

(٣) آل عمران: ٩٦، ٩٧ (٤) الأنعام: ٨٢.

(٥) الأثأب شجر عظيم من الفصيلة التوتية «المعجم الوجيز».

ألم الجهل، ويوضح الطريق إلى اللّه ـ سبحانه، ويؤنس النفس ويشبعها، ويرتقي بالروح إلى مصاف الروحانيين من الملائكة.

٥ـ أن من أهم أسباب التشبع الروحي أيضاً هو الاقتداء برسول اللّه ﷺ في إيمانه القوي باللّه ولجوئه إلى اللّه واستعداده للآخرة، وممارسة العبادة على طريقته من التمعن والتبصر والتأمل في معانيها ومقاصدها؛ لأن العبرة في الشرع بالجوهر، والمعاني لا بالألفاظ والمباني.

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما صبوت إليه، فإن كان فذلك بفضل من اللّه ورحمته، وإن غير ذلك فمن نفسي، ومن الشيطان.

والحمد لله رب العالمين

الخاتمة

في ختام هذا الكتاب: نستطيع أن نوجز أهم المحاور التي تضمنها حيث تحدثنا في المقدمة عن التعريف بالكتاب.

ثم تحدثنا في الفصل الأول: عن النقوش التربوية في المشهد الاجتماعي؛ بادئين بالتعريف بحقيقة الدنيا، ومحذرين من الاغترار بشهواتها والركون إليها،كما تحدثنا عن الدعوة،وأصناف الناس فيها، مبينين أهمية الأخلاق في النهوض بالدعوة والسمو بها حتى تحقق أهدافها وغاياتها، ثم تحدثنا عن منهج النجاح في الحياة، مبرزين أهم النقاط المهمة في هذا المجال،كما تحدثنا عن الأسس المنهجية في التعاطي مع التكاليف الشرعية، مؤكدين ضرورة التأسي والاقتداء برسول الله ﷺ.

وتحدثنا فيه عن الخطوات التي تحقق السعادة الاجتماعية، مبينين أهمية التكافل الاجتماعي والمعنوي في تحقيق السعادة الاجتماعية وتعزيز الروابط بين أفراد الأمة.

أما الفصل الثاني: فقد تحدثنا فيه عن النقوش الإيمانية الدعوية، مبرزين بعض السمات التى تمتاز بها الحضارة الإسلامية،ومؤكدين أهمية التمسك والاعتصام بحبل الله،فهو السبيل إلى الفلاح والطريق إلى النجاح، كما تحدثنا عن خطر الاختراق الفكري، وبينا سبل مواجهته والتصدي له، ثم كانت لنا بعض الوقفات الجادة حول مسيرة الدعوة والدعاة، وضوابط العمل الإسلامي التي ينبغي أن يحرص عليها العاملون في الحركة الإسلامية،كما تحدثنا أخيراً عن حقيقة السعادة ومكانتها والأسباب الجالبة، لها محذرين من الفراغ الروحي الذي يعيشه العالم اليوم مما أدى به إلى الكثير من الانتكاس والارتكاس،حيث أكدنا في هذا المجال على ألا سعادة للبشرية إلا بالعودة إلى المنهج الإسلامي، فهو المنهج الوحيد الذي يحمل البلسم والشفاء، ويحقق السعادة والطمأنينة للبشرية.

هذه أهم المحاور التي تضمنها هذا الكتاب الذي يعالج قضايا المجتمع ويعيش همومه وواقعه.

ثبت بأهم المراجع

- **الأدب الصغير**: ابن المقفع.
- **إعلام الموقعين**: ابن القيم.
- **الأمم بين الاقتصاد والأخلاق.**
- **أولويات الحركة الإسلامية**: د/ يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة عشر، ١٩٩٣م.
- **الأهرام القاهرية.**
- **أين الخلل؟!** دكتور/ يوسف القرضاوي.
- **التراجع الحضاري**: د/ علي عبد الحليم محمود.
- **تغريب العالم.**
- **التفسير المحيط**: دار الفكر ـ بيروت، ١٩٨٣م.
- **تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان**: عبد الرحمن بن ناصر السعدى، طبعة الرئاسة العامة للبحوث العلمية ـ السعودية ١٤١٠هـ.
- **حلية الأولياء.**
- **دور الشباب فى حمل رسالة الإسلام.**
- **دور المرأة فى العمل الإسلامي**: فيصل مولوي، دار الرشاد ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
- **٣٦٥ خطوة للنجاح.**
- **رسائل العاملين**: د/ جاسم بن محمد بن المهلهل الياسين، مؤسسة شروق للنشر والتوزيع الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م، المنصورة، مصر.
- **الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية،** تحقيق إبراهيم الزيبق، طبعة مؤسسة الرسالة.

ـ **سنن القرآن فى قيام الحضارات وسقوطها.**

ـ **السيدة عائشة:** طهماز عبد الحميد، دار القلم، الطبعة الرابعة، ١٩٨٨م.

ـ **الطبقات الكبرى:** ابن سعد.

ـ **عالمنا حضارة أم حضارات؟:** د/ محمد عمارة.

ـ **العدالة الاجتماعية فى الإسلام:** سيد قطب، دار الشروق.

ـ **العرب والحضارة الحديثة.**

ـ **العفة ومنهج الاستعفاف:** يحيى العقيلي، مؤسسة شروق للنشر والتوزيع.

ـ **فن الذكر والدعاء عن خاتم الأنبياء:** محمد الغزالي.

ـ **الفوائد:** ابن القيم.

ـ **فى ظلال القرآن:** سيد قطب، دار الشروق.

ـ **نحن والحضارة الغربية.**

ـ **القرآن والمرأة:** محمد عزة دروزة.

ـ **محمد رسول الله:** محمد الصادق عرجون، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

ـ **مجلة البيان.**

ـ **مجلة المستقبل العربي.**

ـ **مجلة المنطق.**

ـ **مجموعة الرسائل:** الإمام الشهيد حسن البنا، دار الدعوة.

ـ **مختصر كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين.**

ـ **المرأة فى الإسلام:** صبحي الصالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

ـ **المرأة فى التاريخ والتشريع.**

ـ **مشكلات الشباب:** د/ عبد الله ناصح علوان.

ـ **معالجة العجز فى الميزانية:** أ/ عدنان البحر.

ـ **مناقب عمر:** ابن الجوزي.

ـ **مهارة إدارة الأزمات.**

حصيلة الأربعين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد الأمين، وعلى آله وصحابته أجمعين، وبعد:

قال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾(١).

فحرصًا مني على استمرار طباعة كتبي في حياتي وبعد مماتي قمت بالتمويل الكامل لطباعة هذه الكتب في لبنان ومصر، على أن تكون هذه المبالغ وهذه الكتب في محفظة وقفية ثقافية لنشر الكتب ومساعدة طلبة العلم في العالم الإسلامي، وأنا اليوم في الأول من محرم سنة ١٤٣١ هـ الموافق الثامن عشر من ديسمبر ٢٠٠٩ م أضع اللمسات الأخيرة على إصداراتنا؛ لنغتنم العام الأربعين لإنتاجنا الثقافي الكتابي المقروء الذي أكرمني الله به، وقد وضعت نصب عيني ما ذكره الإمام النووي في كتابه الأذكار عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ**﴾(٢).

قال ـ رحمه الله: «اعلم أن ذكر محاسن الإنسان لنفسه ضربان: مذموم ومحبوب، فالمذموم: أن يذكره للافتخار، وإظهار الارتفاع، والتميز على الأقران، وشبه ذلك. والمحبوب: أن يكون فيه مصلحة دينية، وذلك بأن يكون آمرًا بمعروف، أو ناهيًا عن منكر، أو ناصحًا، أو مشيرًا بمصلحة، أو مُعلِّمًا، أو مؤدبًا، أو واعظًا، أو مذكرًا، أو مُصلحًا بين اثنين، أو يدفع عن نفسه شرًا، أو نحو ذلك، فيذكر محاسنه ناويًا بذلك أن يكون هذا أقرب إلى قبول قوله، واعتماد ما يذكره، وقد جاء في هذا المعنى ما لا يحصى من النصوص، كقول النبي ﷺ: «**أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِب**»(٣)، وقوله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ**»(٤)، وقوله ﷺ: «**أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ**»(٥)، وقوله ﷺ: «**أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللهِ وَأَتْقَاكُمْ**»(٦).. وأشباهه كثيرة.

---

(١) الأحقاف: ١٥. (٢) النجم: ٣٢.

(٣) متفق عليه: البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦).

(٤، ٥) أخرجه مسلم (٢٢٧٨).

(٦) أخرجه البخاري (٢٠) بلفظ: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا».

هذا وقد قال الله تعالى حكاية عن يوسف: ﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾(١).

وقد قال عثمان # عن نفسه، حين حُوصر: (أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ الله قَالَ: «**مَنْ حَفَرَ رُومَةَ فَلَهُ الجَنَّةُ**»؛ فَحَفَرْتُهَا؟ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ**»؛ فَجَهَّزْتُهُ؟ فَصَدَّقُوهُ بِمَا قَالَ)(٢).

كما إنني هنا إذ أذكر ما كتبت، إنما أصيح على الملأ: هَذَا فَضْلُ الله الَّذي تَكَرَّمَ به عَلَى عَبْده الضَّعيف الَّذي لا حَوْلَ لَهُ وَلا قُوَّةَ، أُعْلنُ لنَفْسي ولوَلَدي منْ بَعْدي أَنَّ مَا كَتَبْتُهُ أَوْدَعْتُهُ مَعَ مَا أَكْرَمَني الله به منْ مَال، أَضَعُهُ في مَحْفَظَة وَقْفيَة ثَقَافيَة في حَيَاتي وَمنْ بَعْد مَمَاتي، بَيَّنْتُ تَفْصيلَهَا في وَصيَّتي تَحْتَ وسَادَتي، سَائلاً الله التَّوْفيقَ وَالسَّدَادَ.

(١) يوسف: ٥٥.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٧٨).

هذه سلسلة «حصيلة الأربعين»

أ - عنوان السلسلة: بيت الدعوة. ب - اسم الكتاب: وصية لا وصايا.

جـ - رقم السلسلة: ١ د - الرقم الفني: ١

هـ - تعريف الكتاب:

لفتات علمية وتربوية صادقة... راح المؤلف يضمنها من معاني التربية النبوية والمنهجية القرآنية والمبادئ الواقعية ما يجعلها وجبة دسمة تستحق أن تطرح على تلك الشبيبة من فتيان الدعوة المروم منهم أن يكونوا من ضمن تلك الثلة والفئة الراشدة التي أومأ إليها القرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[1].

فكانت هذه الوجبة... وكان هذا الزاد للعمل على تهيئة النشء على قيم الإسلام، ومبادئ الإيمان من خلال ثماني جرعات إيمانية تضمنتها ثماني رسائل هي على التوالي:

١ ـ كيف يكون الداعية شخصية محبوبة؟

٢ ـ الدعوة والدعاة في منهج القرآن.

٣ ـ أولويات في تربية الناشئة.

٤ ـ الثقة بالله وأثرها في العمل الإسلامي.

٥ ـ معايير منهجية في الدعوة الإسلامية.

٦ ـ المراحل الانتقالية في الدعوة الفردية.

٧ ـ مُتطلبات الدعوة الإسلامية ومستلزماتها.

٨ ـ المجاهدة.

وهي أخي تتآزر وتتعاضد.. ويأخذ بعضها بحجز بعض في سبيل استنبات الجذور وابتناء السور...وأي سور؟ إنه سور القيم الواقي الذي نرجو أن ينعم به نشؤنا بعيدا عن تلك الملهيات المضيعات التي تخطفت زهرات كثيرات منهم...

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

---

(١) الكهف: ١٣.

أ - عنوان السلسلة : بيت الدعوة. **ب - اسم الكتاب : المشمرون.**

جـ رقم السلسلة : ٢ **د - الرقم الفني : ٢**

هـ - تعريف الكتاب :

مع مسيـرة البناء ومع استواء عود الفـتيان الذين خاطبناهم في المجـموعة الأولى تأتي هذه الدفعة من الرسائل لتخاطب العقل والوجدان معًا عند هؤلاء الشباب، وهي نفحات إيمانية تضع بين أيديهم مصابيح الهداية وتغرس في قلوبهم مجموعة من القيم والمعاني التي يحتاجـها الشباب الذين بدأوا في سيرهم معركـة الدعوة المباركة، وتأتي هذه المجموعـة بعد وضع المعاني التي وردت في كتابنا «وصـية لا وصايا» وهنا يكون من المناسب جدًا طرح معـانٍ جديدة تبنى على ما سبق من أجل الاكتـمال التربوي. وقد بينت هذه المعاني في الرسائل الآتية :

١ ــ الأخوة. ٢ ــ الصفات اللازمة للدعاة إلى الله.

٣ ــ الأهداف الرئيسية للدعاة إلى الله. ٤ ــ للدعاة فقط.

٥ ــ طريق الأمناء لتحقيق الوفاء. ٦ ــ إنسانية الرسول ﷺ.

٧ ــ حوارات في هموم الأمة. ٨ ــ العلم بين يدي العالم والمتعلم.

وهذه الرسائل لا يستطيعها : فهمًـا وتطبيقًا والتزامًا إلا (الربانيون) الذين أتحدث إليهم بحرقة المحب لهذا الدين والعاملين له .

أ - عنوان السلسلة : بيت الدعوة. **ب - اسم الكتاب : عشاق الريادة.**

جـ - رقم السلسلة : ٣ **د - الرقم الفني : ٣**

هـ - تعريف الكتاب :

يمضي الركب وتتتـابع المسيرة ويشب الفـتيان ويدلف الشـباب إلى طور النضج والرشـد، لذا كانت هذه المجـموعـة من الرسائل؛ لكي نـقف مع أبنائنا الذين بدأوا الطريق معنا في المراحل السابقة؛ لنختم معهم المسـار في بيان للمسار العملي، والفقه الميداني، فيتعرفوا على ما هو مفيد ومؤصل في مسيرتهم الدعوية، ولهذا وضعنا سبع رسائل تكون إن شاء الله تكملة لما سبقها، وقد جاءت كالتالي:

١ ــ طريق الدعوة الإسلامــية (أسرار ـ عوائق وعلاجــات، وقفات ـ إشارات وهمسات).

٢ ــ ضوابط في العمل الإسلامي. ٣ ــ الفتور: آثاره وأسبابه وعلاجه.

٤ ــ القيادة (الأسباب الذاتية للتنمية القيادية). ٥ ــ ذاتية المؤمن طريق النماء.

٦ ــ الأوراق الثمانية من كوامن المائة الثامنة. ٧ ــ معاناة قلم وكلمات أمل.

أ ـ عنوان السلسلة: بيت الدعوة. **ب ـ اسم الكتاب: العشرون الكبار.**

جـ ـ رقم السلسلة: ٤ **د ـ الرقم الفني: ٤**

هـ ـ تعريف الكتاب:

الكبار في كل عصر علامــة فاصلة بين العلم والجهل، بين الحركة والسكون، بين الأثرة والإيثار. وهذه محاورات مع قــامات عالية وهمم سامية ونفــوس كبيرة رحلت عن دنيانا بأجســادها وبقيت بآثارها وأياديها. وقد اختــرنا أسلوبًا في العرض يجعلك تعيش مــع هؤلاء السادة بفكرك وقلبك كــأنك تجالســهم وتحاورهم وتستــمع لآرائهم وتبصــر تحليلاتهم... في أسلوب طريف وعــرض شيق، يعطيك التــرجمــة لهؤلاء الأعلام ولكن في صورة مــتحركة تنبض بالحس وتشي بالحيــاة، وبالطبع لا تستوعب هذه الحوارات حيــاة هؤلاء وآثارهم، وإنما نختار بعضًا مــن ذلك الضوء، على نية أن يكون لنا ــ بإذن الله ــ عود آخر لاحقًا، وكان منهجنــا على النحــو التــالي:

١ ــ اختيار الحوارات بعناية ودقة، وقوام ذلك:

أ ــ كشف أوجه العظمة والنبوغ لدى هذه الكوكبة المتميزة.

ب ــ إثارة قضايا قديمة معاصرة معًا في مسيرة الدعوة العلمية والحضارية.

٢ ــ التركيز في الحوارات على الجوانب المتــقاطعة مع ما تمر به الأمة من أزمات لنستنطق آثارهم ونسترشد بفكرهم.

٣ ــ الاعتماد على كتبهم ومصنفاتهم.

٤ ــ جاء الاختيار لهؤلاء الأعلام على النحو التالي:

أ ــ أئمة أهل السنة والجماعة. ب ــ شموع مضيئة من الأندلس.

جـ ـ بين إمامي الحديث والرأي.　　　　د ـ إمام المفسرين.

هـ ـ أئمة الحديث وحفاظه ورجاله الكبار.　　　　و ـ من قادة الدعوة المعاصرين.

ز ـ من أعمدة الدعوة والفقه والحديث المعاصرين.

أ - عنوان السلسلة: بيت الدعوة.　　　　**ب - اسم الكتاب: الأربعون الأدبية.**

جـ - رقم السلسلة: ٥　　　　**د - الرقم الفني: ٥**

هـ - تعريف الكتاب:

للأدب شعرًا ونثرًا فضل يبقى على الزمان، وهو ما كان العرب يجمعونه من كل لفظة ناصعة، وكلمة رائعة؛ لتكون بنية للأدب الخالد، أقيمت له الأسواق، وسارت به وإليه الركبان.

وهذه الأربعينية تضم مختارات من صفوة الأدب العربي، مما سهل مأخذه وغلت قيمته.

أ - عنوان السلسلة: بيت الدعوة.

ب - اسم الكتاب: الإصلاح الاجتماعي والتربوي عند ابن الجوزي وابن حزم.

جـ - رقم السلسلة: ٦　　　　**د - الرقم الفني: ٦**

هـ - تعريف الكتاب:

- كتاب يشتمل على دراسة لعلمين كبيرين من أعلام الإسلام وقاماته العظام، كانا مثالاً عن التجديد والحيوية في فكرنا الإسلامي عامة والتربوي على وجه الخصوص، وهما:

ـ علامة العراق: أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي التيمي البكري (٥٠٨هـ: ٥٧٩هـ).

ـ علاَّمة الأندلس: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (٣٨٤هـ: ٤٥٦هـ).

وموضوع الدراسة: الإصلاح المجتمعي والتربوي والتجديد الحضاري. تناولناه في أربعين وجهًا بين العلمين الكبيرين؛ وذلك لضلاعتهما في المنهج الوضعي،

وسبقـهما في كثير من الـنظريات الاجتماعية، وقـوة عارضتهمـا في تشخيص الواقع الإسلامي، وبراعـتهـما في وضع الحلول المناسـبة، وطرح نظريات ومبـادئ واقعـية وإسلامية، وقد اتبعنا في الكتاب منهج التـحليل والمقارنة؛ حيث سعينا لتحليل الفكر السسـيولوجي (الاجتـماعي) والسـيكولوجي (النفسي) عند ابن الجـوزي وابن حزم، وقارنا بينهما وبين مـحدثينا ومعاصرينا من علماء المشرق والمغرب على سـبيل التنبيه، وسعينا لوضع مـبادئ، والجزم بنتائج بناء على شـواهد الدراسة، تصب جميـعها في صالح الفكر الإسلامي وسبقه للفكر الغربي في عالم الوعي الاجتماعي الواقعي على سبيل التشخـيص والعلاج. وقد أفردنا لكل علم قسمًا من الكتاب حـتى لا يستغرقنا المقام في المقـارنة بينهما عن الأهم في استـخلاص السمات الاجـتماعيـة لكل واحد منهما على حدة. ولسوف يجد القارئ الكريم الكثير من الألفاظ الاجتماعية والنفسية بما يتعـارف عليه المتـخصصـون المعاصرون، وسـعينا للكشف عن مـعناها من خلال سياقهـا العام دون دخول في جوهر ودلالة كل مصطلح ؛ لأن الدراسـة تخاطب غير المتخصصين في المقام الأول.

أ ـ عنوان السلسلة: بيت الدعوة. **ب ـ اسم الكتاب: الأربعون الزهدية.**

جـ ـ رقم السلسلة: ٧ **د ـ الرقم الفني: ٧**

هـ ـ تعريف الكتاب:

قصـدنا في هذا الكتاب الإقبـال على النفس لتستكمل فـضائلها، والتـوجه إلى القلب ليسلم من علله، ووهم من ظن أن الوقت ليس وقت مخاطبة القلوب وإنما هو وقت الأسبـاب والمسبـبات.. فنقـول : صدقت ؛ إن حـالنا يتغيـر بتغـير الأسـباب والمسببات الدنيوية، ولكن كيف تتغير هذه الأسباب والمسببات ؟

إنها تتـغير في تصـوراتنا، وفي وعينا، وفي قلوبنا، ثم تنعـكس بعد ذلك على ظاهر حياتنا، ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[١]، ولست في هذا الكتاب في مقام التأصيل بقدر ما أنا في مقام التذكير للنفس والمسلمين أنَّى وجدوا، نعيش مع الزهد ؛ هذه الكلمة التـي نعرفها لفظًا لـكنها تحتاج منا إلى عـقل رشيد وفـهم دقيق لمعناها ومقتضاها.

(١) الرعد : ١١.

والكتاب يقع في عشرة مباحث وهي كالتالي:

المبحث الأول: بين ضيق الدنيا ورحاب الآخرة. **المبحث الثاني:** كن ربانيًا.

المبحث الثالث: جواهر من الوعظ. **المبحث الرابع:** التفكر والاعتبار.

المبحث الخامس: عقد نضيد في غرر التحاميد. **المبحث السادس:** آداب قرآنية.

المبحث السابع: التوابون. **المبحث الثامن:** مهلكات السجايا.

المبحث التاسع: محبة الله والرضا به. **المبحث العاشر:** الصبر.

ثم جاءت الخاتمة في الترغيب والترهيب.

وهذه المباحث تنتظم أربعين وقفة عن الزهد والزاهدين وأوصافهم وكلامهم وحكايات عنهم، لعل الصورة تتضح ويتمثل الناس الزهد عن فهم وبصيرة.

أ - عنوان السلسلة: بيت الدعوة. **ب - اسم الكتاب: الأربعون الحدثية.**

جـ - رقم السلسلة: ٨ **د - الرقم الفني: ٨**

هـ - تعريف الكتاب:

تاريخنا الإسلامي بشخصياته ودوله وقادته، بحر لجي تعجز وريقات - وإن بلغت من التصنيف الآلاف - أن تلم بجوانبه، أو أن تقف على شرفة من شرفاته.

وفي هذا الكتاب المسمى بـ (اَلأَرْبَعُونَ اَلْـحَدَثِيَــة) حاولنا أن نجول في رحاب التاريخ الإسلامي منذ بعثة النبي ﷺ، وحتى وقتنا المعاصر لنتعرف على أهم أحداثه، وأعظم قادته، مستخدمين المنهج التوفيقي الذي يعتمد على الاختيار والتوفيق بين أحداث تاريخنا الرائقة والفائقة، والتي تستنهض همم العاملين في ساحة الدعوة، ولتكون كذلك إنذارًا؛ حتى لا نقع فيما وقع فيه سلفنا إن كان الحديث هو مقام هزيمة وصرعة.

فاحرص - أخي الكريم - على هذا الكتاب فإن فيه منفعة إن شاء الله.

أ - عنوان السلسلة: بيت الدعوة. **ب - اسم الكتاب: زاد المسافر والحاضر.**

جـ - رقم السلسلة: ٩ **د - الرقم الفني: ٩**

هـ - تعريف الكتاب:

الكتاب ــ كما يظهر من اسمه ــ زاد يتبلغ به المسافر في أسفاره، يغنيه عن الكثير من المؤلفات ؛ بما يحويه من موضوعات متنوعة تثري عقله وتشبع عاطفته، يطوي به المراحل ولا يتسرب الملل إلى نفسه، وقد حرصنا في هذا الكتاب أن يكون وافيًا باحتياجات القارئ أيًا كانت مشاربه، وأنى سارت به ركائبه، تقرأ فيه حديثًا عن : الدعوة والدعاة في منهج القرآن، وبعض الشبهات التي يثيرها أعداء الدعوة في وجه الدعاة؛ ليصرفوا وجوه الناس عنهم وعن دعوتهم؛ ويثبطوا همم الدعاة، كما يقدم زادًا طيبًا للدعاة إلى الله يبين لهم كيفية التعامل مع الناس، وأصنافهم وفن التعامل معهم، كما يوضح أساليب الدعوة ووسائلها، والمحاضن التربوية التي تبقي جذوة الإيمان متقدة في قلب الداعية، وتجد فيه حديثًا عن قيم العزيمة من قيم هذا الدين مثل : الأخوة. . . حقيقتها ومكانتها، وسبل تحقيقها. غض البصر، المجاهدة، حسن الخلق، الثبات، قيام الليل، الخوف من الله تعالى، الثقة بالله سبحانه، صلاح الأمة وخيريتها، أخلاق جيل النصر. . . وغيرها الكثير مما يشغل بال المسلم في كل زمان ومكان.

أ ـ عنوان السلسلة : بيت الدعوة.

ب ـ اسم الكتاب : الجداول الفنية للآداب المرعية في السياسة الشرعية.

جـ ـ رقم السلسلة : ١٠ **د ـ الرقم الفني : ١٠**

هـ ـ تعريف الكتاب :

هذه الجداول هي تشجير علمي منهجي لكتاب «الآداب المرعية» لابن مفلح وهو كتاب يقع في أربعة مجلدات فيه خير كثير ولكنه جاء متناثرًا في صفحات الكتاب فمثلاً: قد يتطرق المؤلف في أول الكتاب لمبحث، ثم يستطرد فيتطرق لمباحث أخرى، ثم يرجع بعد ذلك ويتكلم عن فرع آخر هو تكملة لما بدأ به، فتناثرت المعلومات ضمن الكتاب، فحرصنا لأهمية الكتاب وما فيه من كنوز أن نقوم بإعادة صياغته بتشجير علمي منهجي نجمع فيه الفروع المتقاربة مع بعضها البعض؛ لتخرج بعد ذلك شجرة علمية مجموع فيها مباحث غزيرة، وفوائد كثيرة، مستقاة من غزارة علم إمام من أئمة العلم يسهل على طالب الاستفادة أن يحيط بهذه الآداب بتسلسل منطقي سلس، وحقًا كما قال العلماء: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

أ ـ عنوان السلسلة : بيت الدعوة. **ب ـ اسم الكتاب : الهوية الإسلامية .**

جـ ـ رقم السلسلة : ١١ **د ـ الرقم الفني : ١١**

هـ ـ تعريف الكتاب :

قضية الهوية قضية محورية، ومن لم ينتبه إليها سيذوب حتمًا في غيره، ثم تتلاشى مميزاته الخاصة ليكون ذيلاً للآخرين. والأمم التي تريد أن تبقى هي التي تحافظ على هويتها، فالهوية بمثابة العقل الجمعي الذي يعرف الأمة انتماءها الأول وولاءها الأكبر، وهي المنبع الذي تستقي منه ملامح شخصيتها المتميزة المستقلة. وقد ظلت الأمة الإسلامية محتفظة بهويتها معتزة بشخصيتها على مدار تاريخها رغم موجات المد والجزر التي تعرضت لها. وأعداء الأمة يحرصون بكل سبيل مستطاع على طمس هويتها وتغييبها . وقصدنا في هذا الكتاب أن نتعرف على مظاهر التأثر بالثقافات الوافدة (الفارسية ــ اليونانية ــ الهندية) في الثقافة والفكر، وفي السياسة والحكم، وفي الأخلاق والآداب، وفي التنظيم والإدارة، وكذلك في اللغة والأدب، كما تجد حديثًا عن الأجنحة الثلاثة (الاستشراق ــ التبشير ــ حملات الاستعمار) وأثر ذلك على الهوية الإسلامية. . إضافة إلى مباحث أخرى تطالعها في هذا الكتاب.

أ ـ عنوان السلسلة: بيت الدعوة .

ب ـ اسم الكتاب: اللطائف النورانية على الأربعين النووية .

جـ ـ رقم السلسلة : ١٢ **د ـ الرقم الفني : ١٢**

هـ ـ تعريف الكتاب :

إسهام متواضع في بحر خدمة سنة خير البرية سيدنا محمد ﷺ، فهو يتحدث عن الفوائد المنتقاة، واللطائف المستقاة من الأربعين النووية، وهو عبارة عن عقد جمعت لآلئه ودرره من كتب العلماء السابقين كابن العطار وهو تلميذ الإمام النووي ــ رحمه الله ــ وهذا ما يضفي عليه قوة معنوية، وكابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم والحكم وغيرهم من العلماء ــ رحمهم الله أجمعين.

وهذا الكتاب لم يدع من أحاديث الأربعين النووية أي جزئية صغيرة أو كبيرة إلا وتحدث عنها؛ ففيه تراجم لرجال السند والرواة، وفوائد من حياتهم من مواقف

وأقوال مأثورة عنهم، وفيــه شرح للحديث من كل جوانبه، وكل ما يتعلق بألفــاظه ومعانيه وتخريج أسانيده ومتونه، وفيه استخراج للطائف والأحكام المتعلقة به والمستفادة منه.

وقد تميز هذا الكتاب بأنه جمع ذلك كله بين دفتيه بأسلوب سهل ميسر يجمع قوة المادة مع سهولة الطرح والتعبير.

وختامًا، فلا غنى عنه لكل الناس عامة ومتخصصين، وعلماء ومتعلمين، وأسأل الله أن ينفع به كل المسلمين، وأن يجعله عملاً خالصًا لوجهه الكريم.

أ - عنوان السلسلة: بيت الدعوة. **ب - اسم الكتاب: نحو فكر حركي متجدد.**

جـ - رقم السلسلة: ١٣ **د - الرقم الفني: ١٣**

هـ - تعريف الكتاب:

في هذا الكتاب نـتحدث عن مـفهوم التـجديد في الفكر الحـركي، والفروق بين التجديد، والاجتهاد والتطور، والإحياء، والحداثة، نحاول أن نقرأ مفهوم التجديد في ضوء القرآن والسنة، مع بيــان الحاجة إلى التجديد في الفكر الحركي، ونــتحدث أيضًا عن ضوابط التجديد، وسـبل النجاح في عمليات التجديد كما نتـحدث عن مجالات التجديد في الفكر الحركي الإســلامي من خلال الحديث عن المنهج والوسيلة والتنظيم والخطاب، إلى مباحث أخرى تطالعها في هذا الكتاب.

أ - عنوان السلسلة: بيت الدعوة. **ب - اسم الكتاب: رحلة الخلان للعتق من النيران.**

جـ - رقم السلسلة: ١٤ **د - الرقم الفني: ١٤**

هـ - تعريف الكتاب:

لله أيام ونفحات يتـعرض إليها المسلم الذي يحـسن اختيار زمانه والاسـتفادة من وقته. وهذا الكتــاب هو قصة مجمـوعة من أهل الخير عاشــوا يومًا من أيام الله وهو (الاثنين) تطبيقًا عمليًا وفقهًا نظريًا من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء، عاشوا مع قوله ﷺ: «**ما اجتـمعت هذه في امرئ إلا دخل الجنة**»، قالها لأبي بكر # وهي لكل أتباعه من السلف والخلف، «فمن أصبح صــائمًا، وعاد مريضًا، وصلى على جنازة، وتصدق من طيب ماله، مع صدق وإخلاص يكون إن شاء الله من أهل الجنة».

أ ـ عنوان السلسلة : بيت الدعوة . **ب ـ اسم الكتاب : دعاء لا يرد .**

جـ ـ رقم السلسلة : ١٥ **د ـ الرقم الفني : ١٥**

هـ ـ تعريف الكتاب :

هذه هديتي لكل مسلم ومسلمة، هدية إيمانية غالية ؛ ذلك أن موضوعه : الدعاء وذكر الله تعالى، تطمئن به القلوب وتزكو به النفوس، وتستعلي به الروح المعنَّاة على هجير الحياة وصخبها، وتتصل بقيوم السماوات والأرض في محبة غامرة، وجمعية كاملة وشوق عجيب، وتلك فرحة العمر، وسعادة الأبد، قال عنها الإمام الجنيد ـ رحمه الله: «نحن في لذة لو علمها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف».

من أجل هذا حرصنا على جمع أغلب الأذكار والأوراد التي جاءت في السنة المطهرة بطريقة قصصية محببة إلى النفس. قدمت لها ـ من باب التأدب مع الله تعالى ـ ذكر التسبيح والتعظيم والمحامد لله سبحانه وتعالى.

ثم أتبعت ذلك بصيغ الصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، وبعد ذلك أوردت جملة من الأدعية التي يدعو بها كل مسلم ومسلمة في يومه وليلته، بدأتها ببيان شرف الدعاء ومنزلته، وكونه ذكرًا لله تعالى وتقربًا، كما أن الذكر والثناء على الله سبحانه لون من ألوان الدعاء الخاشع.

إذا أثنى عليك المرء يومًا كفاه من تعرضه الثناء

كذلك قراءة القرآن الكريم ؛ آكد الأذكار، ولذا ينبغي على كل مسلم أن يأخذ منه كل يوم قدر استطاعته في خشوع وتدبر. ثم جاءت قصة عبد الله حين أراد أن يتزوج وكيف بدأ حياته مع زوجه ثم ولده عبد الرحمن؟، لتحكي لنا القصة كيف يحيا المسلم يومه وليلته ذاكرًا لله تعالى في كل وقت وعلى كل حال. وهذا النموذج مخطوط بالحبر والقلم، منقوش على الورق، يظل هكذا لا نفع فيه حتى تتولاه أياد طاهرة من الآباء والمربين لتجسده في واقع أبنائنا. إنها قصة يجب أن ينظر فيها كل طالب وطالبة في الصف الثامن والتاسع ؛ ليحصنوا أنفسهم من شياطين الإنس والجن: ﴿**رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾[١].

---

(١) الفرقان : ٧٤ .

أ ـ عنوان السلسلة : بيت الدعوة. **ب ـ اسم الكتاب : الدقائق الغالية .**

جـ ـ رقم السلسلة : ١٦ **د ـ الرقم الفني : ١٦**

هـ ـ تعريف الكتاب :

الإنسان ما هو إلا دقائق ولحظات إذا مضت لا تعود أبدًا، وهى: إما له أو عليه! فإن كـانت في طاعة الله فهي تسـاوي الكثير. ولذا روي أن قـرية كانت تُعَنْونُ على شواهد قـبورها بمقـدار العمل الصالح الـذي يعمله الإنسان، فـيكتبـون: مات عن خمسة، أو عشرة للسنوات التي قضاها في عمل الصالحات.

وهو منهج للأب مع أهله، وللأم مع أولادها، يشـتمل على حكـم الصالحين، وأقوال المفسـرين، ولطائف الربانيين. . . فكانت ثلاثين دقيقة مرت سـراعًا، تعددت موضوعاتها، لكنها في النهاية تصب في إناء القلب، نحاول أن نملأه يقينًا بالله، وثقة به، وتوكلاً عليه، ورضًا بقضائه، وصبرًا على بلائه، وشكرًا على نعمائه.

أ ـ عنوان السلسلة : بيت الدعوة. **ب ـ اسم الكتاب : حوار العجماوات .**

جـ ـ رقم السلسلة : ١٧ **د ـ الرقم الفني : ١٧**

هـ ـ تعريف الكتاب :

واقع الأمة الإسلامـية يثير الأسى، بين كـيد عدو وجهل صـديق، ولكم تتوالى الأخبار وتقرع مسامعنا صيحات الشبهات وليس لها من عاصم إلا الله تعالى.

وعموماً فقد رحت أرصد أحـوال العالم، ثم خصصت الرصد في عالم الغابة، ثم خصصته في العوالم الأرضية الأرنبيـة، وحاشيتها من الغرابيين والبوميين، وعنيت بهم العملاء، وفـي مقابلهم عالم الهداهـد، وعنيت بهم شباب الصحـوة واتجاهاتها المتنوعة (على سـبيل العموم)، وكيف تسـعى الأرانب وحواشيهـا لضرب هذا العالم الهدهدي الصـالح ؟! وقد جاءت في صـورة أدبية مقـامية. . . مـكتنزة المعاني. . . مشعة الدلالات لأحملها وقائع ومشاعر جمة يعيها الأديب الفطن على ما قال القائل:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة . . . .

وقد جاءت في خمسة مشاهد :

الأول: وصف عوالم الغابة الأرضية. **الثاني**: ديار الإسلام.

الثالث: هداهد الإسلام وصراع أهل الظلام. **الرابع**: في فقه الجماعة والخلافة.

الخامس: معًا في الاعتزال العضوي والارتباط المعنوي.

وتحت كل مشهد لوحات بديعة.

أ - عنوان السلسلة : بيت الدعوة. **ب - اسم الكتاب : المقامات الياسينية.**

جـ - رقم السلسلة : ١٨ **د - الرقم الفني : ١٨**

هـ - تعريف الكتاب :

مقامات أدبية جمعت بين خيوط الأدب وخطوط الشرع، وزاوجت بين القيم الشرعية والوقائع الاجتماعية والرؤى المستقبلية، تخاطب الذوق الأدبي، وتهمس إلى الضمير الخلقي، وتدق باب الشعور الإسلامي.

قصدت بها النصيحة، في ثوب مقامات حسان، وعقود بيان، أيقظت الإنسان من رقدة السهو والنسيان .

نقتدي بأئمة هذه الفنون، من عصر الحريري وابن زيدون، والسابقين لهم بإحسان في كل حلبات البيان، وفائق التبيان.

وقد درجنا في عملنا هذا على نهج واحد ذي تبيان، غير لجج ولا بذي هذيان؛ حيث التزمنا بمنهجية المقامات في الفكر والعبادات، فآنسناها بالسجع والبيان ووشيناها بمعقول ومنقول قول العربان.

وضمناها فكرًا شرعيًا، ومقاصد خلقية، وحججًا منطقية، ما بين كامنة وملفوظة، لدى العقلاء ملحوظة، في نقد حالنا، وكشف محالنا، عسى العاقل أن يستفيق، والغالي بغلوه يستضيق، فيرجع من قريب قبل قرع الرقيب، وحلول النحيب.

فمن الثناء على الله تعالى، إلى مدح النبي محمد ﷺ، إلى كشف حيل الشيطان، إلى موضوعات متعددة يجدها من يطالع الكتاب.

أ ـ عنوان السلسلة : بيت الدعوة. **ب ـ اسم الكتاب : أحاديث المحراب .**

جـ ـ رقم السلسلة : ١٩ **د ـ الرقم الفني : ١٩**

هـ ـ تعريف الكتاب:

واقع المسلمين اليوم يثير الأسى، ضعف بين، وعجز واضح، وتأخر ملموس في كثير من جوانب الحياة، فهل هذا يدعونا إلى اليأس والقنوط ؟ كلا، كلا فالأمل كبير أن ينتبه المسلمون من غفلتهم، وأن يفيقوا من غفلتهم؛ ولذا كان من اللازم العودة إلى النبع الصافي، الكتاب والسنة، فكان هذا الكتاب.

آثرنا أن نسميه (أحاديث المحراب) لما كان في المحراب من بشرى غيرت واقعًا ما كان يظن أحدٌ أن يتغير أو يتبدل !

أحببنا في هذا الكتاب أن نبرز شمول الإسلام لجوانب الحياة جميعًا، راعينا فيه الوسطية في كل شيء، فهو وسط بين الطول والقصر، وسط في طريقة التناول، وسط في لغته وعباراته، جاء في دروس لا يزيد اللقاء الواحد منها على خمس عشرة دقيقة تقريبًا ؛ ليستطيع إمام المسجد أن يتناوله مع المصلين، والمعلم في مدرسته، والأب مع أسرته، والأم مع أبنائها.

أ ـ عنوان السلسلة : من وحي التجربة.

ب ـ اسم الكتاب : تأملات في المشهد الاجتماعي.

جـ ـ رقم السلسلة : ٢٠ **د ـ الرقم الفني : ١**

هـ ـ تعريف الكتاب :

إنَّ الدعاة إلى الله هم راحلة البشر وهم مادة الحياة، ومنزلتهم أعلى المنازل، لايتوحشون لقلة السالكين، ولا يغترون لكثرة الهالكين، عرفوا أن الأمة الإسلامية قد جاء دورها لتحقق ما أرداه الله لها: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾(١)، ولكن هذا ليس بالأمر الهين، إنه بعث جديد لأمة واراها ركام الأجيال وركام التصورات وركام الأوضاع، ولكن لا مناص، فلابد

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

من البعث، ولابد من الخطوة الأولى وإن كانت مفترق طريق، فما لنا فكاك من البدء في هذه الرحلة الطويلة، فمن عاش لغيره عاش متعبًا ولكنه عاش كبيرًا ومات كبيرًا.

فإلى من جند نفسه وعزم على أن يكون في طليعة العاملين لهذا الدين أكتب هذه السطور التي هي اجتهادات شخصية بذلت فيها الجهد بالنصح والبيان، فما كان منها صوابًا فمن الله، وما كان منها خطأ فمن نفسي فأرجع عنه وأستغفر الله، إنها نظرات عامة ذكرتها من غير تكلف من خلال العيش العملي في الدعوة إلى الله.

أ - عنوان السلسلة : من وحي التجربة.

ب - اسم الكتاب : تأملات في المشروع الإسلامي.

جـ - رقم السلسلة : ٢١ **د - الرقم الفني : ٢**

هـ - تعريف الكتاب :

الكلمة ترجمان الفؤاد، تكشف مكنونه، وتبين ما انطوى في حناياه وزواياه، وبغيرها يظل الإنسان سرًا مغلقًا لا تدري أين مفتاحه، إلى أن تعثر على الكلمة منطوقة أو مسموعة أو مقروءة، فتزيل الحجب ويتم التواصل بينك وبين الآخرين فيعرفون عنك ويعرفون منك. وهل قامت الدعوات على اختلاف توجهها بغير الكلمات؟ وهل قامت حروب إلا مسبوقة بالتهديد والوعيد ؟ وإذا كانت تلك هي منزلة الكلمة بين الناس، فإنه من الواجب أن تكون كلمة صادقة لا تبغي غير الإصلاح، منزهة عن الهوى والغرض الشخصي، عاملة على النصح المخلص. إن لأمتنا آمالها وتطلعاتها في مستقبل يسعد فيه الناس ويأمنون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وديارهم، ونحن في عصر الغافل فيه ميت لم يقبر، فلا غفلة عن الأحداث من حولنا، ولا غفلة عن المتغيرات العالمية التي تجري أمام أبصارنا أو تصل إلى مسامعنا، ولا غفلة عما يحدث في ديار العرب والمسلمين وفي هذا العالم الذي لم يعد يخفى فيه حدث أو أمر.

فلنا في ذاك كله رؤيتنا وآراؤنا التي يوافقنا فيها الكثير وقد يخالفنا فيها القليل.

وفي هذا الإطار تكون كلمتنا، التي أدعو الله أن يجعلها شعاعًا من الضوء يزيل أو يخفف غبش الظلام، وإن الكلمة الشريفة تستعصي على البيع والشراء، وإنها من

شرف الإنسان لا تباع ولا تشترى، أسمعت عن شريف يبيع عرضه؟ أسمعت عن حر يبيع ابنه؟ كذلك الكلمة الشريفة .

والمسلمون ــ بحمد الله ــ ليسوا ممن يبيعون ضمائرهم ولا شهاداتهم حتى تباع كلمتهم هنا أو هناك.

ومن أهم مباحث الكتاب :

المبحث الأول : تأملات في فقه المشروع الإسلامي المتكامل.

١ ــ أزمات مالية.

٢ ــ لنبعث روح الحياة من جديد.

٣ ــ سياسة التعامل مع المشروع الإسلامي.

٤ ــ قراءة في تاريخ الدعوة القديم والحديث.

٥ ــ العقل والمنطق في التعاملات الفكرية.

المبحث الثاني : تأملات في المشروع السياسي.

أ - عنوان السلسلة : من وحي التجربة .

ب ـ اسم الكتاب : تأملات في فقه النهضة

جـ ـ رقم السلسلة : ٢٢ **د - الرقم الفني : ٣**

هـ ـ تعريف الكتاب :

اجتهدنا أن تكون كلمتنا صادقة في بواعثها، صادقة في غايتها وتوجهاتها، حتى لو آلمت بعض الناس ــ أحيانًا ــ وماذا يملك من يتحدث مع الناس أو يكتب إليهم في المشكلات اليومية، والهموم المستجدة في النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية؟ إنه في تشخيصه وعلاجه والتزامه المنهج لا يملك أن يرضي كل الناس، إذ ليس كل الناس ترضيه كلمة حق ترشده إلى هدى، أو تصده عن ردى. وقديمًا قالوا : لو أنصف الناس لاستراح القاضي. ولا يملك غيور على وطنه وأبناء بلده أن يقف صامتًا أمام مشكلات قليلها يأتي رغمًا عنا وكثيرها من صنع أيدينا، ولو أحسسنا وأخلصنا واجتهدنا ونصحنا لتخلصنا من كثير من المشاكل والعوائق بدون تكاليف

تذكر في الأنفس والأموال. وسنتحدث في هذا الكتاب عن :

١ ـ الحكومة الخفية. ٢ ـ شمعة في الظلام.

٣ ـ الخليج المؤرق. ٤ ـ حتى لا يخطئ التاريخ.

٥ ـ نحو تأصيل العمل السياسي في الإسلام. ٦ ـ الود باق.

٧ ـ أصحاب المناصب بين المصالح والمبادئ. ٨ ـ الإحباط.

٩ ـ لولا أن رأى برهان ربه. ١٠ ـ القرن القادم بين الخوف والألم.

١١ ـ يريدونها تفتيتًا ونريدها توحيدًا. ١٢ ـ أشجان مستقرة وآمال منتظرة.

١٣ ـ مصر الرائدة القائدة. ١٤ ـ الطريق إلى الهاوية.

١٥ ـ أهمية المؤسسات الشرعية في العمل السياسي.

١٦ ـ لك الاختيار في رمضان (حمامة مسجد أو غراب مفسد).

أ ـ عنوان السلسلة : من وحي التجربة. ب ـ اسم الكتاب : تأملات في ثقافة التغيير.

جـ ـ رقم السلسلة : ٢٣ د ـ الرقم الفني : ٤

هـ ـ تعريف الكتاب :

إن التغيير إلى الأحسن هو نصح في الله، وأمر بالمعروف، أو نهي عن المنكر، أو إرشاد إلى أقوم السبل، أو مشورة صادقة، أو رأي سديد، أو غير ذلك من مسالك مستقيمة تجري فيها كلمة الحق بالخير والبر، هذه الكلمة الطيبة لا تتملق عواطف الناس، ولا تجاريهم في أهوائهم، ولا تسير خلف رغباتهم، بل إنها قد تصطدم بمشاعر الناس، وقد تخالف أفكارهم أحيانًا، وقد يعارضونها أو يقبلونها، وليس هذا هو المهم، وإنما الأولى بالرعاية والاعتبار أن تكون الكلمة صادقة، نابعة من إحساس قوي، خالية من الانفعال والتكلف، لا تحمل أذى لأحد، ولا سخطًا على أحد، ولا تثير بين الناس زوابع من سوء الفهم والبعد عن القصد. ولذا حرصت على أن أبادر إلى إظهار الرأي وتسجيله ونشره بين الناس ليكون هذا الرأي ـ مع غيره من آراء المجتهدين ـ شمعة تبدد ظلام المشكلات، وقد تساعد الآخرين على تجنب العثرات، ومنذ الصغر كنا نحفظ : إن أوقدت شمعة فهو خير لك من أن

تلعن الظلام . والمشكلات يعرفهـا كل فرد؛ لأنه يعيشهـا وقد يكتوي بنارها، ولكن الحلول هي التي يمكن أن تغـيب عن الأذهان، وقـد حاولنا أن نقـدم بعض الحلول، لعل فيها راحة للمتعبين، وتبصيراً للسالكين.

ستجدونها في هذه التأملات :

١ــ دموع معتمر . ٢ــ الحرية بين الانفلات والانضباط .

٣ــ الـمساهمة الحضارية للمرأة (معايير وأصول).

٤ــ الأمم بين الاقتصاد والأخلاق. ٥ ــ مأساة الأندلس تتكرر.

٦ ــ حتمية الصراع بين المسلمين والصهاينة. ٧ ـ خطورة مصطلح الشرق الأوسط.

٨ ــ الإطار الذي يعصم الحضارة من الانهيار. ٩ ــ الطوفان القادم.

١٠ ــ المرأة بين الإبداع والتهميش. ١١ ــ موقع الإسلام في البعد الحضاري.

١٢ ــ المشروع الإسلامي مسئولية الجميع. ١٣ ــ هذا هو الطريق.

١٤ ــ حتى لا تسيل الدماء على المصحف.

أ - عنوان السلسلة : من وحي التجربة.

ب ـ اسم الكتاب : تأملات في فقه التدافع.

جـ ـ رقم السلسلة : ٢٤ **د - الرقم الفني : ٥**

هـ ـ تعريف الكتاب:

لقد أخبرنا رسول الله ﷺ بأن (الكلمة الطيبة صدقـة) والكلمة الطيبة هنا هي كلمة الحق. وقـد حاولت جـهدي أن تكون كلمـتي كذلك، صادقـة في بواعثـها، صادقة في غايتها وتوجهاتها، حتى ولو آلمت بعض الناس ــ أحيانًا ــ وماذا يملك من يتحدث مع الناس أو يكتب إليهم في المشاكل اليومية، والهموم المستجدة في النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؟

إنه في تشـخيصـه وعلاجه والـتزامه الصـدق لا يملك أن يرضي كل الناس، إذ ليس كل الناس ترضيه كلمة حق ترشده إلى هدى أو تصده عن ردى.

وقديـمًا قالوا : لو أنصف الناس لاستراح القاضي.

وهذا الكتاب خـلاصة تجربة وثـمـرة حياة لرجل يحب وطنه، ويـغار على دينه وأمـته، ولا يسـتطيع أن يقف صـامـتا أمـام مـا يعـرض لوطنه وأمتـه من عـوائق ومشكلات.

وإذا كانت المشكلات يعرفها كل فرد لأنه يعـيشها ويكتوي بنارها فإن الحلول قد تغيب عن الأذهان. ومباحث الكتاب مقسمة كالتالي :

الفصل الأول : قضية فلسطين.

الفصل الثاني : قضية أفغانستان.

الفصل الثالث : مستقبل الإسلام بين السنن الإلهية والجهود البشرية.

وهذا الكتاب يقـدم بعض الحلول للمحـتاجين إليهـا لعل فيهـا راحة للمتـعبين وتبصيرا للسالكين.

أ - عنوان السلسلة : من وحي التجربة. **ب - اسم الكتاب : حتى لا نغبن.**

جـ - رقم السلسلة : ٢٥ **د - الرقم الفني : ٦**

هـ - تعريف الكتاب :

صيحة أطلقها المؤلف ليرتفع بهمـة إخوانه وأحبابه من بني الإسلام ؛ لكي يهبوا ليدفعوا الغبن عن أمتنا، وليوقفـوا تيارات الانتقاض والانتقاص لعرى الإسلام ؛ التي تتهاوى تحت ضربات بني جلدتنا من ساسة وأصحاب أقلام وأفكار مغبونة.

ويحتوي هذا الكتاب على المباحث الآتية:

المبحث الأول: لابد من تحقيق الأمن الاجتماعي:

١ ــ إحياء العمل الاجتماعي. ٢ ــ رب جرح وقع في مقتل.

٣ ــ التوتر سيد الموقف. ٤ ــ نعم... خائف على وطني.

٥ ــ انضم لقافلة البناء. ٦ ــ كما تدين... تدان.

المبحث الثاني: لابد من فهم واقعنا الإقليمي:

أ - عنوان السلسلة : من وحي التجربة. **ب - اسم الكتاب: شيء من الحقيقة.**

جـ - رقم السلسلة : ٢٦ **د - الرقم الفني : ٧**

هـ - تعريف الكتاب :

كتاب يعالج قضايا هامة تمس واقع الحركة الإسلامية من زوايا متعددة، منها ما هو فكري، ومنها ما هو حركي تنظيمي، ومنها ما يمس واقعنا الاجتماعي، في وضوح وصراحة، وهو محاولة لإظهار الأمور على حقيقتها دون وهم أو خداع.

وقد نعى القرآن الكريم على قوم يسيرون وراء الظنون ويضربون في عماية لا نهاية لها: ﴿**وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾[1].

وينقسم الكتاب إلى : مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

الفصل الأول : واقع الحركة الإسلامية.

الفصل الثاني : واقعنا الاجتماعي.

الفصل الثالث : أدب الحوار والاختلاف.

وتحت كل فصل عدة مباحث، وهي تجربة حياة أحببت أن تسهم في دفع عجلة الحركة الإسلامية، ومحاولة سد الثغرات التي تظهر في هذا البناء العتيد.

أ - عنوان السلسلة : من وحي التجربة. **ب - اسم الكتاب : الكشكول.**

جـ - رقم السلسلة : ٢٧ **د - الرقم الفني : ٨**

هـ - تعريف الكتاب :

هذا الكتاب جامع شامل لأطراف متباينة من فنون الأدب والحكمة والقول، لا يرتكز على موضوع واحد، وفكرة محددة، وإنما جمع فيه المؤلف من الحكم والمواعظ والآداب، ومنثور الكلام، وجميل الأشعار، وغريب الأخبار من منتخبات الكتب النفيسة المفيدة التي تملأ مكتبتنا الإسلامية، وقد هدف من خلاله أن يكون عونًا ورافدًا للدعاة والواعظين.

---

(١) يونس : ٣٦ .

والكتاب يجمع طرفًا من كل فن، فهو لون أدبي وعظي محبب إلى النفس، ومن شأن هذا اللون من التأليف أن يدفع السأم والملل والخمول؛ حيث تنتقل بين صفحاته بين منثور الكلام ومنظومه، من موضوعات مختلفة في وقت واحد.

وقد اشتمل على مقدمة وعشرة أبواب: خصص الباب الأول للعقيدة والتوحيد، والباب الثاني: بين العلم والعمل، والباب الثالث: الزهد في الدنيا والعمل للآخرة، والباب الرابع: الآداب والأخلاق، والباب الخامس: الأخوة الإيمانية، والباب السادس: وصايا للدعاة إلى الله تعالى، والباب السابع: العقل والعقلاء، والباب الثامن: العدل والحكم، والباب التاسع: وصايا وحكم، والباب العاشر: عيون من الحكمة من كلام الكبار.

ثم ختم الكتاب بمختارات شعرية متنوعة.

أ - عنوان السلسلة: السياسة الشرعية.

ب - اسم الكتاب: الدولة الإسلامية بين الواجب والممكن.

جـ - رقم السلسلة: ٢٨ **د - الرقم الفني: ١**

هـ - تعريف الكتاب:

موضوع الكتاب يعالج قضية من مباحث السياسة الشرعية، نخوضها على حذر؛ وهي قضية الدولة الإسلامية في التاريخ منذ البداية إلى السقوط، مع تذكر محاولات إعادة البناء الإسلامي للأمة. وهي من الأمور التي يكثر فيها الجدل، وتختلف فيها الجماعات، وتتهم فيها النيات.. والكتابة في هذا الموضوع في إطاره العلمي والمنهجي المتسم بالإنصاف يغضب الحاكم، ولا يرضى عنها المحكوم! بيد أنها أمانة التبليغ؛ التي تدفع الإنسان أن يعلن في الناس ما يعتقد أنه حق.

ونحن هنا لا نكتب تاريخًا وإن كان الكتاب يشتمل على بعض الحوادث التاريخية ولكنها ليست مقصودة لذاتها، ولكن المقصد من الكتاب قضية (الدولة الإسلامية) التي يريدها الإسلاميون بين ما هو موجود في الذهن من خلال النصوص وبين ما هو واقع بالفعل.

فهل هي دولة الخلافة الراشدة التي فيها قوة الصديق وحنكته، وعدل عمر وشدته، ورحمة عثمان وعفته، وولاية علي وحكمته - جميعًا - فهي

صورة ذهبية جميلة ينشدها الجميع، ولكن يواجهها في المقابل واقع ملموس، اختلطت فيه الأمور، وتشابكت فيه المفاهيم والقيم، حتى أصبح الإنسان لا يستطيع أن يقيم هذه الدولة في جمعيته، أو حتى بيته؛ فكان لابد من توضيح هذه المسألة من خلال مبحث أصولي وهو (الواجب والممكن) وكيفية التعامل مع هذه المسألة في العبادات، ليتم بعد ذلك إسقاطها على مباحث السياسة الشرعية والتي منها الدولة الإسلامية وحقيقتها، فجاء الكتاب في عدة فصول وهي:

الفصل الأول: مراحل تطور الدولة الإسلامية، بمباحثه الأربعة.

الفصل الثاني: حركات إصلاحية ودولة إسلامية، بمباحثه الثلاثة.

الفصل الثالث: الحركات الإسلامية وواقعنا المعاصر، بمباحثه الثلاثة.

ثم جاءت الخاتمة لتبين الهدف من الكتاب، وتبرز النتائج المستخلصة من البحث، وتوضح علاقة الحركات الإسلامية بالأنظمة الموجودة.

واشتمل الكتاب على ملاحق هامة في نهايته لكبار العلماء ورأيهم في أصل تقسيم الدولة إلى واجب وممكن، وحسب الكتاب أن يفتح النوافذ للرؤى والنظر في مجال الدولة الإسلامية ومتعلقاتها.

أ - عنوان السلسلة: السياسة الشرعية.

ب - اسم الكتاب: الإرهاب بين النتائج والأسباب.

جـ - رقم السلسلة: ٢٩ **د - الرقم الفني: ٢**

هـ - تعريف الكتاب:

تتابعت الأحداث في السنوات الأخيرة على العالم الإسلامي تتابعًا سريعًا؛ بحيث ألحقت به أضرارًا كبيرة، وخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي هزت الديناصور الأمريكي، فقام يضرب بيمينه وشماله كل شيء في أرض الإسلام، وأصبح الإسلام - بسبب هذه الأحداث - في موضع الاتهام بالإرهاب، وبأنه وراء كل كيد مدبر لأي جهة في العالم!

فكان لزامًا علينا أن نلج الميـدان وأن نبين الحقائق، آخذين من كـتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ما نقيم به الحـجة، ونزيل به الشبهة، ونقـمع به الحقدة. . فكان هذا الكتاب ردًا على الـشبهات المـوجهة نحـو الإسلام مع بيان لكيـفية التـعامل مع الفتن، ومـوقف الحيـاة وهي أن (المسـتقـبل لهذا الـدين) وتوضيح ذلك من خـلال استعراض نصوص الكتاب والسنة والواقع.

أ - عنوان السلسلة: السياسة الشرعية.

ب - اسم الكتاب: الوعي السياسي بين السياسة الشرعية والعموميات الدعوية.

جـ - رقم السلسلة: ٣٠ **د - الرقم الفني: ٣**

هـ - تعريف الكتاب:

العاملـون في مجال الدعوة يعبرون عن مواقفهم بوضوح في أمور عديدة، فإذا تطرقوا إلى السيـاسة الشرعيـة وما يتعلق بها من أحكام وواقع سـياسي وجدت كثـيرًا منهم يلجأون إلى العموميات؛ مما يضع أبناء الدعوة في بعد عن فهم حقيقة الحكم الشرعي في الأحداث السياسية، أو يخوض فيها بجهل فيكون ضـرره أكثر مـن نفعه.

وهذا الكتـاب يلقي الضوء على الوعي السـياسي، وتوعـية العاملـين في الحقل الإسلامي بأهم الأمـور والإشكاليات الموجودة في الساحـة السياسية، والتـي تتعامل معها الحركات الإسلامية كجـزء أساسي ومهم في يومياتها، وذلك من أجل التأصيل للمفاهيم السياسيـة من المنطلق الشرعي المحكوم بالكتاب والسنة، مع النظر في كتب التراث الفقهي والسياسي والتاريخي. ويحتوي الكتاب على خمسة فصول:

- **الفصل الأول**: المصطلحات السيـاسية بين المفهوم الإسـلامي والغربي، فنتناول أهم المصطلحات السياسية في التاريخ الإسلامي كالخلافة، والدولة، والبيعة. . . ثم في العصر الحـديث كالدستور، والأحـزاب السياسيـة، والحكومة، ونظم الحكم. . . ثم نختم الفصل بالظلال العملية الميدانية في إطار المصطلحات السياسية.

- **الفصل الثاني**: يتناول مسائل مهـمة في الولاية: كحكم ولاية المرأة، وولاية

غير المسلم، وولاية الفاسق. . .

ـ **الفصل الثالث** : نتناول فيه الثوابت والمتغيرات في السياسة الشرعية، والواقع السياسي للعاملين بالدعوة، ثم نتناول التربية السياسية في الإسلام.

ـ **الفصل الرابع** : السياسة الشرعية في العلاقات الدولية.

ـ **الفصل الخامس**: تعريف لأهم ما كتب في السياسة الشرعية في القديم والحديث.

أ ـ عنوان السلسلة : السياسة الشرعية.

ب ـ اسم الكتاب : فقه المراجعات بين السلف المجددين والدعاة المعاصرين.

جـ ـ رقم السلسلة : ٣١ د ـ الرقم الفني : ٤

هـ ـ تعريف الكتاب :

فقه المراجعات ليس بدعًا من الموضوعات المطروحة، ولكنه منهج قديم عرفه علماؤنا وفقهاؤنا، وعرفه قادة الأمم وحكام الدول، والعاقل الحازم هو الذي يراجع نفسه ويقوّم سيره، ولا يأنف من العود إلى الحق متى تبين له.

وفي عصرنا توجهت جماعات من الشباب إلى نصرة الإسلام، وأحسبهم مخلصين، بيد أنهم ينقصهم العلم ـ مع حرصهم عليه ـ أو الفهم الصحيح، مما أوقعهم في مخالفات شرعية : من قتل أبرياء بدعوى خيانتهم وكفرهم، أو اعتداء على أموال بدعوى أنها غنائم. . ! إلى غير ذلك.

وهذا الكتاب نتناول فيه فقه المراجعات، ويتكون من مقدمة وخمسة فصول وخاتمة :

ـ الفصل الأول : تعريف ودلالة فقه المراجعة من الكتاب والسنة، ثم الثوابت والمتغيرات في المراجعة، ثم أثر غياب فقه المراجعة على الفرد والمجتمع.

ـ الفصل الثاني : أدب المراجعة، ونتناول فيه (صفات المراجع، أدب الحوار والمناظرة، معوقات المراجعة، دور الحكومات الإسلامية في عودة المنحرف إلى الحق).

ـ الفصل الثالث : الأحكام الفقهية المتعلقة بالمراجعة مثل (ارتكاب الجرائم كالقتل، الاعتداء على الممتلكات العامة، ما يتعلق بالزواج وأثره. . .).

ـ الفصل الرابع : صور مضيئة للمراجعات في التاريخ الإسلامي (مراجعة فكرية، مراجعة فقهية، مراجعة سياسية، مراجعة اجتماعية).

ـ الفصل الخامس : المراجعة الفكرية في العصر الحاضر (مصر نموذجًا).

أ ـ عنوان السلسلة : العلوم الشرعية. ب ـ اسم الكتاب : الجداول الجامعة.

جـ ـ رقم السلسلة : ٣٢ د ـ الرقم الفني : ١

هـ ـ تعريف الكتاب :

مع انتشار الفكر الإسلامي وخروجه من دائرة الجامعات الشرعية إلى جامعات الطب والهندسة، وخروجه من الجامعات الموجودة في البلاد الإسلامية والعربية إلى الجامعات الغربية والأمريكية، ومع منة الله تعالى على تسلم طلبة العلم التكنولوجي لزمام الحركة الإسلامية، ورفع راية التوحيد لله تعالى، ومع كثرة المشاغل التي تحيط برجل الدعوة الذي خرج من حظ نفسه فأخذ يتابع ما يستجد من بحوث في العلم الذي تخصص فيه سواء أكان طبًا أم هندسة أم غير ذلك، وكذلك أخذ يتابع الأحداث التي تعصف بالعالم، وهو مع ذلك حريص على أن يعبد الله على نور من الله، يرجو الثواب من الله، ويجتنب معاصي الله على نور من الله، يخاف العذاب من الله.

لهذه الاعتبارات وغيرها كانت هذه الجداول النافعة، والتي وضعناها بِقَصْدِ تَسْهِيلِ وُصُولِ طَالِبِ العِلْمِ إلى الحُكْمِ السَّرِيعِ الَّذِي يُرِيدُهُ وَيَبْتَغِيه، فَيَصِلُ فِي عِلْمِ العَرَبِيَّةِ إِلى مَا يَطْلُبُ فِي قِرَاءَةٍ سَرِيعَةٍ، ويُلِمُّ بِكَثِيرٍ مِنَ الأَحْكَامِ وَالفُرُوعِ الفِقْهِيَّةِ بِنَظْرَةٍ خَاطِفَةٍ عَلى جَدَاوِلِ الفِقْه، ويُمَتِّعُ نَاظِرَهُ وَيَشْحَذُ فِكْرَهُ فِي إِطْلالَةٍ قَصِيرَةٍ عَلَى الجَدَاوِلِ الخَاصَةِ بِالنَحْوِ وَغَيْرِهِ مِنْ عُلُومِ الآلَةِ.

وَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي عُلُومِ القُرْآنِ وَمُقَدِّمَاتِ التَفْسِيرِ وَغَيْرِهَا مِنْ العُلُومِ التِي قَدْ تَكِلُّ عَنْ قِرَاءَةِ المُصَنَّفَاتِ وَالمُطَوَّلاتِ فِيها الهِمَمُ، وَتَتَقَاعَسُ عَنِ الإِحَاطَةِ بِها نُفُوسُ العُصْبَةِ أُولِي القُوةِ وَالهِمَّةِ وَالعَزْمِ الشَدِيدِ.

ولَقَدْ عَمَدْنَا فِي هَذِهِ الجَدَاوِلِ إِلَى مَبَاحِثَ عَنْ عِلْمِ العَقِيدَةِ، وَهُو مَبْحَثٌ مِنْ

الأَهَمية فِي حَـيَاة الإِنْسَان بمكَان ولا غنًى للمُسْلِم عَـنْهُ بحَال منَ الأَحْوَال، كَيْفَ وَهُوَ أَسَاسُ الدِّينِ وَسَبَبُ سَعَادَة الإِنْسَان، وَالقَضـيَّةُ المَصِيرِيَّةُ فِي حَـيَاته، فَهذَّبنَـا مَبَاحِثَ العَقِيدة لِلتسْهِيلِ عَلَى القَارِئ وَطَالبِ الْعِلْمِ.

و قَدْ جَـاءَتْ هَذه الجُدَاوِلُ فِي قَـالَب جَديد، وَحُلَّة قَشِـيبَة، ونُـصُوصٍ مَضْـبُوطَةٍ بِالشَّكْلِ، وَمُخَرّجة وَمَعْزُوَّة إِلى مَصَادِرِهَا وَمَظَانِّهَا فِي الكُتُبِ الأَصْلِيةِ.

وقد اشتمل على المباحث التالية:

(الفقه): فقه الطهارة ــ فقه الصلاة ــ فقه الزكاة ـ فقه البيوع ـ فقه الجراح والقود والديات والقسامة ـ فقه الصوم ـ فقه الحـج.

(أصول الفقه) :

١ ـ مقدمات متعلقات الحكم.	٢ ـ قضايا متعلقة بأصول الفقه.

٣ ـ أدلة الأحكام المتفق عليها .	٤ ـ أصول مختلف فيها.

٥ ـ تابع أصول مختلف فيها.	٦ ـ القياس.

٧ ـ القياس «الركن الرابع العلة».	٨ ـ طرق استنباط الأحكام والقواعد.

٩ ـ تابع طرق استنباط الأحكام والقواعد.

١٠ ـ القواعد اللغوية الأصولية.	١١ ـ تكملة المباحث اللغوية.

(القواعد الفقهية) : وفيه عشرون قاعدة من قواعد الفقه.

(العقيدة) : فيه ستة عشر مبحثًا من مباحث العقيدة كتوحيد الله والرسالة والملائكة والقضاء والقدر وغير ذلك من مباحث العقيدة.

(الفـرق والملل) (علوم القـرآن) (علم التـجـويد) (علم مـصطلح الحـديث) (علم التخريج والتعرف على كتب الحديث) (علم النحو).

فَلأَجْلِ هَذَا أَنْصَحُ طَـلَبَةَ العِلْمِ اليَومَ أَنْ يَأْخُـذُوهُ بِقُوَّة ويَدْرُسُـوهُ جَيِّدًا وَيَتَـدَارَسُوا فُصُولَهُ، فَهُوَ حَرِيٌّ بِذَلكَ وَخَليقٌ بِه، وَأَسْأَلُ الله تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَهُ عَمَلاً خَالصًا لوَجْهه، وَأَنْ يُثَقِّلَ بِهِ مَـوَازِينَ وَالِديَّ وَمِيزَانِي يَوْمَ تُوضَعُ المَوازِينُ القِـسْط لِيَومِ القِيَامَـة فَلا تُظْلَمُ

نَفْسٌ شَيَئًا، إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

أ ـ عنوان السلسلة: العلوم الشرعية.

ب ـ اسم الكتاب: القول السديد في بعض مسائل الاجتهاد والتقليد «تحقيق».

جـ ـ رقم السلسلة: ٣٣ .　　　　د ـ الرقم الفني: ٢

هـ ـ تعريف الكتاب:

هذه الرسالة لمؤلفها العلامة الشيخ محمد بن عبد العظيم المكي الحنفي، الرومي الأصل، المولود بمكة المكرمة سنة ٩٩٦ هـ والمتوفى بها أيضًا سنة ١٠٦١ هـ ـ رحمه الله ـ من خير الرسائل التي دونت في هذا الموضوع، وأكثرها وضوحًا ويسرًا لفهمه وتقريره. أما موضوعها: فمسألة كثر فيها الجدل عند طلبة العلم وهي قضية «الاجتهاد والتقليد» وقد قرأتها قراءة بحث ودراسة على شيخنا الفاضل العلامة عبد الفتاح أبو غدة، وقد شعرت في نهاية القراءة أن الشيخ يود أن تطبع هذه الرسالة ويعتني بها، فعقدت النية في نفسي على ذلك ــ إن أتيحت لي الفرصة والوقت، وحصلت على نسخ للمخطوطة ــ وإدخالاً للسرور على قلب شيخنا الفاضل الرباني، وقيامًا بحق العلم، وخدمة لأهله في تحقيق هذه المسألة المهمة في حياتنا العلمية، والتي ذهب فيها طلبة العلم بين إفراط وتفريط، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم !!.

فحرصت على بيان ما غمض فيها، وشرح ما اختصر المؤلف ذكره، مع تحقيق للمسائل الفقهية التي ذكرها المؤلف للتدليل على ما يقول.

نسأل الله العلي القدير أن يصلح سرائرنا، وينير بصائرنا، ويصون أدلتنا من الغلطات، وألسنتنا من الفلتات، وأقلامنا من الشطحات، وأقدامنا من الزلات، ويطهر قلوبنا من آفات التعصب وسموم الشهوات، الحمد لله رب العالمين.

أ ـ عنوان السلسلة: العلوم الشرعية.　　ب ـ اسم الكتاب: المرشد الوثيق.

جـ ـ رقم السلسلة: ٣٤　　　　د ـ الرقم الفني: ٣

هـ ـ تعريف الكتاب:

هذا الكتاب يجمع بين هدفين ساميين:

أحدهما: الإرشاد إلى أصناف الكتب الفقهية تبعًا لموضوعاتها وما تراد له.

ثانيهما : تلخيص القواعد المثلى لإخراج النصوص محققة موثقة.

تقرأ في هذا الكتاب :

ــ تعريفًا للفقه والأصول.

ــ نبذة عن حياة الأئمة الأربعة ــ رحمهم الله.

ــ كيف تُكوِّن مكتبة إسلامية في بيتك، وفق مراحل متدرجة إكمالاً للبناء الفكري والثقافي.

ــ كيفية كتابة البحث.

ــ كيفية تحقيق المخطوطات.

ــ الفهرسة العلمية للمكتبة الثقافية.

أ ـ عنوان السلسلة : العلوم الشرعية.

ب ـ اسم الكتاب : الكلمات المنهجية من كلام ابن تيمية.

جـ ـ رقم السلسلة : ٣٥ **د ـ الرقم الفني : ٤**

هـ ـ تعريف الكتاب :

وضع هذا الكتاب ليسد به ثغرة من الواجب على كل مسلم أن ينهض ليسدها، فالساحة الثقافية والدعوية بحاجة ماسة لهذه الكلمات، وخصوصًا بعد الصحوة الإسلامية المباركة التي أتت بأصحاب العلوم الحديثة لينضموا إلى قافلة العمل الإسلامي والدعوي، انطلاقا من شعورهم بالمسؤولية عن إعادة هذا الدين العظيم إلى الأرض، وكانت طبيعة الدراسة لدى هؤلاء الشباب في كليات الطب والهندسة وغيرها سببًا في تفويت فرصة الاطلاع الكافي على جوانب العلم الشرعي التأصيلي، ولذلك ذكرنا كلمات شيخ الإسلام ابن تيمية كلمات وتوجيهات، نقدمها لشباب الصحوة الإسلامية؛ لسد هذه الثغرة، ولتكمل لديهم نواقص العلم الشرعي، وتجيب عن كثير من مسائله العقدية والفقهية، فكانت هذه الكلمات التي اشتملت على ثلاثة

أصناف من التوجـيهات: (توجيـهات تأصـيلية، وتوجيـهات عقدية، وتوجـيهات فقهية).

ففى التوجيهات التأصيـلية: تناول المؤلف ثلاث عشرة مسألة بدأها بالأصول التى اعتمد عليها أهل السنة والجماعة، وخـصائص أهل السنة والجماعة الإيمانية والعقدية، والخصائـص الأخلاقية والسلوكـية، وختمـها بنظرة أهل السنة والجماعـة إلى البدع، ومعاملة أهل السنة والجماعة لأهل البدع.

وفى التوجيـهات العقدية: تناول ست مـسائل هامة بسط فيهـا القول عن أصول وقواعد يرجع لهـا المسلم فى يومياته واجتـهاداته، والخطأ المغفور فى الاجـتهاد، وأثر الصلاح في المفتى، والوسطية في العبادات، والانتماء المذهبي، والأعمال الصالحة بين الإعلان والخفاء.

وفي التوجيـهات الفقهية: تناول إحـدى وعشرين مسألة بدأها بتـقديم تجربة ابن تيمية في تأليف القلوب، ثم تناول البسملة من القرآن، والدعاء والذكر، والقنوت في الفجـر والوتر، وقيام رمضــان، ثم ختم برؤية الهلال وهل يلزم جمـيع بلاد الإسلام الصيام برؤيته في بلد معين.

أ ـ عنوان السلسلة: العلوم الشرعية.

ب ـ اسم الكتاب: تهذيب فتح الباري للباحث والقاري.

جـ ـ رقم السلسلة: ٣٦   د ـ الرقم الفني: ٥

هـ ـ تعريف الكتاب:

هذا الكتاب يتكون من اثني عشر مجلدًا، فيه خدمة للفتح الذي لا هجرة بعده، وهي محاولة لنقله من كتابٍ يعمد إليـه الباحث والقارئ حينما تَعِنُّ له مسألة يريد أن يتعـرف فيهـا على ما ذكر ابن حـجر في الفتح، فكانت هذه المحـاولة، وهي إخراجٌ جديد للـفتح بصورة يسـهل على القارئ القـراءة والاطلاع فيـه ولو من باب الثقـافة والاطلاع، وقد كـان الدافع فيه هو تحـرير المسائل الفقهـية التي ذكرها ابن حـجر في الفتح وإحـالتها إلى مـواطن وجودها في كتـب المذاهب، كما أن هذا الكتـاب يخدم جميع الأحاديث التي ذكرها ابن حجر في الفتح من خلال ذكر الحكم للحديث الوارد

في الشرح، بإثبات ما ذكره الشيخ المحدث نبيل يعقوب البصارة في كتابه أنيس الساري في تخريج أحاديث فتح الباري، وقد اكتفينا بذكر الحكم ورقم الحديث في الأنيس ليسهل الرجوع إليه حين الاحتياج للتفصيل.

أ ـ عنوان السلسلة : العلوم الشرعية. **ب ـ اسم الكتاب : المذهب في تدريس المذهب.**

جـ ـ رقم السلسلة : ٣٧ **د ـ الرقم الفني : ٦**

هـ ـ تعريف الكتاب :

هذا الكتاب ثمرة مطالعتنا وتدريسنا لكتاب «زاد المستقنع» لمؤلفه موسى بن محمد بن أحمد بن موسى الحجاوي المتوفى سنة ٩٢٨ هـ على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل ــ رحمه الله، وقد اقتصرنا فيه على شرح كتاب العبادات، آملين أن نبني جسرًا بين متون العلماء وطلبة العلم ؛ ليسهل عليهم حفظ أصول المذاهب.

ومتن الزاد على مذهب الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ متن من عدة متون في المذهب، وقد اختص كتاب متن الزاد من قبل طلبة العلم والعلماء بالشرح والبيان والتعليم والتدريس في المعاهد والكليات في الجزيرة العربية في الفترة الأخيرة؛ مما أوجد له قبولاً خاصًا في الفتيا والتدريس، وقد تناوله العلماء بالشرح والبيان، وبيان مستنداته من الكتاب والسنة وأقوال العلماء، فخرج بصور متعددة منها: «الروض المربع شرح زاد المستقنع» للعلامة منصور بن يونس البهوتي، ثم حاشية ابن القاسم على الروض المربع.

ثم جاء بعد ذلك العلامة محمد بن صالح بن عثيمين وقام بتدريسه وشرحه في جامعة الإمام محمد بن سعود. وقام على ترتيبه وتبويبه وإخراجه بإذن من الشيخ ــ رحمه الله ــ أستاذان كبيران هما : الدكتور: سليمان بن عبد الله بن حمود، والدكتور: خالد علي بن محمد المشيقح.

حيث أجاز لهم الشيخ التدريس، فأخرجوا هذا الشرح بصورة زاهية جميلة، وتحقيق علمي كبير تحت مسمى الشرح الممتع على زاد المستقنع.

وعندما نظرت إلى هذا الجهد وجدت من الوفاء للشيخ الوالد محمد بن صالح

ابن عثيمين ــ رحـمه الله ــ وكذلك للإمام أحمد ــ رحـمه الله ــ صاحب المذهب الذي جعله الله ــ عـز وجل ــ قدراً من أقـداره في حفظ عقـائد المسلمين، وبعد أن دَرّستُ كـتاب العـبـادات وجدت عـندي مجـمـوعة من الدروس قـمت بتـرتيـبهـا وتنظيمها، مستفيداً من «الشرح الممتع» وكذلك «الروض المربع» و «حاشية ابن قاسم»، وذلك حتى يسهل تناوله من أئمة المساجد ومن يرتادون البلاد الأوربية، وكذلك تيسيراً وتقريبًا لطلابنا في أسفارهم حتى يكونوا على بينة من دينهم وشريعة ربهم.

وقد حاولت ــ جهدي ــ أن أصل فيـه إلى الحد الفاصل بين الاختصار المخل والإطناب الواسع، والعصمة فقط لكتاب الله تعالى ــ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

نسأل الله العصمة من الزلل، والحمد لله أولاً وآخراً.

أ ـ عنوان السلسلة : العلوم الشرعية. ب ـ اسم الكتاب : فقه المرأة (من المهد إلى اللحد).

جـ ـ رقم السلسلة : ٣٨ **د ـ الرقم الفني : ٧**

هـ ـ تعريف الكتاب :

هذا الكتاب يؤكد أن النسـاء شقائق الرجال، وأن المرأة مطالبة بأن تقـيم العبودية لله تعالى كالرجل، وهي داخلة في عـموم قوله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ (١).

والمرأة المسلمة العـالمة بدينها الواعية لما يحيط بهـا البصيرة بأمـور الحياة هي التي تستطيع أن تدفع بعجلة الحياة الإنسانية إلى الطريق القويم.

والكتاب يعنى بالأمور الفقهية التي تخص المرأة، وقد جاءت أبواب الكتاب كالآتي:

١ ــ المرأة بين عدل الإسلام وجور الأديان.

٢ ــ حياة المرأة من الولادة إلى المراهقة إلى البلوغ والتكاليف الشرعية المتعلقة بها.

٣ ــ المساواة بين الرجل والمرأة في الإنسانية والمسؤولية الدينية.

٤ ــ خطاب التكليف للمرأة في القرآن والسنة، الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج.

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

٥ ــ الجهاد ودور المرأة فيه، وصور من حياة التابعيات في الجهاد.

٦ ــ نظام الأسرة في الإسلام، العلاقة الزوجية، عقد النكاح، الخطبة، المهر، ولاية النكاح، الكفاءة في النكاح، المحرمات من النساء، الرضاعة، الخلع، الطلاق، الظهار، الإيلاء، اللعان، العدة، الحضانة.

٧ ــ العزل والإجهاض والتلقيح الصناعي.

٨ ــ زينة المرأة. ٩ ــ تعدد الزوجات.

١٠ ــ النفقة.

١١ ــ التفرقة بين الرجل والمرأة في بعض الأحكام.

١٢ ــ الحقوق والحريات العامة للمرأة في الإسلام.

أ - عنوان السلسلة: وحدة أُمة.

ب - اسم الكتاب: وحدة أمة في إطار الكتاب والسنة.. نظرة واقعية (الرسالة الأولى).

جـ - رقم السلسلة: ٣٩ د - الرقم الفني: ١

هـ - تعريف الكتاب:

الأمنية الكبرى عند كل مسلم أن يتحد أهل القبلة تحت راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وهذا الكتاب خطوة على طريق وحدة فكرية بين علماء الأمة، مبرزًا خماسية رائعة تذلل كل العقبات في طريق الوحدة وهي: نجمع ولا نفرق، نعتذر لمخالفينا، نرفض الحزبية والسلبية، وحدتنا سلمية، نتحمل الهمز واللمز حتى نصل إلى الغاية وهي: إيجاد وحدة فكرية لأهل السنة والجماعة.

والكتاب يحتوي على:

١ ــ الحركة السلفية.. والإخوان.. مع مشروع وحدة الأمة.

٢ ــ ثلاثية الثوابت.

٣ ــ خماسية تذليل العقبات.

٤ ــ أربعة عشر ضابطًا للصحوة الإسلامية.

٥ ــ أصل عظيم نحن عنه غافلون.

٦ ــ أئمة كبار يوسعون دائرة أهل السنة والجماعة.

٧ ــ دلائل منهج وحدة الأمة: التوسط، الوضوح في التلقي للتنفيذ، رد المتشابه إلى المحكم، التقليد في العقيدة، ذم الخوض في علم الكلام، طريق السلف أسلم وأحكم.

٨ ــ مسائل تطبيقية على دلائل منهج وحدة أمة: رؤية الله تعالى، ختم النبوة بالنبي ﷺ، الإيمان بالقدر، الشفاعة، مسألة التكفير.

٩ ــ الحمد لله.. الكبار متفقون: مقارنة بين شيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام الشاطبي، والإمام حسن البنا ــ رحمهم الله.

أ ـ عنوان السلسلة: وحدة أُمة. **ب ـ اسم الكتاب: تعظيم الله جل جلاله.**

جـ ـ رقم السلسلة: ٤٠ **د ـ الرقم الفني: ٢**

هـ ـ تعريف الكتاب:

هذا الكتاب خطوة على طريق وحدة فكرية بين علماء الأمة، والتي تبدأ من الوحدة الفكرية العقدية، فمن المسلَّمات المعروفة أن الأصل الأصيل في حياة المسلم هو تعظيم الله سبحانه وتعالى بما يليق بجلاله سبحانه وتعالى.

فكان من الواجب تجلية الأمر حتى لا يختلط الأمر على شباب الدعوة، معتمدين بذلك على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وأقوال السلف ــ رضوان الله عليهم.

والكتاب يحتوي على:

أولاً: المسائل المهمة في معتقد أهل السنة في الأسماء والصفات:

أ ــ ما يجب على المسلم اعتقاده على وجه الإجمال والتفصيل.

ب ــ المنتسبون إلى السنة بين التنازع والاعتصام بالكتاب والسنة.

جـ ــ مسائل علمية يسع الخلاف في بعضها ولا يسع في البعض الآخر.

د ــ الخلاف في المسائل العملية والخبرية.

هـــ التأويل من المسائل المتنازع فيها مع التطبيق العملي لصفة اليد.

و ــ منهج السلف ليس حكرًا على أحد.

ثانيًا : قصة الخلاف في مبحث الأسماء والصفات وتأصيلها.

ثالثًا : قواعد ومصطلحات وتساؤلات في مبحث الأسماء والصفات:

أ ــ احترام الأئمة وتقديرهم.

ب ــ نثبت ما أثبته النبي ﷺ لربه سبحانه بالأحاديث الصحيحة، الاستواء والمعية، الابتعاد عن الكلام الذي فيه لبس، القرآن كلام الله سبحانه وتعالى، كيفية التعامل مع آيات الأسماء والصفات، ذم العلماء لعلم الكلام، الأشاعرة وأهل الحديث، العلماء الدعاة في العصر الحديث يتعاملون مع آيات وأحاديث الصفات بالإثبات والتسليم، خماسية ابن تيمية في فهم موضوع الأسماء والصفات، مفاهيم عقدية من الرسالة المدنية لشيخ الإسلام ابن تيمية، أهل الحديث هم زينة الدنيا وعندهم من الخير والجمال ما عند الناس.

رابعًا: المصطلحات المستخدمة في مباحث الأسماء والصفات.

أ ـ عنوان السلسلة : وحدة أُمة. **ب ـ اسم الكتاب: توقير الرسول وتعظيمه.**

جـ ـ رقم السلسلة : ٤١ **د ـ الرقم الفني : ٣**

هـ ـ تعريف الكتاب :

في هذا الكتاب حديث عن حق رسول الله ﷺ من توقيره وتعظيمه ونصرته واتباع سنته، من خلال مباحث شائقة يعنى بها كل مسلم ومسلمة، وصدق الله العظيم: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ (١).

والكتاب يحتوي على:

أولاً: النبي ﷺ بين المغالاة والمجافاة وسط المسلمين، فن المديح النبوي بين التوسط

(١) الأحزاب : ٢١ .

والغلو، الاحتفال بالمولد النبوي بين السنية والبدعية، التوسل، الاستغاثة، التصوف.

ثانيًا: مصطلحات: الزهد، الفناء، الكرامات، السماع.

ثالثًا: السبحة. **رابعًا**: الصحابة وآل البيت.

أ - عنوان السلسلة: وحدة أمة.

ب - اسم الكتاب: المستخلص القويم شرح الأصول العشرين.

جـ - رقم السلسلة: ٤٢ **د - الرقم الفني: ٤**

هـ - تعريف الكتاب:

سياحة علمية أصولية وتوجيه مصحوب بالدليل الصحيح من الكتاب والسنة وبيان لدستور وحدة المسلمين من خلال تناول أصول فهم الإسلام والمسماة بالأصول العشرين، بينّا مكنون أسرارها من خلال النظر في كتاب الله عز وجل وصحيح سنة الرسول ﷺ، ثم التحليق حول كتب التفسير وشرح السنة النبوية مع التشبع بما في كتب العقيدة السليمة والطريقة المستقيمة طريقة أهل السنة والجماعة.

فجاء عرض هذه الدراسة جامعًا بين مادتي القديم والحديث، فظهرت الواجبات الملقاة على عاتق الدعاة إلى الله تعالى، المجاهدين في سبيله، كما اشتملت على المعلومات المفيدة والنصائح المهمة.

كما بينت هذه الأصول المرجعية للمسلم وضوابط فهمه للعبادة والمجاهدة وبيان لموقف الإسلام من البدع وأصحابها، ورأي العلماء في الاجتهاد والتقليد، وختمناها ببيان لقضية من أخطر القضايا ألا وهي قضية تكفير المعين.

وختامًا فالكتاب لا غنى لكل دارس عنه، فضلاً عن الدعاة العاملين وشباب الصحوة الإسلامية المخلصين، ووفقنا الله وإياكم إلى ما يحب ويرضى.

أ - عنوان السلسلة: وحدة أمة. **ب - اسم الكتاب: الربانيون.. الحقيقة والمنهج.**

جـ - رقم السلسلة: ٤٣ **د - الرقم الفني: ٥**

هـ - تعريف الكتاب:

في زمن عزت فيه القدوة، وأصبحت المثل العليا الحقيقية عملة نادرة، وأصبح دعاة الأهواء والفتن من أهل الدنيا يلمعون بعضا منهم؛ ليطرحوهم كمثل عليا وكقدوة للناس ليبعدوهم عن الهدف الذي خلقوا لأجله، وأنشئوا وفطروا لتحقيقه، ألا وهو عبادة الله.

في هذا الزمن المتلاطم الأمواج يأتي هذا الكتاب، لا لينظر ويطرح أفكارًا ومعلومات فحسب، إنما ليوجد جيلاً من القادة الربانيين على أرض الحقيقة والواقع، ويقدم أنموذجًا عمليًا حيًا تفصيليًا لكل الدعاة إلى الله ـ سبحانه وتعالى، ويكون دليلاً واضحًا لكل من أراد أن يسير على درب الربانية الحقة لله ـ سبحانه وتعالى.

فمن أراد العلم والعمل، والفعل والمثل، فهذا الكتاب (الربانيون.. الحقيقة والمنهج) دال ومذكر ومعين له ليصل إلى ما لم يصلوا إليه من الغاية والأمل، يدل على الصراط المستقيم، ويذكر بمن قبله من الصادقين والمتقين، من خيرة السلف الصالحين.

كتب تحت الإعداد والطباعة

أ - عنوان السلسلة: بيت الدعوة. **ب - اسم الكتاب: ثلاثيات السلوك.**

جـ - رقم السلسلة: ٤٤ **د - الرقم الفني: ٢٠**

هـ - تعريف الكتاب:

كلمات وأمثال، قيم ومعان، حرصنا على ذكرها وجعلها بين يدي المسلمين بطريقة محببة إليهم، وبأسلوب مشوِّق مع الربط ليومياتهم من خلال اختيار ثلاثية منتقاة من الأمثال الشعبية، وإرجاعها إلى أصولها عند العرب، وحرصنا على استنباط المعاني التربوية والقيم المجتمعية منها.

وكذلك أيضًا اخترنا ثلاثية أخرى من الكلمات الشعبية الخليجية لنرجعها إلى أصولها العربية، ونستلهم من بين طياتها المعاني المجتمعية، وإتمامًا للموضوع نظرنا في كتب غريب الحديث لنأخذ ثلاثية أخرى مما صح في هذا الباب لنعمل أيضًا على إسقاطها على أرض الواقع في البناء المجتمعي التربوي.

فجاء الكتاب مفعمًا بالتوجيهات المجتمعية المبنية على الكتاب والسنة، والمدعمة بأقوال السلف، والمستفاد في بيانها مما ورد في كتب الأدب من المنثور والمنظوم.

وحري بكل أب وأستاذ في الجامعة أن يجعل في مقدمة حديثه مع أبنائه أو طلابه مقدمة إيمانية تربوية مأخوذة من تلك الثلاثيات فهي كنز وافر مما كتب في كتب السلوك عند سلف هذه الأمة.

أ ـ عنوان السلسلة : بيت الدعوة. **ب ـ اسم الكتاب : البناء السلوكي في القرآن الكريم.**

جـ ـ رقم السلسلة : ٤٥ **د ـ الرقم الفني : ٢١**

هـ ـ تعريف الكتاب :

إن القرآن الكريم كتاب عظيم، لم ولما ولن تعرف البشرية كتابًا جمع من الخير لهذه البشرية جمعاء مثل ما جمعه هذا الكتاب الكريم، وإن من أهم القضايا التي اهتم القرآن الكريم بها وأكد عليها هو تصحيح سلوك الإنسان في كل شؤون حياته ومعاملاته في الحياة الدنيا؛ فلهذا عمدنا إلى القرآن الكريم لنغرف من معينه العذب الصافي، ونرشف من شهده الخالص الشافي، فنظرنا ما فيه من آيات يظهر فيها الاهتمام الواضح بسلوك الإنسان، فأبحرنا معها في خضم كتب التفسير؛ لنبينها ونفسرها ونظهر كل ما يتعلق بالسلوك الذي تتحدث عنه الآية. وقد اقتصرنا على بيان البناء السلوكي في السور التي جاء في فضلها نصوص من السنة الصحيحة، وكذلك استرشدنا بما كتبه (محمد طاهر) في كتابه (سمط الدرر في ربط سور الآيات والسور وخلاصتها المختصر لمن أراد أن يتذكر أو يتدبر) في الوقوف على مجمل ربط سور القرآن الكريم بما ورد في سورة الفاتحة، فجاء هذا الكتاب مرشدًا ومربيًا ومعلمًا ودالاً لكل من أراد أن تكون حياته وفق ما أمر به ربنا سبحانه وتعالى ونبينا ﷺ.

أ ـ عنوان السلسلة : العلوم الشرعية.

ب ـ اسم الكتاب : المجالس المفيدة للحياة السعيدة.

جـ ـ رقم السلسلة : ٤٦ **د ـ الرقم الفني : ٨**

هـ ـ تعريف الكتاب :

هي مجموعة مباحث حياتية يحتاجها الإنسان في يومياته جمعت ثلاثة مواضيع وهي:

المبحث الأول بعنوان: «الكلمات الميسرة في السفر والحاضرة» فيها بيان وتنبيه على استثمار الوقت في الطاعة والعبادة، بما أن الصلاة هي عماد الدين ولها شأن عظيم في الإسلام لا تصل إليها أي عبادة أخرى، فقد بحثت الصلاة على الراحلة فرضها ونفلها في السفر الطويل والسفر القصير وفي الحضر، وذكرت أقوال العلماء في ذلك مع الأدلة ومناقشة الأدلة وطريقة الصلاة في السيارة والطائرة والسفينة، فمن أراد أن يستثمر وقته كله في الطاعة والعبادة فليقرأ هذه الرسالة سيجد فيها بغيته وطُلبته إن شاء الله.

والمبحث الثاني بعنوان: «الأقوال السائرة للمرأة الحائرة» وهي مجموعة أقوال للعلماء موثقة في كل ما تحتاجه المرأة من مسائل فقه العبادات الخاصة بها.

وأما المبحث الثالث فهو بعنوان: «تحرير المسألة في الحيل الجائرة» وهي كلمات في الحيل الشرعية منها والمحرمة مع مدخل فيه بيان لكيد الشيطان وتحايله على الإنسان، وتطبيق المبحث على معاملة (التورق).

أ - عنوان السلسلة: العلوم الشرعية.

ب - اسم الكتاب: الرفيق إلى البيت العتيق.

جـ - رقم السلسلة: ٤٧ **د - الرقم الفني: ٩٠**

هـ - تعريف الكتاب:

لقد أكرمني الله تعالى بأن وفقني وسهل أمري ورفقتي للذهاب للحج لبيت الله الحرام أكثر من أربعين مرة، نسأل الله الزيادة والقبول والصدق والإخلاص، ولقد كان لنا في هذه الرحلات فقه وقصص وحكايات ومواقف ومكرمات أردنا أن نضعها بين يدي القارئ في صيغة قصة أدبية نشرح فيها كل ما ذكر من حوار بيننا في هذه الأسفار، فجاء الكتاب جامعًا لأحكام الفقه في المناسك، وقد أخذنا ذلك من كتابنا القديم «المنهاج فيما يحتاج إليه الحاج»، وقد أضفنا إليه الكثير مما يتبين لنا بعد كتابتنا لهذا الكتاب ثلاثين سنة مع بعض القصص التي حدثت لنا على وجه الإجمال؛ ليأتي هذا الكتاب رفيقًا لكل ذاهب إلى البيت العتيق.

أ - عنوان السلسلة : بيت الدعوة.

ب - اسم الكتاب : أحاديث فتح الباري تربية وبناء.

جـ - رقم السلسلة : ٤٨ د - الرقم الفني : ٢٢

هـ - تعريف الكتاب :

بعد إخراجنا لكتاب تهـذيبات فتح الباري والتخريجـات لأحاديثه والتي أخذناها من كتاب «أنيس الـساري» ظهر لنا كم كبيـر من الأحاديث التي يستلهم منهـا مسائل تربوية تعليمية، وآداب اجتماعية توجيهية حاولنا إثراءها والإضافة إليها مما يناسبها من أقوال الشراح لكتب السنة التي أوردت أحاديث الفتح في مصنفاتها؛ فعلى سبيل المثال مثلاً: ما ورد في سنن أبي داود نظرنا في شرحهـا في كتاب «عون المعبود»، ثم نظرنا في قصص الأنبيـاء وسيرة المصطفى ﷺ، وأقوال الأدباء فيمـا يخدم المعنى التربوي الذي استقيناه وأخذناه من الأحاديث؛ ليأتي الكتاب بعد ذلك رفيقًا لكل مربٍ يستعين بما فيه من معانٍ وأدلة في بنائه التربوي لأبنائه وطلبته.

أ - عنوان السلسلة : بيت الدعوة.

ب - اسم الكتاب : المستخلصات التربوية من الكتب السلفية.

جـ - رقم السلسلة : ٤٩ د - الرقم الفني : ٢٣

هـ - تعريف الكتاب :

كتب السلف كنوز أبدع علماء التحقيق والتـخريج في جعلها في متناول طلبة العلم بعد أن كـانت حبـيسة الأرفف والأدراج فـي خزائن المخطوطات في العـالم الإسلامي والغربي، وقد أسهمت الجامعات والرسائل العلمية في الدراسات العليا في ذلك الإبداع.

وقد نـظرنا فيـما هو موجـود في المكتـبة الإسلامـية فـرأينا أن نقوم بـتلخيـصه وإخراجه؛ ليســهل على الدعاة القراءة فيه والاطلاع على كنوزه، فعـلى سبيل المثال: كتاب (إغـاثة اللهفان من مصائد الشـيطان) لابن القيم جاء في الطبعة القـديمة (طبعة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بتحقيق محمد سيد كيلاني) وعدد صفحاتها أكثر من ٤٠٠ صفحة بالخط الصغير، وقد لخصناها وعنـونا لها بصفحات قليلة ركزنا فيها على موضـوع الكتاب، ولخصنا فـيها اسـتطرادات ابن القيم والتي هي بلا شك فيـها فائدة عظيمة، ولكنا حرصنا على أن نثبت في هذا الملخص ما يخدم عنوان الكتاب.

أ - عنوان السلسلة: من وحي التجربة.

ب - اسم الكتاب: المنهج القرآني بين التفصيل الفردي والمجمل المجتمعي .

جـ - رقم السلسلة : ٥٠ د - الرقم الفني : ٩

هـ - تعريف الكتاب :

إن القارئ والمتدبر في القرآن الكريم عندما ينظر في كتاب الله سيلاحظ أن القضايا الفردية قد جاء فيها كم كبير من التفصيل، فمسائل الحيض ومسائل الميراث ــ على سبيل المثال ــ قد جاءت مفصلة وبينتها السنة النبوية أكثر تفصيلاً وبيانًا.

أما القضايا المتعلقة بالمجتمع في المسائل السياسية والاقتصادية، فقد جاءت على شكل كليات فيها سعة للبحث والاستنباط؛ لتعطي المجتمعات في تطورها البشري مرونة في التعامل مع تطبيق الشريعة الإسلامية، فجاءت قضايا العدل، وعدم الظلم، والشورى، وتحريم الربا والسحت وأكل مال اليتيم بصور مجملة فصل فيها الفقهاء بعد ذلك في المباحث الفقهية اليومية والسياسات الشرعية.

أ - عنوان السلسلة : من وحي التجربة.

ب - اسم الكتاب : الخرائط الفنية في الاحتياجات الموسمية.

جـ - رقم السلسلة : ٥١ د - الرقم الفني : ١٠

هـ - تعريف الكتاب :

إن مما ينبغي على إمام المسجد في بيت الله، وعلى الآباء مع الأبناء أن يعايشوا من معهم في أيامهم وشهورهم وسائر أوقاتهم في ظل حوادث ومواسم الحياة الإسلامية التي تتكرر في كل عام من مواسم تعبدية كرمضان والعشر الأول من ذي الحجة وست شوال.

وكذلك المسائل الفقهية كالزكاة والحج، وأيضًا الغزوات والسير كبدر وأحد وسائر الفتوحات الإسلامية، وكذلك الاحتياجات السلوكية، فهناك كم هائل من الاحتياجات التي لابد من العيش فيها في ظلال تاريخ هذه الأمة وتشريعاتها؛ لتكون قضية الإسلام حية بين ظهرانينا.

أ - عنوان السلسلة : من وحي التجربة.

ب ـ اسم الكتاب : أصحاب الحق بين فتن الخارج والداخل.

جـ ـ رقم السلسلة : ٥٢ د - الرقم الفني : ١١

هـ ـ تعريف الكتاب :

هي رسالة للدعاة تنير لهم الطريق بضرب المثال ممن سبقهم من الدعاة من الأنبياء والرسل والخلفاء الراشـدين وكبار التابعـين والأئمة المجتهـدين ومن سار على هداهم إلى وقتنا الحاضر.

وقد اخترت من الرسل أولي العزم ويوسف لخصوصية قصته وتميز محنته، وأطنبت التفصيل في المعـاناة والألم الداخلي والخارجي في سيرة النبي ﷺ، واخترت من كل قرن أربعة أعلام تميزت سيرتهم بمحن وفتن داخليـة وخارجية جعلت سيرتهم مثالاً يحتذى ويقتدى به.

أ - عنوان السلسلة : من وحي التجربة. ب ـ اسم الكتاب : هذا من فضل ربي.

جـ ـ رقم السلسلة : ٥٣ د - الرقم الفني : ١٢

هـ ـ تعريف الكتاب :

إنها جولة في حياتي امتدت طوال أربعين سنة مذ كان عمري عشرين إلى اليوم، وقد بلـغ عمري السـتين، ذكرت فـيهـا ما أكـرمني الله به من توفيـقه وتسـديده في مـجالات العطاء الثـقافي والفكـري والدعوي والإعـلامي والسيـاسي، فهي ليـست مذكـرات ولا ذكريات ولكنها إعـلان بصوت مرتفع عن فـضل الله عليَّ في سنواتي التي مضت، ثم ختمتها بتصوراتي عـما أود أن أنهي به حياتي، سائلاً الله سبحانه وتعالى أن تكون إعلان شكرٍ للمنعم وحده وبيانًا للدعاة ألا يهدروا أعمارهم سدىً.

هذا من فضل ربي . . .

أ - عنوان السلسلة : بيت الدعوة.

ب ـ اسم الكتاب : حكايات الناصحين لشباب العشرين .

جـ ـ رقم السلسلة: ٥٤ د - الرقم الفني : ٢٤

هـ ـ تعريف الكتاب :

هذا الكتاب هـو سلسلة من الحكايات مبناها على مـقطوعات أدبيـة أو نثرية أو شـعرية، أردناها خطابًا دعـويًا تربويًا أبويًا، لشـرائح الأسـرة المختلفـة من الشبـاب والشابات، والأبناء والبنات، والمتزوجين والمتزوجات.

عنونا كل قطعة بعنوان يُعبر عن الفكرة المستخلصة من الحكايات المختارة، أضفنا إليها شرحًا أدبيًا توجيهيًا في أسطر قليلة، تحقق المراد بأسلوب بسيط.

وكتـابنا (حكايات الناصحين لشبـاب العشرين) هو جـزء من هذه السلسلة وهو حكايات هادفـة وموجهـة إلى أبنائنا الذين في سن العـشرين، والتي تعـتبر مـرحلة حساسـة من عمر شبابـنا وأبنائنا، فأتت هذه الحكايات لتدلهم على الطريق المسـتقيم الذي فيه كل الدلائل التي توصلهم إلى الخير والفلاح، وكذلك فيه كل المنبهات التي تبعدهم عن طريق الشر والهلاك.

أ ـ عنوان السلسلة: بيت الدعوة.

ب ـ اسم الكتاب: حكايات الحريصين لشابات العشرين.

جـ ـ رقم السلسلة: ٥٥ د ـ الرقم الفني: ٢٥

هـ ـ تعريف الكتاب:

هذا الكتاب هـو سلسلة من الحكايات مبناها على مـقطوعات أدبيـة أو نثرية أو شـعرية، أردناها خطابًا دعـويًا تربويًا أبويًا، لشـرائح الأسـرة المختلفـة من الشبـاب والشابات، والأبناء والبنات، والمتزوجين والمتزوجات.

عنونا كل قطعة بعنوان يُعبر عن الفكرة المستخلصة من الحكايات المختارة، أضفنا إليها شرحًا أدبيًا توجيهيًا في أسطر قليلة، تحقق المراد بأسلوب بسيط.

وكتابنا (حكايات الحريصين لشابات العـشرين) هو عبارة عن لؤلؤة من عقد هذه السلسلة، وهو موجه إلى بناتنا في عـمر العشرين، والذي غالبًا مـا تكون فيه البنت في الجامـعة، فأتت هذه الحكايات لتـضرب لها المثل الـعليا ممن هن في مثل عـمرها وسنها، فتتعرف منهن ومن قصصهن وحكاياتهن على كل ما ينفعها ويزينها، وكل ما يُحَصِّنها مما يضرها ويشـينها، فحريّ بكل بنت أن تقرأه وتعمل به، ففـيه خير عظيم

ونفع عميم إن شاء الله تعالى.

أ - عنوان السلسلة: بيت الدعوة.

ب - اسم الكتاب: حكايات المجربين للمتزوجات والمتزوجين.

جـ - رقم السلسلة: ٥٦　　　　**د - الرقم الفني: ٢٦**

هـ - تعريف الكتاب:

هذا الكتاب هو سلسلة من الحكايات مبناها على مقطوعات أدبية أو نثرية أو شعرية، أردناها خطابًا دعويًا تربويًا أبويًا، لشرائح الأسرة المختلفة من الشباب والشابات، والأبناء والبنات، والمتزوجين والمتزوجات.

عنونا كل قطعة بعنوان يُعبر عن الفكرة المستخلصة من الحكايات المختارة، أضفنا إليها شرحًا أدبيًا توجيهيًا في أسطر قليلة، تحقق المراد بأسلوب بسيط.

وكتابنا هذا (حكايات المجربين للمتزوجات والمتزوجين) يحكي تجارب أزواج وزوجات، ومواقف تحصل بين كل متزوجين، وتبين التعامل الأمثل في هذه المواقف، فيكون عند كل زوج وزوجة زاد كبير لكل ما يمكن أن يطرأ على حياتهم في مستقبل الأيام، فيكون ذلك حصنًا منيعًا لأسرتهم، وسياجًا منيعًا لبيتهم وعائلتهم.

أ - عنوان السلسلة: بيت الدعوة.

ب - اسم الكتاب: حكايات المربين للآباء والبنين.

جـ - رقم السلسلة: ٥٧　　　　**د - الرقم الفني: ٢٧**

هـ - تعريف الكتاب:

هذا الكتاب هو سلسلة من الحكايات مبناها على مقطوعات أدبية أو نثرية أو شعرية، أردناها خطابًا دعويًا تربويًا أبويًا، لشرائح الأسرة المختلفة من الشباب والشابات، والأبناء والبنات، والمتزوجين والمتزوجات.

عنونا كل قطعة بعنوان يُعبر عن الفكرة المستخلصة من الحكايات المختارة، أضفنا إليها شرحًا أدبيًا توجيهيًا في أسطر قليلة، تحقق المراد بأسلوب بسيط.

وكتابنا (حكايات المربين للآباء والبنين) هو حلقة من هذه السلسلة المباركة، وهو دستور واقعي للتعامل الراقي بين الآباء والبنين، يرشد الآباء للطرق المثلى في تربية أبنائهم من خلال تجارب الحكماء والمربين، وكذلك هو دليل للأبناء ليكونوا على قدر كبير من البر والاحترام والتقدير لآبائهم.

أ - عنوان السلسلة: بيت الدعوة.

ب - اسم الكتاب: حكايات المربيات للأمهات والبنات.

جـ - رقم السلسلة: ٥٨ **د - الرقم الفني: ٢٨**

هـ - تعريف الكتاب:

هذا الكتاب هو سلسلة من الحكايات مبناها على مقطوعات أدبية أو نثرية أو شعرية، أردناها خطابًا دعويًا تربويًا أبويًا، لشرائح الأسرة المختلفة من الشباب والشابات، والأبناء والبنات، والمتزوجين والمتزوجات.

عنونا كل قطعة بعنوان يُعبر عن الفكرة المستخلصة من الحكايات المختارة، أضفنا إليها شرحًا أدبيًا توجيهيًا في أسطر قليلة، تحقق المراد بأسلوب بسيط.

وكتابنا (حكايات المربيات للأمهات والبنات) هو دليل قصصي يعرف البنات بحقوق الأمهات وكيفية التعامل والتأدب معهن؛ فهن المعلمات والمربيات والمؤدبات، وكذلك هو مرشد للأمهات إلى الطريقة المثلى في تربية البنات وتأديبهن.

في الختام أقول: حسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، ما شاء الله لا قوة إلا بالله، توكلت على الله، واعتصمت واستعنت به، وفوضت أمري إليه، واستودعته ديني، ونفسي، ووالديَّ، وولدي، وزوجي، وإخواني، وأحبابي، وسائر من أحسن إلي، وجميع المسلمين وجميع ما أنعم الله به علي وعليهم من أمور الآخرة والدنيا، فإنه سبحانه إذا استودع شيئًا حفظه، ونعم الحفيظ.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

الفصل الأول
نقوش تربوية فى المشهد الاجتماعى

هذا الكتاب

سلسلة توجيهية تمثل نموذجًا دعويًا في حياة المسلم؛ تبين حقيقة الدنيا وكيفية التعامل معها في إطار نصرة الله والدعوة إليه، وهي كذلك موضحة لمنهج النجاح التربوي وأهمية المواصلة والاستمرار في الدعوة إلى الله، وتبين أيضًا أن في طريق السير إلى الله يكون التعلم من خلال الاستزادة من الفهم للكتاب والسنة، وكذلك من خلال التعلم من الأخطاء، وعدم التردد في الحركة، واتخاذ القرار، وعدم اليأس.

وأجد النجاح التربوي التكويني للداعية في نفسه ودعوته يكون في الالتفات إلى المجتمع لمعرفة طبيعة الصراع والتدافع بين الحق والباطل، ومن ثم معالجة الآثار الكبيرة التي حدثت للمجتمع من خلال عملية التغريب مثل التدني الأخلاقي للشباب، وعدم إحسان التعامل مع كبار السن وهم أهل العقل والتجربة.

والكتاب فيه بيان للمسلك التربوي الإيماني الدعوي، ومعالجة الإشكاليات التي تحدث في حركة الدعوة، ووضع المعايير المنهجية في علاجها.

وخاتمة الكتاب بيان للخواء الروحي وكيفية معالجته من خلال المنهج الشمولي للإسلام.

المؤلف

مؤسسة السماحة للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت - المنطقة التجارية رقم ٩ بلوك ١ مكتب ١٢.
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com